سراج السائرين

إلى منازل السعداء والموفقين

حقوق الطبع محفوظة

الطبعة الأولى

١٤٤٥ هـ / ٢٠٢٣م

ترقيم الإيداع: / ٢٠٢٣م

سراج السائرين

إلى منازل السعداء والموفقين

بحث موسع عن التوفيق ومعانيه وأسبابه وأعمال الموفقين
وصفاتهم التي كانت سببا في سعادتهم في الدنيا والآخرة

إعداد العبد الفقير إلى عفو ربه

عبد الوهاب بن علي باشا الدريهمي

غفر الله له ولوالديه

قرأه واثنى عليه وأذن بنشره والاستفادة منه
فضيلة شيخنا الوقور ووالدنا المربي

أبي عبدالله سليم بن عبدالله الخوخي سلمه الله

المجلد الأول

بسم الله الرحمن الرحيم

المُقَدِّمَةُ

وما توفيقي إلا بالله

الحمد لله نحمده ونستعينه ونستغفره ونعوذ بالله من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا من يهده الله فلا مضل له ومن يضلل فلا هادي له وأشهد ألا إله إلا الله وحده ربي لا شريك له وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله وصفيه من خلقه وخليله ﷺ.

أما بعد؛

فإني أحمد الله عَزَّوَجَلَّ الذي وفقني وأعانني علىٰ إكمال هذا البحث الذي بذلت فيه جهدي لأجمع فيه ما كنت قد تمنيته منذ فترة طويلة أن يجمع وذلك أني كنت أسمع كثيرًا ما يتكلم عن التوفيق وأسبابه وصفات أصحابه وأعمال الموفقين في الخطب والمحاضرات لأهل العلم وخاصة من أطباء القلوب من وعاظ وخطباء أهل السنة فرسان المنابر وأصحاب المحابر والدفاتر كم قد تكلموا وحثوا ورغبوا فيه فلله درهم وعلىٰ الله أجرهم فقلت في نفسي لماذا لا أفرغ من وقتي وأجمع ما تفرق في هذا الباب العظيم القدر ولما فيه من عظيم الثواب والأجر فاستعنت بالله فجعلت هذا الكتاب همي وشغلي بالليل والنهار رغبة في إفادة نفسي ونفعها أولًا ثم لمن أراد الله أن يكتب له النفع ليكون كتابًا نافعًا في بابه فإني لم أقف علىٰ كتاب قد جمع في

تقسيمات التوفيق وأسبابه وأوصاف أهله ومعناه وأعمال أهله من قبل وإنما هي عناوين ومواضيع مبثوثة في كتب الرقائق والزهديات والوعظ، فإن هذا الموضوع حريٌّ وجديرٌ بالعناية والاهتمام به كثيرًا في الدعوة إلىٰ الله علىٰ شتىٰ الوسائل؛ في المحاضرات والخطب والتأليف؛ لما له من الأهمية الكبيرة في إصلاح الناس، وترغيبهم في الاستقامة، ولما فيه من دلالاتهم علىٰ الخير والسعادة لهم في الدنيا والآخرة، ولهذا أسأل الله أن يجعل فيه القبول والنشر والبركة؛ لينفع اللهُ به المسلمين في الخطب والمحاضرات؛ فإنه يُعدُّ من قسم الرقائق والترغيب والترهيب، وعند ذكر حال الموفقين يدرك القارئ بمفهوم المخالفة أن حال من لم يوفق لهذه الأعمال فهو محروم مخذول، فإن حال الناس مختلف منهم موفق ومخذول، ومنعم عليه ومحروم، وما منهم من أحد إلا ويجد أنه موفق في عمل ومخذول ومحروم من الآخر، والناس يتفاتون في التوفيق والخذلان تفاوتـًا عظيما، قال تعالىٰ: ﴿إِنَّ سَعْيَكُمْ لَشَتَّىٰ ﴿٤﴾﴾ [الليل:٤] فكم تعرض العوارض، وتأتي الصوارف لكل واحد منا، فيجد من نفسه نشاطًا ورغبةً أحيانًا، وأحيانًا ينتابه من الفتور والخمول والكسل ما الله به عليم، يحرم بسببه بعض العبادات وكل هذه مؤثرات وعوائق تعوق العبد عن الإقبال والمسابقة في الخيرات، والله يوفق من يشاء بفضله، ويخذل من يشاء بعدله، نسأل الله العظيم رب العرش أن يتقبل ومنا، إنه جواد كريم.

وقد يسَّر اللهُ جمع جزأين في هذا الموضوع النافع، فأسأل الله تعالىٰ توفيقه لي وللقارئ الكريم للعمل به والانتفاع والاستفادة منه والحمد لله رب العالمين.

كتبه وجمعه العبد الفقير إلى عفو ربه

أبو محمد عبدالوهاب علي باشة الدريهمي

غفر الله له ولوالديه

الجزء الأول

أسباب التوفيق

تمهيد

اعلم -أصلحني الله وإياك- أن الله سبحانه وتعالىٰ قد فاضل بين عباده وجعل منهم الشقي والسعيد والقريب والطريد وجعل ما عنده لا ينال إلا برحمته ولا يستطاع علىٰ طاعته إلا بحوله وقوته وتوفيقه فمن شاء وفقه بفضله ومن شاء خذله بعدله والناس في هذه النعمة متفاوتون بين مقل ومستكثر، فمن أجل هذا مَن أُعطي حظه من الهداية والتوفيق فقد أُعطي أوفر الحظ وأعظم النصيب؛ فبهما يبلِّغه اللهُ المنازل العالية، والأماني الغالية، والدرجات الرفيعة في الإيمان والعمل الصالح؛ ليبلغ بهما أعالي الجنان، وينال من الله الرضا والغفران، فتكون درجته مع درجة الذين أنعم الله عليهم قال تعالىٰ: ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ مَعَ ٱلَّذِينَ أَنۡعَمَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلصِّدِّيقِينَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَٱلصَّٰلِحِينَۚ وَحَسُنَ أُوْلَٰٓئِكَ رَفِيقٗا ٦٩ ذَٰلِكَ ٱلۡفَضۡلُ مِنَ ٱللَّهِۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ عَلِيمٗا ٧٠﴾ [النساء:٦٩-٧٠].

فهي منزلة من هو سابق بالخيرات كما في سورة فاطر بعد أن قسم الله منازل العاملين وذكر تفاوت العباد في هذه النعمة ذكر الثلاث الدرجات فقال عَزَّوَجَلَّ: ﴿ثُمَّ أَوۡرَثۡنَا ٱلۡكِتَٰبَ ٱلَّذِينَ ٱصۡطَفَيۡنَا مِنۡ عِبَادِنَاۖ فَمِنۡهُمۡ ظَالِمٞ لِّنَفۡسِهِۦ وَمِنۡهُم مُّقۡتَصِدٞ وَمِنۡهُمۡ سَابِقُۢ بِٱلۡخَيۡرَٰتِ بِإِذۡنِ ٱللَّهِۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلۡفَضۡلُ ٱلۡكَبِيرُ ٣٢﴾ [فاطر:٣٢].

والمشهور عند المفسرين في معنىٰ كل درجة من هؤلاء كما ذكر العلامة ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ قال: «ثم قسمهم إلىٰ ثلاثة أنواع:

فقال: ﴿فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ﴾ [فاطر:٣٢] وهو: المفرط في فعل بعض الواجبات، المرتكب لبعض المحرمات.

﴿وَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ﴾ [فاطر:٣٢] وهو: المؤدي للواجبات، التارك للمحرمات، وقد يترك بعض المستحبات، ويفعل بعض المكروهات

﴿وَمِنْهُمْ سَابِقٌۢ بِٱلْخَيْرَٰتِ بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾ [فاطر:٣٢] وهو: الفاعل للواجبات والمستحبات، التارك للمحرمات والمكروهات وبعض المباحات»(١).

فالذي نشط نفسي وقوىٰ همتي وجعلني أبحث عن موضوع أذكر فيه جملة من أحوال وأخبار الموفقين، وأذكر من صفاتهم المجملة والمفصلة، حين وجدت تلك الصفات والأعمال والأسباب تناثرت مواردها، وكثر ذكرها، والإشارة إليها في كتاب الله تعالىٰ، فالمتأمل يجد أن الله -سبحانه- قد ذكر من أعمال الموفقين وأحوالهم وصفاتهم، يجد هذا مَن نوَّر اللهُ بصيرته، وهداه وألهمه للتدبر والتأمل في آيات الله تعالىٰ، كل هذا للحث والترغيب والحظ في الاهتداء بهديهم، كما قال تعالىٰ: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُ فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقْتَدِهْ﴾ [الأنعام:٩٠]، وقد يسر الله أن ضمنت من ذلك ما فتح الله به في هذا الكتاب الذي أسميته [**سراج السائرين إلى منازل السعداء والموفقين**]. راجيًا نفعه وثوابه والتوفيق لنفسي في العمل بما كتبت ونقلت

---

(١) تفسير القرآن العظيم (٦/٥٤٦).

ويجعلني منهم ويحشرني في زمرتهم يوم لا ينفع مال ولا بنون إلا من أتىٰ الله بقلب سليم.

فهذا الكتاب دليل وسراج بإذن الله لمن أراد أن يتعرف علىٰ هديهم وسيرهم إلىٰ الله لعله أن يقتدي بهم ويتأسىٰ بأعمالهم ويتصف بأوصافهم، فإن هؤلاء الموفقين هم الذين هداهم الله لصراطه المستقيم والحقهم بركب المنعم عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين وحسن أولئك رفيقًا.

فالله الله في تلك الأعمال والمجاهدة في الاتصاف بتلك الصفات لعل الله أن يجعلنا منهم ومعهم كما جاء عن عائشة رضي الله عنها أن رسول الله ﷺ قال: «**ثلاثة أحلف عليهن لا يجعل الله من له سهم في الإسلام كمن لا سهم له وأسهم الإسلام ثلاثة الصلاة والصوم والزكاة ولا يتولىٰ الله عبدًا في الدنيا فيوليه غيره يوم القيامة ولا يحب رجل قومًا إلا جعله الله معهم**»(١).

فمن وفقه الله تعالىٰ ورأىٰ من يتصف ويعمل أعمال الموفقين فإنه يحبه ويقتدي ويهتدي به، فالمرء مع من أحب وإن لم يعمل بعملهم كما جاء عن ابن مسعود قال: جاء رجل إلىٰ النبي ﷺ فقال: يا رسول الله كيف تقول في رجل أحب قومًا ولم يلحق بهم؟ فقال: «**المرء مع من أحب**»(٢).

---

(١) قال الألباني في «السلسلة الصحيحة» ٣/ ٣٧٦: أخرجه أبو يعلىٰ في «مسنده» (٢/ ٢١٦)، وقد أخرجه أحمد (٦/ ١٤٥)، والطحاوي في «المشكل» (٢/ ٥٠)، والحاكم (١/ ١٩ و٤/ ٣٨٤).

(٢) أخرجه البخاري (٥٧٠٢)، ومسلم (٤٧٧٩).

فصل

التوفيق والخذلان عند أهل اللغة

مما يعلم عندك أيها القارئ الكريم لاسيما إن كنت طالب العلم إنه هناك ارتباط وثيق بين الاسم والمسمىٰ وبين المصطلح اللغوي والشرعي، وما يدل كل منهما علىٰ الآخر بمدلولات الألفاظ التي لها من بديع المعاني وأسرار المباني، وفي اللغة العربية الفصيحة من هذا ما يجعلها أعظم اللغات وأوسعها، التي اختار الله كتابه الكريم أن ينزل بلغتها آية ومعجزة لأهلها، فهذا كله يجده القارئ المتأمل لأسرار هذه اللغة، ويقف علىٰ محاسنها في شتىٰ علومها، فرأيت أن أذكر في بحثي هذا فصلًا يعتني بذكر المعنىٰ اللغوي لكلمتي «التوفيق والخذلان» لأن هاتين الكلمتين هما الأساس في بناء هذا الموضوع، وهما اللبنتان المهمتان في تركيبه؛ لذا بدأت بذكر معناهما في أول فصل.

مادة «وفق»:

✍ **عن اللحياني**: ووفقه الله سبحانه للخير ألهمه وهو من التوفيق وفي الحديث لا يتوفق عبد حتىٰ يوفقه الله وفي حديث طلحة والصيد إنه وفق من أكله أي دعا له بالتوفيق واستصوب فعله واستوفقت الله أي سألته التوفيق

والوفق التوفيق وإن فلانًا موفق رشيد[١].

وفَّقه الله «توفيقًا»: سدده، و«وفق» أمره «يفق» بكسرتين من التوفيق[٢].

وتقول: لا يتوفق عبد حتىٰ يوفقه الله، فهو موفق رشيد[٣].

وفق: الوفاق الموافقة والتوافق الاتفاق والتظاهر ووافقه أي صادفه ووفقه الله من التوفيق واستوفق الله سأله التوفيق[٤].

وفق: وفق: وفقه الله وسدده الله.

وفقه للخير: ألهمه.

توفق: نجح مسعاه، كان مظهرًا لتوفيق الله وتسهلت له طرق الخير.

يقال: لا يتوفق عبد حتىٰ يوفقه الله.

استوفق: استيفاق: سأل الله التوفيق[٥].

وفق: والله يوفق عبده للطاعة وفي الطاعة

وهو يستوفق ربه للخير ويقال لا يتوفق عبد حتىٰ يوفقه الله تعالىٰ وإنه

---

(١) لسان العرب (٤٨٨٤/ ٦).
(٢) المصباح المنير (٣٣٤/ ١).
(٣) العين (٢٢٦/ ٥).
(٤) مختار الصحاح (٣٧٢٢/ ١).
(٥) المنجد في اللغة (٩٩٢/ ١).

لموفق رشيد[١].

مادة: خذل

خذل: خذل يخذل خذلًا وخذلانا، وهو تركك نصرة أخيك. وخذلان الله للعبد: ألا يعصمه من السوء[٢].

خذله يخذُلُه بالضمِّ خذلانًا بكسر الخاء ترك عونه ونصرته[٣].

خذله الله: ضلله، لم يعصمه من الشبه والسيئة فيقع فيهما «خذله الله فلم يميز بين الحق والباطل»[٤].

✍ **وقال ابن القيم** رَحِمَهُ ٱللَّهُ: وقد أجمع العارفون أن التوفيق أن لا يكلك الله نفسك وأن الخذلان أن يخلي بينك وبين نفسك[٥].

خذلت الرجل أخذله خذلًا وخذلانًا إذا تركت معونته[٦].

✍ **وقال النووي** رَحِمَهُ ٱللَّهُ: قال أصحابنا المتكلمون: التوفيق: خلق قدرة الطاعة، والخذلان خلق قدرة المعصية. انتهىٰ[٧].

---

(١) أساس البلاغة (٦٨٤/ ٣).

(٢) العين (٢٤٤ / ٤).

(٣) مختار الصحاح (٩٣٥/ ١).

(٤) معجم اللغة (٧١٠٥).

(٥) الفوائد (١٤١).

(٦) جمهرة اللغة (٥٨٢ / ١).

(٧) شرح النووي (١/ ١٧٢)، وهذا التعريف مخالف لقول أهل السنة ومنتقد عندهم؛ =⇦

وهذا التعريف مخالف لقول أهل السنة للتوفيق، وهو عند منتقد؛ إذ أن تعريف التوفيق كما سبق من كلام ابن القيم أنه الإعانة علىٰ الطاعة والخذلان عن المعاصي، وليس ما يقول الجبرية القدرية خلق القدرة؛ لأن القدرة موجودة عند المكلف، فليس الذي منعه عن الطاعة أو ترك المعصية عدم القدرة؛ بل هو الخذلان المتمثل في الكسل أو الملل أو أي مانع ناتج عنه، ولم تحصل له الإعانة علىٰ فعل الطاعة أو علىٰ ترك المعصية.

= إذ إن تعريف التوفيق كما سبق من تعريفه عند ابن القيم أنه الإعانة علىٰ الطاعة، والخذلان عن المعاصي، وليس خلق القدرة لأن القدرة موجودة عند المكلف علىٰ فعل الطاعة أو ترك المعصية، ولكنه لم يعان علىٰ الفعل للطاعة أو الترك للمعصية.

فصل

معاني التوفيق وأدلته من القرآن والسنة

لتعلم أخي القارئ الكريم أنك أن تدبرت النصوص الشرعية وتأملت فيها وجدت أن فيها من الأدلة التي جاءت في معاني التوفيق من القرآن والسنة وأن مفهومها وتفسيرها وردت في أدعية تفسر بالتوفيق والوقاية من الخذلان وقد جاءت في بعض ألفاظها مصرح بلفظ التوفيق وبعضها جاء بما في معنىٰ التوفيق.

❁ مثل قوله تعالىٰ: ﴿ قَالَ يَٰقَوۡمِ أَرَءَيۡتُمۡ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٖ مِّن رَّبِّي وَرَزَقَنِي مِنۡهُ رِزۡقًا حَسَنٗاۚ وَمَآ أُرِيدُ أَنۡ أُخَالِفَكُمۡ إِلَىٰ مَآ أَنۡهَىٰكُمۡ عَنۡهُۚ إِنۡ أُرِيدُ إِلَّا ٱلۡإِصۡلَٰحَ مَا ٱسۡتَطَعۡتُۚ وَمَا تَوۡفِيقِيٓ إِلَّا بِٱللَّهِۚ عَلَيۡهِ تَوَكَّلۡتُ وَإِلَيۡهِ أُنِيبُ ٨٨ ﴾ [هود:٨٨].

✍ **قال العلامة السعدي** رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «أي: وما يحصل لي من التوفيق لفعل الخير، والانفكاك عن الشر إلا بالله تعالىٰ، لا بحولي ولا بقوتي»(١).

❁ ومنه ما جاء عن عمر رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ قال: «كتب إلىٰ رسول الله ﷺ كتاب، فقال لعبد الله بن أرقم: «**أجب هؤلاء**»، فأخذه عبد الله بن أرقم فكتبه، ثم جاء بالكتاب فعرضه علىٰ رسول الله ﷺ فقال: «**أحسنت أصبت اللهم وفقه**». قاله

---

(١) تيسير الكريم الرحمن (٣٨٧/ ١).

لعبد الله بن الأرقم».

قال عمر: «فما زال ذلك في نفسي حتىٰ وليت، فجعلته علىٰ بيت المال[(١)].

۞ ومنه أيضًا ما جاء عن طلحة بن عبدالله رضي الله عنه قال: «كان النبي ﷺ إذا رأىٰ الهلال قال: «**اللهم أهله علينا باليمن والإيمان والسلامة والإسلام، ربي وربك الله والتوفيق لما تحب وترضىٰ**»[(٢)].

[١] من معاني التوفيق الهداية

فائدة: وكل هداية جاءت في القرآن بأي صيغة وردت فإن نسبها الله إلىٰ نفسه تعالىٰ فهي بمعنىٰ التوفيق والإلهام، وما أضافها الله إلىٰ نبيه ﷺ وإلىٰ الوحي والقرآن وإتباع السنة وطريقة النبي ﷺ فهي بمعنىٰ الدلالة والإرشاد وأدلة القسمين كثيرة جدًّا وقد اتفق وأطبق علماء السلف والخلف من

---

(١) قال الألباني في «السلسلة الصحيحة» ٦/ ٨١٨: أخرجه الحاكم في «المستدرك» (٣/ ٣٣٥)، والبزار في مسنده «البحر الزخار - ٢٦٧»، و(١/ ١٠٤/ ١٨٥ - كشف الأستار) قال العلامة الألباني رَحِمَهُ ٱللَّهُ: وبالجملة فالحديث جيد بمجموع طريقيه.

(٢) قال الألباني في «السلسلة الصحيحة» ٤/ ٤٣٠: رواه الترمذي (٢/ ٢٥٦)، والحاكم (٤/ ٢٨٥)، ويحيىٰ بن طلحة بن عبيد الله عن أبيه عن جده مرفوعًا. أحمد (١/ ١٦٢)، وأبو يعلىٰ (١/ ١٩١)، وعنه ابن السني في «عمل اليوم والليلة» (٦٣٥)، والدارمي (٢/ ٤)، والعقيلي (١٨٢)، وابن أبي عاصم في «السنة» (٣٧٦)، والضياء في «المختارة» (١/ ٢٧٩) لكن الحديث حسن لغيره بل هو صحيح لكثرة شواهده وابن حبان (٢٣٧٤)، والطبراني في «المعجم الكبير» (١٣٣٣٠)انظر حديث رقم: ٤٧٢٦ في صحيح الجامع.

المفسرين وغيرهم علىٰ هذين التقسمين بالاستقراء والتتبع فقد ذكرها شيخ الإسلام في كتبه وتلميذه ابن القيم وابن كثير والقرطبي وابن جرير والشنقيطي والعثيمين وغيرهم.

❁ ومن الأدلة القرآن علىٰ معنىٰ الهداية في القرآن:

(١) قوله تعالىٰ: ﴿ ٱهۡدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ ٦ ﴾ [الفاتحة:٦].

✍ **قال العلامة السعدي** رَحِمَهُ ٱللَّهُ «أي: دلنا وأرشدنا، ووفقنا للصراط المستقيم، وهو الطريق الواضح الموصل إلىٰ الله، وإلىٰ جنته، وهو معرفة الحق والعمل به، فاهدنا إلىٰ الصراط واهدنا في الصراط. فالهداية إلىٰ الصراط: لزوم دين الإسلام، وترك ما سواه من الأديان، والهداية في الصراط، تشمل الهداية لجميع التفاصيل الدينية علما وعملا. فهذا الدعاء من أجمع الأدعية وأنفعها للعبد ولهذا وجب علىٰ الإنسان أن يدعو الله به في كل ركعة من صلاته، لضرورته إلىٰ ذلك»(١).

✍ **وقال العلامة ابن كثير** رَحِمَهُ ٱللَّهُ: والهداية هاهنا: الإرشاد والتوفيق، وقد تعدىٰ الهداية بنفسها كما هنا ﴿ ٱهۡدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ ٦ ﴾ [الفاتحة:٦].

فتضمن معنىٰ ألهمنا، أو وفقنا، أو ارزقنا، أو اعطنا. وحاجة إخوانه المؤمنين بقوله: ﴿ ٱهۡدِنَا ﴾ لأنه أنجح للحاجة وأنجع للإجابة، ولهذا أرشد الله تعالىٰ إليه لأنه الأكمل(٢).

---

(١) تيسير الكريم الرحمن (٣٩/ ١).

(٢) تيسير الكريم الرحمن.

(٢) وقوله تعالىٰ: ﴿ذَٰلِكَ هُدَى ٱللَّهِ يَهۡدِي بِهِۦ مَن يَشَآءُۚ وَلَوۡ أَشۡرَكُواْ لَحَبِطَ عَنۡهُم مَّا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ﴾ [الأنعام:٨٨].

✍ **قال العلامة ابن كثير** رَحِمَهُ ٱللَّهُ: أي: إنما حصل لهم ذلك بتوفيق الله وهدايته إياهم(١).

(٣) وقوله تعالىٰ: ﴿قُلۡ هَلۡ مِن شُرَكَآئِكُم مَّن يَهۡدِيٓ إِلَى ٱلۡحَقِّۚ قُلِ ٱللَّهُ يَهۡدِي لِلۡحَقِّۗ أَفَمَن يَهۡدِيٓ إِلَى ٱلۡحَقِّ أَحَقُّ أَن يُتَّبَعَ أَمَّن لَّا يَهِدِّيٓ إِلَّآ أَن يُهۡدَىٰۖ فَمَا لَكُمۡ كَيۡفَ تَحۡكُمُونَ﴾ [يونس:٣٥].

✍ **قال المفسر السعدي** رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «ببيانه وإرشاده، أو بإلهامه وتوفيقه. ﴿قُلِ ٱللَّهُ﴾ وحده ﴿يَهۡدِي لِلۡحَقِّ﴾ بالأدلة والبراهين، وبالإلهام والتوفيق، والإعانة إلىٰ سلوك أقوم طريق»(٢).

(٤) وقوله تعالىٰ: ﴿ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحۡسَنَ ٱلۡحَدِيثِ كِتَٰبٗا مُّتَشَٰبِهٗا مَّثَانِيَ تَقۡشَعِرُّ مِنۡهُ جُلُودُ ٱلَّذِينَ يَخۡشَوۡنَ رَبَّهُمۡ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمۡ وَقُلُوبُهُمۡ إِلَىٰ ذِكۡرِ ٱللَّهِۚ ذَٰلِكَ هُدَى ٱللَّهِ يَهۡدِي بِهِۦ مَن يَشَآءُۚ وَمَن يُضۡلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنۡ هَادٖ﴾ [الزمر:٢٣].

✍ **قال العلامة السعدي** رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «أي: هداية منه لعباده، وهو من جملة فضله وإحسانه عليهم، ﴿يَهۡدِي بِهِ﴾ أي: بسبب ذلك ﴿مَن يَشَآءُ﴾ من عباده. ويحتمل أن المراد بقوله: ﴿ذَٰلِكَ﴾ القرآن الذي وصفناه لكم. ﴿هُدَى

---

(١) (١/ ١٣٧) تيسير الكريم الرحمن.

(٢) (٣/ ٢٩٩) تيسير الكريم الرحمن (١/ ٧٤٦).

ٱللَّهِ ﴾ الذي لا طريق يوصل إلىٰ الله إلا منه ﴿يَهۡدِي بِهِۦ مَن يَشَآءُ مِنۡ عِبَادِهِۦۚ ﴾ [الأنعام:٨٨]. ممن حسن قصده، كما قال تعالىٰ ﴿ يَهۡدِي بِهِ ٱللَّهُ مَنِ ٱتَّبَعَ رِضۡوَٰنَهُۥ سُبُلَ ٱلسَّلَٰمِ ﴾ [المائدة:١٦]. ﴿وَمَن يُضۡلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنۡ هَادٍ ﴾ لأنه لا طريق يوصل إليه إلا توفيقه والتوفيق للإقبال علىٰ كتابه، فإذا لم يحصل هذا، فلا سبيل إلىٰ الهدىٰ، وما هو إلا الضلال المبين والشقاء»(١).

(٥) وقوله تعالىٰ: ﴿ فَلَمَّا رَءَا ٱلۡقَمَرَ بَازِغٗا قَالَ هَٰذَا رَبِّيۖ فَلَمَّآ أَفَلَ قَالَ لَئِن لَّمۡ يَهۡدِنِي رَبِّي لَأَكُونَنَّ مِنَ ٱلۡقَوۡمِ ٱلضَّآلِّينَ ﴾ [الأنعام:٧٧].

✍ **قال العلامة السعدي** رَحِمَهُ ٱللَّهُ: فافتقر غاية الافتقار إلىٰ هداية ربه، وعلم أنه إن لم يهده الله فلا هادي له، وإن لم يعنه علىٰ طاعته، فلا معين له(٢).

(٦) وقوله تعالىٰ: ﴿ إِنَّكَ لَا تَهۡدِي مَنۡ أَحۡبَبۡتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهۡدِي مَن يَشَآءُۚ وَهُوَ أَعۡلَمُ بِٱلۡمُهۡتَدِينَ ﴿٥٦﴾ ﴾ [القصص:٥٦].

✍ **قال العلامة السعدي** رَحِمَهُ ٱللَّهُ: يخبر تعالىٰ أنك يا محمد -وغيرك من باب أولىٰ- لا تقدر علىٰ هداية أحد، ولو كان من أحب الناس إليك، فإن هذا أمر غير مقدور للخلق هداية للتوفيق، وخلق الإيمان في القلب، وإنما ذلك

---

(١) تيسير الكريم الرحمن (٧٢٢/ ١).

(٢) تيسير الكريم الرحمن (٢٦٢/ ١).

بيد الله سبحانه تعالىٰ، يهدي من يشاء، وهو أعلم بمن يصلح للهداية فيهديه، ممن لا يصلح لها فيبقيه علىٰ ضلاله وأما إثبات الهداية للرسول(١).

❁ ومن السنة ما ورد بذكر معنىٰ الهداية التي هي أشمل معاني التوفيق:

❁ من ذلك ما أخرجه محمد بن نصر عن أبي هريرة رمز المصنف لحسنه ورواه الحاكم في كتاب القنوت بلفظ: كان إذا رفع رأسه من الركوع في صلاة الصبح في الركعة الثانية يرفع يديه ويقول: «**اللهم اهدني فيمن هديت...**»(٢).

❁ وعن الحسن بن علي قال: علمني جدي رسول الله ﷺ كلمات أقولهن في قنوت الوتر: «**اللهم عافني فيمن عافيت وتولني فيمن توليت واهدني فيمن هديت وقني شر ما قضيت وبارك لي فيما أعطيت إنك تقضي ولا يقضىٰ عليك إنه لا يذل من واليت سبحانك ربنا تباركت وتعاليت**»(٣).

❁ وفي رواية للشافعي: «**والشر ليس إليك والمهدي من هديت أنا بك وإليك لا منجىٰ منك ولا ملجأ إلا إليك تباركت**»

قوله (اللهم اهدني) أي ثبتني علىٰ الهداية، أو زدني من أسباب الهداية.

---

(١) تيسير الكريم الرحمن (٦٢٠/ ١).

(٢) أخرجه محمد بن نصر في تعظيم قدر الصلاة (١/ ٣٢٦)، وصححه الألباني في صحيح الجامع (٤٧٣٠)، والصحيحة (٢٠٧١).

(٣) قال العلامة الألباني: (صحيح) الإرواء ٤٢٩: المشكاة ١٢٧٣: التعليق علىٰ ابن خزيمة ١٠٩٥: صحيح أبي داود ١٢٨١صحيح ابن ماجة (٩٦٧) صحيح سنن النسائي(١٧٤٥).

(فيمن هديت) أي في جملة من هديتهم من الأنبياء والأولياء، كما قال سليمان: ﴿وَأَدۡخِلۡنِي بِرَحۡمَتِكَ فِي عِبَادِكَ ٱلصَّٰلِحِينَ ١٩﴾ [النمل:١٩](١).

✍ **قال العلامة عبد الرزاق البدر** -حفظه الله-: «اهدني فيمن هديت: أن ما حصل لأولئك من الهدىٰ لم يكن منهم بأنفسهم وإنما كان منك فأنت هديتهم وفيه سؤال التوفيق الكامل الذي يقتضي التوفيق والإعانة والنصر والتسديد والإبعاد عن كل ما يغضب الله»(٢).

❁ وما جاء عن أبي أمامة رضي الله عنه قال: قال النبي ﷺ: «**اللهم اغفر لي ذنوبي وخطاياي كلها اللهم أنعشني واجبرني واهدني لصالح الأعمال والأخلاق فإنه لا يهدي لصالحها ولا يصرف سيئها إلا أنت**»(٣).

❁ وما جاء عن أبي ذر رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ فيما يروي عن الله تبارك وتعالىٰ أنه قال: «**يا عبادي إني حرمت الظلم علىٰ نفسي وجعلته بينكم محرما فلا تظالموا، يا عبادي كلكم ضال إلا من هديته فاستهدوني أهدكم**»(٤).

✍ **قال العلامة العثيمين** رحمه الله «أي اطلبوا مني أهدكم، والهداية هنا

---

(١) مرعاة المفاتيح (٤/ ٢٨٤).

(٢) جامع الأدعية والأذكار (٨٣٦).

(٣) أخرجه الطبراني قال: الشيخ الألباني: (حسن). انظر حديث رقم: ١٢٦٦ في صحيح الجامع.

(٤) رواه مسلم (٤٦٧٤).

تشمل هداية العلم وهداية التوفيق»[١].

❁ وما جاء عن عبد الله عن النبي ﷺ أنه كان يقول: «**اللهم إني أسألك الهدىٰ والتقىٰ والعفاف والغنىٰ**»[٢].

✍ **قال العلامة العثيمين** رَحِمَهُ ٱللَّهُ «الهدىٰ نوعان، هدىٰ علم ودلالة وهدىٰ عمل وهو التوفيق إلىٰ الحق فإذا سأل العبد ربه الهدىٰ ينبغي له أن يسأل الأمره أن يعلمه وأن يوفقه»[٣].

❁ ومنه أيضًا عن عاصم بن حميد قال سألت عائشة ماذا كان النبي ﷺ يفتتح به قيام الليل قالت لقد سألتني عن شيء ما سألني عنه أحد قبلك كان يكبر عشرًا ويحمد عشرًا ويسبح عشرًا ويستغفر عشرًا ويقول: «**اللهم اغفر لي واهدني وارزقني وعافني ويتعوذ من ضيق المقام يوم القيامة**»[٤].

فيه سؤال الهداية الكاملة وهي الدلالة والمعرفة إلىٰ طريق الحق والتوفيق والثبات علىٰ الطريق المستقيم لا يزيغ عنه إلىٰ أن يلقىٰ الله تعالىٰ يوم القيامة ولهذا ينبغي أن يستحضر الداعي هذه المعاني في دعائه[٥].

❁ ومنه ما رواه عمران بن حصين رضي الله عنهما أن النبي ﷺ علم أباه كلمتين

---

(١) شرح الأربعين النووية للعثيمين (٣٩/ ١).

(٢) وأخرجه مسلم (٤٨٩٨)، وأخرجه الترمذي (٣٤١١)، وابن ماجة (٣٨٢٢).

(٣) شرح رياض الصالحين (٤/ ٥٨).

(٤) أخرجه النسائي (٧١٦١)، وصحيح ابن ماجة (١١١٥)، وقال العلامة الألباني: (حسن صحيح). صحيح أبي داود (٧٤٢).

(٥) اللآلئ الزكية – ماهر مقدم (٣٢٧).

يدعو بهما: «**اللهم قني شر نفسي واعزم علىٰ رشدي أمري**»(١).

❁ وكذلك ما جاء عن عمران أيضًا عنه ﷺ أنه قال: «**اللهم اغفر لي ذنبي خطئي وعمدي اللهم إني أستهديك لأرشد أمري وأعوذ بك من شر نفسي**»(٢).

❁ قال: «**أسألك أن توفقني إلىٰ أفضل السبل الموصلة إلىٰ أصلح أموري وشؤوني في ديني ودنياي وآخرتي فأفوز برضاك وأنال جنتك**»(٣).

✍ **وقال الشيخ العثيمين** رَحِمَهُ ٱللَّهُ «يعني اجعلني موفقًا إلىٰ الرشد والرشد ضد الغي والغي هو المعاصي والشر والفساد والإنسان إذا وفق إلىٰ الرشد فإنه موفق هو غاية المؤمنين»(٤).

✍ **وأيضًا قال** رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «والهدي إذا ذكر وحده يشمل العلم والتوفيق للحق، أما إذا قرن معه ما يدل علىٰ التوفيق للحق فإنه يفسر بمعني العلم، لان الأصل في اللغة العربية إن العطف يقتضي المغايرة، فيكون الهدي له معني، وما بعده مما يدل علي التوفيق له معني آخر»(٥).

---

(١) وقد رواه ابن حبان (٢٤٣١ - موارد)، وأحمد (٤/ ٤٤٤) من طريق أخرىٰ. وسنده صحيح علىٰ شرط الشيخين. تخريج رياض الصالحين حديث (١٤٩٥).

(٢) وروىٰ أحمد (٤/ ٢١٧)، وسنده جيد [٥٠٦]. تخريج رياض الصالحين حديث: (١٤٩٥).

(٣) اللآلئ الزكية شرح الأدعية النبوية، لماهر مقدم (٢٩٩).

(٤) شرح رياض الصالحين (٤٣/ ٦).

(٥) شرح رياض الصالحين (٥٢٨/ ١).

[٢] ومن معاني التوفيق السداد

يقال في اللغة: «سدده» وفقه للسداد، بالفتح أي الصواب من القول والعمل والقصد منهما. والإصابة في المنطق: أن يكون الرجل مسددا. ويقال: إنه لذو سداد في منطقه وتدبيره. وكذلك في الرمي.

❁ ومنه في الحديث: «**اللهم سددني**»، أي وفقني، إذا صار سديدًا وكذا القول والعمل، يقال: إنه ليسد في القول، وهو أن يصيب السداد. وسهم سديد: مصيب، ورمح سديد: قل أن تخطئ ءَ طعنته، ورجل سديد وأسد، من السداد وقصد الطريق، وأمر سديد(١).

❁ ومن هذا المعنىٰ ما جاء عن علي قال: قال رسول الله ﷺ: «**قل اللهم اهدني وسددني واذكر بالهدىٰ هدايتك الطريق وبالسداد سداد السهم**»(٢).

✍ **قال العلامة السيوطي** رَحِمَهُ ٱللَّهُ: اهدني أي أرشدني وسددني أي وقفني(٣).

✍ **وقال الطيبي**: «أمره بأن يسأل الهدىٰ السداد وأن يكون في ذكره مخطرا بباله أن المطلوب هداية كهداية من ركب متن الطريق وأخذ في المنهج المستقيم، وسداد يشبه بسداد السهم نحو الغرض».

---

(١) تاج العروس (٩/ ٥).

(٢) أخرجه مسلم(٤٩٠٤)، وأخرجه أحمد(٦٢٨).

(٣) شرح السيوطي «صحيح مسلم» (٧٣/ ٦).

✍ **وقال الخطابي**[(١)] قوله: (واذكر بالهدىٰ هداية الطريق) معناه أن سالك الطريق والفلاة وإنما يؤم سمت الطريق ولا يكاد يفارق الجادة ولا يعدل عنها يمنة ويسرة خوفا من الضلال وبذلك يصيب الهداية وينال السلامة، يقول: إذا سألت الهدىٰ فاخطر بقلبك هداية الطريق وسل الله الهدىٰ والاستقامة كما تتحراه في هداية الطريق إذا سلكتها

وقوله: (واذكر بالسداد تسديدك السهم) معناه أن الرامي إذا رمىٰ غرضا سدد بالسهم نحو الغرض ولم يعدل عنه يمينا ولا شمالا ليصيب الرمية فلا يطيش سهمه ولا يخفق سعيه يقول: فاختر المعنىٰ بقلبك حين تسأل الله السداد ليكون ما تنويه من ذلك علىٰ شاكلة ما تستعمله في الرمي[(٢)].

✍ **وقال العلامة النووي** رَحِمَهُ ٱللَّهُ: ومعنىٰ سددني وفقني واجعلني منتصبا في جميع أموري مستقيما وأصل السداد الاستقامة والقصد في الأمور وأما الهدىٰ هنا فهو الرشاد[(٣)].

❁ ومنه ما رواه عبد الله بن عباس رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا: كان النبي ﷺ يدعو «**واهدِ قلبي، وسدد لساني، واسلل سخيمة قلبي**»[(٤)].

✍ **قال الشيخ عبد الرزاق البدر** -حفظه الله-: «فسؤال الله الهدىٰ

---

(١) في المعالم (٦: ١١٦).

(٢) مرعاة المفاتيح (٨/٢٤٩).

(٣) شرح مسلم للنووي (١٧/٤٣).

(٤) سنن أبي داود (١٥٠٩)، صحيح ابن ماجة (٣٠٨٨)، صحيح الأدب المفرد (٦٦٥)، قال الشيخ الألباني: صحيح.

المعرفة بالحق تفصيلا وإجمالا والتوفيق لاتباعه ظاهرًا وباطنًا وسؤال الله السداد وهو التوفيق والاستقامة في جميع الأمور الدنيوية والشرعية وهو من أهم المطالب وأشرف المواهب ولا يحصل السعادة والفلاح إلا بالهداية والسداد»(١).

❁ وكذلك ما جاء عن أبي بكرة، حدثني أبي أن رسول الله ﷺ قال: «**كلمات للمكروب: اللهم رحمتك أرجو، فلا تكلني إلىٰ نفسي طرفة عين، وأصلح لي شأني كله، لا إله إلا أنت**»(٢).

✍ **قال الحليمي** في شرح «لا تكلني»: وهذا تعليم منه لأمته أنه ينبغي كونهم مشفقين من أن يسلموا الإيمان أو التوفيق للعمل فإن من سلب التوفيق لم يملك نفسه ولم يأمن أن يضيع الطاعات ويتبع الشهوات فينبغي لكل مؤمن أن يكون هذا الخوف من همه(٣).

✍ **وقال ابن القيم** رَحِمَهُ ٱللَّهُ: وذلك أن العبد لا يستغني عن تثبيت الله له طرفة عين فإن لم يثبته وإلا زالت سماء إيمانه وأرضه عن مكانهما وقد قال تعالىٰ لأكرم خلقه عليه عبده ورسوله ولو أن ثبتناك لقد كدت تركن إليهم شيئًا قليلًا.

---

(١) فقه الأدعية والأذكار (٤/ ٤٨٠).

(٢) رواه أحمد ٥/ ٤٢، والبخاري في «الأدب المفرد» (٧٠١)، والنسائي في «الكبرىٰ» (٩٨٥٠). قال الشيخ الألباني: (حسن). انظر حديث رقم: ٣٣٨٨ في صحيح الجامع، صحيح الترغيب (١٨٢٣).

(٣) فيض القدير (١٤٧/ ٢).

فالخلق كلهم قسمان موفق بالتثبيت ومخذول بترك التثبيت ومادة التثبيت أصله ومنشأه من القول الثابت وفعل ما أمر به العبد فبهما يثبت الله عبده فكل من كان أثبت قولا وأحسن فعلا كان أعظم تثبيتا»(١).

❁ ومن ذلك ما جاء عن عبد الله ابن عمرو رضي الله عنه: «**إن المسلم المسدد ليدرك درجة الصوام القوام بآيات الله** عَزَّوَجَلَّ **لكرم ضريبته وحسن خلقه**»(٢).

فالمسلم المسدد: هو الموفق الذي وفقه ربه لحسن الخلق، وطاعة الله عَزَّوَجَلَّ، وطاعة رسوله ﷺ(٣).

✍ **قال العلامة العثيمين** رَحِمَهُ ٱللَّهُ: وأما السداد فهو تسديد الإنسان في قوله وفعله وعقيدته والتسديد معناه أن يوفق الإنسان إلىٰ الصواب بحيث لا يضل وقد قال تعالىٰ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَقُولُواْ قَوۡلٗا سَدِيدٗا ٧٠ يُصۡلِحۡ لَكُمۡ أَعۡمَٰلَكُمۡ وَيَغۡفِرۡ لَكُمۡ ذُنُوبَكُمۡ﴾ [الأحزاب:٧٠-٧١]، قولًا سديدًا أي صوابا فذكر الله تعالىٰ في القول السديد فائدتين:

- **أولًا**: صلاح الأعمال.

---

(١) إعلام الموقعين (١/ ١٧٧).

(٢) قال الألباني في «السلسلة الصحيحة» ٢/ ٤٢: أخرجه الإمام أحمد (٢/ ٢٢٠)، وأخرجه الحاكم (١/ ٦٠)، وقال: «صحيح علىٰ شرط مسلم».
ووافقه الذهبي وهو كما قالا. وأخرجه هو وغيره من حديث عائشة مرفوعًا نحوه بلفظ: «**درجات قائم الليل صائم النهار**». وقال أيضًا: «صحيح علىٰ شرط مسلم» ووافقه الذهبي وصححه ابن حبان (١٩٢٧)..

(٣) شرح الترغيب، حطيبة (٥/ ٣٥).

- **والثانية:** مغفرة الذنوب فينبغي للإنسان أن يسأل الله هذا الدعاء اللهم إني أسألك الهدىٰ والسداد أو يقول اللهم اهدني وسددني المعنىٰ واحد(١).

وقوله تعالىٰ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَقُولُواْ قَوۡلٗا سَدِيدٗا ٧٠ يُصۡلِحۡ لَكُمۡ أَعۡمَٰلَكُمۡ وَيَغۡفِرۡ لَكُمۡ ذُنُوبَكُمۡۗ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدۡ فَازَ فَوۡزًا عَظِيمًا ٧١﴾ [الأحزاب: ٧٠-٧١].

✍ **قال العلامة ابن كثير** رَحِمَهُ ٱللَّهُ: أي: مستقيمًا لا اعوجاج فيه ولا انحراف. ووعدهم أنهم إذا فعلوا ذلك، أثابهم عليه بأن يصلح لهم أعمالهم، أي: يوفقهم للأعمال الصالحة، وأن يغفر لهم الذنوب الماضية. وما قد يقع منهم في المستقبل يلهمهم التوبة منها(٢).

[٣] من معاني التوفيق الرحمة وهذا قليل جدًّا في الأدلة وهو يدخل تحت المعنى العام

- **من أدلته** قوله تعالىٰ: ﴿وَحَنَانٗا مِّن لَّدُنَّا وَزَكَوٰةٗۖ وَكَانَ تَقِيّٗا﴾ [مريم:١٣].

✍ **قال العلامة السعدي** رَحِمَهُ ٱللَّهُ أي: رحمة ورأفة، تيسرت بها أموره، وصلحت بها أحواله، واستقامت بها أفعاله(٣).

❁ وقال تعالىٰ: ﴿مَّا يَفۡتَحِ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ مِن رَّحۡمَةٖ فَلَا مُمۡسِكَ لَهَاۖ وَمَا يُمۡسِكۡ فَلَا

---

(١) شرح رياض الصالحين (٦/٢٥).
(٢) تفسير القرآن العظيم (٦/٤٨٧).
(٣) تيسير الكريم الرحمن (١/١٠٩٨).

مُرۡسِلَ لَهُۥ مِنۢ بَعۡدِهِۦۚ وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ﴿٢﴾ [فاطر:٢].

✍ **قال القرطبي** رَحِمَهُ ٱللَّهُ: وقيل: من توفيق وهداية.

قلت: ولفظ الرحمة يجمع ذلك إذ هي منكرة للإشاعة والإبهام، فهي متناولة لكل رحمة علىٰ البدل، فهو عام في جميع ما ذكر(١).

❁ وقال تعالىٰ: ﴿ رَبَّنَا لَا تُزِغۡ قُلُوبَنَا بَعۡدَ إِذۡ هَدَيۡتَنَا وَهَبۡ لَنَا مِن لَّدُنكَ رَحۡمَةًۚ إِنَّكَ أَنتَ ٱلۡوَهَّابُ ﴿٨﴾ ﴾ [آل عمران:٨].

✍ **قال المفسر السعدي** رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «رحمة: أي: عظيمة توفقنا بها للخيرات وتعصمنا بها من المنكرات»(٢).

❁ وعن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: «**إذا دخل أحدكم المسجد فليسلم علىٰ النبي ﷺ وليقل اللهم افتح لي أبواب رحمتك وإذا خرج فليسلم علىٰ النبي ﷺ وليقل اللهم اعصمني من الشيطان الرجيم**»(٣).

❁ وقال تعالىٰ: ﴿ رَّبُّكُمۡ أَعۡلَمُ بِكُمۡۖ إِن يَشَأۡ يَرۡحَمۡكُمۡ أَوۡ إِن يَشَأۡ يُعَذِّبۡكُمۡۚ وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ عَلَيۡهِمۡ وَكِيلٗا ﴿٥٤﴾ ﴾ [الإسراء:٥٤].

---

(١) تفسير القرطبي (٣٢١/ ١٤).

(٢) تيسير الكريم الرحمن (١٢٢/ ١).

(٣) أخرج أحمد (٦/ ٢٨٣)، وابن ماجة (٧٧١)، والطبراني في الكبير (٢٢/ ٤٢٣) (١٠٤٣)، وصححه الألباني في صحيح الجامع (٤٧١٦). صحيح أبي داود (٤٨٤).

✍ **قال العلامة السعدي** رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «فيوفق من شاء لأسباب الرحمة ويخذل من شاء فيضل عنها فيستحق العذاب»(١).

[٤] من معاني التوفيق الخير

❁ **من تلك الأدلة** قوله تعالىٰ: ﴿وَإِن يَمْسَسْكَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُۥٓ إِلَّا هُوَ ۖ وَإِن يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلَا رَآدَّ لِفَضْلِهِۦ ۚ يُصِيبُ بِهِۦ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ ۚ وَهُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٠٧﴾﴾ [يونس:١٠٧].

❁ وقوله تعالىٰ: ﴿وَإِن يَمْسَسْكَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُۥٓ إِلَّا هُوَ ۖ وَإِن يَمْسَسْكَ بِخَيْرٍ فَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٧﴾﴾ [الأنعام:١٧].

✍ **قال العلامة القرطبي**: «وإن يصبك بعافية ورخاء ونعمة»(٢).

❁ وقال تعالىٰ: ﴿قُلِ ٱللَّهُمَّ مَٰلِكَ ٱلْمُلْكِ تُؤْتِى ٱلْمُلْكَ مَن تَشَآءُ وَتَنزِعُ ٱلْمُلْكَ مِمَّن تَشَآءُ وَتُعِزُّ مَن تَشَآءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَآءُ ۖ بِيَدِكَ ٱلْخَيْرُ ۖ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٦﴾﴾ [آل عمران:٢٦].

❁ **وفي السنة** ما جاء عن أبي ليلىٰ أخبره عن ابن مسعود رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ عن رسول الله ﷺ أنه كان يدعو: «**اللهم احفظني بالإسلام قائمًا، واحفظني بالإسلام قاعدًا، واحفظني بالإسلام راقدًا، ولا تشمت بي عدوًّا حاسدًا، اللهم إني**

---

(١) تيسير الكريم الرحمن (٤٦٠/ ١).

(٢) تفسير القرطبي (٣٩٨/ ٦).

أسألك من كل خير خزائنه بيدك، وأعوذ بك من كل شر خزائنه بيدك»(١).

✍ **قال العلامة الصنعاني** رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «وقد علم أن خزائن الأمر بيده تعالىٰ فهو عام لخير الدارين»(٢).

[٥] من معاني التوفيق الاصطفاء والاختيار

❁ **ومن الأدلة** قوله تعالىٰ: ﴿وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ وَيَخْتَارُ ۗ مَا كَانَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ ۚ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٦٨﴾﴾ [القصص:٦٨].

✍ **قال العلامة السعدي** رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «هذه الآيات، فيها عموم خلقه لسائر المخلوقات، ونفوذ مشيئته بجميع البريات، وانفراده باختيار من يختاره ويختصه، من الأشخاص، والأوامر والأزمان»(٣).

❁ قال تعالىٰ: ﴿وَٱللَّهُ يَدْعُوٓاْ إِلَىٰ دَارِ ٱلسَّلَٰمِ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٢٥﴾﴾ [يونس:٢٥].

✍ **قال السعدي** رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «عم تعالىٰ عباده بالدعوة إلىٰ دار السلام، والحث علىٰ ذلك، والترغيب، وخص بالهداية من شاء استخلاصه واصطفاءه، فهذا فضله وإحسانه، والله يختص برحمته من يشاء، وذلك عدله

---

(١) قال الألباني في «السلسلة الصحيحة» ٤/ ٥٤: أخرجه الحاكم (١/ ٥٢٥)، أخرجه ابن حبان (٢٤٣٠)، والديلمي (١/ ٢/ ١٩٥) بالجملة فالحديث حسن بمجموع الطريقين. والله أعلم.

(٢) التنوير شرح الجامع الصغير (١٢٤/ ٣).

(٣) تيسير الكريم الرحمن (٦٢٢/ ١).

وحكمته»(١).

[٦] من معاني التوفيق التيسير

❁ ومن أدلة هذا المعنىٰ قوله تعالىٰ: ﴿فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَاتَّقَىٰ ۝٥ وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَىٰ ۝٦ فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَىٰ ۝٧﴾[الليل:٥-٧].

✍ **قال المفسر السعدي** رَحِمَهُ ٱللَّهُ: أي: نسهل عليه أمره، ونجعله ميسرًا له كل خير، ميسرًا له ترك كل شر، لأنه أتىٰ بأسباب التيسير، فيسر الله له ذلك(٢).

✍ **قال ابن عباس**: يعني للخير.

✍ **وقال ابن كثير** رَحِمَهُ ٱللَّهُ: والآيات في هذا المعنىٰ كثيرة دالة علىٰ أن الله، عَزَّوَجَلَّ، يجازي من قصد الخير بالتوفيق له، ومن قصد الشر بالخذلان(٣).

❁ **ومنه قوله** تعالىٰ: ﴿وَيَسِّرْ لِيٓ أَمْرِي ۝٢٦﴾ [طه:٢٦].

✍ **قال العلامة السعدي** رَحِمَهُ ٱللَّهُ: أي: سهل علي كل أمر أسلكه وكل طريق أقصده في سبيلك، وهون علي ما أمامي من الشدائد، ومن تيسير الأمر أن ييسر للداعي أن يأتي جميع الأمور من أبوابها، ويخاطب كل أحد بما

---

(١) تيسير الكريم الرحمن (٣٦٢/ ١).
(٢) تيسير الكريم الرحمن (٢١٠٩/ ١).
(٣) تفسير القرآن العظيم (٧١٤/ ٨).

يناسب له، ويدعوه بأقرب الطرق الموصلة إلىٰ قبول قوله(١).

❁ **ومن السنة** ما ورد عن ابن عباس رضي الله عنهما كان النبي ﷺ يدعو: «**واهدني ويسر الهدي لي**»(٢).

✍ **قال العلامة المباركفوري**: أي وسهل إتباع الهداية أو طرق الدلالة لي حتىٰ لا أستثقل الطاعة ولا أشتغل عن الطاعة(٣).

❁ قال تعالىٰ: ﴿وَنُيَسِّرُكَ لِلْيُسْرَىٰ ۝٨﴾ [الأعلى:٨].

✍ **قال مقاتل**: أي نهون عليك عمل الجنة، وقيل: نوفقك للطريقة التي هي أيسر وأسهل(٤).

❁ وما جاء عن معاذ بن جبل رضي الله عنه قال: كنت مع رسول الله ﷺ في سفر فأصبحت يومًا قريبًا منه ونحن نسير فقلت يا رسول الله أخبرني بعمل يدخلني الجنة ويباعدني من النار قال: «**لقد سألت عن عظيم وإنه ليسير علىٰ من يسره الله عليه تعبد الله ولا تشرك به شيئًا وتقيم الصلاة وتؤتي الزكاة وتصوم رمضان وتحج البيت**»(٥).

---

(١) تيسير الكريم الرحمن (٥٠٤/ ١).

(٢) سنن أبي داود (١٥٠٩)، صحيح ابن ماجة (٣٠٨٨)، صحيح الأدب المفرد (٦٦٥)، قال الشيخ الألباني: صحيح.

(٣) مرعاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح (٢٥٢/ ٨).

(٤) فتح القدير للشوكاني (٥١٨/ ٥).

(٥) رواه أحمد، والترمذي، وصححه والنسائي، وابن ماجه في صحيح الترغيب والترهيب (٧٣٩).

⇦=

✍ **قال العلامة ابن رجب** رَحِمَهُ ٱللَّهُ: وقوله: «وإنه ليسير علىٰ من يسره الله عليه: إشارة إلىٰ أن التوفيق كله بيد الله عَزَّوَجَلَّ، فمن يسر الله عليه الهدىٰ اهتدىٰ، ومن لم ييسره عليه، لم ييسر له ذلك؛ قال الله تعالىٰ: ﴿فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَٱتَّقَىٰ ۝٥ وَصَدَّقَ بِٱلْحُسْنَىٰ ۝٦ فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلْيُسْرَىٰ ۝٧ وَأَمَّا مَنۢ بَخِلَ وَٱسْتَغْنَىٰ ۝٨ وَكَذَّبَ بِٱلْحُسْنَىٰ ۝٩ فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلْعُسْرَىٰ ۝١٠﴾ [الليل: ٥ - ١٠].

✍ وقال ﷺ: «**اعملوا فكل ميسر لما خلق له، أما أهل السعادة فييسرون لعمل أهل السعادة، وأما أهل الشقاوة فييسرون لعمل أهل الشقاوة**، ثم تلا ﷺ هذه الآية»(١).

❁ وكان النبي ﷺ يقول في دعائه: «**واهدني ويسر الهدىٰ لي**»، وأخبر الله عن نبيه موسىٰ عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ أنه قال في دعائه: ﴿رَبِّ ٱشْرَحْ لِى صَدْرِى ۝٢٥ وَيَسِّرْ لِىٓ أَمْرِى ۝٢٦﴾ [طه: ٢٥ - ٢٦]، وكان ابن عمر يدعو: «اللهم يسرني لليسرىٰ، وجنبني العسرىٰ»(٢).

✍ **وقال ابن رسلان** رَحِمَهُ ٱللَّهُ: أي: يسر إلي أسباب سلوك الهداية، ويحتمل تيسر هيئ وصول الهداية إليَّ لأهتدي بها كما في الحديث «**فكل ميسر لما خلق له**»(٣).

= قال الشيخ الألباني: (صحيح). انظر حديث رقم: ٥١٣٦ في صحيح الجامع.

(١) متفق عليه، وهو مخرج في «ظلال الجنة» «١٧١».

(٢) جامع العلوم والحكم (١٣٧/ ٢).

(٣) شرح سنن أبي داود (٣٠٤/ ٧).

✍ وقال العلامة العثيمين رَحِمَهُ ٱللَّهُ: أنه ينبغي للإنسان أن يسأل الله تعالىٰ التيسير، أن ييسر أموره في دينه ودنياه، لأن من لم ييسر الله عليه فإنه يصعب عليه كل شيء(١).

✍ وقال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: وذكر للتيسير لليسرىٰ ثلاثة أسباب:

(أحدها) إعطاء العبد أي أعطىٰ ما أمر به وسمحت به طبيعته وطاوعته نفسه وذلك يتناول إعطاءه من نفسه الإيمان والطاعة والإخلاص والتوبة والشكر وإعطاءه الإحسان والنفع بماله ولسانه وبدنه ونيته وقصده فتكون نفسه نفسا مطيعة باذلة لا لئيمة مانعة فالنفس المطيعة هي النافعة المحسنة التي طبعها الإحسان وإعطاء الخير اللازم والمتعدي فتعطي خيرها لنفسها ولغيرها فهي بمنزلة العين التي ينتفع الناس بشربهم منها وسقي دوابهم وأنعامهم وزرعهم فهم ينتفعون بها كيف شاءوا فهي ميسرة لذلك وهكذا الرجل المبارك ميسر للنفع حيث حل فجزاء هذا أن ييسره الله لليسرىٰ كما كانت نفسه ميسرة للعطاء

(السبب الثاني) التقوىٰ وهي اجتناب ما نهىٰ الله عنه وهذا من أعظم أسباب التيسير وضده من أسباب التعسير فالمتقي ميسرة عليه أمور دنياه وآخرته وتارك التقوىٰ وإن يسرت عليه بعض أمور دنياه تعسر عليه من أمور آخرته بحسب ما تركه من التقوىٰ وأما تيسير ما تيسر عليه من أمور الدنيا فلو اتقىٰ الله لكان تيسيرها عليه أتم ولو قدر أنها لم تتيسر له فقد يسر الله له من

---

(١) شرح الأربعين النووية (٢٩٧/ ١).

الدنيا ما هو أنفع له مما ناله بغير التقىٰ فإن طيب العيش ونعيم القلب ولذة الروح وفرحها وابتهاجها من أعظم نعيم الدنيا وهو أجل من نعيم أرباب الدنيا بالشهوات واللذات وقال تعالىٰ: ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجۡعَل لَّهُۥ مِنۡ أَمۡرِهِۦ يُسۡرٗا ٤﴾ [الطلاق:٤] فأخبر أنه ييسر علىٰ المتقي مالا ييسر علىٰ غيره وقال تعالىٰ: ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجۡعَل لَّهُۥ مَخۡرَجٗا ٢ وَيَرۡزُقۡهُ مِنۡ حَيۡثُ لَا يَحۡتَسِبُۚ﴾ [الطلاق:٢-٣] وهذا أيضًا ييسر عليه بتقواه وقال تعالىٰ: ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يُكَفِّرۡ عَنۡهُ سَيِّـَٔاتِهِۦ وَيُعۡظِمۡ لَهُۥٓ أَجۡرًا ٥﴾ [الطلاق:٥] وهذا يتيسر عليه بإزالة ما يخشاه وإعطائه ما يحبه ويرضاه وقال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تَتَّقُواْ ٱللَّهَ يَجۡعَل لَّكُمۡ فُرۡقَانٗا وَيُكَفِّرۡ عَنكُمۡ سَيِّـَٔاتِكُمۡ وَيَغۡفِرۡ لَكُمۡۗ﴾ [الأنفال:٢٩].

وهذا يتيسر بالفرقان المتضمن النجاة والنصر والعلم والنور الفارق بين الحق والباطل وتكفير السيئات ومغفرة الذنوب وذلك غاية التيسير وقال تعالىٰ: ﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ ١٨٩﴾ [البقرة:١٨٩].

والفلاح غاية اليسر كما أن الشقاء غاية العسر وقال تعالىٰ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَءَامِنُواْ بِرَسُولِهِۦ يُؤۡتِكُمۡ كِفۡلَيۡنِ مِن رَّحۡمَتِهِۦ وَيَجۡعَل لَّكُمۡ نُورٗا تَمۡشُونَ بِهِۦ وَيَغۡفِرۡ لَكُمۡۚ﴾ [الحديد:٢٨].

فضمن لهم سبحانه بالتوقي ثلاثة أمور: (أحدها) أعطاهم نصيبين من رحمته نصيبا في الدنيا ونصيبا في الآخرة وقد يضاعف لهم نصيب الآخرة فيصير نصيبين (الثاني) أعطاهم نورًا يمشون به في الظلمات (الثالث) مغفرة ذنوبهم وهذا غاية التيسير فقد جعل سبحانه التقوىٰ سببا لكل يسر وترك

التقوىٰ سببا لكل عسر.

(**السبب الثالث**) التصديق بالحسنىٰ وفسرت بلا إله إلا الله وفسرت بالجنة وفسرت بالخلف.

وهي أقوال السلف واليسرىٰ صفة لموصوف محذوف أي الحالة والخلة اليسرىٰ وهي فعلىٰ من اليسرىٰ والأقوال الثلاثة ترجع إلىٰ أفضل الأعمال وأفضل الجزاء فمن فسرها بلا إله إلا الله فقد فسرها بمفرد يأتي بكل جمع فإن التصديق الحقيقي بلا إله إلا الله يستلزم التصديق بشعبها وفرعها كلها وجميع أصول الدين وفروعه من شعب هذه الكلمة(١).

[٧] ومن مما يأتي من معاني التوفيق معنى النور:

❁ **ومن الأدلة** قوله تعالىٰ: ﴿أَوَمَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَٰهُ وَجَعَلْنَا لَهُۥ نُورًا يَمْشِى بِهِۦ فِى ٱلنَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُۥ فِى ٱلظُّلُمَٰتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا ۚ كَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِلْكَٰفِرِينَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٢٢﴾﴾ [الأنعام:١٢٢].

✍ **قال السعدي** رَحِمَهُ ٱللَّهُ: يقول تعالىٰ: ﴿أَوَمَن كَانَ﴾ من قبل هداية الله له ﴿مَيْتًا﴾ في ظلمات الكفر، والجهل، والمعاصي، ﴿فَأَحْيَيْنَٰهُ﴾ بنور العلم والإيمان والطاعة، فصار يمشي بين الناس في النور، متبصرا في أموره، مهتديا لسبيله، عارفًا للخير مؤثرًا له، مجتهدًا في تنفيذه في نفسه وغيره، عارفًا بالشر مبغضا له، مجتهدا فيتركه وإزالته عن نفسه وعن غيره. أفيستوي هذا بمن هو

---

(١) التبيان (٣٦/ ١).

في الظلمات، ظلمات الجهل والغي، والكفر والمعاصي. ﴿لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا﴾ قد التبست عليه الطرق، وأظلمت عليه المسالك، فحضرها لهم والغم والحزن والشقاء. فنبه تعالىٰ العقول بما تدركه وتعرفه، أنه لا يستوي هذا ولا هذا كما لا يستوي الليل والنهار، والضياء والظلمة، والأحياء والأموات(١).

✍ **وقال المفسر ابن كثير** رَحِمَهُ ٱللَّهُ: مثل ضربه الله تعالىٰ للمؤمن الذي كان ميتا، أي: في الضلالة، هالكا حائرا، فأحياه الله، أي: أحيا قلبه بالإيمان، وهداه له ووفقه لاتباع رسله. ﴿وَجَعَلْنَا لَهُۥ نُورًا يَمْشِى بِهِۦ فِى ٱلنَّاسِ﴾ أي: يهتدي به كيف يسلك، وكيف يتصرف به(٢).

❁ **ومنها أيضًا** قوله تعالىٰ: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا ۚ مَا كُنتَ تَدْرِى مَا ٱلْكِتَٰبُ وَلَا ٱلْإِيمَٰنُ وَلَٰكِن جَعَلْنَٰهُ نُورًا نَّهْدِى بِهِۦ مَن نَّشَآءُ مِنْ عِبَادِنَا ۚ وَإِنَّكَ لَتَهْدِىٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٥٢﴾﴾ [الشورى:٥٢].

✍ **قال العلامة السعدي** رَحِمَهُ ٱللَّهُ: يستضيئون به في ظلمات الكفر والبدع، والأهواء المردية، ويعرفون به الحقائق، ويهتدون به إلىٰ الصراط المستقيم(٣).

❁ **ومنها** قوله تعالىٰ: ﴿أَوْ كَظُلُمَٰتٍ فِى بَحْرٍ لُّجِّىٍّ يَغْشَىٰهُ مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِۦ مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِۦ سَحَابٌ ۚ ظُلُمَٰتٌۢ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ إِذَآ أَخْرَجَ يَدَهُۥ لَمْ يَكَدْ يَرَىٰهَا ۗ وَمَن لَّمْ يَجْعَلِ ٱللَّهُ

---

(١) تيسير الكريم الرحمن (٢٧١/ ١).

(٢) تفسير القرآن العظيم (٣/ ٣٣٠).

(٣) تيسير الكريم الرحمن (١٧٣١/ ١).

﴿لَهُۥ نُورًا فَمَا لَهُۥ مِن نُّورٍ ٤٠﴾ [النور:٤٠].

✍ **قال العلامة ابن كثير** رَحِمَهُ ٱللَّهُ: أي: من لم يهده الله فهو هالك جاهل حائر بائر كافر(١).

❁ **ومنها** قال تعالىٰ: ﴿يَهْدِى ٱللَّهُ لِنُورِهِۦ مَن يَشَآءُ﴾ [النور:٣٥].

✍ **قال ابن كثير** رَحِمَهُ ٱللَّهُ: قال أبي بن كعب: ﴿نُّورٌ عَلَىٰ نُورٍ﴾ [النور:٣٥] فهو يتقلب في خمسة من النور، فكلامه نور، وعمله نور، ومدخله نور، ومخرجه نور، ومصيره إلىٰ النور يوم القيامة إلىٰ الجنة، أي: يرشد الله إلىٰ هدايته من يختاره(٢).

❁ **وأما ما ورد في السنة** فعن ابن عباس رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا قال: وكان في دعائه: «**اللهم اجعل في قلبي نورًا وفي بصري نورًا وفي سمعي نورًا وعن يميني نورًا وعن يساري نورًا وفوقي نورًا وتحتي نورًا وأمامي نورًا وخلفي نورًا واجعل لي نورًا**» وزاد بعضهم: «**وفي لساني نورًا**» وذكر: «**وعصبي ولحمي ودمي وشعري وبشري**)، وفي رواية لهما «**واجعل في نفسي نورًا وأعظم لي نورًا**» وفي أخرىٰ لمسلم: «**اللهم أعطني نورًا**»(٣).

❁ وما جاء عن عبد الله بن عمرو قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**إن**

---

(١) تفسير القرآن العظيم (٣٣٠٥).

(٢) تفسير القرآن العظيم (٦٠/ ٦).

(٣) أخرجه البخاري ومسلم، قال الشيخ الألباني: (صحيح) انظر ١٢٥٩ في صحيح الجامع.

الله خلق خلقه في ظلمة فألقىٰ عليهم من نوره فمن أصابه من ذلك النور اهتدىٰ ومن أخطأه ضل فلذلك أقول: جف القلب علىٰ علم الله»(١).

إذا حل نور الله في قلب عبده ∴ أضاءت بنور الله كل الجوارح
وأصبح عقل العبد يهدي بقلبه ∴ وأصبح كل الأمر حق وصالح
وانقادت الأركان للأمر وهلة ∴ وأدرك ذاك العبد كل المصالح
ونال بنور الله توفيق طاعة ∴ وأبعد عن خذلانه للقبائح
وسدد شأن العبد في كل طرفة ∴ وأسعد في الدارين وليس بكالح

✍ **قال ابن القيم** رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «أنه يكسب القلب نورًا، كما أن إطلاقه يكسبه ظلمة.

ولهذا ذكر سبحانه آية النور عقيب الأمم بغض البصر فقال: ﴿قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا۟ مِنْ أَبْصَـٰرِهِمْ وَيَحْفَظُوا۟ فُرُوجَهُمْ ۚ ذَٰلِكَ أَزْكَىٰ لَهُمْ﴾ [النور:٣٠].

ثم قال إثر ذلك: ﴿ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ مَثَلُ نُورِهِۦ كَمِشْكَوٰةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ﴾ [النور:٣٥].

أي: مثل نوره في قلب عبده المؤمن الذي امتثل أوامره واجتنب نواهيه.

---

(١) قال الألباني في «السلسلة الصحيحة» ٣/ ٦٤: أخرجه الآجري في «الشريعة» (ص ١٧٥)، وأخرجه الحاكم (١/ ٣٠)، وقال: «صحيح» ووافقه الذهبي. قلت: وإسناده صحيح رجاله كلهم ثقات. وله عند الآجري والترمذي (٢/ ١٠٧)، وأحمد (٢/ ١٧٦ و١٩٧) طرق أخرىٰ عن ابن الديلمي.

وإذا استنار القلب أقبلت وفود الخيرات إليه من كل ناحية، كما أنه إذا أظلم أقبلت سحائب البلاء والشر عليه من كل مكان. فما شئت من بدع وضلالة، واتباع هوىٰ، واجتناب هدىٰ، وإعراض عن أسباب السعادة، واشتغال بأسباب الشقاوة! فإن ذلك إنما يكشفه له النور الذي في القلب، فإذا فقد ذلك النور بقي صاحبه كالأعمىٰ الذي يجوس في حنادس الظلمات»(١).

✍ **وقال ابن القيم** رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «ومن عقوباتها: أي الذنوب: أنها تعمي بصيرة القلب، وتطمس نوره، وتسد طرق العلم، وتحجب مواد الهداية وقد قال مالك للشافعي لما اجتمع به ورأىٰ تلك المخايل: إني أرىٰ الله قد ألقىٰ علىٰ قلبك نورًا، فلا تطفئه بظلمة المعصية، ولا يزال هذا النور يضعف ويضمحل، وظلام المعصية يقوىٰ، حتىٰ يصير القلب في مثل الليل البهيم. فكم من مهلك يسقط فيه، وهو لا يبصره كأعمىٰ خرج بالليل في طريق ذات مهالك ومعاطب. فيا عزة السلامة، ويا سرعة العطب! ثم تقوىٰ تلك الظلمات، وتفيض من القلب إلىٰ الجوارح، فيغشىٰ الوجه منها سواد بحسب قوتها وتزايدها»(٢).

---

(١) الداء والدواء (٤١٦/ ١).

(٢) الداء والدواء (١٨٧/ ١).

فصل في

هدي العلماء في بدء مؤلفاتهم بسؤال التوفيق والاستعاذة من الخذلان

هذا فصل ذكرته أبين فيه ما جرت عليه عادت أكثر أهل العلم في بداية تصانيفهم ومقدمة مؤلفاتهم أنهم يبدؤون أولًا بعد البسملة التي يذكرونها طلبا للبركة من ذكر اسم الله الكريم ثم يعقبون بذكر شيئًا من الدعاء بالتوفيق والسداد والتيسير والإعانة والفتح ونحو ذلك راجين بذلك أن يستجيب الله دعائهم وينفع بكتبهم ويجعل فيها من البركة والخير والقبول في حياتهم وبعد مماتهم إلىٰ ما شاء الله تعالىٰ فهذه بعض النماذج اليسيرة من كل باب من أبواب العلم ذكرت نموذج ولم أحط بكل مقدمات كتب العلماء ولم استوفها كما قيل «حسبك من القلادة ما حاك بالعنق»(١).

[١] **قال الإمام البخاري في مقدمة كتابة «الجامع الصحيح»:**

«رب يسر وأعن يا كريم».

✍ **قال الحافظ الخطيب البغدادي في مقدمة كتابه «فضل علم السلف علىٰ علم الخلف»:**

---

(١) انظر (مجمع الأمثال للميداني) (١٩٦/ ١)، ويقال: «حسبك من القلادة ما أحاك بالعنق». «أي اكتف بالقليل من الكثير» ويضرب في وجوب الاكتفاء من الشيء بما تتم به الحاجة.

«رب يسر وأعن يا كريم.

[٢] وقال الشريف الشرف العمريطي رَحِمَهُ ٱللَّهُ في نظمه لـ «متن الورقات في أصول الفقه» للإمام الجويني:

وقد سئلت مدة في نظمه ∴ مسهلا لحفظه وفهمه

فلم أجد مما سئلت بدا ∴ وقد شرعت فيه مستمدا

من ربنا التوفيق للصواب ∴ والنفع في الدارين بالكتاب

[٣] وقال العلامة الرحبي في منظومته الفرضية «الرحبية»:

ونسأل الله لنا الإعانة ∴ فيما توخينا من الإبانة

[٤] قال ابن جماعة في كتابه «آداب العالم والمتعلم»:

«وبه توفيقي»..... والله تعالىٰ يوفقنا للعلم والعمل ويبلغنا من رضوانه غاية الأمل».

[٥] أخرج ابن كثير في «تفسيره» (٤/ ٣٤٥) تفسير سورة هود آية «وما توفيقي إلا بالله»:

روىٰ ابن عيينة رَحِمَهُ ٱللَّهُ وقال عثمان بن أبي شيبة: حدثنا جرير، عن أبي سليمان العتبي قال: كانت تجيئنا كتب عمر بن عبد العزيز فيها الأمر والنهي، فيكتب في آخرها: وما كانت من ذلك إلا كما قال العبد الصالح: ﴿وَمَا تَوْفِيقِيٓ إِلَّا بِٱللَّهِۚ عَلَيۡهِ تَوَكَّلۡتُ وَإِلَيۡهِ أُنِيبُ﴾ [هود:٨٨].

[٦] قال الإمام المزني رَحِمَهُ ٱللَّهُ في «شرح السنة»:

«بسم الله الرحمن الرحيم: عصمنا وإياكم بالتقوىٰ ووفقنا وإياكم لموافقة الهدىٰ».

ثم قال في خاتمة الكتاب:

«ووفقنا الله وإياك إلىٰ سبيله الأقوم بمنة الجزيل الأقدم وجلاله العلي الأكرم والسلام علىٰ قرأ علينا السلام ولا ينال سلام الله الضالين والحمد لله رب العالمين».

[٧] وقال الحافظ البغدادي رَحِمَهُ ٱللَّهُ في كتابه «اقتضاء العلم العمل»:

«نشكر الله سبحانه وتعالىٰ علىٰ ما ألهمنا، ونسأله التوفيق للعمل بما علمنا، فإن الخير لا يدرك إلا بتوفيقه ومعونته ومن يضلل الله فلا هادي له من خليقته».

[٨] وقال الحافظ البربهاري في كتابه «شرح السنة»:

«الحمد لله الذي هدانا للإسلام ومن علينا به وأخرجنا من خير أمة، فنسأبه التوفيق لما يحب ويرضىٰ والحفظ مما يكره ويسخط».

[٩] وقال العلامة أبو جعفر الطحاوي في «العقيدة الواسطية»:

«نقول في توحيد الله معتقدين بتوفيق الله»

[١٠] وقال العلامة السعدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ في كتابه «إرشاد أولي البصائر والألباب» ويذكر مثل هذا في أكثر الإجابات علىٰ أسئلة الكتاب رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

سؤال: ما حكم الماء المتغير؟

الجواب: وبالله التوفيق ومنه استمد الهداية والإصابة.

يدخل تحت هذا السؤال أنواع كثيرة وأفراد متعددة.

[١١] قال الإمام ابن الجوزي رَحِمَهُ ٱللَّهُ **في كتابه «حفظ العمر»**:

«نسأل الله توفيقا يحرسنا من الزلل ويحثنا علىٰ الجد والإخلاص في العمل والله الموفق».

[١٢] وقال ابن رجب الحنبلي رَحِمَهُ ٱللَّهُ **في كتابه «لطائف المعارف»**:

﴿وَمَا تَوْفِيقِيٓ إِلَّا بِٱللَّهِۚ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ﴾ [هود:٨٨].

إلىٰ أن قال: «والله تعالىٰ المسؤول أن ينفعنا وعباده المؤمنين ويوفقنا لما يحب ويرضىٰ ويختم لنا بخير في عافية فإنه أكرم الأكرمين وأرحم الراحمين آمين».

[١٣] قال الإمام البيهقي في كتابه «عقيدة السلف وأصحاب الحديث»:

[فاستخرت الله تعالىٰ، وأثبت في هذا الجزء ما تيسر منها علىٰ سبيل الاختصار، رجاء أن ينتفع به أولو الألباب والأبصار، والله سبحانه يحقق الظن، ويجزل علينا المن بالتوفيق للصواب، والصدق والهداية، والاستقامة علىٰ سبيل الرشد والحق بمنه وفضله].

في نسخة: (بالتوفيق للصواب، والصدق والهداية).

✍ **وقال شيخ الإسلام** رَحِمَهُ ٱللَّهُ: وبعد هذا: فأسأل الله العظيم رب العرش العظيم أن يوفقنا وإياكم لما يحبه ويرضاه من القول والعمل ويرزقنا

اتباع هدي نبيه ﷺ باطنًا وظاهرًا ويجمع علىٰ الهدىٰ شملنا ويقرن بالتوفيق أمرنا ويجعل قلوبنا علىٰ قلب خيارنا ويعصمنا من الشيطان ويعيذنا من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا. وقد كتبت هذا الكتاب وتحريت فيه الرشد وما أريد إلا الإصلاح ما استطعت وما توفيقي إلا بالله ومع هذا فلم أحط علما بحقيقة ما بينكم ولا بكيفية أموركم وإنما كتبت علىٰ حسب ما فهمت من كلام من حدثني والمقصود الأكبر إنما هو إصلاح ذات بينكم وتأليف قلوبكم[(١)].[(٢)]

---

(١) مجموع الفتاوىٰ (٦/ ٥٠٦)، مسألة نفي الرؤية للكفار لله تعالىٰ يوم القيامة.

(٢) عقيدة السلف وأصحاب الحديث (١-٢/ ١).

فصل في

التوفيق نعمة من الله وهبة من مواهبه وأهميته للعبد المؤمن

✍ **قال العلامة السعدي** رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «فمن لطفه بعبده المؤمن، أن هداه إلىٰ الخير هداية لا تخطر بباله، بما يسر له من الأسباب الداعية إلىٰ ذلك، من فطرته علىٰ محبة الحق والانقياد له وإيزاعه تعالىٰ لملائكته الكرام، أن يثبتوا عباده المؤمنين، ويحثوهم علىٰ الخير، ويلقوا في قلوبهم من تزيين الحق ما يكون داعيًا لاتباعه»(١).

وقال رَحِمَهُ ٱللَّهُ في تفسير قوله تعالىٰ: ﴿وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ ﴿٣٦﴾﴾ [الزمر:٣٦] لأنه لا طريق يوصل إليه إلا توفيقه والتوفيق للإقبال علىٰ كتابه، فإذا لم يحصل هذا، فلا سبيل إلىٰ الهدىٰ، وما هو إلا الضلال المبين والشقاء(٢).

✍ **قال العلامة السعدي** رَحِمَهُ ٱللَّهُ في تفسير قوله تعالىٰ: ﴿وَكُن مِّنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿٦٦﴾﴾ [الزمر:٦٦]:

«الشاكرين لله علىٰ توفيق الله تعالىٰ، فكما أنه تعالىٰ يُشكر علىٰ النعم

---

(١) «تيسير الكريم الرحمن» ٧٥٦/ ١().

(٢) «تيسير الكريم الرحمن» ٧٢٣/ ١().

الدنيوية، كصحة الجسم وعافيته، وحصول الرزق وغير ذلك، كذلك يُشكر ويُثنىٰ عليه بالنعم الدينية، كالتوفيق للإخلاص، والتقوىٰ، بل نعم الدين، هي النعم علىٰ الحقيقة، وفي تدبر أنها من الله تعالىٰ والشكر لله عليها، سلامة من آفة العجب التي تعرض لكثير من العاملين، بسبب جهلهم، وإلا فلو عرف العبد حقيقة الحال، لم يعجب بنعمة تستحق عليه زيادة الشكر»(١).

وقد وردت كل الأدلة السابقة التي هي من معاني التوفيق علىٰ صيغة السؤال والطلب لان المعطي لها الكريم ولا يهبها إلا لكريم عليه فالتوفيق نعمة ومنة من أجل النعم وهي نعمة موصلة لأعظم النعم ومنجية بفضل ورحمته من أعظم النقم فهي نعمة غالية توصل إلىٰ جنة عالية والسلعة الغالية فالغالي لا يعطي إلا لغالي كما قال النبي ﷺ لزهير: «**لكنك عند الله لست بكاسد بل أنت غال**»(٢).

✍ **قال ابن القيم** رَحِمَهُ ٱللَّهُ: رب ذو إرادة أمر عبدًا ذا إرادة فإن وفقه وأراد من نفسه أن يعينه ويلهمه فعل ما أمر به وإن خذله وخلاه وإرادته ونفسه وهو من هذه الحثيثة لا يختار إلا ما تهواه نفسه وطبعه فهو من حيث هو إنسان لا يريد إلا ذلك ولذلك ذمه الله في كتابه من هذه الحثيثة ولم يمدحه إلا بأمر زائد علىٰ تلك الحثيثة وهو كونه مسلمًا ومؤمنًا وصابرًا ومحسنًا وشكورًا وتقيًّا وبرًا ونحو ذلك وهذا أمر زائد علىٰ مجرد كونه إنسانًا وإرادته صالحة

---

(١) «تيسير الكريم الرحمن» ٧٢٩/ ١().

(٢) أخرجه (أحمد) ١٢٦٦٩، وابن حبان ٥٧٩٠، وصححه الألباني في مختصر الشمائل: ٢٠٤، وصحيح الجامع: ٢٠٨٧، وصحيح موارد الظمآن: ١٩٣٣.

ولكن لا يكفي مجرد صلاحيتها إن لم تؤيد بقدر زائد علىٰ ذلك وهو التوفيق كما أنه لا يكفي في الرؤية مجرد صلاحية العين للإدراك إن لم يحصل سبب آخر من النور المنفصل عنها(١).

✍ **وقال الشافعي** رَحِمَهُ ٱللَّهُ: أصل العمل التوفيق وثمرته النجاح(٢).

✍ **وقال ابن رجب** رَحِمَهُ ٱللَّهُ: التوفيق كله بيد الله عَزَّوَجَلَّ فمن يسر عليه الهدىٰ اهتدىٰ ولم يسر له الهدىٰ لم يتيسر(٣).

✍ **وقال عبدالله بن وهب** رَحِمَهُ ٱللَّهُ: فإن من سعادة العبد أن يوفق للخير وإن من شقاوة المرء أن لا يزال يخطئ(٤).

✍ **وقال بعض السلف**: «ما نزل من السماء أعز من التوفيق ولا صعد من الأرض أعز من الإخلاص»(٥).

✍ **وقال ابن القيم** رَحِمَهُ ٱللَّهُ «فإن من لم ير نعمة الله عليه إلا في مأكله وملبسه وعافية بدنه وقيام وجهه بين الناس فليس له نصيب من هذا النور ألبتة فنعمة الله بالإسلام والإيمان وجذب عبده إلىٰ الإقبال عليه والتنعم بذكره والتلذذ بطاعته هو أعظم النعم وهذا إنما يدرك بنور العقل وهداية

---

(١) الفوائد (١٨٧/ ١).

(٢) تاريخ ابن عساكر (١٥/ ٦).

(٣) شرح ابن رجب للأربعين النووية (٢٢٨/ ١).

(٤) ترتيب المدارك (١/ ١٨٦).

(٥) التحبير شرح التحرير (٦٢).

التوفيق»[١].

✍ **قال الشاعر:**

مـن خصـه الله بـالتوفيق فهـو بـه ∴ مقـارن لسـديد الأمـر أصـوبه

✍ **وقال الشيخ حافظ حكمي** رَحِمَهُ ٱللَّهُ **في «سلم الوصول إلىٰ علم الأصول»:**

٣٩. منفـرد بـالخلق والإرادة ∴ وحـاكم -جـل- بمـا أراده

٤٠. فمـن يشـأ وفقـه بفضـله ∴ ومـن يشـأ أضـله بعدلـه

٤١. فمـنهم الشـقي والسـعيد ∴ وذا مقـرب وذا طريـد

٤٢- لحكمـة بالغـة قضـاها ∴ يسـتوجب الحمـد علـىٰ اقتضـاها

✍ **وقال بعض العارفين من الصوفية[٢]:**

مـن أيـن أرضـيك إلا أن تـوفقني ∴ هيهات هيهات ما التوفيق من قبلي

إن لـم يكـن لـي في المقـدور سـابقة ∴ فلـيس ينفـع مـا قـدمت مـن عملـي

✍ **وقال العلامة حافظ حكمي في «المنظومة الميمية في الوصايا والآداب العلمية»:**

واضـرع إلـىٰ الله في التوفيـق مبـتهلا ∴ فهـو المجيـب وأهـل المـن والكـرم

---

(١) بدائع الفوائد (١٤٤/ ١).

(٢) مدارج السالكين (١٢٩/ ٣).

✍ **قال أبو فراس الحمداني في ديوانه:**

إذا لم يعنك الله فيما ترومه ∴ فليس لمخلوق إليه سبيل
وإن هو لم ينصرك لم تلق ناصرا ∴ وإن عز أنصار وجل قبيل
وإن هو لم يرشدك في كل مسلك ∴ ضللت، ولو أن السماك دليل!

✍ **قال ابن علان في «دليل الفالحين»**: «التوفيق عزيز ولذا لم يذكر في القرآن إلا في قوله تعالىٰ: ﴿وَمَا تَوْفِيقِيٓ إِلَّا بِٱللَّهِۚ﴾ [هود:٨٨]»(١).

✍ **قال نصر بن إبراهيم أنشدنا أبو عمر أحمد بن زكريا الأنصاري لعبد الملك بن جمهور الفقيه القرطبي رَحِمَهُمَا ٱللَّهُ:**

من أين أرضيك إلا أن توفقني ∴ هيهات هيهات فما التوفيق من قبلي(٢)

✍ **قال الأحنف بن قيس**: «العقل خير قرين والأدب خير ميراث والتوفيق خير قرين»(٣).

✍ **قال سليمان الداراني يقول**: «إن السحاب تجري بالريح وإن العباد إنما يجرون بالتوفيق وإن التوفيق علىٰ قدر القربة والله المستعان»(٤).

✍ **قال علي بن أبي طالب** رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ: «التوفيق خير قائد وحسن الخلق خير

---

(١) دليل الفالحين (٢٨/ ١).
(٢) تاريخ مدينة دمشق (٣٧٨/ ١٢).
(٣) تاريخ مدينة دمشق (٢٤/ ٣٣٩).
(٤) تاريخ مدينة دمشق (١٤٢/ ٣٤).

قرين والعقل صاحب والأدب خير ميراث»[١].

✍ **وقال ابن القيم** رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «وقد أجمع العارفون علىٰ أن كل خير فأصله بتوفيق الله للعبد وكل شر فأصله خذلانه لعبده»[٢].

✍ **وقال ابن أبي العز الحنفي** رَحِمَهُ ٱللَّهُ: فاعلم أن أسباب الخير ثلاثة: الإيجاد، والإعداد، والإمداد. فإيجاد هذا خير، وهو إلىٰ الله، وكذلك إعداده وإمداده، فإن لم يحدث فيه إعداد ولا إمداد حصل فيه الشر بسبب هذا العدم الذي ليس إلىٰ الفاعل، وإنما إليه ضده[٣].

✍ **وقال أحمد بن أبي الحواري**: سمعت أبا سليمان الداراني يقول: «قال إن السحاب تجري بالريح وإن العباد إنما يجرون بالتوفيق وإن التوفيق علىٰ قدر القربة والله المستعان»[٤].

✍ **وقال ابن القيم** رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «لا تحسب نفسك هي التي ساقتك إلىٰ فعل الخيرات بل إنك عبد أحبك الله فلا تفرط في هذه المحبة»[٥].

✍ **وقال شيخ الإسلام** رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «فليس الفضل بكثرة الاجتهاد ولكن

---

(١) تاريخ مدينة دمشق (٤٢/ ٥١٣).

(٢) الفوائد (٩٧/ ١).

(٣) شرح الطحاوية (٢٣٣/ ١).

(٤) تاريخ مدينة دمشق لا بن عساكر (١٤٢/ ٣٤).

(٥) عدة الصابرين (٣٠٤/ ١).

بالهدىٰ والسداد»(١).

✍ **وقال** رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «فالإنسان لا يأتيه الخير إلا من ربه وإحسانه وجوده ولا يأتيه الشر إلا من نفسه»(٢).

✍ **وقال العلامة السعدي** رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «وليعلم العبد أن الله مسبب الأسباب وميسرها فإياك أن تعجب بنفسك وحذقك وذكائك فإن هذا هو الهلاك وإنما الكمال أن تخضع لربك وتكون مفتقرا إليه علىٰ الدوام»(٣).

✍ **وقال ابن القيم** رَحِمَهُ ٱللَّهُ: أساس الخير أن تؤمن بما شاءه تعالىٰ أساس كل خير أن تعلم أن ما شاء الله كان، وما لم يشأ لم يكن. فتيقن حينئذ أن الحسنات من نعمه، فتشكره عليها، وتتضرع إليه أن لا يقطعها عنك، وأن السيئات من خذلانه وعقوبته، فتبتهل إليه أن يحول بينك وبينها، ولا يكلك في فعل الحسنات وترك السيئات إلىٰ نفسك(٤).

✍ **وقال ابن القيم** رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «فإن أفضل ما يقدر الله لعبده وأجل ما يقسمه له الهدىٰ وأعظم ما يبتليه به ويقدره عليه الضلال وكل نعمة دون نعمة الهدىٰ وكل مصيبة دون مصيبة الضلال»(٥).

---

(١) الفتاوىٰ الكبرىٰ (٥/ ٢٩٩).

(٢) مجموع الفتاوىٰ (١٤/ ٢٧٣).

(٣) الرياض الناظرة (١٨٤).

(٤) الفوائد(١٠١/ ١).

(٥) شفاء العليل في مسائل القدر (٦٥/ ١).

✍ **وقال ابن القيم** رَحِمَهُ ٱللَّهُ: ولو لم يكن إلا أن فاضل بين عباده في مراتب الكمال حتىٰ عدل الآلاف المؤلفة منهم بالرجل الواحد ذلك ليعلم عباده أنه أنزل التوفيق منازله ووضع الفضل مواضعه وأنه يختص برحمته من يشاء وهو العليم الحكيم وأن الفضل بيد الله يؤتيه من يشاء والله ذو الفضل العظيم(١).

✍ **قال ابن القيم** رَحِمَهُ ٱللَّهُ: فإن أفضل ما يقدر الله لعبده وأجل ما يقسمه له الهدىٰ وأعظم ما يبتليه به ويقدره عليه الضلال وكل نعمة دون نعمة الهدىٰ وكل مصيبة دون مصيبة الضلال(٢).

✍ **قال ابن القيم** رَحِمَهُ ٱللَّهُ: والتوفيق إرادة الله من نفسه أن يفعل بعبده ما يصلح به العبد بأن يجعله قادرا علىٰ فعل ما يرضيه مريدا له محبا له مؤثرا له علىٰ غيره ويبغض إليه ما يسخطه ويكرهه إليه وهذا مجرد فعله والعبد محل له قال تعالىٰ ولكن الله حبب إليكم الإيمان وزينه في قلوبكم وكره إليكم الكفر والفسوق والعصيان أولئك هم الراشدون فضلا من الله ونعمة والله عليم حكيم فهو سبحانه عليم بمن يصلح لهذا الفضل ومن لا يصح له حكيم يضعه في مواضعه وعند أهله لا يمنعه أهله ولا يضعه عند غير أهله(٣).

✍ **وقال علي بن مرضي أبو الحسن التنوخي**، وكان شاعرًا مكثرًا فمن شعره ما أنشدنيه أبو اليسر شاكر بن عبد الله بن محمد بن سليمان الكاتب

---

(١) إعلام الموقعين (٣/ ١).

(٢) شفاء العليل (٦٥/ ١).

(٣) مدارج السالكين (٤١٥/ ١).

بدمشق(١).

تولىٰ الشباب وحان الممات ∴ وقرب لي الشيب إتيانه
ويعلم ما في الكتاب الزكي ∴ من حيث ينظر عنوانه
إذا مت جاورت من لم يزل ∴ يجير من النار جيرانه
فأسأل توفيقه في المعاد ∴ ورحمته لي وغفرانه
فليس الموفق إلا الذي ∴ يوفقه الله سبحانه

✍ **وقال الشيخ العثيمين** رَحِمَهُ ٱللَّهُ: بل نقول: إذا وفقت للعمل الصالح فهذا نعمة قد أضل الله عَزَّوَجَلَّ عنها أمما، وإذا كان نعمة احتاج إلىٰ شكر، وإذا شكرت فهي نعمة تحتاج إلىٰ شكر آخر، ولهذا قال الشاعر:

إذا كان شكري نعمة الله نعمة ∴ علي له في مثلها يجب الشكر
فكيف بلوغ الشكر إلا بفضله ∴ وإن طالت الأيام واتصل العمر(٢)

❁ **ومن الأدلة علىٰ نعمة التوفيق:**

قوله تعالىٰ: ﴿إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُۚ وَٱذۡكُر رَّبَّكَ إِذَا نَسِيتَ وَقُلۡ عَسَىٰٓ أَن يَهۡدِيَنِ رَبِّي لِأَقۡرَبَ مِنۡ هَٰذَا رَشَدٗا ٢٤﴾ [الكهف:٢٤].

✍ **قال العلامة السعدي** رَحِمَهُ ٱللَّهُ: ولما كان العبد مفتقرا إلىٰ الله في توفيقه للإصابة، وعدم الخطأ في أقواله وأفعاله، أمره الله أن يقول: ﴿عَسَىٰٓ أَن يَهۡدِيَنِ

---

(١) تاريخ دمشق (٢٣٢/ ٤٣).
(٢) شرح الأربعين النووية العثيمين (٢٩٧/ ١).

﴿رَبِّي لِأَقْرَبَ مِنْ هَٰذَا رَشَدًا ﴿٢٤﴾﴾ [الكهف:٢٤] فأمره أن يدعو الله ويرجوه، ويثق به أن يهديه لأقرب الطرق الموصلة إلىٰ الرشد. وحري بعبد، تكون هذه حاله، ثم يبذل جهده، ويستفرغ وسعه في طلب الهدىٰ والرشد، أن يوفق لذلك، وأن تأتيه المعونة من ربه، وأن يسدده في جميع أموره(١).

❁ وقوله تعالىٰ: ﴿❁ وَتَرَى ٱلشَّمْسَ إِذَا طَلَعَت تَّزَٰوَرُ عَن كَهْفِهِمْ ذَاتَ ٱلْيَمِينِ وَإِذَا غَرَبَت تَّقْرِضُهُمْ ذَاتَ ٱلشِّمَالِ وَهُمْ فِي فَجْوَةٍ مِّنْهُ ۚ ذَٰلِكَ مِنْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ ۗ مَن يَهْدِ ٱللَّهُ فَهُوَ ٱلْمُهْتَدِ ۖ وَمَن يُضْلِلْ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ وَلِيًّا مُّرْشِدًا ﴿١٧﴾﴾ [الكهف:١٧].

✍ **قال السعدي** رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «أي: لا سبيل إلىٰ نيل الهداية إلا من الله، فهو الهادي المرشد لمصالح الدارين، ﴿وَمَن يُضْلِلْ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ وَلِيًّا مُّرْشِدًا﴾ أي: لا تجد من يتولاه ويدبره، علىٰ ما فيه صلاحه، ولا يرشده إلىٰ الخير والفلاح، لأن الله قد حكم عليه بالضلال، ولا راد لحكمه»(٢).

❁ وقوله تعالىٰ: ﴿وَهُدُوٓاْ إِلَى ٱلطَّيِّبِ مِنَ ٱلْقَوْلِ وَهُدُوٓاْ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْحَمِيدِ ﴿٢٤﴾﴾ [الحج:٢٤].

✍ **قال العلامة السعدي** «أو: وهدوا إلىٰ صراط الله الحميد، لأن الله كثيرًا ما يضيف الصراط إليه، لأنه يوصل صاحبه إلىٰ الله، وفي ذكر ﴿ٱلْحَمِيدِ﴾

---

(١) تيسير الكريم الرحمن (٤٧٤/ ١).

(٢) تيسير الكريم الرحمن (٤٧٢/ ١).

هنا، ليبين أنهم نالوا الهداية بحمد ربهم ومنته عليهم»(١).

❁ وقوله تعالىٰ: ﴿وَلَوْلَا نِعْمَةُ رَبِّي لَكُنتُ مِنَ ٱلْمُحْضَرِينَ ۝٥٧﴾ [الصافات:٥٧].

✍ **قال الحافظ ابن كثير** رَحِمَهُ ٱللَّهُ: أي: ولولا فضل الله علي لكنت مثلك في سواء الجحيم حيث أنت، محضر معك في العذاب، ولكنه تفضل علي ورحمني فهداني للإيمان، وأرشدني إلىٰ توحيده(٢).

✍ **وقال شيخ الإسلام** رَحِمَهُ ٱللَّهُ: ويجب أن يعلم العبد أن عمله من الحسنات هو بفضل الله ورحمته ومن نعمته كما قال أهل الجنة: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِي هَدَىٰنَا لِهَٰذَا وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِيَ لَوْلَآ أَنْ هَدَىٰنَا ٱللَّهُ﴾ [الأعراف:٤٣].

❁ وقال تعالىٰ: ﴿وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ ٱلْإِيمَٰنَ وَزَيَّنَهُۥ فِي قُلُوبِكُمْ وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ ٱلْكُفْرَ وَٱلْفُسُوقَ وَٱلْعِصْيَانَ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلرَّٰشِدُونَ﴾ [الحجرات:٧](٣).

❁ وقوله تعالىٰ: ﴿وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَن تُؤْمِنَ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۚ وَيَجْعَلُ ٱلرِّجْسَ عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ ۝١٠٠﴾ [يونس:١٠٠].

✍ **قال السعدي** رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «أي: بإرادته ومشيئته، وإذنه القدري الشرعي،

---

(١) تيسير الكريم الرحمن (٥٣٦/ ١).

(٢) تفسير القرآن العظيم (١٦/ ٧).

(٣) مجموع الفتاوىٰ (٤٤٢/ ٢).

فمن كان من الخلق قابلا لذلك، يزكو عنده الإيمان، وفقه وهداه»(١).

✍ **وقال صاحب «التفسير الميسر»**: «فما كان لنفس أن تؤمن بالله إلا بإذنه وتوفيقه فلا تجهد نفسك في ذلك فإن أمرهم إلىٰ الله»(٢).

❁ وقوله تعالىٰ: ﴿ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحۡسَنَ ٱلۡحَدِيثِ كِتَٰبٗا مُّتَشَٰبِهٗا مَّثَانِيَ تَقۡشَعِرُّ مِنۡهُ جُلُودُ ٱلَّذِينَ يَخۡشَوۡنَ رَبَّهُمۡ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمۡ وَقُلُوبُهُمۡ إِلَىٰ ذِكۡرِ ٱللَّهِۚ ذَٰلِكَ هُدَى ٱللَّهِ يَهۡدِي بِهِۦ مَن يَشَآءُۚ وَمَن يُضۡلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنۡ هَادٍ ٢٣﴾ [الزمر:٢٣].

✍ **قال السعدي**: «لأنه لا طريق يوصل إليه إلا توفيقه والتوفيق للإقبال علىٰ كتابه، فإذا لم يحصل هذا، فلا سبيل إلىٰ الهدىٰ، وما هو إلا الضلال المبين والشقاء(٣).

❁ **ومن الأدلة من السنة في هذا:**

❁ ما ورد عن أبي الأسود الديلي قال: «غدوت علىٰ عمران بن حصين يومًا من الأيام، فقال: يا أبا الأسود - فذكر الحديث - أن رجلًا من جهينة أو من مزينة أتىٰ النبي ﷺ فقال: يا رسول الله! أرأيت ما يعمل الناس اليوم ويكدحون فيه، شيء قضي عليهم، أو مضىٰ عليهم في قدر قد سبق، أو فيما يستقبلون مما أتاهم به نبيهم ﷺ واتخذت عليهم به الحجة؟ قال: «**بل شيء قضي عليهم ومضىٰ عليهم**». قال: فلم يعملون إذا يا رسول الله؟ قال: «**من**

---

(١) تيسير الكريم الرحمن (٧٨٢/ ١).

(٢) التفسير الميسر لسورة يونس (آية ١٠٠).

(٣) تيسير الكريم الرحمن (٧٢٢/ ١).

كان الله عَزَّوَجَلَّ خلقه لواحدة من المنزلتين يهيئه لعملها، وتصديق ذلك في كتاب الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّىٰهَا ۝٧ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَىٰهَا ۝٨﴾ [الشمس:٧-٨]».

وأورده السيوطي في «الجامع» مختصرًا بلفظ: «**من خلقه الله لواحدة من المنزلتين وفَّقه لعملها**»(١).

✍ **وانظر إلىٰ ما ذكره ابن الجوزي عن محمد بن سليمان القرشي قال:** بينا أنا أسير في طريق اليمن إذا أنا بغلام واقف في الطريق في أذنية قرطان في كل قرط جوهرة يضيء وجهه من ضوء تلك الجوهرة وهو يمجد ربه بأبيات من الشعر فسمعته يقول

مليك في السماء به افتخاري ∴ عزيز القدر ليس به خفاء

فدنوت منه فسلمت عليه فقال ما أنا براد عليك حتىٰ تؤدي من حقي ما يجب لي عليك قلت وما حقك قال أنا غلام علىٰ مذهب إبراهيم الخليل ﷺ لا أتغدىٰ ولا أتعشىٰ كل يوم حتىٰ أسير الميل والميلين في طلب الضيف.

فأجبته إلىٰ ذلك فرحب بي وسرت معه حتىٰ قربنا من خيمة شعر فلما

---

(١) قال الألباني في «السلسلة الصحيحة» ٥/ ٤٤٣: أخرجه أحمد (٤/ ٤٣٨)، أخرجه ابن جرير في «تفسيره» (٣٠/ ١٣٥).
قلت: وهذا إسناد صحيح، رجاله كلهم ثقات رجال مسلم.
الحديث أخرجه مسلم (٨/ ٤٨ - ٤٩)، والطبراني في «المعجم الكبير» (١٨/ ٢٢٣/ ٥٥٧).

قربنا من الخيمة صاح يا أختاه فأجابته جارية من الخيمة يالبيكاه فقال قومي إلىٰ ضيفنا فقالت الجارية حتىٰ أبدأ بشكر المولىٰ الذي سبب لنا هذا الضيف فقامت فصلت ركعتين شكرًا لله عَزَّوَجَلَّ.

فأدخلني الخيمة وأجلسني وأخذ الغلام الشفرة وأخذ عناقًا ليذبحها فلما جلست في الخيمة نظرت إلىٰ أحسن الناس وجها فكنت أسارقها النظر ففطنت ببعض لحظاتي إليها فقالت لي مه أما علمت أنه قد نقل إلينا عن صاحب يثرب ﷺ أن زنىٰ العينين النظر أما إني ما أردت بهذا أن أوبخك ولكني أردت أن أؤدبك لكي لا تعود إلىٰ مثل هذا.

فلما كان النوم بت أنا والغلام خارجا وباتت الجارية في الخيمة وكنت أسمع دوي القرآن الليل كله بأحسن صوت يكون وأرقه فلما أصبحت قلت للغلام صوت من كان ذلك فقال تلك أختي تحيي الليل كله إلىٰ الصباح فقلت يا غلام أنت أحق بهذا العمل من أختك أنت رجل وهي امرأة قال فتبسم وقال لي ويحك يا فتىٰ أما علمت أنه موفق ومخذول(١).

---

(١) صفوة الصفوة لابن الجوزي (٢/ ٣٠٥).

فصل في

مراتب الهداية

للهداية مراتب كثيرة متنوعة بحسب عمومها وخصوصها أو باعتبار أنواعها أو المستحقين والأهل لها.

✍ **قال العلامة ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ:**

فصل في مراتب الهداية الخاصة والعامة وهي عشر مراتب:

- **المرتبة الأولىٰ:** مرتبة تكليم الله لعبده يقظة بلا واسطة.
- **المرتبة الثانية:** مرتبة الوحي المختصة بالأنبياء.
- **المرتبة الثالثة:** إرسال الرسول الملكي إلىٰ الرسول البشري.
- **المرتبة الرابعة:** مرتبة التحديث.
- **المرتبة الخامسة:** مرتبة الإفهام.
- **المرتبة السادسة:** مرتبة البيان العام.
- **المرتبة السابعة:** مرتبة البيان الخاص.

قال: «وهذا البيان المستلزم للهداية الخاصة وهو بيان تقارنه العناية والتوفيق والاجتباء وقطع أسباب الخذلان وموادها عن القلب فلا تتخلف عنه الهداية البته.

❁ قال تعالىٰ: ﴿ إِن تَحۡرِصۡ عَلَىٰ هُدَىٰهُمۡ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهۡدِي مَن يُضِلُّ ﴾ [النحل:٣٧].

❁ وقال تعالىٰ: ﴿ إِنَّكَ لَا تَهۡدِي مَنۡ أَحۡبَبۡتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهۡدِي مَن يَشَآءُ ﴾ [القصص:٥٦].

فالبيان الأول شرط والثاني موجب.

- **المرتبة الثامنة:** مرتبة الإسماع.

- **المرتبة التاسعة:** مرتبة الإلهام.

- **المرتبة العاشرة:** مرتبة الرؤيا الصادقة(١).

---

(١) مدارج السالكين (٣٧-٤٥/ ١) بتصرف.

فصل في

أضرب الهداية وأنواعها

وهداية الله تعالىٰ للإنسان علىٰ أربعة أضرب:

[الأول]: الهداية التي عم بها كل مكلف، من العقل، والفطنة، والمعارف الضرورية، بل عم بها كل شيء بقدر فيه حسب احتماله، كقوله تعالىٰ: ﴿رَبُّنَا ٱلَّذِىٓ أَعۡطَىٰ كُلَّ شَىۡءٍ خَلۡقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ ۝٥٠﴾ [طه:٥٠].

[الثاني]: الهداية التي جعل للناس بدعائه إياهم علىٰ السنة الأنبياء، وإنزال القرآن، ونحو ذلك، وهو المقصود بقوله تعالىٰ: ﴿وَجَعَلۡنَٰهُمۡ أَئِمَّةً يَهۡدُونَ بِأَمۡرِنَا﴾ [الأنبياء:٧٣].

[الثالث]: التوفيق الذي يختص به من اهتدي، وهو المعني بقوله تعالىٰ: ﴿وَٱلَّذِينَ ٱهۡتَدَوۡاْ زَادَهُمۡ هُدًى﴾ [محمد:١٧]، وقوله: ﴿وَمَن يُؤۡمِنۢ بِٱللَّهِ يَهۡدِ قَلۡبَهُۥۚ﴾ [التغابن:١١].

[الرابع]: الهداية في الآخرة إلىٰ الجنة، وهو المعني بقوله تعالىٰ: ﴿ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى هَدَىٰنَا لِهَٰذَا﴾ [الأعراف:٤٣].

✍ **قال:** وهذه الهدايات الأربع مرتبة، فمن لم تحصل له الأولىٰ لم تحصل له الثانية، بل لا يصح تكليفه، ومن لم تحصل له الثانية لم تحصل له

الثالثة، والرابعة، ومن حصلت له الرابعة فقد حصل له الثلاث التي قبلها، ومن حصلت له الثالثة فقد حصل له اللتان قبلها، ثم ينعكس، فقد تحصل الأولىٰ، ولا يحمل الثاني، ويحصل الثاني، ولا يحصل الثالث، والإنسان لا يقدر أن يهدي أحدا إلا بالدعاء، وتعريف الطرق، دون سائر أنواع الهدايات.

وإلىٰ الأولىٰ أشار بقوله تعالىٰ: ﴿وَإِنَّكَ لَتَهْدِيٓ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسْتَقِيمٖ ۝٥٢﴾ [الشورى:٥٢].

﴿وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ ۝٧﴾ [الرعد:٧]، وإلىٰ سائر الهدايات أشار بقوله: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ﴾ [القصص:٥٦] قال: وكل هداية ذكر الله تعالىٰ أنه منع الظالمين والكافرين فهي الهداية الثالثة التي هي التوفيق الذي يختص به المهتدون، والرابعة التي هي الثواب في الآخرة، وإدخال الجنة ﴿كَيْفَ يَهْدِي ٱللَّهُ قَوْمًا كَفَرُواْ بَعْدَ إِيمَٰنِهِمْ﴾ [آل عمران:٨٦] إلىٰ قوله: ﴿وَٱللَّهُ لَا يَهْدِي ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ۝٨٦﴾ [آل عمران:٨٦].

وكل هداية نفاها الله عن النبي ﷺ، وعن البشر، وذكر أنهم غير قادرين عليها، فهي ما عدا المختص من الدعاء، وتعريف الطريق، وذلك كإعطاء العقل والتوفيق، وإدخال الجنة، كقوله تعالىٰ: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِي مَن يَشَآءُ﴾ [القصص:٥٦].

۞ وقوله تعالىٰ: ﴿أَفَمَن يَهْدِيٓ إِلَى ٱلْحَقِّ أَحَقُّ أَن يُتَّبَعَ أَمَّن لَّا يَهِدِّيٓ إِلَّآ أَن يُهْدَىٰ﴾ [يونس:٣٥]، أي: أن الله تعالىٰ هو الذي يهدي خلقه إلىٰ الحق، فهو

أحق بالاتباع ممن لا يهدي أن يهتدي بنفسه، يقال: هدىٰ بنفسه يهدي مخففا بمعنىٰ اهتدىٰ يهتدي، نحو شرىٰ يشري بمعنىٰ اشترىٰ يشتري، إلا أن يهدىٰ إلىٰ طريق يسلكها، أو عمل يرشده، وهذا استفهام توبيخ لهم علىٰ ما اتخذوه من دون الله إلها يعبد، وإن كان من أشرف الناس وخيرهم، كالمسيح، وعزير، والملائكة، يعني أن الله وحده هو الذي يهدي كل أحد، وغيره لا يهدي غيره إلا أن يهديه الله تعالىٰ.

قال: ولما كانت الهداية والتعليم يقتضي شيئين: تعريفا من المعرف، وتعرقا من المعرف، وبهما تتم الهداية والتعليم، فإنه متىٰ حصل البذل من الهادي والمعلم، ولم يحصل القبول صح أن يقال: لم يهد، ولم يعلم؛ اعتبارا بعدم القبول، وصح أن يقال: هدىٰ وعلم؛ اعتبارا ببذله، فإذا كان كذلك صح أن يقال: إن الله تعالىٰ لم يهد الكافرين والفاسقين من حيث إنه لم يحصل القبول الذي هو تمام الهداية والتعليم، وصح أن يقال: هداهم وعلمهم من حيث إنه حصل البذل الذي هو مبدأ الهداية، فعلىٰ الاعتبار الأول قوله تعالىٰ: ﴿لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ١٠٩﴾ [التوبة:١٠٩]، وعلىٰ الثاني قوله تعالىٰ: ﴿وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيۡنَٰهُمۡ فَٱسۡتَحَبُّواْ ٱلۡعَمَىٰ عَلَى ٱلۡهُدَىٰ﴾ [فصلت:١٧]، وقيل: معنىٰ ﴿ٱللَّهَ لَا يَهۡدِي كَيۡدَ ٱلۡخَآئِنِينَ ٥٢﴾ [يوسف:٥٢] أي لا يصلح، فاستعار الهداية للإصلاح، وهذا كقوله تعالىٰ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ سَيُبۡطِلُهُۥٓۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا﴾ [يونس:٨١]، والمعنىٰ لا يوفقهم لعمل أهل الخير.

❁ قوله تعالىٰ: ﴿وَإِن كَانَتۡ لَكَبِيرَةً إِلَّا عَلَى ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُۗ﴾ [البقرة:١٤٣]،

أشار به إلىٰ من هداه الله بالتوفيق المذكور في قوله تعالىٰ: ﴿وَٱلَّذِينَ ٱهۡتَدَوۡاْ زَادَهُمۡ هُدٗى﴾ [محمد:١٧]. قال بعضهم: الهداية والهدىٰ في موضوع اللغة واحد، ولكن خص الله تعالىٰ لفظ الهدىٰ بما تولاه وأعطاه، واختص به هو دون ما هو إلىٰ الإنسان، نحو ﴿هُدٗى لِّلۡمُتَّقِينَ ٢﴾ [البقرة:٢] والاهتداء يختص بما يتحراه الإنسان علىٰ طريق الاختيار، إما في الأمور الدنيوية، أو الأخروية، كقوله تعالىٰ: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِي جَعَلَ لَكُمُ ٱلنُّجُومَ لِتَهۡتَدُواْ بِهَا فِي ظُلُمَٰتِ ٱلۡبَرِّ وَٱلۡبَحۡرِۗ﴾ [الأنعام:٩٧]، فهذا يجوز أن يكون للهدايتين؛ لأنهم يهتدون بها في أسفارهم، وإلىٰ الجهة التي يتعبدون إليها لله تعالىٰ. ويقال أيضًا: اهتدىٰ: إذا طلب الهداية، ومنه قوله تعالىٰ: ﴿قَدۡ ضَلَلۡتُ إِذٗا وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلۡمُهۡتَدِينَ ٥٦﴾ [الأنعام:٥٦]، وإذا تحراها أيضًا، ومنه ﴿وَإِذۡ ءَاتَيۡنَا مُوسَى ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡفُرۡقَانَ لَعَلَّكُمۡ تَهۡتَدُونَ ٥٣﴾ [البقرة:٥٣]، أي تتحرون هدايتكم فيهما، والاهتداء أيضًا: الاقتداء بالعلماء، ومنه قوله تعالىٰ: ﴿أَوَلَوۡ كَانَ ءَابَآؤُهُمۡ لَا يَعۡلَمُونَ شَيۡـٔٗا وَلَا يَهۡتَدُونَ ١٠٤﴾ [المائدة:١٠٤]، تنبيها علىٰ أنهم لا يعلمون بأنفسهم، ولا يقتدون بمن يعلم، وقوله تعالىٰ: ﴿فَمَنِ ٱهۡتَدَىٰ فَلِنَفۡسِهِۦۖ﴾ [الزمر:٤١] هذا يتناول وجوه الاهتداء المتقدمة بأسرها، من طلب الهداية، وتحريها، والاقتداء بالعلماء.

وقيل في قوله تعالىٰ: ﴿وَإِنِّي لَغَفَّارٞ لِّمَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحٗا ثُمَّ ٱهۡتَدَىٰ ٨٢﴾ [طه:٨٢]، أي ثم أدام طلب الهداية، ولم يفتر عن تحريها، ولم يرجع إلىٰ المعصية، وفي قوله تعالىٰ: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ عَلَيۡهِمۡ صَلَوَٰتٞ مِّن رَّبِّهِمۡ وَرَحۡمَةٞۖ

﴿وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُهۡتَدُونَ ١٥٧﴾ [البقرة:١٥٧]، أي تحروا الهداية وقبلوها، وعملوا بها، ولم يخلوا بشرائطها. انتهىٰ كلام الراغب مختصرًا(١).

---

(١) «مفردات الألفاظ» ص ٨٣٥ - ٨٣٩. للراغب الأصفهاني، وانظر البحر الثجاج شرح «صحيح مسلم بن الحجاج» للإثيوبي رَحِمَهُ ٱللَّهُ (٢٤٨- ٢٥١/ ١).

فصل في

أنواع الهداية

✍ **قال العلامة الشنقيطي:**

وفي قوله تعالىٰ: يهد قلبه من نسبة الهداية إلىٰ القلب بيان لقضية الهداية العامة والخاصة، كما قالوا في قوله تعالىٰ عنه ﷺ: ﴿وَإِنَّكَ لَتَهْدِيٓ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسْتَقِيمٖ ۝٥٢﴾ [الشورى:٥٢]، مع قوله تعالىٰ: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِي مَن يَشَآءُۚ﴾ [القصص:٥٦].

فقالوا: الهداية الأولىٰ دلالة إرشاد.

كقوله تعالىٰ: ﴿وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَٰهُمْ فَٱسْتَحَبُّواْ ٱلْعَمَىٰ عَلَى ٱلْهُدَىٰ﴾ [فصلت:١٧].

والثانية: هداية توفيق وإرشاد ويشهد لذلك شبه الهداية من الله لقلب من يؤمن بالله(١).

✍ **قال القاضي عياض:** وذهب جمع من أهل العلم بأن الهداية في الآية هي الهداية بقسميها هداية دلالة وقبول وإرشاد وهداية توفيق وقبول.

---

(١) أضواء البيان (٨/ ٢٠٣).

فإن قوله: ﴿ ٱهۡدِنَا ﴾ إذا عدي بنفسه تضمن المعاني كلها من البيان والدلالة والإرشاد والإلهام والتوفيق والثبات علىٰ الصراط المستقيم(١).

✍ **قال البيضاوي**: وهداية الله تتنوع أنواعًا لا يحصيها عد وإن تعدُّوا نعمة الله لا تحصوها، لكنها تنحصر في أجناس مترتبة:

الأول: إفاضة القوىٰ التي بها يتمكن المرء من الاهتداء إلىٰ مصالحه، كالقوة العقلية والحواس الباطنة والمشاعر الظاهرة.

الثاني: نصب الدلائل الفارقة بين الحق والباطل والصلاح والفساد، وإليه الإشارة بقوله: ﴿وَهَدَيۡنَٰهُ ٱلنَّجۡدَيۡنِ ١٠﴾ [البلد:١٠]، وقال: ﴿فَهَدَيۡنَٰهُمۡ فَٱسۡتَحَبُّواْ ٱلۡعَمَىٰ عَلَى ٱلۡهُدَىٰ﴾ [فصلت:١٧].

الثالث: الهداية بإرسال الرسل وإنزال الكتب، وإياها عني بقوله: وجعلناهم أئمة يهدون بأمرنا، وقوله: ﴿ إِنَّ هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانَ يَهۡدِي لِلَّتِي هِيَ أَقۡوَمُ ﴾ [الإسراء:٩].

الرابع: أن يكشف عن قلوبهم السرائر ويريهم الأشياء كما هي بالوحي والإلهام والمنامات الصادقة. وهذا يختص بنيله الأنبياء والأولياء، وإياه عني بقوله: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُۖ فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقۡتَدِهۡ ﴾ [الأنعام:٩٠]، ﴿ وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ فِينَا لَنَهۡدِيَنَّهُمۡ سُبُلَنَاۚ ﴾ [العنكبوت:٦٩](٢).

---

(١) أقوال القاضي عياض (١/ ١).

(٢) البحر المديد (٦٤/ ١).

✍ **قال العلامة العثيمين** رَحِمَهُ ٱللَّهُ: بعض أهل العلم يقولون إن فعل الهداية كقوله هنا ﴿ ٱهۡدِنَا ﴾ إذا عدي بنفسه من غير واسطة بحرف جر يعدىٰ به فإن ذلك يدل علىٰ معنىٰ خاص، وهو: الهداية بمعنىٰ الإلهام والتوفيق، أي كأنه يقول: ارزقنا اتباع الصراط المستقيم، فالهداية تعرفون أنها علىٰ نوعين: هداية توفيق؛ وهذه مختصة بالله عَزَّوَجَلَّ، وهي التي نفاها الله عَزَّوَجَلَّ عن نبيه ﷺ وأثبتها لنفسه في قوله ﴿ إِنَّكَ لَا تَهۡدِي مَنۡ أَحۡبَبۡتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهۡدِي مَن يَشَآءُ ﴾ [القصص:٥٦]، والهداية الثانية: هداية الإرشاد والدلالة إلىٰ الصراط المستقيم وإلىٰ الحق، وهذه ثابتة للنبي ﷺ ولكل الدعاة إلىٰ الله عَزَّوَجَلَّ من بعده كما قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَإِنَّكَ لَتَهۡدِيٓ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ﴾ [الشورى:٥٢] فأثبت الله له الهداية في موضع ونفاها عنه في موضع آخر وليس ذلك من التناقض، فالهداية المثبتة هي الدلالة والإرشاد، يدلهم، القرآن هدىٰ للأحمر والأسود بمعنىٰ الإرشاد والدلالة، وأما هداية التوفيق فهي التي يملكها الله عَزَّوَجَلَّ وحده يوفق من يشاء، وهذه هي التي قال الله فيها (يهدي من يشاء ويضل من يشاء) أي هداية التوفيق، فيهدي ويضل أي أنه يملك الهداية.

فهنا لما عداه بنفسه فقال ﴿ ٱهۡدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ ۝٦ ﴾ [الفاتحة:٦] يقول بعض أهل العلم: إن معناه: وفقنا ليس دلنا، وفقنا وألهمنا وارزقنا اتباع الصراط المستقيم، إذا عدي فعل الهداية بنفسه من غير واسطة، وهذا كقوله تبارك وتعالىٰ ﴿ ٱهۡدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ﴾، وبعض أهل العلم يقولون ﴿وَهَدَيۡنَٰهُ ٱلنَّجۡدَيۡنِ ۝١٠ ﴾ [البلد:١٠] يجعلونها من هذا القبيل وهذا فيه نظر في الآية الثانية، لأن الأقرب أن قوله ﴿وَهَدَيۡنَٰهُ ٱلنَّجۡدَيۡنِ﴾ أي بينا له طريق الخير وطريق

الشر، فهذه من هداية الدلالة والإرشاد.

فإذا عدي بنفسه إذا بعض العلماء يقولون، معناه: ألهمنا ووفقنا وارزقنا اتباعه، لأن الله هو الذي يملك ذلك وحده، لا أحد يستطيع أن يهدي أحدًا من الناس مهما أوتي من الأساليب والقدر(١).

✍ **وقال ابن القيم** رَحِمَهُ ٱللَّهُ: فاعلم أن أنواع الهداية أربعة:

- **أحدها:** الهداية العامة المشتركة بين الخلق المذكورة في قوله تعالىٰ: ﴿قَالَ رَبُّنَا ٱلَّذِىٓ أَعۡطَىٰ كُلَّ شَىۡءٍ خَلۡقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ ۝٥٠﴾ [طه:٥٠] فهذه أحد أنواع الهداية وأعمها:

- **النوع الثاني:** هداية البيان والدلالة والتعريف لنجدي الخير والشر وطريقي النجاة والهلاك وهذه الهداية لا تستلزم الهدىٰ التام فإنها سبب وشرط لا موجب ولهذا ينبغي الهدىٰ معها، كقوله تعالىٰ: ﴿وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيۡنَٰهُمۡ فَٱسۡتَحَبُّواْ ٱلۡعَمَىٰ عَلَى ٱلۡهُدَىٰ﴾ [فصلت:١٧]، أي بينا لهم وأرشدناهم ودللناهم فلم يهتدوا ومنها قوله: ﴿وَإِنَّكَ لَتَهۡدِىٓ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ ۝٥٢﴾ [الشورى:٥٢].

- **النوع الثالث:** هداية التوفيق والإلهام وهي الهداية المستلزمة للاهتداء فلا يتخلف عنها وهي المذكورة في قوله: ﴿يُضِلُّ مَن يَشَآءُ وَيَهۡدِى مَن يَشَآءُۚ﴾ [النحل:٩٣].

---

(١) تفسير سورة الفاتحة للعلامة العثيمين (٢/ ٧).

وفي قوله: ﴿ إِن تَحۡرِصۡ عَلَىٰ هُدَىٰهُمۡ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهۡدِي مَن يُضِلُّ ﴾ [النحل:٣٧].

وفي قول النبي ﷺ: «**من يهد الله فلا مضل له ومن يضلل فلا هادي له**» رواه مسلم وأحمد والبيهقي وفي قوله تعالىٰ: ﴿ إِنَّكَ لَا تَهۡدِي مَنۡ أَحۡبَبۡتَ ﴾ [القصص:٥٦]. فنفىٰ عنه هذه الهداية وأثبت له هداية الدعوة والبيان في قوله: ﴿وَإِنَّكَ لَتَهۡدِيٓ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ ٥٢﴾ [الشورى:٥٢].

- **النوع الرابع:** غاية هذه الهداية وهي الهداية إلىٰ الجنة والنار إذا سيق أهلهما إليهما.

❁ قال تعالىٰ: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ يَهۡدِيهِمۡ رَبُّهُم بِإِيمَٰنِهِمۡۖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهِمُ ٱلۡأَنۡهَٰرُ فِي جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ ﴾ [يونس:٩].

❁ وقال أهل الجنة فيها: ﴿ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ ٱلَّذِي هَدَىٰنَا لِهَٰذَا﴾ [الأعراف:٤٣].

❁ وقال تعالىٰ عن أهل النار: ﴿ٱحۡشُرُواْ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ وَأَزۡوَٰجَهُمۡ وَمَا كَانُواْ يَعۡبُدُونَ ٢٢ مِن دُونِ ٱللَّهِ فَٱهۡدُوهُمۡ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلۡجَحِيمِ ٢٣﴾ [الصافات:٢٢-٢٣].

إذا عُرف هذا فالهداية المسئولة في قوله: ﴿ ٱهۡدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ ٦ ﴾ [الفاتحة:٦] إنما تتناول المرتبة الثانية والثالثة خاصة فهي طلب التعريف والبيان والإرشاد والتوفيق والإلهام طلب التعريف والبيان والتوفيق(١).

---

(١) بدائع الفوائد (٣٥- ٣٧- ٣٨).

فصل في

كيف يسأل العبد الهداية وهو متصف بها؟

❁ قال الله تعالىٰ: ﴿ ٱهۡدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ ۝٦ ﴾ [الفاتحة:٦].

✍ **قال القاضي عياض** رَحِمَهُ ٱللَّهُ[(١)]: في معنىٰ «اهدني»[(٢)]: أي: ثبتني، مثل قوله: ﴿ ٱهۡدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ ۝٦ ﴾ [الفاتحة:٦].

ذهب القاضي إلىٰ أن معنىٰ قوله تعالىٰ: ﴿ ٱهۡدِنَا ﴾ أي: ثبتنا. وهذا المعنىٰ جاء عن علي وأبي بن كعب رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا.

وإنما فسر بعض أهل العلم الهداية بالثبات لئلا يقال: إن سؤال الهداية ممن هو مهتد تحصيل حاصل وهذا ليس بصحيح.

✍ **قال ابن كثير**[(٣)]: «وليس في ذلك تحصيل حاصل؛ لأن المراد الثبات والاستمرار والمداومة علىٰ الأعمال المعينة علىٰ ذلك».

---

(١) في «إكمال المعلم» ٣/ ١٣٤.

(٢) هذه اللفظة جزء من حديث أخرجه مسلم في «صلاة المسافرين وقصرها»، «باب الدعاء في صلاة الليل وقيامه»، حديث «٢٠٠» ورقمه العام «٧٧٠»، ١/ ٥٣٤.

(٣) في «تفسيره» ١/ ١٣٩، وانظر «معاني القرآن وإعرابه» ١/ ٤٩، «معاني القرآن الكريم» ١/ ٦٦، وسيأتي مزيد تأكيد لهذا المعنىٰ.

وذهب جمع من أهل العلم بأن الهداية في الآية هي الهداية بقسميها هداية دلالة وقبول وإرشاد وهداية توفيق وقبول فإن قوله ﴿ ٱهۡدِنَا ﴾ إذا عدي بنفسه تضمن المعاني كلها من البيان والدلالة والإرشاد والإلهام والتوفيق والثبات علىٰ الصراط المستقيم. فالثبات علىٰ الصراط معنىٰ من معاني الهداية التي يسألها العبد.

وإلىٰ هذا ذهب الطبري(١)، وابن عطية(٢)، وابن تيمية(٣)، وابن القيم(٤)، وابن كثير(٥)، والسعدي(٦)، وغيرهم.

✍ **قال الطبري**(٧): «ومعناه نظير معنىٰ قوله: ﴿إِيَّاكَ نَعۡبُدُ ﴾ في أنه مسألة من العبد ربه بالتوفيق للثبات علىٰ العمل بطاعته، وإصابة الحق والصواب، فيما أمره به، ونهاه عنه فيما يستقبل من عمره فأعنا علىٰ عبادتك، ووفقنا لما وفقت له من أنعمت عليه».

---

(١) في «جامع البيان» ١/ ١٦٦.

(٢) في «المحرر الوجيز» ١/ ٧.

(٣) انظر «مجموع الفتاوىٰ» ١٤/ ٣٧، ٣٢٠.

(٤) في «بدائع الفوائد» ٢/ ٢٠.

(٥) في «تفسيره» ١/ ١٣٧.

(٦) في «تيسير الكريم الرحمن» ١/ ٢٩. وانظر «معالم التنزيل» ١/ ٥٤، و«محاسن التأويل» للقاسمي١/ ٢٢٨، و«اللباب في تفسير الاستعاذة والبسملة وفاتحة الكتاب» للدكتور سليمان اللاحم ص ٢٧١.

(٧) في «جامع البيان» ١/ ١٦٦.

✍ **وقال ابن القيم**(١) بعد أن ذكر قسمي الهداية -: «وهما هدايتان مستقلتان، لا يحصل الفلاح إلا بهما، وهما متضمنتان تعريف ما لم نعلمه من الحق تفصيلًا وإجمالًا وإلهامنا له، وجعلنا مريدين لاتباعه ظاهرًا وباطنًا، ثم خلق لنا القدرة علىٰ القيام بموجب الهدىٰ بالقول والعمل ثم إدامة ذلك لنا وتثبيتنا عليه إلىٰ الوفاة، ثم قال: ومن هنا يعلم اضطرار العبد إلىٰ سؤال هذه الدعوة فوق كل ضرورة وبطلان قول من يقول: إذا كنا مهتدين فكيف نسأل الهداية؟ فإن المجهول لنا من الحق أضعاف المعلوم، وما لا نريد فعله تهاونا وكسلا مثل ما نريده أو أكثر منه أو دونه، وما لا نقدر عليه مما نريده كذلك. وما نعرف جملته ولا نهتدي لتفاصيله فأمر يفوت الحصر، ونحن محتاجون إلىٰ الهداية التامة، فمن كملت له هذه الأمور كان سؤال الهداية له سؤال التثبيت والدوام».

✍ **وقال ابن كثير**(٢): «والهداية ها هنا: الإرشاد والتوفيق.. ثم قال(٣): فإن العبد مفتقر في كل ساعة وحالة إلىٰ الله في تثبيته علىٰ الهداية ورسوخه فيها وتبصره، وازدياده منها، واستمراره عليها».

✍ **قال ابن عجيبة في «تفسيره»**: «فإن قلت: إذا كان العبد ذاهبًا علىٰ هذا المنهاج المستقيم، فكيف يطلب ما هو حاصل؟ فالجواب: أنه طلب التثبيت علىٰ ما هو حاصل، والإرشاد إلىٰ ما هو ليس بحاصل، فأهل مقام الإسلام

---

(١) في «مدارج السالكين» ١/ ٣١، «بدائع الفوائد» ٢/ ٣٧.

(٢) في «تفسيره» ١/ ١٣٧.

(٣) «تفسير القرآن العظيم» (١/ ١٣٩).

يطلبون الثبات علىٰ الإسلام، الذي هو حاصل، والترقي إلىٰ مقام الإيمان الذي ليس بحاصل، علىٰ طريق الصوفية، الذين يخصون العمل الظاهر بمقام الإسلام، والعمل الباطن بمقام الإيمان، وأهل الإيمان يطلبون الثبات علىٰ الإيمان الذي هو حاصل، والترقي إلىٰ مقام الإحسان الذي ليس بحاصل، وأهل مقام الإحسان يطلبون الثبات علىٰ الإحسان، والترقي إلىٰ مالا نهاية له من كشوفات العرفان وفوق كل ذي علم عليم.

✍ **وقال الشيخ أبو العباس المرسي** رضي الله عنه: ﴿ ٱهۡدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ ﴾ بالتثبيت فيما هو حاصل، والإرشاد فيما ليس بحاصل، ثم قال: عموم المؤمنين يقولون: ﴿ ٱهۡدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ ﴾ أي: بالتثبيت فيما هو حاصل، والإرشاد لما ليس بحاصل، فإنه حصل لهم التوحيد وفاتهم درجات الصالحين، والصالحون يقولون:

﴿ ٱهۡدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ ﴾ معناه: نسألك التثبيت فيما هو حاصل والإرشاد إلىٰ ما ليس بحاصل، فإنهم حصل لهم الصلاح وفاتهم درجات الشهداء، والشهداء يقولون: ﴿ ٱهۡدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ ﴾ أي بالتثبيت فيما هو حاصل والإرشاد إلىٰ ما ليس بحاصل، فإنهم حصلت لهم الشهادة وفاتهم درجات الصديقين، والصديقون يقولون: ﴿ ٱهۡدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ ﴾ أي: بالتثبيت فيما هو حاصل والإرشاد إلىٰ ما ليس بحاصل، فإنهم حصل لهم درجات الصديقين(١).

---

(١) البحر المديد في تفسير القرآن المجيد (٦٣/ ١).

✍ **وقال الشيخ ابن باز** رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «فأنت بحاجة إلىٰ الهداية لو كنت أتقىٰ الناس، ولو كنت أعلم الناس، أنت بحاجة إلىٰ الهداية حتىٰ تموت»(١).

✍ **وقال العلامة ابن القيم** رَحِمَهُ ٱللَّهُ: فالهداية المسئولة في قوله: ﴿ ٱهۡدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ ۝٦ ﴾ [الفاتحة:٦] إنما تتناول المرتبة الثانية والثالثة خاصة فهي طلب التعريف والبيان والإرشاد والتوفيق والإلهام طلب التعريف والبيان والتوفيق.

«فإن قيل: كيف يطلب التعريف والبيان وهو حاصل له وكذلك الإلهام والتوفيق؟

قلنا: لقد أجيب عنها بأن المراد التثبيت ودوام الهداية واعلم أن العبد لا يحصل له الهدىٰ التام المطلوب إلا بعد ستة أمور هو محتاج إليها حاجة لا غنىٰ له عنها:

الأمر الأول: معرفته في جميع ما يأتيه ويذره بكونه محبوبا للرب تعالىٰ مرضيا له فيؤثره وكونه مغضوبا له مسخوطا عليه فيجتنبه فإن نقص من هذا العلم والمعرفة شيء نقص من الهداية التامة بحسبه

الأمر الثاني: أن يكون مريد الجميع ما يحب الله منه أن يفعله عازما عليه ومريدا لترك جميع ما نهىٰ الله عازما علىٰ تركه بعد خطوره بالبال مفصلًا وعازما علىٰ تركه من حيث الجملة مجملا فإن نقص من إرادته لذلك شيء نقص من الهدىٰ التام بحسب ما نقص من الإرادة

---

(١) مجموع الفتاوىٰ (١٦٣/ ٧).

الأمر الثالث: أن يكون قائمًا به فعلًا وتركًا فإن نقص من فعله شيء نقص من هداه بحسبه

فهذه ثلاثة هي أصول في الهداية ويتبعها ثلاثة هي من تمامها وكمالها

أحدها: أمور هدي إليها جملة ولم يهتد إلىٰ تفاصيلها فهو محتاج إلىٰ هداية التفصيل فيها.

الثاني: أمرو هدي إليها من وجه دون وجه فهو محتاج إلىٰ تمام الهداية فيها لتكمل له هدايتها.

الثالث: الأمور التي هدي إليها تفصيلًا من جميع وجوهها فهو محتاج إلىٰ الاستمرار إلىٰ الهداية والدوام عليها، فهذه أصول تتعلق بما يعزم علىٰ فعله وتركه الأمر.

- **السابع:** يتعلق بالماضي وهو أمور وقعت منه علىٰ غير جهة الاستقامة فهو محتاج إلىٰ تداركها بالتوبة منها وتبديلها بغيرها وإذا كان كذلك فإنما يقال:

كيف يسأل الهداية وهي موجودة له؟

ثم يجاب عن ذلك بأن المراد التثبيت والدوام عليها، إذا كانت هذه المراتب حاصلة له بالفعل فحينئذ يكون سؤاله الهداية سؤال تثبيت ودوام.

فأما إذا كان ما يجهله أضعاف ما يعلمه وما لا يريده من رشده أكثر مما يريده ولا سبيل له إلىٰ فعله إلا بأن يخلق الله فاعليه فيه فالمسئول هو أصل الهداية علىٰ الدوام تعليمًا وتوفيقًا وخلقًا للإرادة فيه وإقدارًا له وخلقًا

للفاعلية وتثبيتا له علىٰ ذلك فعلم أنه ليس أعظم ضرورة منه إلىٰ سؤال الهداية أصلها وتفصيلها علمًا وعملًا والتثبيت عليها والدوام إلىٰ الممات.

وسر ذلك أن العبد مفتقر إلىٰ الهداية في كل نفس في جميع ما يأتيه ويذره أصلًا وتفصيلًا وتثبيتًا ومفتقر إلىٰ مزيد العلم بالهدىٰ علىٰ الدوام فليس له أنفع ولا هو إلىٰ شيء أحوج من سؤال الهداية فنسأل الله أن يهدينا الصراط المستقيم وأن يثبت قلوبنا علىٰ دينه(١).

✍ **وقَالَ الإِمَامُ ابن القَيِّمِ** رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «إن العبد إذا آمن بالكتاب واهتدىٰ به مجملًا وقبل أوامره وصدّق بأخباره، كان ذلك سببًا لهدايةٍ أخرىٰ تحصل له علىٰ التفصيل، فإن الهداية لانهاية لها، ولو بلغ العبد فيها ما بلغ، ففوق هدايته هداية اخرىٰ، وفوق تلك الهداية هداية أخرىٰ إلىٰ غير غاية»(٢).

✍ **وقال شيخ الإسلام أبو العباس أحمد بن تيمية** رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

فصل: والعبد مضطر دائمًا إلىٰ أن يهديه الله الصراط المستقيم فهو مضطر إلىٰ مقصود هذا الدعاء؛ فإنه لا نجاة من العذاب ولا وصول إلىٰ السعادة إلا بهذه الهداية فمن فاته فهو إما من المغضوب عليهم وإما من الضالين وهذا الهدىٰ لا يحصل إلا بهدىٰ الله وهذه الآية مما يبين فساد مذهب القدرية.

وأما سؤال من يقول فقد هداهم فلا حاجة بهم إلىٰ السؤال وجواب من

---

(١) بدائع الفوائد (٣٧-٣٨-٣٩/ ٢).

(٢) فوائد الفوائد (١٤٧).

أجابه بأن المطلوب دوامها كلام من لم يعرف حقيقة الأسباب وما أمر الله به؛ فإن الصراط المستقيم أن يفعل العبد في كل وقت ما أمر به في ذلك الوقت من علم وعمل ولا يفعل ما نهي عنه وهذا يحتاج في كل وقت إلىٰ أن يعلم ويعمل ما أمر به في ذلك الوقت وما نهي عنه وإلىٰ أن يحصل له إرادة جازمة لفعل المأمور وكراهة جازمة لترك المحظور فهذا العلم المفصل والإرادة المفصلة لا يتصور أن تحصل للعبد في وقت واحد بل كل وقت يحتاج إلىٰ أن يجعل الله في قلبه من العلوم والإرادات ما يهتدي به في ذلك الصراط المستقيم.

نعم حصل له هدىٰ مجمل بأن القرآن حق والرسول حق ودين الإسلام حق وذلك حق؛ ولكن هذا المجمل لا يغنيه إن لم يحصل له هدىٰ مفصل في كل ما يأتيه ويذره من الجزئيات التي يحار فيها أكثر عقول الخلق ويغلب الهوىٰ والشهوات أكثر عقولهم لغلبة الشهوات والشبهات عليهم.

والإنسان خلق ظلوما جهولا فالأصل فيه عدم العلم وميله إلىٰ ما يهواه من الشر فيحتاج دائمًا إلىٰ علم مفصل يزول به جهله وعدل في محبته وبغضه ورضاه وغضبه وفعله وتركه وإعطائه ومنعه وأكله وشربه ونومه ويقظته فكل ما يقوله ويعمله يحتاج فيه إلىٰ علم ينافي جهله وعدل ينافي ظلمه فإن لم يمن الله عليه بالعلم المفصل والعدل المفصل كان فيه من الجهل والظلم ما يخرج به عن الصراط المستقيم وقد قال تعالىٰ لنبيه ﷺ بعد صلح الحديبية وبيعة الرضوان: ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا ۝١﴾ [الفتح:١] إلىٰ قوله تعالىٰ: ﴿وَيَهْدِيَكَ صِرَٰطًا مُّسْتَقِيمًا ۝٢﴾ [الفتح:٢] فإذا كان هذه حاله في آخر حياته أو

قريبا منها فكيف حال غيره. والصراط المستقيم قد فسر بالقرآن وبالإسلام وطريق العبودية وكل هذا حق.

فهو موصوف بهذا وبغيره فـ «القرآن» مشتمل علىٰ مهمات وأمور دقيقة ونواه وأخبار وقصص وغير ذلك إن لم يهد الله العبد إليها فهو جاهل بها ضال عنها وكذلك «الإسلام» وما اشتمل عليه من المكارم والطاعات والخصال المحمودة وكذلك «العبادة وما اشتملت عليه».

فحاجة العبد إلىٰ سؤال هذه الهداية ضرورية في سعادته ونجاته وفلاحه؛ بخلاف حاجته إلىٰ الرزق والنصر فإن الله يرزقه فإذا انقطع رزقه مات والموت لا بد منه فإذا كان من أهل الهدىٰ به كان سعيدًا قبل الموت وبعده وكان الموت موصلًا إلىٰ السعادة الأبدية وكذلك النصر إذا قدر أنه غلب حتىٰ قتل فإنه يموت شهيدًا وكان القتل من تمام النعمة فتبين أن الحاجة إلىٰ الهدىٰ أعظم من الحاجة إلىٰ النصر والرزق؛ بل لا نسبة بينهما؛ لأنه إذا هدي كان من المتقين ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجۡعَل لَّهُۥ مَخۡرَجٗا ۝٢ وَيَرۡزُقۡهُ مِنۡ حَيۡثُ لَا يَحۡتَسِبُۚ﴾ [الطلاق:٢-٣] وكان ممن ينصر الله ورسوله ومن نصر الله نصره الله وكان من جند الله وهم الغالبون؛ ولهذا كان هذا الدعاء هو المفروض.

و«أيضًا» فإنه يتضمن الرزق والنصر؛ لأنه إذا هدي ثم أمر وهدىٰ غيره بقوله وفعله ورؤيته فالهدىٰ التام أعظم ما يحصل به الرزق والنصر فتبين أن هذا الدعاء جامع لكل مطلوب وهذا مما يبين لك أن غير الفاتحة لا يقوم مقامها وأن فضلها علىٰ غيرها من الكلام أعظم من فضل الركوع والسجود علىٰ سائر أفعال الخضوع فإذا تعينت الأفعال فهذا القول أولىٰ والله أعلم.

وصلىٰ الله علىٰ نبيه محمد وسلم تسليمًا كثيرًا[(١)].

✍ **وقال ابن القيم** رَحِمَهُ ٱللَّهُ: ولذلك اشتدت حاجة العبد بل ضرورته إلىٰ أن يسأل الله أن يهديه الصراط المستقيم. فليس العبد أحوج منه إلىٰ هذه الدعوة، وليس شيء انفع له منها. فإن الصراط المستقيم يتضمن علوما وإرادات وأعمالًا وتروكًا ظاهرة وباطنة تجري عليه كل وقت، فتفاصيل الصراط المستقيم قد يعلمها العبد، وقد لا يعلمها، وقد يكون ما لا يعلمه أكثر مما يعلمه.

وما يعلمه قد يقدر عليه، وقد لا يقدر عليه وهو من الصراط المستقيم وإن عجز عنه. وما يقدر عليه قد تريده نفسه، وقد لا تريده كسلًا وتهاونًا أو لقيام مانع وغير ذلك. وما تريده قد يفعله، وقد لا يفعله. وما يفعله قد يقوم فيه بشروط الإخلاص، وقد لا يقوم. وما يقوم فيه بشروط الإخلاص قد يقوم فيه بكمال المتابعة، وقد لا يقوم. وما يقوم فيه بالمتابعة قد يثبت عليه، وقد يصرف قلبه عنه.

وهذا كله واقع سار في الخلق، فمستقل ومستكثر. وليس في طباع العبد الهداية إلىٰ ذلك، بل متىٰ وكل إلىٰ طباعه حيل بينه وبين ذلك كله وهذا هو الإركاس الذي أركس الله به المنافقين بذنوبهم، فأعادهم إلىٰ طباعهم، وما خلقت عليه نفوسهم من الجهل والظلم.

والرب تبارك وتعالىٰ علىٰ صراط مستقيم في قضائه وقدره، ونهيه وأمره

---

(١) مجموع الفتاوىٰ (١٤/ ٣٧).

فيهدي من يشاء إلىٰ صراطه المستقيم بفضله ورحمته وجعله الهداية حيث تصلح، ويصرف من يشاء عن صراطه المستقيم بعدله وحكمته لعدم صلاحية المحل، وذلك موجب صراطه المستقيم الذي هو عليه[١].

---

(١) الداء والدواء (٢٨٥/ ١).

فصل في

مشهد التوفيق والخذلان

✍ **قال ابن القيم** رَحِمَهُ ٱللَّهُ: وهو من تمام هذا المشهد وفروعه ولكن أفرد بالذكر لحاجة العبد إلىٰ شهوده وانتفاعه به وقد أجمع العارفون بالله أن التوفيق هو أن لا يكلك الله إلىٰ نفسك وأن الخذلان هو أن يخلىٰ بينك وبين نفسك فالعبيد متقلبون بين توفيقه وخذلانه بل العبد في الساعة الواحدة ينال نصيبه من هذا وهذا فيطيعه ويرضيه ويذكره ويشكره بتوفيقه له ثم يعصيه ويخالفه ويسخطه ويغفل عنه بخذلانه له فهو دائر بين توفيقه وخذلانه فإن وفقه فبفضله ورحمته وإن خذله فبعدله وحكمته وهو المحمود علىٰ هذا وهذا له أتم حمد وأكمله ولم يمنع العبد شيئًا هو له وإنما منعه ما هو مجرد فضله وعطائه وهو أعلم حيث يضعه وأين يجعله.

فمتىٰ شهد العبد هذا المشهد وأعطاه حقه علم شدة ضرورته وحاجته إلىٰ التوفيق في كل نفس وكل لحفظ وطرفة عين وأن إيمانه وتوحيده بيده تعالىٰ لو تخلىٰ عنه طرفة عين لثل عرش توحيده ولخرت سماء إيمانه علىٰ الأرض وأن الممسك له هو من يمسك السماء أن تقع علىٰ الأرض إلا بإذنه فهجيرىٰ قلبه ودأب لسانه يا مقلب القلوب ثبت قلبي علىٰ دينك يا مصرف القلوب صرف قلبي إلىٰ طاعتك ودعواه يا حي يا قيوم يا بديع السموات والأرض يا ذا الجلال والإكرام لا إله إلا أنت برحمتك أستغيث أصلح لي

شأني كله ولا تكلني إلىٰ نفسي طرفة عين ولا إلىٰ أحد من خلقك.

ففي هذا المشهد يشهد توفيق الله وخذلانه كما يشهد ربوبيته وخلقه فيسأله توفيقه مسألة المضطر ويعوذ به من خذلانه عياذ الملهوف ويلقي نفسه بين يديه طريحا ببابه مستسلمًا له ناكس الرأس بين يديه خاضعًا ذليلًا مستكينًا لا يملك لنفسه ضرًّا ولا نفعًا ولا موتًا ولا حياةً ونشورًا.

والتوفيق إرادة الله من نفسه أن يفعل بعبده ما يصلح به العبد بأن يجعله قادرًا علىٰ فعل ما يرضيه مريدًا له محبًّا له مؤثرًا له علىٰ غيره ويبغض إليه ما يسخطه ويكرهه إليه وهذا مجرد فعله والعبد محل له قال تعالىٰ: ﴿وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ حَبَّبَ إِلَيۡكُمُ ٱلۡإِيمَٰنَ وَزَيَّنَهُۥ فِي قُلُوبِكُمۡ وَكَرَّهَ إِلَيۡكُمُ ٱلۡكُفۡرَ وَٱلۡفُسُوقَ وَٱلۡعِصۡيَانَۚ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلرَّٰشِدُونَ ۝٧ فَضۡلٗا مِّنَ ٱللَّهِ وَنِعۡمَةٗۚ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٞ ۝٨﴾ [الحجرات:٧-٨]، فهو سبحانه عليم بمن يصلح لهذا الفضل ومن لا يصح له حكيم يضعه في مواضعه وعند أهله لا يمنعه أهله ولا يضعه عند غير أهله وذكر هذا عقيب قوله: ﴿وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ فِيكُمۡ رَسُولَ ٱللَّهِۚ لَوۡ يُطِيعُكُمۡ فِي كَثِيرٖ مِّنَ ٱلۡأَمۡرِ لَعَنِتُّمۡ﴾ [الحجرات:٧]، ثم جاء به بحرف الاستدراك فقال: ﴿وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ حَبَّبَ إِلَيۡكُمُ ٱلۡإِيمَٰنَ﴾ يقول سبحانه لم تكن محبتكم للإيمان وإرادتكم له وتزيينه في قلوبكم منكم ولكن الله هو الذي جعله في قلوبكم كذلك فآثرتموه ورضيتموه فلذلك لا تقدموا بين يدي رسولي ولا تقولوا حتىٰ يقو لولا تفعلوا حتىٰ يأمر فالذي حبب إليكم الإيمان أعلم بمصالح عباده منكم وأنتم فلولا توفيقه لكم لما أذعنت نفوسكم للإيمان فلم يكن الإيمان بمشورتكم وتوفيق أنفسكم ولا تقدمتم به إليها فنفوسكم تصر وتعجز عن ذلك ولا تبلغه فلو أطاعكم رسولي في كثير

مما تريدون لشق عليكم ذلك ولهلكتم وفسدت مصالحكم وأنتم لا تشعرون ولا تظنوا أن نفوسكم تريد لكم الرشد والصلاح كما أردتم الإيمان فلولا أني حببته إليكم وزينته في قلوبكم وكرهت إليكم ضده لما وقع منكم ولا سمحت به أنفسكم[(١)].

---

(١) مدارج السالكين (١/٤١٥) نقلته بتمامه لحسن فائدته وترابط بعضه ببعض فلم يمكن اختصاره.

فصل في

مشهد المنة والاعتراف بالعجز والضعف والحاجة إلى توفيق الله

مشهد المنة وهو أن يشهد أن المنة لله سبحانه كونه أقامه في هذا المقام وأهله له ووفقه لقيام قلبه وبدنه في خدمته فلولا الله سبحانه لم يكن شيء من ذلك كما كان الصحابة يحدون بين يدي النبي ﷺ فيقولون:

والله لولا الله ما اهتدينا ∴ ولا تصدقنا ولا صلينا

❁ قال الله تعالىٰ: ﴿ يَمُنُّونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا ۖ قُل لَّا تَمُنُّوا عَلَيَّ إِسْلَامَكُم ۖ بَلِ اللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَاكُمْ لِلْإِيمَانِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴾ [الحجرات:١٧] فالله سبحانه هو الذي جعل المسلم مسلمًا والمصلي مصليًا كما قال الخليل ﷺ ﴿ رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِن ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ ﴾ [البقرة:١٢٨].

❁ وقال: ﴿ رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِن ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ ﴾ [البقرة:١٢٨] فالمنة لله وحده في أن جعل عبده قائما بطاعته وكان هذا من أعظم نعمه عليه وقال تعالىٰ: ﴿ وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ اللَّهِ ۖ ﴾ [النحل:٥٣].

❁ وقال: ﴿وَلَٰكِنَّ اللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ الْإِيمَانَ وَزَيَّنَهُ فِي قُلُوبِكُمْ وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ الْكُفْرَ وَالْفُسُوقَ وَالْعِصْيَانَ ۚ أُولَٰئِكَ هُمُ الرَّاشِدُونَ ﴾ [الحجرات:٧].

وهذا المشهد من أعظم المشاهد وأنفعها للعبد وكلما كان العبد أعظم

توحيدًا كان حظه من هذا المشهد أتم.

وفيه من الفوائد أنه يحول بين القلب وبين العجب بالعمل ورؤيته فإنه إذا شهد أن الله سبحانه هو المان به الموفق له الهادي إليه شغله شهود ذلك عن رؤيته والإعجاب به وأن يصول به علىٰ الناس فيرفع من قلبه فلا يعجب به ومن لسانه فلا يمن به ولا يتكثر به وهذا شأن العمل المرفوع ومن فوائده أنه يضيف الحمد إلىٰ وليه ومستحقه فلا يشهد لنفسه حمدا بل يشهده كله لله كما يشهد النعمة كلها منه والفضل كله له والخير كله في يديه وهذا من تمام التوحيد فلا يستقر قدمه في مقام التوحيد إلا بعلم ذلك وشهوده فإذا علمه ورسخ فيه صار له مشهدا وإذا صار لقلبه مشهدا أثمر له من المحبة والأنس بالله والشوق إلىٰ لقائه والتنعم بذكره وطاعته ما لا نسبة بينه وبين أعلىٰ نعيم الدنيا ألبتة.

وما للمرء خير في حياته إذا كان قلبه عن هذا مصدودًا وطريق الوصول إليه عنه مسدودا بل هو كما قال تعالىٰ: ﴿ ذَرۡهُمۡ يَأۡكُلُواْ وَيَتَمَتَّعُواْ وَيُلۡهِهِمُ ٱلۡأَمَلُۖ فَسَوۡفَ يَعۡلَمُونَ ﴾ [الحجر:٣](١).

✍ **وقال العلامة ابن القيم** رَحِمَهُ ٱللَّهُ: وسبب الخذلان عدم صلاحية المحل وأهليته وقبوله للنعمة بحيث لو وافته النعم لقال هذا لي وإنما أوتيته لأني أهله ومستحقه كما قال تعالىٰ: ﴿قَالَ إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلۡمٍ عِندِيٓۚ ﴾ [القصص:٧٨] أي: علىٰ علم علمه عندي استحق به ذلك واستوجبه واستأهله

---

(١) رسالة ابن القيم إلىٰ أحد إخوانه (٤٤/ ١).

قال الفراء أي علىٰ فضل عندي إني كنت أهله ومستحقًّا له إذ أعطيته وقال مقاتل يقول علىٰ خير علمه الله عندي.

وذكر عبد الله بن الحارث بن نوفل سليمان بن داود فيما أوتي من الملك ثم قرأ قوله تعالىٰ: ﴿هَٰذَا مِن فَضۡلِ رَبِّي لِيَبۡلُوَنِيٓ ءَأَشۡكُرُ أَمۡ أَكۡفُرُۖ﴾ [النمل:٤٠]، ولم يقل هذا من كرامتي ثم ذكر قارون وقوله: ﴿إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلۡمٍ عِندِيٓۚ﴾ [القصص:٧٨]، يعني أن سليمان رأىٰ ما أوتيته من فضل الله عليه ومنته وأنه ابتلىٰ به شكره وقارون رأىٰ ذلك من نفسه واستحقاقه وكذلك قوله سبحانه: ﴿وَلَئِنۡ أَذَقۡنَٰهُ رَحۡمَةٗ مِّنَّا مِنۢ بَعۡدِ ضَرَّآءَ مَسَّتۡهُ لَيَقُولَنَّ هَٰذَا لِي﴾ [فصلت:٥٠]، أي أنا أهله وحقيق به فاختصاصي به كاختصاص المالك بملكه.

والمؤمن يري ذلك ملكا لربه وفضلا منه من به علىٰ عبده من غير استحقاق منه بل صدقة تصدق بها علىٰ عبده وله أن لا يتصدق بها فلو منعه إياها لم يكن قد منعه شيئًا هو له يستحقه عليه فإذا لم يشهد ذلك رأي فيه أهلا ومستحقا فأعجبه نفسه وطغت بالنعمة وعلت بها واستطالت علىٰ غيرها فكان حظها منها الفرح والفخر كما قال تعالىٰ: ﴿وَلَئِنۡ أَذَقۡنَا ٱلۡإِنسَٰنَ مِنَّا رَحۡمَةٗ ثُمَّ نَزَعۡنَٰهَا مِنۡهُ إِنَّهُۥ لَيَـُٔوسٞ كَفُورٞ ۝٩ وَلَئِنۡ أَذَقۡنَٰهُ نَعۡمَآءَ بَعۡدَ ضَرَّآءَ مَسَّتۡهُ لَيَقُولَنَّ ذَهَبَ ٱلسَّيِّـَٔاتُ عَنِّيٓۚ إِنَّهُۥ لَفَرِحٞ فَخُورٌ ۝١٠﴾ [هود:٩-١٠].

فذمه باليأس والكفر عند الامتحان بالبلاء وبالفرح والفخر عند الابتلاء بالنعماء واستبدل بحمد الله وشكره والثناء عليه إذ كشف عنه البلاء قوله: ﴿ذَهَبَ ٱلسَّيِّـَٔاتُ عَنِّيٓۚ﴾ [هود:١٠] لو أنه قال اذهب الله السيئات عني برحمته

ومنه لما ذم علىٰ ذلك بل كان محمودا عليه ولكنه غفل عن المنعم بكشفها ونسب الذهاب إليها فرح وافتخر. فإذا علم الله سبحانه هذا من قلب عبد فذلك من أعظم أسباب خذلانه وتخليه عنه فإن محله لا تناسبه النعمة المطلقة التامة كما قال تعالىٰ: ﴿ ۞ إِنَّ شَرَّ ٱلدَّوَآبِّ عِندَ ٱللَّهِ ٱلصُّمُّ ٱلۡبُكۡمُ ٱلَّذِينَ لَا يَعۡقِلُونَ ٢٢ وَلَوۡ عَلِمَ ٱللَّهُ فِيهِمۡ خَيۡرٗا لَّأَسۡمَعَهُمۡۖ وَلَوۡ أَسۡمَعَهُمۡ لَتَوَلَّواْ وَّهُم مُّعۡرِضُونَ ٢٣ ﴾ [الأنفال:٢٢-٢٣]، فأخبر سبحانه أن محلهم غير قابل لنعمته ومع عدم القبول ففيهم مانع آخر يمنع وصولها إليهم وهو توليهم وإعراضهم إذا عرفوها وتحققوها(١).

✍ **وقال ابن القيم** رَحِمَهُ ٱللَّهُ: وما شيء أفسد للأعمال من العجب ورؤية النفس، فإذا أراد الله بعبده خيرًا أشهده منته وتوفيقه واعانته له في كل ما يقوله ويفعله فلا يعجب به. ثم أشهده تقصيره فيه وأنه لا يرضىٰ لربه به فيتوب إليه منه ويستغفره، ويستحيي أن يطلب عليه أجرا. واذا لم يشهده ذلك وغيبه عنه فرأىٰ نفسه في العمل ورآه بعين الكمال والرضا، لم يقع ذلك العمل منه موقع القبول والرضا والمحبة. فالعارف يعمل العمل لوجهه مشاهدا فيه منته وفضله وتوفيقه، معتذرًا منه إليه، مستحييًا منه اذ لم يوفقه حقه. والجاهل يعمل العمل لحظه وهواه ناظرًا فيه إلىٰ نفسه، يمن به علىٰ ربه راضيا بعمله، فهذا لون وذاك لون آخر(٢).

---

(١) الفوائد (٢٢٧/ ١).

(٢) الفوائد (١٦٥/ ١).

فصل في

التوفيق والخذلان عند أهل السنة وأهل البدعة

مما هو معلوم ومقرر عند أهل السنة في عقائدهم وراسخ في قلوبهم أن الهداية بيد الله يهدي من يشاء ويوفق من يشاء بفضله لعلمه سبحانه بأنه أهل للهداية ومستحق لها ويضل من يشاء بعدله لعلمه سبحانه بأنه ليس هذا أهل للهداية وليس صالحًا ولا مستحق لها وهذا سيأتي تفصيله في الفصول القادمة وأسباب التوفيق ولكن قد خالف فيه أهل البدع من الجبرية والقدرية وغيرهم فهذه نماذج من نقولات لأهل العلم في إيضاح وبيان هذه المسألة العقدية الوعظية مما يكفي ويشفي.

✍ **قال ابن القيم** رَحِمَهُ ٱللَّهُ: وقد ضرب للتوفيق والخذلان مثل ملك أرسل إلىٰ أهل بلد من بلاده رسولا وكتب معه إليهم كتابا يعلمهم أن العدو مصبحهم عن قريب ومجتاحهم ومخرب البلد ومهلك من فيها وأرسل إليهم أموالا ومراكب وزادا وعدة وأدلة وقال ارتحلوا مع هؤلاء الأدلة وقد أرسلت إليكم جميع ما تحتاجون إليه ثم قال لجماعة من مماليكه اذهبوا إلىٰ فلان فخذوا بيده واحملوه ولا تذروه يعقد واذهبوا إلىٰ فلان كذلك وإلىٰ فلان وذروا من عداهم فإنهم لا يصلحون أن يساكنوني في لدي فذهب خواص مماليكه إلىٰ من أمروا بحملهم فلم يتركوهم يقرون بل حملوهم حملًا وساقوهم سوقًا إلىٰ الملك فاجتاح العدو من بقي في المدينة وقتلهم وأسر

من أسر فهل يعد الملك ظالمًا لهؤلاء أم عادلًا فيهم نعم خص أولئك بإحسانه وعنايته وحمرها من عداهم؛ إذ لا يجب عليه التسوية بينهم في فضله وإكرامه بل ذلك فضلة يؤتيه من يشاء.

وقد فسرت القدرية الجبرية التوفيق بأنه خلق الطاعة والخذلان بأنه خلق المعصية.

ولكن بنو ذلك علىٰ أصولهم الفاسدة من إنكار الأسباب والحكم وردوا الأمر إلىٰ محض المشيئة من غير سبب ولا حكمة وقابلهم القدرية النفاة ففسروا التوفيق بالبيان العام والهدىٰ العام.

والتمكن من الطاعة والإقبال عليها وتهيئة أسبابها هذا حاصل لكل كافر ومشرك بلغته الحجة وتمكن من الإيمان.

فالتوفيق عندهم أمر مشترك بين الكفار والمؤمنين؛ إذ الإقدار والتمكين والدلالة والبيان قد عم به الفريقين ولم يفرد المؤمنين عندهم بتوفيق وقع به الإيمان منهم والكفار بخذلان امتنع به الإيمان منهم ولو فعل ذلك لكان عندهم محاباة وظلما.

فأهل الصراط المستقيم بريئون من الطائفتين إلا من حق تتضمنه مقالاتهم فإنهم يوافقونهم عليه ويجمعون حق كل منهما إلىٰ حق الأخرىٰ ولا يبطلون(١).

✍ **وقال الإمام الطحاوي** رَحِمَهُ ٱللَّهُ: والاستطاعة التي يجب بها الفعل من

---

(١) مدارج السالكين (١/ ٤١٦).

نحو التوفيق، الذي لا يجوز أن يوصف المخلوق به، فهي مع الفعل، وأما الاستطاعة من جهة الصحة والوسع والتمكن، وسلامة الآلات، فهي قبل الفعل، وبها يتعلق الخطاب، وهو كما قال -تعالىٰ-: ﴿لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾ [البقرة:٢٨٦].

✍ **وقال ابن جبرين** رَحِمَهُ ٱللَّهُ: هذا المبحث يسمىٰ مبحث الاستطاعة، والاستطاعة والطاقة والقدرة والوسع بمعنىٰ واحد، هذا المبحث يسمىٰ مبحث الاستطاعة.

الاستطاعة: ما معنىٰ الاستطاعة، أي القدرة والطاقة والوسع، كون الإنسان يستطيع يفعل الشيء، يقدر علىٰ فعل الشيء، يتمكن من فعل الشيء، يسعه فعل الشيء، هذا يسمىٰ استطاعة، يسمىٰ طاقة، يسمىٰ قدرة، ووسع.

مبحث الاستطاعة: هل العباد يستطيعون، أو لا يستطيعون؟ هل لهم استطاعة؟ هل لهم قدرة؟ وهل الاستطاعة والقدرة نوع واحد، أو نوعان؟ هذا يسمىٰ مبحث الاستطاعة والقدرة، والناس لهم في ذلك ثلاث مذاهب كم مذهب؟ ثلاثة مذاهب المذهب:

- **الأول:** أن الاستطاعة والطاقة والقدرة نوع واحد فقط، وهي التي تكون مع الفعل مقارنة للفعل، ما تكون قبل الفعل، بمعنىٰ التوفيق للفعل، وهذا مذهب الجبرية الجهمية، والأشاعرة يقولون: ما في طاقة إلا نوع واحد تكون مع الفعل، أما قبل الفعل فلا.

- **المذهب الثاني:** أنها نوع واحد، ولكنها تكون قبل الفعل، ومعناها، وهي التي بمعنىٰ توفر الأسباب، والآلات وهذا مذهب القدرية والمعتزلة.

- **المذهب الثالث:** أن الاستطاعة نوعان: نوع يكون مع الفعل، بمعنىٰ التوفيق والقدرة، ونوع يكون قبل الفعل بمعنىٰ توفر الأسباب والآلات، يعني فكأن أهل السنة أثبتوا، قالوا: الاستطاعة نوعان: نوع يكون قبل الفعل، ونوع يكون مقارن للفعل، فالذي يكون مع الفعل يسمىٰ بمعنىٰ التوفيق والتسديد، والذي يكون قبل الفعل معناه توفر الأسباب والآلات.

الجبرية هم والجهمية والأشاعرة ما أثبتوا إلا النوع الأول، الذي يكون مع الفعل، والمعتزلة والقدرية ما أثبتوا إلا النوع الثاني الذي يكون قبل الفعل، وأهل السنة أثبتوا النوعين، فإذن أقسام الاستطاعة عند أهل السنة كم نوع؟ نوعان:

- **النوع الأول:** الاستطاعة بمعنىٰ التوفيق، وهي القدرة الموجبة للفعل، التي هي مقارنة للمخلوق.

- **النوع الثاني:** استطاعة بمعنىٰ توفر الأسباب والآلات، وهي القدرة الشرعية المصححة للفعل.

المقارنة بين النوعين: نريد الآن، نعرف مقارنة حتىٰ يتبين، الآن نريد أن نحدد ما هي الأولىٰ وما هي الثانية.

- **الأولىٰ** الاستطاعة التي بمعنىٰ توفر الأسباب والآلات: هذه الأولىٰ.

- **والثانية** استطاعة بمعنىٰ أيش بمعنىٰ التوفيق.

- **الأولىٰ** الاستطاعة بمعنىٰ التوفيق هذه الأولىٰ، والثانية استطاعة بمعنىٰ أيش بمعنىٰ التوفيق، وهي المقارنة للفعل هذه الأولىٰ.

- **الثانية**: استطاعة بمعنىٰ توفر الأسباب والآلات، وهي التي تكون قبل الفعل.

المقارنة بينهما: الأولىٰ ليست مناط التكليف، فلا يتعلق بها الخطاب، خطاب الشارع، والثانية هي مناط التكليف، فلا يتعلق بها الخطاب، خطاب الشارع، يعني الأولىٰ ليست مناط التكليف، يعني الله -تعالىٰ- لا يكلف العبد إلا إذا كانت معه الثانية، الثانية: التي هي منها توفر الأسباب والآلات هذا هو المكلف، وإذا فقدت الثانية لا يكلف العبد؛ ولهذا نقول: الأولىٰ ليست مناط التكليف، فلا يتعلق بها خطاب الشارع، ما هي الأولىٰ؟ الاستطاعة بمعنىٰ المقارنة للفعل، وهي التي بمعنىٰ التوفيق، والثانية: هي مناط التكليف، وبها يتعلق الخطاب، هذا واحد.

- **الفرق الثاني**: الأولىٰ تكون مع الفعل، فلا تتقدمه، وهي الاستطاعة بمعنىٰ التوفيق تكون مع الفعل، فلا تتقدمه، والثانية قد تتقدم الفعل، وقد تصحبه، تكون قبل الفعل، وتكون مع الفعل.

- **الفرق الثالث**: الأولىٰ خاصة بالمؤمن، ما هي الأولىٰ الاستطاعة بمعنىٰ التوفيق، التي تكون مع الفعل، الأولىٰ خاصة بالمؤمن، والثانية عامة للمؤمن والكافر.

- **الفرق الرابع**: الأولىٰ ليست صفة للمخلوق، بل هي صفة لله، الأولىٰ ليست صفة للمخلوق، وهي التوفيق، بمعنىٰ التوفيق، فإن الله -تعالىٰ- هو

الموفق للفعل، القدرة بمعنىٰ المقارنة للفعل، هذا التوفيق إنما هو من الله ليس من العبد، والثانية صفة للمخلوق، وهي توفر الأسباب والآلات.

- **الفرق الخامس:** الأولىٰ لا يتخلف عنها الفعل، الاستطاعة يعني: المقارنة إذا وجدت لا يتخلف الفعل لا بد أن يحصل الفعل، والثانية قد يتخلف عنها الفعل، قد يحصل، وقد لا يحصل.

- **الفرق السادس:** الأولىٰ ضدها الخذلان، والثانية ضدها العجز هذه ستة فروق، إذا عرفتها وضبطتها، تبين لك وعرفت الفرق بينهما. نعم هذه الاستطاعة التي يجب بها الفعل، يعني يوجد بها الفعل من نحو التوفيق يعني: معناه معنىٰ التوفيق والتسديد للفعل، هذه ليست صفة المخلوق، بل هي صفة لله، الله هو الموفق هذه الاستطاعة، التي يجب بها الفعل، يعني يوجد بها الفعل متي يوجد الفعل؟ إذا وفقك الله، فإن لم يوفقك، فلا يوجد الفعل، والتوفيق ممن؟ من الله، إذن الاستطاعة التي يجب بها الفعل، ويوجد بها الفعل من نحو التوفيق الذي لا يوصف المخلوق به، وإنما هو وصف لله، فالله هو الموفق، وهو الهادي، وهو الذي يخلق الهداية في القلوب، ويجعل الإنسان يختار الحق، ويرضىٰ به، ويريده، ويخلق الله الإرادة والهداية في قلبه، فيوجد الفعل. نعم[(١)].

❁ أخرج البيهقي عن الربيع بن سليمان، قال: سئل الشافعي عن القدر فقال:

---

(١) شرح الطحاوية للراجحي (٣٢٩/ ١).

مـــا شـــئتَ كـــان وإن لـــم أشـــأ ∴ ومـــا شـــئتُ إن لـــم تشـــأ لـــم يكـــن
خلقـــت العبـــاد علـــىٰ مـــا علمـــت ∴ ففـــي العلـــم يجـــري الفتـــىٰ والمســـن
علـــىٰ ذا مننـــت وهـــذا خـــذلت ∴ وهـــذا أعنـــت وذا لـــم تعـــن
فمـــنهم شـــقي ومـــنهم ســـعيد ∴ ومـــنهم قبـــيح ومـــنهم حســـن(١)

✍ **وأورد البيهقي في مناقب الشافعي** أن الشافعي قال: «إن مشيئة العباد هي إلىٰ الله تعالىٰ ولا يشاءون إلا أن يشاء الله رب العالمين، فإن الناس لم يخلقوا أعمالهم وهي خلق من خلق الله تعالىٰ أفعال العباد وإن القدر خيره وشره من الله عَزَّوَجَلَّ، وإن عذاب القبر حق، ومساءلة أهل القبور حق، والبعث حق، والحساب حق، والجنة والنار حق، وغير ذلك مما جاءت من السنن»(٢).

✍ **دخل القاضي عبدالجبار الهمذاني** - أحد شيوخ المعتزلة - علىٰ الصاحب بن عباد، وعنده أبو إسحاق الاسفراييني - أحد أئمة السنة - فلما رأىٰ الأستاذ قال: سبحان من تنزه عن الفحشاء، فقال الأستاذ: سبحان من لا يقع في ملكه إلا ما يشاء، فقال القاضي: أيشاء ربنا أن يعصىٰ؟ قال الأستاذ: أيعصىٰ ربنا قهرا؟ قال القاضي: أرأيت إن منعني الهدىٰ، وقضىٰ علي بالردىٰ أحسن إلي أم أساء؟ قال الأستاذ: إن منعك ما هو لك فقد أساء، وإن منعك ما هو له فهو يختص برحمته من يشاء، فبهت القاضي عبدالجبار(٣).

---

(١) مناقب الشافعي (١/ ٤١٢، ٤١٣)، شرح أصول اعتقاد أهل السنة (٤/ ٧٧٧).

(٢) مناقب الشافعي (١/ ٤١٥).

(٣) شرح العقيدة الطحاوية ٢٥١، وانظر: دفع إيهام الاضطراب ٢٨٦-٢٨٧، وانظر =

✍ **أتىٰ أعرابيٌّ عمرو بن عبيد**، فقال له: إن ناقتي سرقت، فادع الله أن يردها علي.

قال عمرو بن عبيد: اللهم إن ناقة هذا الفقير سرقت، ولم ترد سرقتها، اللهم ارددها عليه.

فقال الأعرابي: الآن ذهبت ناقتي، وأيست منها.

قال: كيف؟

قال: لأنه إذا أراد أن لا تسرق فسرقت، لم آمن أن يريد رجوعها فلا ترجع، ونهض من عنده منصرفا(١)

✍ **إجابة أبو عصام القسطلاني لقدري:**

وقال رجل لأبي عصام القسطلاني: أرأيت إن منعني الهدىٰ، وأوردني الضلال ثم عذبني أيكون منصفا؟

فقال له أبو عصام: إن يكن الهدىٰ شيئًا هو له، فله أن يعطيه من يشاء ويمنعه من يشاء(٢).

= كتاب القدر للفريابي ففيه قصص ومحاورات كثيرة مع القدرية، وانظر حز الغلاصم في إفحام المخاصم عند جريان النظر في أحكام القدر لابن الحاج القفطي ص٣١، وانظر تاريخ المذاهب الإسلامية للشيخ محمد أبو زهرة ١/ ١١٧-١١٩.

(١) شرح أصول اعتقاد أهل السنة: ص٧٤٠.

(٢) شرح الطحاوية: ص٢٧٨.

فصل في

لا حول للعبد على طاعة الله ولا تحول عن معصية الله إلا بقوة الله

لما لهذه الكلمة العظيمة النافعة العجيبة قليلة المباني كثيرة المعاني من الارتباط الوطيد والصلة القوية بالتوفيق فكان مناسبًا ذكرها بفصل مستقل وبيان فضلها والمواضع المشروعة قولها فيها في شتىٰ أنواع العبادات والعادات والأعمال والأقوال التي تختص بما يثاب فيه العبد والتي لا يقدر المكلف علىٰ القيام بها علىٰ أكمل وجه إلا بمعونة الله وتوفيقه لأدائها والاستمرار والثبات عليها فنذكر:

أولًا: فضلها:

اعلم -هداني الله وإياك لسبيل الرشاد- أن هذه الكلمة كلمة جليلة القدر عظيمة الشأن تدل علىٰ كمال تفويض العبد أمره وإعلان شدة افتقاره وحاجته لربه

❁ فعن قيس بن سعد بن عبادة رضي الله عنه أن أباه دفعه إلىٰ النبي ﷺ يخدمه، قال: فمر بي النبي ﷺ وقد صليت، فضربني برجله وقال: «**ألا أدلك علىٰ باب من أبواب الجنة؟ لا حول ولا قوة إلا بالله**»(١).

---

(١) قال الألباني في «السلسلة الصحيحة» ٤/ ٣٢٧: أخرجه الترمذي (٤/ ٢٨٤)، والحاكم (٤/ ٢٩٠)، وأحمد (٣/ ٤٢٢)، والخطيب في «التاريخ» (٦/ ٧٨، =

✍ **قال الصنعاني** رَحِمَهُ ٱللَّهُ: باب أي: تدخل منه. (لا حول ولا قوة إلا بالله) فإنها لما تضمنته من براءة النفس من حولها وقوتها إلىٰ حول الله وقوته كانت موصلة إليها توصل قائلها إلىٰ الجنة، والباب ما يتوصل منه إلىٰ المقصود(١).

✍ **وقال المناوي** رَحِمَهُ ٱللَّهُ: ما فتحت المغاليق بمثل قولك «لاحول ولا قوة إلا بالله: ولو يعلم صاحب الخاصة ما في هذه الكلمة من العون والتوفيق والسداد ما تركها»(٢).

✍ **وقال ابن القيم** رَحِمَهُ ٱللَّهُ: لهذه الكلمة تأثير عجيب في معاناة الأشغال الصعبة وتحمل المشاق والدخول علىٰ الملوك ومن يخاف منه وركوب الأهوال ولها تأثير عجيب في دفع الفقر(٣).

✍ **وقال ابن تيمية** رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «لا حول ولا قوة إلا بالله بها تحمل الأثقال وتكابد الأهوال وينال بها رفيع الأحوال»(٤).

✍ **وقال ابن القيم** رَحِمَهُ ٱللَّهُ: فلا ينبغي أن يرجىٰ ولا يخاف إلا الله، فإنه لا حول ولا قوة إلا بالله فهو الذي بيده الحول كله والقوة كلها فالحول والقوة

= ١٢/ ٤٢٨). قال الشيخ الألباني: (صحيح) انظر حديث رقم: ٢٦١٠ في صحيح الجامع.

(١) التنوير شرح الجامع الصغير (٣٦٧/ ٤)، والتيسير للمناوي (٣٩٨/ ١).

(٢) فيض القدير (١٥/ ٣).

(٣) الوابل الصيب (١٠٦/ ١).

(٤) مجموع الفتاوىٰ (١٣٧/ ١٠).

التي يرجىٰ لأجلهما المخلوق ويخاف إنما هما لله وبيده في الحقيقة فكيف يخاف ويرجىٰ من لا حول له ولا قوة بل خوف المخلوق ورجاؤه أحد أسباب الحرمان ونزول المكروه بمن يرجوه ويخافه فإنه علىٰ قدر خوفك من غير الله يسلط عليك وعلىٰ قدر رجائك لغيره يكون الحرمان(١).

✍ **قال شيخ الاسلام** رَحِمَهُ ٱللَّهُ: لا حول ولا قوة إلا بالله فإنها كنز من كنوز الجنة وبها يقتدر الإنسان علىٰ كل فعل إذ معناها خالق الأعمال والقوي عليها فجمعت جميع الحركات والقدرة التي بها تكون الحركات في السماوات والأرض وقيل لا حول عن معصية الله إلا بمعونة الله ولا قوة علىٰ طاعة الله إلا بتوفيق الله(٢).

✍ **وقال** رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «فلفظ الحول يتناول كل تحول من حال إلىٰ حال، والقوة هي القدرة علىٰ ذلك التحول؛ فدلت هذه الكلمة العظيمة علىٰ أنه ليس للعالم العلوي والسفلي حركة وتحول من حال إلىٰ حال، ولا قدرة علىٰ ذلك إلا بالله. ومن الناس من يفسر ذلك بمعنىٰ خاص فيقول: لا حول من معصيته إلا بعصمته، ولا قوة علىٰ طاعته إلا بمعونته.

والصواب الذي عليه الجمهور هو التفسير الأول، وهو الذي يدل عليه اللفظ، فإن الحول لا يختص بالحول عن المعصية، وكذلك القوة لا تختص بالقوة علىٰ الطاعة، بل لفظ الحول يعم كل تحول»(٣).

---

(١) الفوائد (٥٢- ٥٣/ ١).

(٢) شرح عمدة الفقه (١٢٩/ ٣).

(٣) شرح حديث النزول (١/ ١٨٦).

✍ **وقال الإمام المزني** رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «فالخلق عاملون بسابق علمه ونافذون لما خلقهم له من خير وشر لا يملكون لأنفسهم من الطاعة نفعا ولا يجدون إلىٰ صرف المعصية عنها دفعا»(١).

✍ **وقال شيخ الإسلام** رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «وبكل حال فالعبد مفتقر إلىٰ الله في أن يهديه ويلهمه رشده وإذا حصل له علم بدليل عقلي فهو مفتقر إلىٰ الله في أن يحدث في قلبه تصور مقدمات ذلك الدليل ويجمعها في قلبه ثم يحدث العلم الذي حصل بها وقد يكون الرجل من أذكياء الناس وأحدهم نظرا ويعميه عن أظهر الأشياء وقد يكون من أبلد الناس وأضعفهم نظرا ويهديه لما اختلف فيه من الحق بإذنه فلا حول ولا قوة إلا به فمن اتكل علىٰ نظره واستدلاله أو عقله ومعرفته خذل»(٢).

✍ **وقال العلامة العثيمين** رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «فإذا أعياك الشيء وعجزت عنه فقل لا حول ولا قوة إلا بالله فإن الله تعالىٰ يعينك عليه»(٣).

❁ وأيضًا ما جاء عن أبي موسىٰ الأشعري قال: فقال رسول الله ﷺ: قال أبو موسىٰ: وأنا خلفه أقول: لا حول ولا قوة إلا بالله في نفسي فقال: «**يا عبد الله بن قيس ألا أدلك علىٰ كنز من كنوز الجنة؟**» فقلت: بلىٰ يا رسول الله قال: «**لا حول ولا قوة إلا بالله**»(٤).

---

(١) شرح السنة للإمام المزني (ص٢).

(٢) درء تعارض العقل والنقل (٣٤/ ٩).

(٣) شرح رياض الصالحين (١٤٤٣).

(٤) متفق عليه؛ قال الشيخ الألباني: (صحيح). انظر حديث رقم: ٧٩٤٤ في صحيح الجامع.

✍ **قال النووي** رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «قال العلماء سبب ذلك أنها كلمة استسلام وتفويض إلىٰ الله تعالىٰ واعتراف بالإذعان له وأنه لا صانع غيره ولا راد لأمره وأن العبد لا يملك شيئًا في الأمر.

ومعنىٰ الكنز هنا أنه ثواب مدخر في الجنة وهو ثواب نفيس كما أن الكنز أنفس أموالكم.

قال أهل اللغة: الحول الحركة والحيلة أي لا حركة ولا استطاعة ولا حيلة إلا بمشيئة الله تعالىٰ وقيل معناه لا حول في دفع شر ولا قوة في تحصيل خير إلا بالله وقيل لا حول عن معصية الله إلا بعصمته ولا قوة علىٰ طاعته إلا بمعونته وحكي هذا عن ابن مسعود رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ وكله متقارب انتهىٰ»(١).

✍ **وقال العلامة ابن عجيبة في تفسيره**: «من علامة النجح في النهايات الرجوع إلىٰ الله في البدايات»، فإذا برز المريد لجهاد أعدائه من النفس والهوىٰ والشيطان وسائر القطاع، واستنصر بالله وتبرأ من حوله وقوته، كان ذلك علامة علىٰ نصره وظفره بنفسه، وكان سببا في نجح نهايته، فيملكه بالله الوجود بأسره، ويفتح عليه من خزائن حكمته»(٢).

✍ **وقال أبن أبي العز الحنفي** رَحِمَهُ ٱللَّهُ: نقول: لا حيلة لأحد، ولا تحول لأحد ولا حركة لأحد عن معصية الله، إلا بمعونة الله، ولا قوة لأحد علىٰ إقامة طاعة الله والثبات عليها إلا بتوفيق الله، وكل شيء يجري بمشيئة الله

---

(١) شرح مسلم للإمام النووي (١٧/ ٢٨-٢٩).

(٢) البحر المديد في تفسير القرآن المجيد (٢٨١/ ١).

تعالىٰ وعلمه وقضائه وقدره. غلبت مشيئته المشيئات كلها، وغلب قضاؤه الحيل كلها. يفعل ما يشاء(١).

✍ **وقال ابن القيم** رَحِمَهُ ٱللَّهُ: من مشاهد المؤمن في المعصية المشهد الخامس: مشهد الضعف والعجز، وإن العبد عاجز عن حفظ نفسه وأنه لا قوة له ولا قدرة ولا حول إلا بربه والعبد ملقىٰ بين الله وبين أعدائه من شياطين الجن والإنس، فإن حماه الله منهم وكفهم عنه، لم يجدوا إليه سبيلا وإن تخلىٰ عنه ووكله إلىٰ نفسه طرفة عين فهو نصيب من ظفر به منهم في هذا المشهد يعرف نفسه حقًّا ويعرف ربه فحينئذ يطلع منه علىٰ مشهد الذل والانكسار(٢).

✍ **وقال شيخ الإسلام** رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «يروىٰ عن الشيخ عبد القادر ثم أبي الحسن الشاذلي أنها جوامع الكلام النافع. وهي: الحمد لله وأستغفر الله ولا حول ولا قوة إلا بالله وذلك أن العبد بين أمرين أمر يفعله الله به فهي نعم الله التي تنزل عليه فتحتاج إلىٰ الشكر. وأمر يفعله هو: إما خير وإما شر فالخير يفتقر إلىٰ معونة الله له فيحتاج إلىٰ الاستعانة والشر يفتقر إلىٰ الاستغفار ليمحو أثره. وجاء في حديث ضماد الأزدي: «الحمد لله نحمده ونستعينه»، فقط وهذا موافق لفاتحة الكتاب حيث قسمت نصفين: نصفًا للرب ونصفًا للعبد فنصف الرب مفتتح بالحمد لله ونصف العبد مفتتح بالاستعانة به فقال: نحمده ونستعينه وقد يقرن بين الحمد والاستغفار.

---

(١) شرح الطحاوية (٢/ ٦٥٢).

(٢) مدارج السالكين (١/ ٦٩٠).

وأما نستهديه ففي فاتحة الكتاب لأن نصفها للرب وهو الحمد ونصفها للعبد وهو الاستعانة والاستهداء وليس فيها الاستغفار لأنه لا يكون إلا مع الذنب والسورة أصل الإيمان والفاتحة باب السعادة المانعة من الذنوب»(١).

✍ **وقال النووي** رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «قال الهروي قال أبو الهيثم الحول الحركة أي لا حركة ولا استطاعة إلا بمشيئة الله وكذا قال ثعلب وآخرون وقيل لا حول في دفع شر ولا قوة في تحصيل خير إلا بالله وقيل لا حول عن معصية الله إلا بعصمته ولا قوة علىٰ طاعته إلا بمعونته.

وحكي هذا عن ابن مسعود رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ وحكىٰ الجوهري لغة غريبة ضعيفة أنه يقال: لا حيل ولا قوة إلا بالله بالياء قال والحيل والحول معنىٰ ويقال في التعبير عن قولهم لا حول ولا قوة إلا بالله الحوقلة هكذا قاله الأزهري والأكثرون وقال الجوهري الحوقلة فعلىٰ الأول وهو المشهور الحاء والواو من الحول والقاف.

قال العلماء: سبب ذلك أنها كلمة استسلام وتفويض إلىٰ الله تعالىٰ واعتراف بالإذعان له وأنه لا صانع غيره ولا راد لأمره وأن العبد لا يملك شيئًا من الأمر ومعنىٰ الكنز هنا أنه ثواب مدخر في الجنة وهو ثواب نفيس كما أن الكنز أنفس أموالكم»(٢).

---

(١) مجموع الفتاوىٰ (١٨/ ٢٨٥).

(٢) شرح النووي (١٧/ ٢٧).

ثانيًا: المواضع التي يستحب قول «لا حول ولا قوة إلا بالله» فيها:

✍ **قال شيخ الإسلام** رَحِمَهُ ٱللَّهُ: لا حول ولا قوة إلا بالله كلمة عظيمة ينبغي الإكثار منها في الصباح والمساء وفي كل وقت(١).

✍ **وقال الحافظ الذهبي** رَحِمَهُ ٱللَّهُ: الصادق يقل الكلام والأكل والنوم والمخالطة ويكثر الأوراد والتواضع وذكر الموت وقول لاحول ولا قوة إلا بالله(٢).

[١] عند الشدة والقتال

❁ فعن أنس رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ أن النبي ﷺ كان إذا غزا قال: «**اللهم أنت عضدي وأنت نصيري بك أحول وبك أصول وبك أقاتل**»(٣).

✍ **ذكر ابن القيم** رَحِمَهُ ٱللَّهُ: أن حبيب بن أبي مسلمة يستحب قولها إذا لقي العدو أو ناهض حصنا يقول: «لا حول ولا قوة إلا بالله: وأنه ناهض يومًا حصنا من حصون الروم فقالها فقال المسلمون بقوله وكبروا فانصدع الحصن»(٤).

---

(١) مجموع الفتاوىٰ (٩/ ٢٩٤).

(٢) سير أعلام النبلاء (١٤/ ٥٣٤).

(٣) صحيح أبي داود (٢٣٦٦) وقال الشيخ الألباني: (صحيح). انظر حديث رقم: ٤٧٥٧ في صحيح الجامع.

(٤) الوابل الصيب (١٨٧/ ١).

[٢] عند حصول الهم والشدة والفقر

❁ فعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال لي رسول الله ﷺ: «**أَكْثِرْ من قول لا حول ولا قوة إلا ب الله العلي العظيم، فإنها من كنز الجنة**».

✍ **قال مكحول**: فمن قال لا حول ولا قوة إلا بالله ولا ملجأ من الله إلا إليه كشف الله عنه سبعين بابا من الضر أدناهن الفقر(١).

❁ ورواه الحاكم وقال صحيح ولا علة له ولفظه أن رسول الله ﷺ قال: «**ألا أعلمك أو ألا أدلك علىٰ كلمة من تحت العرش من كنز الجنة تقول لا حول ولا قوة إلا ب الله فيقول الله أسلم عبدي واستسلم**».

✍ **وقال ابن القيم** رَحِمَهُ ٱللَّهُ: من كثرت همومه وغمومه فليكثر من قول لا حول ولا قوة إلا بالله(٢).

✍ **وقال ابن سلوم لتلميذه عثمان بن منصور**: «وقد نزلت بي شدة وخطر شديد سنة ١٠٩١ فداومت علىٰ «لا حول ولا قوة إلا بالله» ليلًا ونهارًا إلىٰ أن يغلبني النوم ففرج الله عني سريعا فلله الحمد والمنة»(٣).

❁ وعن أبي ذر قال: أمرني خليلي ﷺ بسبع: «**أمرني بحب المساكين والدنو منهم، وأمرني أن أنظر إلىٰ من هو دوني ولا أنظر إلىٰ من هو فوقي،**

---

(١) رواه الترمذي وقال: هذا حديث إسناده ليس بمتصل فمكحول لم يسمع من أبي هريرة، (صحيح) صحيح الترغيب (١٥٨٠). قال الشيخ الألباني: (صحيح لغيره).

(٢) زاد المعاد (٤/ ١٨٣).

(٣) الإجازة العلمية (٣/ ٢٥٤٥) في نجد.

وأمرني أن أصل الرحم وإن أدبرت، وأمرني أن لا أسأل أحدا شيئًا، وأمرني أن أقول الحق وإن كان مرا، وأمرني أن لا أخاف في الله لومة لائم، وأمرني أن أكثر من قول لاحول ولا قوة إلا بالله فإنهن من كنز تحت العرش»(١).

[٣] عند الخروج من المنزل:

❁ فعن أنس بن مالك أن النبي ﷺ قال: «إذا خرج الرجل من بيته فقال بسم الله توكلت علىٰ الله لا حول ولا قوة إلا بالله قال يقال حينئذ: هُديت وكُفيت ووُقيت فتتنحىٰ له الشياطين فيقول له شيطان آخر: كيف لك برجل قد هُدي وكُفي ووُقي»(٢).

[٤] من أدعية الاستغفار

❁ فعن ابن عمرو رضي الله عنهما قال النبي ﷺ: «ما علىٰ الأرض أحد يقول لا إله إلا الله والله أكبر ولا حول ولا قوة إلا بالله إلا كفرت عنه خطاياه ولو كانت مثل زبد البحر»(٣).

---

(١) أخرجه أحمد صحيح الترغيب والترهيب (٢٥٢٥)، ورواه الطبراني وابن حبان في صحيحه، واللفظ له، وقال الشيخ الألباني: صحيح.

(٢) سنن أبي داود (٥٠٩٤)، وأخرجه ابن حبان (٢٣٧٥)، وأخرجه الترمذي (٣٤٢٤). قال الشيخ الألباني: (صحيح) انظر حديث رقم: ٤٩٩ في صحيح الجامع.

(٣) أخرجه الترمذي (٣٤٥٨) قال الشيخ الألباني: (حسن) انظر حديث رقم: ٥٦٣٦ في صحيح الجامع وأخرجه أبن أبي الدنيا والحاكم وحسنه الألباني صحيح الترغيب (١٥٦٩).

[٥] عند المرض المخوف

❁ وعن أبي سعيد وأبي هريرة رضي الله عنهما أنهما شهدا علىٰ رسول الله ﷺ أنه قال: «**من قال لا إله إلا الله والله أكبر صدقه ربه فقال لا إله إلا أنا وأنا أكبر وإذا قال لا إله إلا هو وحده قال يقول لا إله إلا أنا وحدي وإذا قال لا إله إلا الله وحده لا شريك له قال يقول صدق عبدي لا إله إلا أنا وحدي لا شريك لي وإذا قال لا إله إلا الله وحده لا شريك له له الملك وله الحمد قال يقول لا إله إلا أنا لي الملك ولي الحمد وإذا قال لا إله إلا الله ولا حول ولا قوة إلا ب الله قال لا إله إلا أنا ولا حول ولا قوة إلا بي وكان يقول من قالها في مرضه ثم مات لم تطعمه النار**».

❁ وفي رواية للنسائي عن أبي هريرة وحده مرفوعًا (صحيح لغيره): «**من قال لا إله إلا الله والله أكبر لا إله إلا الله وحده لا إله إلا الله ولا شريك له لا إله إلا الله له الملك وله الحمد لا إله إلا الله ولا حول ولا قوة إلا ب الله يعقدهن خمسا بأصابعه ثم قال من قالهن في يوم أو في ليلة أو في شهر ثم مات في ذلك اليوم أو في تلك الليلة أو في ذلك الشهر غفر له ذنبه**»(١).

---

(١) رواه الترمذي، وابن ماجة، والنسائي، وابن حبان في صحيحه، والحاكم. صحيح الترغيب (٣٤٨١) قال الشيخ الألباني: (صحيح لغيره).

فصل

من أسباب التوفيق ترك العوائق وقطع العلائق والخلاص من القواطع وهي سبب للخذلان

اعلم -وفقني الله وإياك إلىٰ التوفيق لطاعته- أن للتوفيق أسباب مجملة ومفصلة فإليك أخي القارئ الكريم ذكر أسباب التوفيق المجملة وسيأتي ذكر الأسباب المفصلة لاحقًا.

✍ **قال العلامة السعدي** رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «ومن لطف الله تعالىٰ أن قيَّض لعبده كل سبب يعوقه ويحول بينه وبين المعاصي، حتىٰ إنه تعالىٰ إذا علم أن الدنيا والمال والرياسة ونحوها مما يتنافس فيه أهل الدنيا، تقطع عبده عن طاعته، أو تحمله علىٰ الغفلة عنه، أو علىٰ معصية صرفها عنه، وقدر عليه رزقه»(١).

✍ **قال ابن القيم** رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «من العوائق:

وأما العوائق فهي أنواع المخالفات ظاهرها وباطنها، فإنها تعوق القلب عن سيره إلىٰ الله وتقطع عليه طريقه، وهي ثلاثة أمور: شرك وبدعة ومعصية، فيزول عائق الشرك بتجريد التوحيد، وعائق البدعة بتحقيق السنة، وعائق المعصية بتصحيح التوبة. وهذه العوائق لا تتبين للعبد حتىٰ يأخذ في أهبة

---

(١) «تيسير الكريم الرحمن» ٧٥٦/ ١().

السفر ويتحقق بالسير إلىٰ الله والدار الآخرة. فحينئذ تظهر له هذه العوائق يحسس بتعويقها له بحسب قوة سيره وتجرده للسفر، والا فما دام قاعدًا لا تظهر له كوامنها وقواطعها.

العلائق:

وأما العلائق فهي كل ما تعلق به القلب دون الله ورسوله من ملاذ الدنيا وشهواتها ورئاستها وصحبة الناس والتعلق بهم، ولا سبيل له إلىٰ قطع هذه الأمور الثلاثة ورفضها إلا بقوة التعلق بالمطلب الأعلىٰ، والا فقطعها عليه بدون تعلقه بمطلوبه ممتنع. فإن النفس لا تترك مألوفها ومحبوبها إلا لمحبوب هو أحب اليها منه آثر عندها منه. وكلما قوي تعلقه بمطلوبه ضعف تعلقه بغيره. وكذا بالعكس والتعلق بالمطلوب هو شدة الرغبة فيه. وذلك علىٰ قدر معرفته به وشرفه وفضله علىٰ ما سواه.

ومن أسباب الخذلان:

قلة التوفيق وفساد الرأي، وخفاء الحق، وفساد القلب، وخمول الذكر، واضاعة الوقت، ونفرة الخلق، والوحشة بين العبد وبين ربه، ومنع اجابة الدعاء، وقسوة القلب، ومحق البركة في الرزق والعمر، وحرمان العلم، ولباس الذل، واهانة العدو، وضيق الصدر، والابتلاء بقرناء السوء الذين يفسدون القلب ويضيعون الوقت، وطول الهم والغم، وضنك المعيشة، وكسف البال... تتولد من المعصية والغفلة عن ذكر الله، كما يتولد الزرع عن

الماء، والاحراق عن النار. وأضداد هذه تتولد عن الطاعة(١).

✍ **وقال ابن القيم** رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «وكل سبب يعود عليك بصلاح قلبك ووقتك وحالك مع الله فلا تؤثر به أحدا»(٢).

✍ **وقال الإمام السفاريني** رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «قال بعضهم «ليس شيء أضر من الحسد يصل الحاسد إلىٰ خمس عقوبات قبل أن يصل إلىٰ المحسود» غم لا ينقطع، ومصيبة لا تؤجر عليها، ومذمة لا يحمد بها، ويسخط عليه الرب، ويغلق عنه أبواب التوفيق»(٣).

✍ **وقال ابن القيم** رَحِمَهُ ٱللَّهُ: فيتفق ضعف القلب بالمرض وقوة النفس الأمارة والشيطان وتتابع إعدادها وأنه فقد حاضر ولذة عاجلة والداعي إليه يدعو من كل ناحية والهوىٰ ينفذ والشهوة تهون والنفس بالأكثر والتشبه بهم والرضا بأن يصيبه ما أصابهم فكيف يستجيب مع هذه القواطع وأضعافها لداعي الإيمان ومنادي الجنة إلا من أمده الله بإمداد التوفيق وأيده برحمته وتولىٰ حفظه وحمايته، فتح بصيرة قلبه فرأىٰ سرعة انقطاع الدنيا وزوالها وتقلبها بأهلها وفعلها بهم وإنهاء الحياة الدائمة كغمس إصبع في البحر بالنسبة إليه(٤).

---

(١) الفوائد (٣٥/ ١٦٦/ ٣).

(٢) مدارج السالكين (٢/ ٢٨٢).

(٣) البحور الزاخرة (٨/ ١).

(٤) الروح (٣١٠/ ١).

✍ **وقال ابن القيم** رَحِمَهُ ٱللَّهُ: فصل: الإخلاص عدم انقسام المطلوب والصدق عدم انقسام الطلب فحقيقة الإخلاص: توحيد المطلوب، وحقيقة الصدق: توحيد الطلب والإرادة ولا يثمران إلا بالاستسلام المحض للمتابعة.

فهذه الأركان الثلاثة هي أركان السير وأصول الطريق التي من لم يبن عليها سلوكه وسيره فهو مقطوع وإن ظن أنه سائر فسيره إما إلىٰ عكس جهة مقصوده وإما سير المقعد والمقيد وإما سير صاحب الدابة الجموح كلما مشت خطوة إلىٰ قدام رجعت عشرة إلىٰ خلف.

فإن عدم الإخلاص والمتابعة انعكس سيره إلىٰ خلف وإن لم يبذل جهده ويوحد طلبه: سار سير المقيد وإن اجتمعت له الثلاثة: فذلك الذي لا يجاري في مضمار سيره وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء والله ذو الفضل العظيم(١).

✍ **قال ابن القيم** رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «وهذا باب عظيم من أنفع أبواب العلم وهو معرفة مفاتيح الخير والشر لا يوفق لمعرفته ومراعاته إلا من عظم حظه وتوفيقه فإن الله سبحانه وتعالىٰ جعل لكل خير وشر مفتاحا وبابا يدخل منه»(٢).

اعلم -رحمك الله- أن أسباب النجاة من القواطع عن الله التي تقطع

---

(١) مدارج السالكين (٢/ ٩٧).

(٢) حادي الأرواح (٦٩/ ١).

العبد عن سيره إلىٰ الله والوصول إلىٰ سعادة الدنيا والآخرة تحصيل قوتين تعينه وتسبب له التوفيق والسعادة والظفر بكل مرغوب والنجاة من كل مرهوب.

✍ **وقال ابن القيم** رَحِمَهُ ٱللَّهُ: في تقسيم الناس من حيث القوة العلمية والعملية.

فمن الناس من يكون له القوة العلمية الكاشفة عن الطريق ومنازلها وأعلامها وعوارضها ومعاثرها، وتكون هذه القوة أغلب القوتين عليه، ويكون ضعيفا في القوة العملية يبصر الحقائق ولا يعمل بموجبها، ويرىٰ المتالف والمخاوف والمعاطب ولا يتوقاها، فهو فقيه ما لم يحضر العمل فإذا حضر العمل شارك الجهال في التخلف وفارقهم في العلم وهذا هو الغال علىٰ أكثر النفوس المشتغلة بالعلم، والمعصوم من عصمة الله ولا قوة إلا بالله.

ومن الناس من تكون له القوة العملية الإرادية وتكون أغلب القوتين عليه وتقتضىٰ هذه القوة السير والسلوك والزهد في الدنيا والرغبة في الآخرة والجد والتشمير في العمل، ويكون أعمىٰ البصر عند ورود الشبهات في العقائد والانحرافات في الأعمال والأقوال والمقامات كما كان الأول ضعيف العقل عند ورود الشهوات، فداء هذا من جهله وداء الأول من فساد إرادته وضعف عقله، وهذا حال أكثر أرباب الفقر والتصوف السالكين علىٰ غير طريق العلم، بل علىٰ طريق الذوق والوجد والعادة، يرىٰ أحدهم أعمىٰ عن مطلوبه لا يدرىٰ من يعبد ولا بماذا يعبده، فتارة يعبده بذوقه ووجده،

وتارة يعبده بعادة قومه وأصحابه من لبس معين أو كشف رأس أو حلق لحية ونحوها، وتارة يعبده بالأوضاع التي وضعها بعض المتحذلقين وليس له أصل في الدين، وتارة يعبده بما تحبه نفسه وتهواه كائنًا ما كان.

وهنا طرق ومتاهات لا يحصيها إلا رب العباد، فهؤلاء كلهم عمىٰ عن ربهم وعن شريعته ودينه لا يعرفون شريعته ودينه الذي بعث به رسله وأنزل به كتبه ولا يقبل من أحد دينا سواه، كما أنهم لا يعرفون صفات ربهم التي تعرف بها إلىٰ عباده علىٰ ألسنة رسله ودعاهم إلىٰ معرفته ومحبته من طريقها، فلا معرفة له بالرب ولا عبادة له.

ومن كانت له هاتان القوتان استقام له سيره إلىٰ الله تعالىٰ ورجىٰ له النفوذ وقوىٰ علىٰ رد القواطع والموانع بحول الله وقوته، فإن القواطع كثيرة شأنها شديد لا يخلص من حبائلها إلا الواحد بعد الواحد، ولولا القواطع والآفات لكانت الطريق معمورة بالسالكين، ولو شاء الله لأزالها وذهب بها، ولكن الله يفعل ما يريد(١).

✍ **وقَالَ الإِمَامُ ابن القَيِّمِ** رَحِمَهُ ٱللَّهُ: وهي -يعني العوائق- ثلاثة أمور شرك وبدعة ومعصية فيزول عائق الشرك بتجريد التوحيد وعائق البدعة بتحقيق السنة وعائق المعصية بتصحيح التوحيد(٢).

✍ **وقال ابن القيم** رَحِمَهُ ٱللَّهُ: إذا عزم العبد علىٰ السفر إلىٰ الله تعالىٰ

---

(١) طريق الهجرتين (١/ ١٨٥).

(٢) الفوائد (ص١٥٤).

وارادته، عرضت له الخوادع والقواطع، فيتخدع أولًا بالشهوات والرئاسات، والملاذ والمناكح والملابس، فإن وقف معها انقطع، وإن رفضها ولم يقف معها وصدق في طلبه ابتلي بوطء عقبه (كثير الأتباع)، وتقبيل يده، والتوسعة له في المجلس، والاشارة إليه بالدعاء، ورجاء بركته، ونحو ذلك. فإن وقف معه انقطع به عن الله وكان حظه منه، وإن قطعه ولم يقف معه ابتلي بالكرامات والكشوفات، فإن وقف معها انقطع بها عن الله وكانت حظه، وإن لم يقف معها ابتلي بالتجريد والتخلي ولذة الجمعية وعزة الوحدة والفراغ من الدنيا. فإن وقف مع ذلك انقطع به عن المقصود، وإن لم يقف معه، وسار ناظرا إلىٰ مراد الله منه، وما يحبه منه، بحيث يكون عبده الموقوف علىٰ محابه ومراضيه أين كانت وكيف كانت، تعب بها أو استراح، تنعم أو تألم، أخرجته إلىٰ الناس أو عزلته عنهم، لا يختار لنفسه غير ما يختاره له سيده ووليه، واقف مع أمره ينفذ بحسب الامكان، ونفسه عنده أهون عليه أن يقدم راحتها ولذتها علىٰ مرضاة سيده وأمره. فهذا هو العبد الذي قد وصل، ونفذ ولم يقطعه عن سيده شيء البتة، وبالله التوفيق(١).

✍ **وقال سعيد بن إسماعيل** رَحِمَهُ ٱللَّهُ: الخوف من الله يوصلك إلىٰ الله والكبر والعجب في نفسك يقطعك عن الله واحتقار الناس في نفسك مرض عظيم لا يداوىٰ(٢).

✍ **وقال ابن القيم** رَحِمَهُ ٱللَّهُ: إضاعة الوقت أشد من الموت لأن الموت

---

(١) الفوائد (١٨٩/ ١).

(٢) شعب الإيمان للبيهقي (١٠/ ٤٩٤).

يقطعك عن الدنيا وأهلها وإضاعة الوقت يقطعك عن الله والدار الآخرة(١).

✍ **وقال ابن القيم** رَحِمَهُ ٱللَّهُ: الوصول إلىٰ المطلوب موقوف علىٰ هجر العوائد وقطع العوائق. فالعوائد السكون إلىٰ الدعة والراحة وما ألفه الناس واعتادوه من الرسوم والأوضاع التي جعلوها بمنزلة الشرع المتبع من استنصر بها فهو عند الله مخذول، ومن اقتدىٰ بها دون كتاب الله وسنة رسول الله فهو عند الله غير مقبول. وهذا أعظم الحجب والموانع بين العبد وبين النفوذ إلىٰ الله ورسوله ﷺ(٢).

✍ **وقال ابن القيم** رَحِمَهُ ٱللَّهُ: طلب النفوذ إلىٰ الله والدار الآخرة:

طالب النفوذ إلىٰ الله والدار الآخرة بل والىٰ كل علم وصناعة ورئاسة بحيث يكون رأسا في ذلك مقتدىٰ به فيه، يحتاج أن يكون شجاعا مقداما حاكما علىٰ وهمه، غير مقهور تحت سلطان تخيله، زاهدا في كل ما سوىٰ مطلوبه، عاشقا لما توجه إليه، عارفا بطريق الوصول إليه والطرق والقواطع عنه، مقدام المهمة، ثلبت الجأش، لا يثنيه عن مطلوبه لوم لائم، ولا عذل عاذل، كثير السكون، دائم الفكر، غير مائل مع لذة المدح ولا ألم الذم، قائما بما يحتاج إليه من أسباب معونته، لا تستفزه المعارضات، شعاره الصبر، وراحته التعب، محبا لمكارم الأخلاق، حافظا لوقته، لا يخالط الناس إلا علىٰ حذر، كالطائر الذي يلتقط الحب بينهم، قائمًا علىٰ نفسه بالرغبة والرهبة، طامعا في نتائج الاختصاص علىٰ بني جنسه، غير مرسل شيئًا من

---

(١) الفوائد (٣٤/ ١).

(٢) الفوائد (١٦٦/ ١).

حواسه عبثا، ولا مسرحا خواطره في مراتب الكون. وملاك ذلك هجر العوائد، وقطع العلائق الحائلة بينك وبين المطلوب(١).

✍ **وقال ابن القيم** رَحِمَهُ ٱللَّهُ: ومن عقوبة الذنب: أنها تضعف سير القلب إلىٰ الله والدار الآخرة، أو تعوقه، أو توقفه وتقطعه عن السير، فلا تدعه يخطو إلىٰ الله خطوة. هذا إن لم ترده عن وجهته إلىٰ ورائه! فالذنب يحجب الواصل، ويقطع السائر، وينكس الطالب. والقلب إنما يسير إلىٰ الله بقوته، فإذا مرض بالذنوب ضعفت تلك القوة التي تسيره. فإن زالت بالكلية انقطع عن الله انقطاعا يبعد تداركه، والله المستعان(٢).

✍ **وقال الإمام الشاطبي** رَحِمَهُ ٱللَّهُ: وقال: «إنما دخل الفساد علىٰ الخلق من ستة أشياء:

- **الأول**: ضعف النية بعمل الآخرة
- **والثاني**: صارت أبدانهم مهيئة لشهواتهم
- **والثالث**: غلبهم طول الأمل مع قصر الأجل
- **والرابع**: آثروا رضاء المخلوقين علىٰ رضاء الله
- **والخامس**: اتبعوا أهواءهم ونبذوا سنة نبيهم ﷺ
- **والسادس**: جعلوا زلات السلف حجة لأنفسهم ودفنوا أكثر

---

(١) الفوائد (٢١٢/ ١).

(٢) الداء والدواء (١٧٨/ ١).

مناقبهم»[١].

✍ **وقال ابن القيم** رَحِمَهُ ٱللَّهُ: قال شفيق بن إبراهيم: أغلق باب التوفيق عن الخلق من ستة أشياء: اشتغالهم بالنعمة عن شكرها. ورغبتهم في العلم، وتركهم العمل. والمسارعة إلىٰ الذنب وتأخير التوبة. والاغترار بصحبة الصالحين وترك الاقتداء بفعالهم. وإدبار الدنيا عنهم وهم يتبعونها. وإقبال الآخرة عليهم وهم معرضون عنها[٢].

✍ **وقال ابن جزي** رَحِمَهُ ٱللَّهُ: القواطع عن الله أربعة: الشيطان، والنفس، والدنيا، والخلق:

فعلاج الشيطان: الاستعاذة.

وعلاج النفس: القهر.

وعلاج الدنيا: الزهد.

وعلاج الخلق: بالانقباض والعزلة»[٣].

❁ وعن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «**خلق الله الخلق فلما فرغ منه قامت الرحم فأخذت بحقوي الرحمن فقال: مه؟ قالت: هذا مقام العائذ بك من القطيعة. قال: ألا ترضين أن أصل من وصلك وأقطع من قطعك؟**

---

(١) الاعتصام للشاطبي (١٢١- ١٢٢/ ١).

(٢) الفوائد (١٩٥/ ١).

(٣) التسهيل لابن جزي (١/ ٢٤٢).

قالت: بلىٰ يا رب قال: فذاك»[١].

✍ **قال الصنعاني** رَحِمَهُ ٱللَّهُ: بالرحمة والإحسان (من وصلك) بما يسمىٰ صلة (وأقطع) من رحمتي وإحساني[٢].

✍ **وقال المناوي**: «بأن أعطف عليه وأحسن إليه (وأقطع من قطعك) فلا أعطف عليه فهو كناية عن حرمان أنعامه»[٣].

✍ **وقال النووي** رَحِمَهُ ٱللَّهُ: عبارة عن لطفه بهم ورحمته إياهم وعطفه بإحسانه ونعمه أو صلتهم بأهل ملكوته الأعلىٰ وشرح صدورهم لمعرفته وطاعته[٤].

❁ وعن ابن عمر قال: قال رسول الله ﷺ: «**أقيموا الصفوف وحاذوا بين المناكب وسدوا الخلل ولينوا بأيدي إخوانكم ولا تذروا فرجات للشيطان ومن وصل صفا وصله الله ومن قطعه قطعه الله**»[٥].

---

(١) أخرجه البخاري في «صحيحه» رقم (٤٨٣٠)، وفي «الأدب» رقم (٥٠)، ومسلم رقم (٢٥٥٤)، وابن جرير في «جامع البيان» (٢١/ ٢١٤)، والبغوي في «شرح السنة» رقم (٣٤٣١)، والنسائي في «السنن الكبرىٰ» رقم (١١٤٩٧)، وابن حبان في «صحيحه» رقم (٤٤١)، والحاكم (٤/ ١٦٢)، والبيهقي في «الشعب» رقم (٧٩٣٤)، وفي «السنن الكبرىٰ» رقم (١١٤٩٧)..

(٢) التنوير شرح الجامع الصغير (٣٠٦/ ٣).

(٣) التيسير شرح الجامع الصغير (٢٥٣/ ١).

(٤) شرح مسلم للنووي (١١٣/ ١٦).

(٥) أخرجه النسائي في «السنن» رقم (٨١٩)، وهو حديث صحيح.

✍ **قال الصنعاني** رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «أي من انضم إلىٰ صف ليصله (وصله الله) برحمته وغفرانه وبره وإحسانه. (ومن قطع صفا) بأن يخرج منه أو بأن يراه محتاجا إلىٰ الوصل فلم يصله (قطعه الله عَزَّوَجَلَّ) من رحمته»(١).

✍ **وقال المناوي** رَحِمَهُ ٱللَّهُ: وصله الله: أي «برحمته ورفع درجته وقربه من منازل الأبرار ومواطن الأخيار (ومن قطع صفا) بأن كان فيه فخرج منه لغير حاجة أو جاء إلىٰ صف وترك بينه وبين من بالصف فرجة بلا حاجة (قطعه الله) أي أبعده من ثوابه ومزيد رحمته، إذ الجزاء من جنس العمل»(٢).

وهنا يحسن ذكر ما أردت ذكره من أسباب التوفيق المفصلة بأدلتها فالله سبحانه وتعالىٰ بين طريق الوصول إليه وأرشد إلىٰ الأسباب التي ينال بها العبد ما لديه فالله تعالىٰ قد عدد الطرق إليه لكنها كلها شرعية ومستنبطة من وحيه العظيم وكلام رسوله الكريم فمن أراد الآخرة وسعىٰ لها سعيها وهو مؤمن وقصد أبواب الظفر بها وجاهد نفسه في الإتيان بها صادقًا خالصًا خالي الموانع سليم القواطع أدرك ما يريد ونال ما تمنىٰ بعد رحمة الله وفضله فمن أراد الله أن يقربه ويكرمه وفقه وألهمه ومن أراد أن يهينه ويبعده خذله وحرمه وختم علىٰ سمعه وقلبه وجعل علىٰ بصره غشاوة فمن يهديه من بعد الله.

فمن أصطحب الأسباب وأتىٰ الدار من بابها ولج الأبواب وأدرك حاجته وحسن المآب **كما قال القائل**:

---

(١) التنوير شرح الجامع الصغير (٢٥/ ٣).

(٢) فيض القدير (٩٦/ ٢).

فســار مستصــحب التوفيــق يومئــذ ∴ فسار أكرم مصحوب ومصطحب(١)

✍ **قال ابن القيم** رَحِمَهُ ٱللَّهُ: من سار نحو الهداية يسر الله له سبلها.

تكرر في القرآن جعل الأعمال القائمة بالقلب والجوارح سبب الهداية والاضلال، فيقوم القلب والجوارح أعمال تقتضي الهدىٰ اقتضاء السبب لمسببه والمؤثرة أثره. وكذلك الضلال، فأعمال البر تثمر الهدىٰ، وكلما ازداد منها ازداد هدىٰ. وأعمال الفجور بالضد، وذلك أن الله سبحانه يحب أعمال البر فيجازي عليها بالهدىٰ والفلاح، ويبغض أعمال الفجور ويجازي عليها بالضلال والشقاء(٢).

سبق وأن ذكرنا أسباب للتوفيق مجملة، وإليك يا رعاك الله ذكر أسباب التوفيق المفصلة:

[١] من أسباب التوفيق صلاحية المحل وأهلية العبد وقبول المحل للتوفيق

❁ قال تعالىٰ: ﴿ وَإِذَا جَآءَتۡهُمۡ ءَايَةٞ قَالُواْ لَن نُّؤۡمِنَ حَتَّىٰ نُؤۡتَىٰ مِثۡلَ مَآ أُوتِيَ رُسُلُ ٱللَّهِۘ ٱللَّهُ أَعۡلَمُ حَيۡثُ يَجۡعَلُ رِسَالَتَهُۥۗ سَيُصِيبُ ٱلَّذِينَ أَجۡرَمُواْ صَغَارٌ عِندَ ٱللَّهِ وَعَذَابٞ شَدِيدُۢ بِمَا كَانُواْ يَمۡكُرُونَ ١٢٤ ﴾ [الأنعام:١٢٤].

✍ **قال العلامة ابن القيم** رَحِمَهُ ٱللَّهُ: فالله أعلم حيث يضع هداه وتوفيقه كما هو أعلم حيث يجعل رسالته أصلًا وتوفيقًا(٣).

---

(١) ديوان عبد الغفار الأخرس (٣٩٢/ ١).

(٢) الفوائد (١/ ١٣٨).

(٣) شفاء العليل (٣١).

❁ وقال تعالىٰ: ﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ فَأُوْلَٰٓئِكَ مَعَ ٱلَّذِينَ أَنۡعَمَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلصِّدِّيقِينَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَٱلصَّٰلِحِينَۚ وَحَسُنَ أُوْلَٰٓئِكَ رَفِيقٗا ﴿٦٩﴾ ذَٰلِكَ ٱلۡفَضۡلُ مِنَ ٱللَّهِۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ عَلِيمٗا ﴿٧٠﴾﴾ [النساء:٦٩-٧٠].

✍ **قال المفسر ابن كثير** رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «من عند الله برحمته، هو الذي أهلهم لذلك، لا بأعمالهم. ﴿وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ عَلِيمٗا ﴿٧٠﴾﴾ [النساء:٧٠] أي: هو عليم بمن يستحق الهداية والتوفيق»(١).

❁ وقال تعالىٰ: ﴿وَيَضۡرِبُ ٱللَّهُ ٱلۡأَمۡثَٰلَ لِلنَّاسِۗ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٞ ﴿٣٥﴾﴾ [النور:٣٥].

✍ **قال المفسر ابن كثير** رَحِمَهُ ٱللَّهُ: أي: يرشد الله إلىٰ هدايته من يختار ه وهذا مثلا لنور هداه في قلب المؤمن، أي: هو أعلم بمن يستحق الهداية ممن يستحق الإضلال(٢).

❁ وقال تعالىٰ: ﴿ٱدۡعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلۡحِكۡمَةِ وَٱلۡمَوۡعِظَةِ ٱلۡحَسَنَةِۖ وَجَٰدِلۡهُم بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُۚ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعۡلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦۖ وَهُوَ أَعۡلَمُ بِٱلۡمُهۡتَدِينَ ﴿١٢٥﴾﴾ [النحل:١٢٥].

✍ **قال السعدي** رَحِمَهُ ٱللَّهُ: علم أنهم يصلحون للهداية فهداهم ثم من

---

(١) تفسير القرآن العظيم (٢/ ٣٥٧).

(٢) تفسير القرآن العظيم (٦/ ٦١).

عليهم فاجتباهم(١).

❁ وقال تعالىٰ: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِي مَن يَشَآءُ ۚ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ ﴿٥٦﴾﴾ [القصص:٥٦].

✍ **قال السعدي** رَحِمَهُ ٱللَّهُ: يخبر تعالىٰ أنك يا محمد -وغيرك من باب أولىٰ- لا تقدر علىٰ هداية أحد، ولو كان من أحب الناس إليك، فإن هذا أمر غير مقدور للخلق هداية للتوفيق، وخلق الإيمان في القلب، وإنما ذلك بيد الله سبحانه تعالىٰ، يهدي من يشاء، وهو أعلم بمن يصلح للهداية فيهديه، ممن لا يصلح لها فيبقيه علىٰ ضلاله.

وأما إثبات الهداية للرسول في قوله تعالىٰ: ﴿وَإِنَّكَ لَتَهْدِيٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٥٢﴾﴾ [الشورى:٥٢].

فتلك هداية البيان والإرشاد، فالرسول يبين الصراط المستقيم، ويرغب فيه، ويبذل جهده في سلوك الخلق له، وأما كونه يخلق في قلوبهم الإيمان، ويوفقهم بالفعل، فحاشا وكلا. ولهذا، لو كان قادرا عليها، لهدىٰ من وصل إليه إحسانه، ونصره ومنعه من قومه، عمه أبا طالب، ولكنه أوصل إليه من الإحسان بالدعوة للدين والنصح التام، ما هو أعظم مما فعله معه عمه، ولكن الهداية بيد الله تعالىٰ(٢).

---

(١) تيسير الكريم الرحمن (٤٥٢/ ١).

(٢) تيسير الكريم الرحمن (٦٢٠/ ١).

✍ **قال العلامة السعدي** في تفسير قوله تعالىٰ: ﴿وَهُوَ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ۝٦﴾ [الحديد:٦]. أي: بما يكون في صدور العالمين، فيوفق من يعلم أنه أهل لذلك، ويخذل من يعلم أنه لا يصلح لهدايته(١).

✍ **قال العلامة ابن كثير** رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «أي: هو أعلم بمن يستحق الهداية بمن يستحق الغواية»(٢).

❁ قال تعالىٰ: ﴿وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ تَجْرِي مِن تَحْتِهِمُ ٱلْأَنْهَٰرُ ۖ وَقَالُوا۟ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِي هَدَىٰنَا لِهَٰذَا وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِيَ لَوْلَآ أَنْ هَدَىٰنَا ٱللَّهُ ۖ لَقَدْ جَآءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِٱلْحَقِّ ۖ وَنُودُوٓا۟ أَن تِلْكُمُ ٱلْجَنَّةُ أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ۝٤٣﴾ [الأعراف:٤٣].

✍ **قال المفسر ابن كثير** رَحِمَهُ ٱللَّهُ: أي وفقنا لهذا وجعلنا له أهلا وجعل في قلوبنا قابلية للهدىٰ(٣).

❁ وقال تعالىٰ: ﴿وَمَا تَفَرَّقُوٓا۟ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْعِلْمُ بَغْيًۢا بَيْنَهُمْ ۚ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى لَّقُضِيَ بَيْنَهُمْ ۚ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ أُورِثُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ مِنۢ بَعْدِهِمْ لَفِي شَكٍّ مِّنْهُ مُرِيبٍ ۝١٤﴾ [الشورى:١٤].

✍ **قال العلامة السعدي** رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «أي يختار من خليقته من يعلم أنه يصلح للاجتباء لرسالته وولايته»(٤).

---

(١) تيسير الكريم الرحمن (٨٣٧/ ١).
(٢) تفسير القرآن العظيم (٢٤٦/ ٦).
(٣) تفسير القرآن العظيم (١٣٧/ ١).
(٤) تيسير الكريم الرحمن (٧٥٥/ ١).

✍ **وقال ابن القيم** رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «فتظاهرت أدلة ربوبيته وتوحيده في الأرض، وتنوعت، وقامت من كل جانب؛ فعرفه الموفقون من عباده، وأقروا بتوحيده إيمانًا وإذعانًا، وجحده المخذولون من خليقته، وأشركوا به ظلمًا وكفرانًا، فهلك من هلك عن بينة وحي من حي عن بينة، والله سميع عليم»(١).

❁ وقال تعالىٰ: ﴿إِذْ جَعَلَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فِي قُلُوبِهِمُ ٱلْحَمِيَّةَ حَمِيَّةَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ فَأَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَعَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ ٱلتَّقْوَىٰ وَكَانُوٓاْ أَحَقَّ بِهَا وَأَهْلَهَاۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا ﴿٢٦﴾﴾ [الفتح:٢٦].

✍ **قال العلامة ابن كثير** رَحِمَهُ ٱللَّهُ: كان المسلمون أحق بها، وكانوا أهلها. ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا ﴿٢٦﴾﴾ أي: هو عليم بمن يستحق الخير من يستحق الشر(٢).

✍ **قال العلامة ابن القيم** رَحِمَهُ ٱللَّهُ: وسبب الخذلان عدم صلاحية المحل وأهليته وقبوله للنعمة بحيث لو وافته النعم لقال هذا لي وإنما أوتيته لأني أهله ومستحقه، كما قال تعالىٰ: ﴿قَالَ إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِيٓۚ﴾ [القصص:٧٨]. أي علىٰ علم علمه عندي استحق به ذلك واستوجبه واستأهله.

فأخبر سبحانه أن محلهم غير قابل لنعمته ومع عدم القبول ففيهم مانع آخر يمنع وصولها إليهم وهو توليهم وإعراضهم إذا عرفوها وتحققوها.

---

(١) زاد المعاد (٢٥-٢٦/ ١).

(٢) تفسير القرآن العظيم (٣٤٦/ ٧).

ومما ينبغي أن يعلم أن أسباب الخذلان من بقاء النفس علىٰ ما خلقت عليه في الأصل وإهمالها وتخليتها فأسباب الخذلان منها وفيها وأسباب التوفيق من جعل الله سبحانه لها قابلة للنعمة فأسباب التوفيق منه ومن فضله وهو الخالق لهذه وهذه كما خلق أجزاء الأرض هذه قابلة للنبات وهذه غير قابلة له وخلق الشجر هذه تقبل الثمرة وهذه لا تقبلها وخلق النحلة قابلة لأن يخرج من بطونها شراب مختلف ألوانه والزنبور غير قابل لذلك وخلق الأرواح الطيبة قابلة لذكره وشكره وحجته وإجلاله وتعظيمه وتوحيده ونصيحة عباده وخلق الأرواح الخبيثة غير قابلة لذلك بل لضده وهو الحكيم العليم قال معناه شيخ الإسلام بحر العلوم مفتي الفرق أبو العباس أحمد بن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ(١).

✍ **وقال ابن القيم** رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «ووضع التوفيق والخذلان والعطاء والمنع والهداية والإضلال كل ذلك في أماكنه ومحاله اللائقة به، بحيث يستحق علىٰ ذلك كمال الحمد والثناء أوجب له ذلك العلم والعرفان»(٢).

✍ **قال العلامة ابن القيم** رَحِمَهُ ٱللَّهُ: والحكمة التامة تقتضي أن لا توضع النعم عند غير أهلها وأن تمنع من أهلها قال تعالىٰ: ﴿وَأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ ٱلتَّقْوَىٰ وَكَانُوٓاْ أَحَقَّ بِهَا وَأَهْلَهَا ۚ﴾ [الفتح:٢٦]، وقال: ﴿أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِأَعْلَمَ بِٱلشَّٰكِرِينَ ﴿٥٣﴾﴾ [الأنعام:٥٣]، وقال: ﴿وَلَوْ عَلِمَ ٱللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَّأَسْمَعَهُمْ ۖ﴾

---

(١) الفوائد (٢٢٨/ ١).

(٢) الجواب الكافي (٤٨٠/ ١).

[الأنفال:٢٣].

ولا يقال فهلا سوىٰ بين خلقه في جعلهم كلهم أهلا لذلك فإن هذا ممكن له ولا أن يقال فهلا سوىٰ بين صورهم وأشكالهم وأعمارهم وأرزاقهم ومعاشهم وهذا وإن كان ممكنا فالذي وقع من التفاوت بينهم هو مقتضىٰ حكمته البالغة وملكه التام وربوبيته فاقتضت حكمته أن سوىٰ بينهم في الأمر وفاوت بينهم في الإعانة عليه كما فاوت بينهم في العلوم والقدر والغنىٰ والحسن والفصاحة وغير ذلك والتخصيصات الواقعة في ملكه لا تناقض حكمته بل هي من أدل شيء علىٰ كمال حكمته ولولاها لم يظهر فضله ومنه قال تعالىٰ: ﴿وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ حَبَّبَ إِلَيۡكُمُ ٱلۡإِيمَٰنَ وَزَيَّنَهُۥ فِي قُلُوبِكُمۡ وَكَرَّهَ إِلَيۡكُمُ ٱلۡكُفۡرَ وَٱلۡفُسُوقَ وَٱلۡعِصۡيَانَۚ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلرَّٰشِدُونَ ٧﴾ [الحجرات:٧] فضلا من الله ونعمة والله عليم بمن يصلح لهذه النعمة حكيم في وضعها عند أهلها ومنعها غير أهلها عليم أيضًا بمن يصلح لهذا الفضل ويزكوا عليه وبه ويثمر عنده حكيم فلا يضعه عند غير أهله فيضيعه بوضعه في غير موضعه(١).

[٢] من أسباب التوفيق الإيمان والتوحيد لله تعالى

فالمؤمن الموحد وليه الله يوفقه ويسدده ويعينه بعكس الكافر المشرك فالشيطان يخذله ويؤزُّه للمعاصي والكفر أزًّا.

❁ قال تعالىٰ: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ مَوۡلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَأَنَّ ٱلۡكَٰفِرِينَ لَا مَوۡلَىٰ لَهُمۡ ١١﴾ [محمد:١١].

---

(١) شفاء العليل (٢١٢/ ١) طريق الهجرتين (٢٢١/ ١).

✍ **قال العلامة الشنقيطي**: «وهذه الولاية المختصة بالمؤمنين هي ولاية الثواب والنصر والتوفيق والإعانة»(١).

✍ **وعن عيسىٰ بن حمزة قال**: دخلت علىٰ عبد الله بن حكيم وبه حمرة فقلت ألا تعلق تميمة فقال نعوذ بالله من ذلك قال رسول الله ﷺ من علق شيئًا وكل إليه(٢).

✍ **وقال ابن القيم** رَحِمَهُ ٱللَّهُ: أعظم الناس خذلان من تعلق بغير الله(٣).

✍ **وقال شيخ الإسلام** رَحِمَهُ ٱللَّهُ: لا يزول فقر العبد وفاقته إلا بالتوحيد وإذا حصل التوحيد مع الاستغفار حصل للعبد غناه وسعادته وزال عنه ما يعذبه(٤).

✍ **وقال ابن القيم** رَحِمَهُ ٱللَّهُ: والاخلاص والتوحيد شجرة في القلب، فروعها الأعمال، وثمرها طيب الحياة في الدنيا والنعيم المقيم في الآخرة. وكما أن ثمار الجنة لا مقطوعة ولا ممنوعة، فثمرة التوحيد والاخلاص في الدنيا كذلك(٥).

✍ **وقال ابن القيم** رَحِمَهُ ٱللَّهُ: فأصل ما تزكو به القلوب والأرواح

---

(١) أضواء البيان (٢٥٧/ ٣).

(٢) رواه أبو داود والترمذي. انظر صحيح الترغيب (٣٤٥٦)، قال الشيخ الألباني: (حسن لغيره).

(٣) مدارج السالكين (٤٥٨/ ١).

(٤) مجموع الفتاوىٰ (١/ ٥٦).

(٥) الفوائد (١٨٠/ ١).

التوحيد(١).

✍ **وقال شيخ الإسلام** رَحِمَهُ ٱللَّهُ: وكلما قوي التوحيد في قلب العبد كلما قوي إيمانه وطمأنينته وتوكله ويقينه(٢).

ومنه قوله تعالىٰ: ﴿لَّا تَجْعَلْ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ فَتَقْعُدَ مَذْمُومًا مَّخْذُولًا ﴿٢٢﴾﴾ [الإسراء:٢٢].

✍ **قال العلامة السعدي** رَحِمَهُ ٱللَّهُ: أي: لا تعتقد أن أحدا من المخلوقين يستحق شيئًا من العبادة ولا تشرك بالله أحدا منهم فإن ذلك داع للذم والخذلان وملائكته ورسله قد نهوا عن الشرك وذموا من عمله أشد الذم ورتبوا عليه من الأسماء المذمومة، والأوصاف المقبوحة ما كان به متعاطيه، أشنع الخلق وصفا وأقبحهم نعتا وله من الخذلان في أمر دينه ودنياه بحسب ما تركه من التعلق بربه، فمن تعلق بغيره فهو مخذول قد وكل إلىٰ من تعلق به ولا أحد من الخلق ينفع أحدا إلا بإذن الله، كما أن من جعل مع الله إلها آخر له الذم والخذلان، فمن وحده وأخلص دينه لله وتعلق به دون غيره فإنه محمود معان في جميع أحواله(٣).

✍ **وقال شيخ الإسلام** رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «شهادة التوحيد تفتح باب الخير والاستغفار يغلق باب الشر»(٤).

---

(١) إغاثة اللهفان (١/ ٤٩).

(٢) مجموع الفتاوىٰ (٢٣/ ٣٥).

(٣) تيسير الكريم الرحمن (١٠٠٦/ ١).

(٤) مجموع الفتاوىٰ (١٠/ ٢٥٦).

✍ **وقال ابن القيم** رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «فقد جعل الله لكل مطلوب مفتاح يفتح به ومفتاح الجنة التوحيد ومفتاح التوفيق الرغبة والرهبة»(١).

✍ **وقال شيخ الإسلام** رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «أصل السعادة والنجاة من العذاب هو توحيد الله تعالىٰ»(٢).

✍ **وقال** رَحِمَهُ ٱللَّهُ **أيضًا**: «أهل السعادة هم أهل التوحيد»(٣).

ومنه قوله تعالىٰ: ﴿وَٱلَّذِينَ ٱجۡتَنَبُواْ ٱلطَّٰغُوتَ أَن يَعۡبُدُوهَا وَأَنَابُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ لَهُمُ ٱلۡبُشۡرَىٰۚ فَبَشِّرۡ عِبَادِ ١٧﴾ [الزمر:١٧].

﴿ٱلَّذِينَ هَدَىٰهُمُ ٱللَّهُ﴾ [الزمر:١٨] سبحانه للدين الحق، والاتصاف بمحاسنه؛ أي: هؤلاء الموصوفون بما ذكرهم، الذين وفقهم الله تعالىٰ للرشاد وإصابة الصواب، لا الذين يعرضون عن سماع الحق، ويعبدون ما لا يضر ولا ينفع. ﴿وَأُوْلَٰٓئِكَ﴾ المذكورون ﴿هُمۡ أُوْلُواْ ٱلۡأَلۡبَٰبِ﴾؛ أي: أصحاب العقول السليمة، والفطر المستقيمة التي لا تطيع الهوىٰ، ولا يغلبها الوهم، المستحقون للهداية لا غيرهم، فتختار خير الأمرين في دينها ودنياها.

وفي الكلام: دلالة علىٰ أن الهداية تحصل بفضل الله تعالىٰ، وقبول النفس لها، يعني: أن لكسب العبد مدخلا فيها بحسب جري العادة، وفيه إشارة إلىٰ أن أولئك القوم، هم الذين عبروا عن قشور الأشياء، ووصلوا إلىٰ

---

(١) حادي الأرواح (١٠٠/ ١).

(٢) الانتصار لأهل الأثر (٢٩٥/ ١).

(٣) مجموع الفتاوىٰ (٩/ ٢٩).

لباب حقائقها[١].

«الذين هداهم الله ووفقهم للحق والصواب»[٢].

✍ **وقال ابن القيم** رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «ولما كانت التوبة هي رجوع العبد إلىٰ الله ومفارقته لصراط المغضوب عليهم والضالين وذلك لا يحصل إلا بهداية الله إلىٰ الصراط المستقيم ولا تحصل هدايته إلا بإعانته وتوحيده»[٣].

✍ **قال العلامة صالح الفوزان** -حفظه الله-: إذا صحت العقيدة، صحت أعمال المسلم، لأن العقيدة الصحيحة تحمل المسلم علىٰ الأعمال الصالحة[٤].

✍ **وقال ابن القيم** رَحِمَهُ ٱللَّهُ: من مفسدات القلب التعلق بغير الله تبارك وتعالىٰ وهذا أعظم مفسداته علىٰ الإطلاق فليس عليه أضر من ذلك ولا أقطع له عن مصالحه وسعادته منه فإنه إذا تعلق بغير الله وكله الله إلىٰ ما تعلق به وخذله من جهة ما تعلق به وفاته تحصيل مقصوده من الله عَزَّوَجَلَّ بتعلقه بغيره والتفاته إلىٰ سواه فلا علىٰ نصيبه من الله حصل ولا إلىٰ ما أمله ممن تعلق به وصل قال الله تعالىٰ: ﴿وَٱتَّخَذُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ ءَالِهَةً لِّيَكُونُواْ لَهُمْ عِزًّا ﴿٨١﴾ كَلَّاۚ سَيَكْفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمْ وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدًّا ﴿٨٢﴾﴾ [مريم:٨١-٨٢]، وقال

---

(١) حدائق الروح والريحان (٢٦/٥٢٦).

(٢) روح البيان (٣/٤٠١).

(٣) مدارج السالكين (١/١٧٩).

(٤) المنتقىٰ من فتاوىٰ الفوزان (١/٣٥).

تعالىٰ: ﴿ وَٱتَّخَذُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ ءَالِهَةً لَّعَلَّهُمْ يُنصَرُونَ ﴿٧٤﴾ لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَهُمْ وَهُمْ لَهُمْ جُندٌ مُّحْضَرُونَ ﴿٧٥﴾ ﴾ [يس:٧٤-٧٥] فأعظم الناس خذلانًا من تعلق بغير الله فإن ما فاته من مصالحه وسعادته وفلاحه أعظم مما حصل له ممن تعلق به وهو معرض للزوال والفوات ومثل المتعلق بغير الله: كمثل المستظل من الحر والبرد ببيت العنكبوت أوهن البيوت فأساس الشرك وقاعدته التي بنىٰ عليها: التعلق بغير الله ولصاحبه الذم والخذلان كما قال تعالىٰ: ﴿ لَّا تَجْعَلْ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ فَتَقْعُدَ مَذْمُومًا مَّخْذُولًا ﴿٢٢﴾ ﴾ [الإسراء:٢٢]، مذمومًا لا حامد لك مخذولًا لا ناصر لك إذ قد يكون بعض الناس مقهورًا محمودًا كالذي قهر بباطل وقد يكون مذمومًا منصورًا كالذي قهر وتسلط عليه بباطل وقد يكون محمودًا منصورًا كالذي تمكن وملك بحق والمشرك المتعلق بغير الله قسمه أردأ الأقسام الأربعة لا محمود ولا منصور(١).

✍ **وقال العلامة السعدي** رَحِمَهُ ٱللَّهُ: جميع الأعمال متوفقة في صحتها وقبولها علىٰ التوحيد(٢).

[٣] من أسباب التوفيق الإخلاص لله في فعل الطاعة واجتناب المعصية

لما كان الإخلاص سبب الخلاص وهو أول سبب للقبول للأعمال الصالحة وهو سر بين العبد وربه جعله الله بابا يوصل إليه ويدخل به العبد منه إلىٰ مولاه عَزَّوَجَلَّ، ويأتي إلىٰ العبد من ربه أنواع الخيرات، ويفيض عليه من

---

(١) مدارج السالكين (٤٥٨/ ١).

(٢) القول السديد (٣٦/ ١).

النفحات والرحمات ما يصلح به أمر دينه ودينا وآخرته، وليس ذلك لأحد إلا للمخلص.

❁ قال تعالىٰ: ﴿وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِۦ ۖ وَهَمَّ بِهَا لَوْلَآ أَن رَّءَا بُرْهَٰنَ رَبِّهِۦ ۚ كَذَٰلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ ٱلسُّوٓءَ وَٱلْفَحْشَآءَ ۚ إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿٢٤﴾﴾ [يوسف:٢٤].

✍ **قال ابن القيم** رَحِمَهُ ٱللَّهُ: كما قال تعالىٰ كذلك لنصرف عنه السوء والفحشاء إنه من عبادنا المخلصين فلما اخلص لربه صرف عنه دواعي السوء والفحشاء فانصرف عنه السوء والفحشاء ولهذا لما علم ابليس انه لا سبيل له علىٰ أهل الاخلاص استثناهم من شرطته التي اشترطها للغواية والإهلاك فقال فبعزتك لأغوينهم أجمعين إلا عبادك منهم المخلصين قال تعالىٰ إن عبادي ليس لك عليهم سلطان إلا من اتبعك من الغاوين فالإخلاص هو سبيل الخلاص والإسلام هو مركب السلامة والإيمان(١).

✍ **قال شيخ الإسلام** رَحِمَهُ ٱللَّهُ: قال بعض السلف: من أخلص لله أربعين صباحا تفجرت ينابيع الحكمة علىٰ لسانه(٢).

ولعلك أخي المبارك تسأل عن هذا الإخلاص ما مادته وما علامته وما صفته وحقيقته؟

✍ **قال ابن القيم** رَحِمَهُ ٱللَّهُ: الإخلاص ألا تطلب علىٰ عمل عملك شاهدا

---

(١) مفتاح السعادة (٧٢/ ١).

(٢) جامع المسائل (٦/ ١٤٦).

غير الله ولا مجازيا سواه(١).

✍ **وقال** رَحِمَهُ ٱللَّهُ: الإخلاص هو مالا يعرفه ملك فيكتبه ولا عدو فيفسده ولا يعجب به صاحبه فيبطله(٢).

✍ **قال القائل:**

افعل الخير واكتمه فكم ∴ فاعل للخير بالسر اشتهر
يفعل الخير يرجو أجره ∴ ومباهي بالخير في الناس اندثر

✍ **قال ابن رجب** رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «رائحة الإخلاص كرائحة البخور الخالص، كلما قوي ستره بالثياب، فاح وعبق بها، ورائحة الرياء كدخان الحطب، يعلو إلىٰ الجو ثم يضمحل وتبقىٰ رائحته الكريهة. كلما بليت أجسام الصادقين في التراب فاحت رائحة صدقهم فاستنشقها الخلق»(٣).

✍ **قال عبدالله بن مسعود** رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ «المخلص لربه كالماشي علىٰ الرمل لا تسمع خطواته ولكن ترىٰ آثاره»(٤).

✍ **وقيل ليحيىٰ بن معاذ** رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «متىٰ يكون العبد مخلصا؟ فقال: إذا صار خلقه كخلق الرضيع لا يبالي من مدحه أو ذمه»(٥).

---

(١) مدارج السالكين (٢/ ٢٩).
(٢) الفوائد (١٠٣/ ١).
(٣) مجموع رسائل ابن رجب (٧٥٨/ ٢).
(٤) جامع العلوم والحكم (٣٠٢/ ١).
(٥) تنبيه المغترين (٢٧/ ١).

✍ **وقيل**: إن أبا يوسف القاضي قال لأصحابه: تعالوا نكتب نوادر حفص بن غياث في القضاء. فلما وردت أحكامه علىٰ أبي يوسف قيل له: فأين النوادر التي زعمت؟ قال: ويحكم، إن حفصًا أراد الله فوفقه(١).

✍ **قال شيخ الإسلام** رَحِمَهُ ٱللَّهُ: وحد الإخلاص كقول بعضهم: المخلص هو الذي لا يبالي لو خرج كل قدر له في قلوب الناس من أجل صلاح قلبه مع الله عَزَّوَجَلَّ ولا يحب أن يطلع الناس علىٰ مثاقيل الذر من عمله(٢).

✍ **قال شيخ الإسلام** رَحِمَهُ ٱللَّهُ: وكلما حقق العبد الإخلاص في قول: لا إله إلا الله خرج من قلبه تأله ما يهواه وتصرف عنه المعاصي والذنوب كما قال تعالىٰ: ﴿كَذَٰلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ ٱلسُّوٓءَ وَٱلْفَحْشَآءَ ۚ إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُخْلَصِينَ﴾ [يوسف:٢٤].

فعلل صرف السوء والفحشاء عنه بأنه من عباد الله المخلصين وهؤلاء هم الذين قال فيهم: ﴿إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنٌ﴾ [الحجر:٤٢].

وقال الشيطان: ﴿قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٨٢﴾ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿٨٣﴾﴾ [ص:٨٢، ٨٣].

❁ وقد ثبت في الصحيح عن النبي ﷺ أنه قال: «**من قال لا إله إلا الله مخلصًا من قلبه حرمه الله علىٰ النار**».

---

(١) تاريخ الإسلام (١٠٩٤/ ٤).

(٢) مجموع الفتاوىٰ (٢٦٠/ ١٨) شرح حديث إنما الأعمال بالنيات.

فإن الإخلاص ينفي أسباب دخول النار؛ فمن دخل النار من القائلين لا إله إلا الله لم يحقق إخلاصها المحرم له علىٰ النار؛ بل كان في قلبه نوع من الشرك الذي أوقعه فيما أدخله النار والشرك في هذه الأمة أخفىٰ من دبيب النمل؛ ولهذا كان العبد مأمورًا في كل صلاة أن يقول: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ۝٥﴾ [الفاتحة:٥](١).

✍ **قال شيخ الإسلام** رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «والإخلاص لله أن يكون الله هو مقصود المرء ومراده، فحينئذ تتفجر ينابيع الحكمة من قلبه علىٰ لسانه»(٢).

[٤] من أسباب التوفيق إتباع السنة والعمل بالدليل لا بالهوى والرأي

❁ **ومن الأدلة** علىٰ هذا قوله تعالىٰ: ﴿قُلْ أَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُوا۟ ٱلرَّسُولَ ۖ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَإِنَّمَا عَلَيْهِ مَا حُمِّلَ وَعَلَيْكُم مَّا حُمِّلْتُمْ ۖ وَإِن تُطِيعُوهُ تَهْتَدُوا۟ ۚ وَمَا عَلَى ٱلرَّسُولِ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ ۝٥٤﴾ [النور:٥٤].

❁ وقوله تعالىٰ: ﴿وَمَن يُشَاقِقِ ٱلرَّسُولَ مِنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ ٱلْهُدَىٰ وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ ٱلْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِۦ مَا تَوَلَّىٰ وَنُصْلِهِۦ جَهَنَّمَ ۖ وَسَآءَتْ مَصِيرًا ۝١١٥﴾ [النساء:١١٥].

✍ **قال العلامة السعدي** رَحِمَهُ ٱللَّهُ: أي: نتركه وما اختاره لنفسه، ونخذله فلا نوفقه للخير، لكونه رأىٰ الحق وعلمه وتركه، فجزاؤه من الله عدلا أن يبقيه في ضلاله حائرا ويزداد ضلالًا إلىٰ ضلاله وهذا الوعيد المرتب علىٰ

---

(١) مجموع الفتاوىٰ (٢٦٠/ ١٠).

(٢) النبوات (٤١٠/ ١).

الشقاق ومخالفة المؤمنين مراتب لا يحصيها إلا الله بحسب حالة الذنب صغرا وكبرا، فمنه ما يخلد في النار ويوجب جميع الخذلان(١).

✍ **وقال العلامة ابن قدامة المقدسي** رَحِمَهُ ٱللَّهُ: ومن سلك غير طريق سلفه أفضت به إلىٰ تلفه ومن مال عن السنة فقد انحرف عن طريق الجنة فاتقوا الله تعالىٰ وخافوا علىٰ أنفسكم فإن الأمر صعب، وما بعد الجنة إلا النار وما بعد الحق إلا الضلال ولا بعد السنة إلا البدعة(٢).

✍ **وقال ابن بطة العكبري** رَحِمَهُ ٱللَّهُ: ويح لمن لم يكن القرآن والسنة دليله فما أضل سبيله وأكسف باله وأسوأ حاله(٣).

✍ **وقال شيخ الإسلام** رَحِمَهُ ٱللَّهُ: فإنه لا سعادة للعباد، ولا نجاة في المعاد إلا باتباع رسوله فطاعة الله ورسوله قطب السعادة التي عليه تدور، ومستقر النجاة الذي عنه لا تحور.

وجعل محبة العبد لربه موجبة لاتباع الرسول، وجعل متابعة الرسول سببا لمحبة الله عبده. فما أوحاه الله إليه يهدي الله به من يشاء من عباده، كما أنه ﷺ بذلك هداه الله تعالىٰ فبمحمد ﷺ تبين الكفر من الإيمان، والربح من الخسران والهدىٰ من الضلال، والنجاة من الوبال، والغي من الرشاد، والزيغ من السداد، وأهل الجنة من أهل النار، والمتقون من الفجار وإيثار

---

(١) تيسير الكريم الرحمن (٢٠٢/ ١).
(٢) تحريم النظر في كتب الكلام (٧١/ ١).
(٣) الإبانة الكبرىٰ (٣/ ٩٨).

سبيل من أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين من سبيل المغضوب عليهم والضالين. فالنفوس أحوج إلىٰ معرفة ما جاء به واتباعه منها إلىٰ الطعام والشراب فإن هذا إذا فات حصل الموت في الدنيا. وذاك إذا فات حصل العذاب. فحق علىٰ كل أحد بذل جهده واستطاعته في معرفة ما جاء به وطاعته إذ هذا طريق النجاة من العذاب الأليم والسعادة في دار النعيم. والطريق إلىٰ ذلك الرواية والنقل إذ لا يكفي من ذلك مجرد العقل بل كما أن نور العين لا يرىٰ إلا مع ظهور نور قدامه فكذلك نور العقل لا يهتدي إلا إذا طلعت عليه شمس الرسالة(١).

✍ **وقال شيخ الإسلام** رَحِمَهُ ٱللَّهُ: والمسلم الصادق إذا عبد الله بما شرع فتح الله عليه أنوار الهداية في مدة قريبة فالمهتدون من مشايخ العباد والزهاد يوصون بإتباع العلم المشروع كما أن أهل الاستقامة من العلم يوصون بعلمهم الذي يسلكه أهل الاستقامة من العباد والزهاد وأما المنحرفون من الطائفتين فيعرضون عن المشروع إما من العلم وإما من العمل وهما طريق المغضوب عليهم والضالين(٢).

✍ **وقَالَ الإِمَامُ ابن القَيِّمِ** رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «اتباع الهوىٰ يغلق عن العبد أبواب التوفيق ويفتح عليه أبواب الخذلان فتراه يلهج بأن الله لو وفق لكان كذا وكذا وقد سد علىٰ نفسه طرق التوفيق باتباعه هواه»(٣).

---

(١) مجموع الفتاوىٰ (٤-٥-٦/ ١) بتصرف.

(٢) الاستقامة (١/ ١٠٠).

(٣) روضة المحبين (ص٤٧٩).

✍ **قَالَ الإِمَامُ ابن القَيِّمِ** رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «فالطَّرِيقُ مَسْدُودَةٌ؛ إِلَّا عَلَىٰ مَن اقْتفىٰ آثَار الرسُولِ ﷺ، واقْتدَىٰ به في ظَاهره وباطِنه»(١).

✍ **وقال ابن القيم** رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «العقول المؤيدة بالتوفيق ترىٰ أن ما جاء به الرسول ﷺ هو الحق الموافق للعقل والحكمة. والعقول المضروبة بالخذلان ترىٰ المعارضة بين العقل والنقل والحكمة والشرع. أقرب الوسائل إلىٰ الله ملازمة السنة، والوقوف معها في الظاهر والباطن»(٢).

✍ **وقال** رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «فصاحب السنة مستنير القلب حي القلب وصاحب البدعة ميت القلب مظلم»(٣).

✍ **وقال الإمام الآجري** رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «علامة من أراد الله به خير التمسك بالقرآن وسنة خير المرسلين وسنة الصحابة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ»(٤).

✍ **وقال ابن القيم** رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «فصلاة الله وسلامه علىٰ من سعادة الدنيا والآخرة في هديه واتباع ما جاء به، وهلاك الدنيا والآخرة في مخالفة هديه وما جاء به»(٥).

✍ **وقال ابن القيم** رَحِمَهُ ٱللَّهُ: بحسب متابعة الرسول تكون العزة والكفاية

---

(١) مدارج السالكين (١٣٧/ ٣).
(٢) الفوائد (١١٣/ ١).
(٣) اجتماع الجيوش الإسلامية (٣٩/ ١).
(٤) الشريعة (٢٤/ ١).
(٥) زاد المعاد (٢٤٢/ ٤).

والنصرة، كما أن بحسب متابعته تكون الهداية والفلاح والنجاة، فالله سبحانه علق سعادة الدارين بمتابعته، وجعل شقاوة الدارين في مخالفته، فلأتباعه الهدىٰ والأمن والفلاح والعزة والكفاية والنصرة والولاية والتأييد وطيب العيش في الدنيا والآخرة، ولمخالفيه الذلة والصغار والخوف والضلال والخذلان والشقاء في الدنيا والآخرة(١).

✍ **وقال شيخ الإسلام** رَحِمَهُ ٱللَّهُ: والاعتبار في ذلك بما جاء به الكتاب والسنة لا بما يستحسنه المرء أو يجده أو يراه من الأمور المخالفة للكتاب والسنة؛ بل قد يكون أحد هؤلاء كما قال عمر بن عبد العزيز: من عبد الله بجهل أفسد أكثر مما يصلح. ومما ينبغي أن يعرف أن الله ليس رضاه أو محبته في مجرد عذاب النفس وحملها علىٰ المشاق حتىٰ يكون العمل كلما كان أشق كان أفضل كما يحسب كثير من الجهال أن الأجر علىٰ قدر المشقة في كل شيء لا ولكن الأجر علىٰ قدر منفعة العمل ومصلحته وفائدته، وعلىٰ قدر طاعة أمر الله ورسوله. فأي العملين كان أحسن وصاحبه أطوع وأتبع كان أفضل. فإن الأعمال لا تتفاضل بالكثرة. وإنما تتفاضل بما يحصل في القلوب حال العمل(٢).

✍ **وقال أبو عمرو الداني** رَحِمَهُ ٱللَّهُ: تدري أخي أين طريق الجنة القرآن ثم السنة(٣).

---

(١) زاد المعاد (٣٩/ ١).

(٢) مجموع الفتاوىٰ (٢٨٢/ ٢٥).

(٣) سير أعلام النبلاء (١٨/ ١٨).

[٥] من أسباب التوفيق النية الصالحة الباعثة على الطاعة ومن أجلها يترك المعصية

❁ ومن الأدلة قوله تعالىٰ: ﴿❁ شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا وَٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِۦٓ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰٓ ۖ أَنْ أَقِيمُوا۟ ٱلدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا۟ فِيهِ ۚ كَبُرَ عَلَى ٱلْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ ۚ ٱللَّهُ يَجْتَبِىٓ إِلَيْهِ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِىٓ إِلَيْهِ مَن يُنِيبُ ﴿١٣﴾﴾ [الشورى:١٣].

✍ **قال العلامة السعدي** رَحِمَهُ ٱللَّهُ: هذا السبب الذي من العبد، يتوصل به إلىٰ هداية الله تعالىٰ، وهو إنابته لربه، وانجذاب دواعي قلبه إليه، وكونه قاصدا وجهه، فحسن مقصد العبد مع اجتهاده في طلب الهداية، من أسباب التيسير لها(١).

❁ وعن عمر بن الخطاب رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله ﷺ: «**إنما الأعمال بالنيات، وإنما لكل امرئ ما نوىٰ، فمن كانت هجرته إلىٰ الله ورسوله فهجرته إلىٰ الله ورسوله، ومن كانت هجرته إلىٰ دنيا يصيبها أو امرأة يتزوجها، فهجرته إلىٰ ما هاجر إليه**»(٢).

✍ **قال المناوي** رَحِمَهُ ٱللَّهُ: أي ما حصل لإنسان من العمل إلا ما نواه فالم ينوه لا يعتد به فليس له من عمله الاختياري القصدي إلا ما نواه من خير وشر نفيا واثباتا فالإثبات له ما نواه والنفي لا يحصل له غير ما نواه فليس هذا

---

(١) تيسير الكريم الرحمن (٧٥٤/ ١).

(٢) أخرجه البخاري برقم (١/ ١)، ومسلم برقم (٣٥٣٠).

تكرار فإن الأول دل علىٰ أن صلاح العمل وفساده بحسب النية المقتضية للإيجاد والثاني علىٰ أن العامل ثوابه علىٰ عمله بحسب نيته إن قصد لله ولله وإن قصد للدنيا فلها فقط (فمن كانت هجرته) أي انتقاله من بلاد الكفر (إلىٰ الله ورسوله) قصدًا وعزمًا (فهجرته) ببدنه وجوارحه (إلىٰ الله ورسوله) ثوابا وأجرا فلما كانت الهجرة لها مبدأ وباعث من القلب ومصدر وغاية في الجوارح كان مصدرها وغايتها في الخارج تبعا لمبدئها في القلب (ومن كانت هجرته لدنيا) بضم أوله والقصر بلا تنوين واللام للتعليل أو بمعنىٰ إلىٰ (يصيبها) أي يحصلها شبه تحصيلها عند امتداد الأطماع نحوها بإصابة الغرض السهم بجامع سرعة الوصول وحصول المراد(١).

✍ **وقال العلامة العثيمين** رَحِمَهُ ٱللَّهُ: هذا الحديث عمدة أعمال القلوب(٢).

✍ **وقال العلامة ابن القيم** رَحِمَهُ ٱللَّهُ: وعلىٰ قدر نية العبد وهمته ومراده ورغبته في ذلك يكون توفيقه سبحانه وإعانته فالمعونة من الله تنزل علىٰ العباد علىٰ قدر هممهم وثباتهم ورغبتهم ورهبتهم والخذلان ينزل عليهم علىٰ حسب ذلك فالله سبحانه أحكم الحاكمين وأعلم العالمين يضع التوفيق في مواضعه اللائقة به والخذلان في مواضعه اللائقة به هو العليم الحكيم(٣).

---

(١) التيسير شرح الجامع الصغير (٦/ ١).
(٢) شرح الأربعين النووية للعثيمين (١٨/ ١).
(٣) الفوائد (٩٧/ ١).

❁ **ومن الأدلة** قول الله تعالىٰ: ﴿ وَإِنْ خِفْتُمْ شِقَاقَ بَيْنِهِمَا فَٱبْعَثُواْ حَكَمًا مِّنْ أَهْلِهِۦ وَحَكَمًا مِّنْ أَهْلِهَآ إِن يُرِيدَآ إِصْلَٰحًا يُوَفِّقِ ٱللَّهُ بَيْنَهُمَآ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا خَبِيرًا ﴿٣٥﴾ ﴾ [النساء:٣٥].

فتدل الآية أن الزوجين أن كان عندهما رغبة ونية صالحة في عودة العلاقة الزوجية وصلاح حال البيت ولم شمل الاسرة يوفق الله بين الزوجين فيحصل الصلح وتتقارب الأمور ويحصل الرضا من الزوجين بالحلول العاجلة لفك الشجار وفصل الخلاف ويغلب أحدهما المصلحة العامة ويحصل نسيان ما حصل من الخلاف والشقاق لان الأصل النية في صلاح الوضع وعودته لطبيعته بخلاف إذا لم تكن هناك نية من الجانبين أو جانب واحد فتصل الأمور إلىٰ طريق مسدودة ولا تنجح الحلول ولا يفلح المحكمين في تحقيق شيء.

وهنا نكتة لطيفة يحسن الإشارة إليها وهي: كما أن الإنسان لا تطيب حياته إلا بصلاح زوجته ويهنئ عيشه في الدنيا والآخرة إلا باستقامتها علىٰ الطاعة وترك المعصية كذلك النفس التي جعلها الله للجسد كالزوج فإنه يحصل منها التمرد والشقاق والنفور والعناد مع صاحبها فتورث له التعب والعجز والضعف والاضطراب والوحشة كما يحصل بين الزوجين تمامًا فحينئذ أن حصل ذلك وخاف شقاق بينهما واستعصت عليه في الطاعة وعصت امره يبعث بينهما حكمين حكما من أهله وهو العقل الذي ينظر في العواقب وحكما من أهلها وهو النقل والشرع ليحكم بينهما ويرد كل منهما إلىٰ جادة الصواب فإن علم الله من عبده خيرًا ونية صالحة في رغبته وطلبه

لإصلاح نفسه المتمردة علىٰ طاعته ليردها إلىٰ الحق والعبودية اللازمة المطلوبة منها وفقه الله وأعانه في إصلاح نفسه وتقويمها ومجاهدتها علىٰ فعل الطاعات وترك المعاصي والسيئات والله أعلم.

✍ **قال ابن أبي جمرة** رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «من كان صادق النية لا يقع إلا في خير ولو قصد الشر فإن الله يصرفه عنه»(١).

✍ **وقال شيخ الإسلام** رَحِمَهُ ٱللَّهُ: فإذا حسنت السرائر أصلح الله الظواهر(٢).

✍ **وقال أبو حاتم البستي** رَحِمَهُ ٱللَّهُ: قطب طاعات المرء في الدنيا هو إصلاح السرائر وترك إفساد الضمائر والواجب علىٰ العاقل والاهتمام بإصلاح سريرته(٣).

❁ **ومن الأدلة** قال تعالىٰ: ﴿فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَٱتَّقَىٰ ۝٥ وَصَدَّقَ بِٱلْحُسْنَىٰ ۝٦ فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلْيُسْرَىٰ ۝٧﴾ [الليل:٥-٧].

✍ **قال العلامة ابن كثير** رَحِمَهُ ٱللَّهُ: والآيات في هذا المعنىٰ كثيرة دالة علىٰ أن الله، عَزَّوَجَلَّ، يجازي من قصد الخير بالتوفيق له، ومن قصد الشر بالخذلان(٤).

---

(١) فتح الباري لابن حجر العسقلاني (١/ ٤٠٥٨).
(٢) مجموع الفتاوىٰ (٣/ ٢٧٧).
(٣) روضة العقلاء (٤٨/ ١).
(٤) تفسير القرآن العظيم (٤١٧/ ٨).

✍ **وقال العلامة ابن كثير** رَحِمَهُ ٱللَّهُ: وقد أجرىٰ الله الكريم عادته بأن من قصد الخير وفق له ويسر عليه ومن نوىٰ صالحًا ثبت عليه(١).

✍ **وقال إبراهيم بن يحيىٰ**: رأيت أبا عاصم النبيل في منامي بعد موته، فقلت: ما فعل الله بك؟ قال: غفر لي، ثم قال لي: كيف حديثي فيكم؟ قلت: إذا قلنا حدثنا أبو عاصم، فليس أحد يرد علينا، قال: فسكت عني، ثم أقبل علي فقال: إنما يعطىٰ الناس علىٰ قدر نياتهم(٢).

✍ **وقال ابن القيم** رَحِمَهُ ٱللَّهُ: صحة الفهم وحسن القصد من أعظم نعم الله علىٰ العبد بل ما أعطي عبد عطاءً أفضل ولا أجل منهما(٣).

✍ **وقال النووي** رَحِمَهُ ٱللَّهُ: اعلم إنه ينبغي لمن أراد شيئًا من الطاعات وإن قل أن يحضر النية وهو أن يقصر بعمله رضا الله عَزَّوَجَلَّ(٤).

✍ **وقال داود الطائي** رَحِمَهُ ٱللَّهُ: رأيت الخير كله إنما يجمعه حسن النية وكفاك به خيرًا وإن لم تنصب(٥).

✍ **وعن مطرف بن عبد الله بن الشخير**، ولفظه: «وجدت هذا الإنسان ملقىٰ بين الله عَزَّوَجَلَّ وبين الشيطان، فإن يعلم الله في قلبه خيرًا يجبذه إليه، وإن

---

(١) تفسير القرآن العظيم (٤٤٦/ ١).
(٢) تهذيب الكمال (٢٨٩/ ١٣).
(٣) إعلام الموقعين (١/ ٦٩).
(٤) بستان العارفين (٢٩/ ١).
(٥) جامع العلوم والحكم (١/ ٦٨).

لا يعلم فيه خيرًا وكله إلىٰ نفسه، ومن وكله إلىٰ نفسه فقد هلك»[(١)].

✍ **وقال ابن القيم** رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «فأما النية فهي رأس الامر وعموده واساسه واصله الذي عليه يبنىٰ فإنها روح العمل وقائده وسائقه والعمل تابع لها يبنىٰ عليها يصح بصحتها ويفسد بفسادها وبها يستجلب التوفيق وبعدمها يحصل الخذلان وبحسبها تتفاوت الدرجات في الدنيا والاخرة»[(٢)].

[٦] طلب العلم سبب لتوفيق العبد للطاعة وإبعاده عن المعصية

✍ **وقال ابن رجب** رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «أن الله ييسر لطالب العلم إذا قصد بطلبه وجه الله الانتفاع به والعمل بمقتضاه، فيكون سببًا لهدايته ولدخول الجنة بذلك.

وقد ييسر الله لطالب العلم علومًا أخر ينتفع بها، وتكون موصلة إلىٰ الجنة، كما قيل: من عمل بما علم، أورثه الله علم ما لم يعلم[(٣)]، وكما قيل: ثواب الحسنة الحسنة بعدها[(٤)]، وقد دل علىٰ ذلك قوله تعالىٰ: ﴿ وَيَزِيدُ ٱللَّهُ

---

(١) أخرجه الإمام أحمد في الزهد (١٣٥٣)، وبهذا اللفظ نقله عنه المؤلف في المدارج (٣/ ٧٩). وسنده حسن. وأخرجه ابن المبارك في الزهد (٢٩٨)، ومن طريقه أبو نعيم في الحلية (٢/ ٢٠١)، وابن عساكر في تاريخه (٥٨/ ٣٠٨) بنحوه، وسنده صحيح. وأخرجه ابن أبي الدنيا في مكايد الشيطان (٢٥) من طريق آخر عن مطرف بنحوه.

(٢) إعلام الموقعين (١٩٩/ ٤).

(٣) انظر: «فيض القدير» للمناوي ٤/ ٥١٠ – ٥١١، و«كشف الخفاء» للعجلوني ٢/ ٣٤٧.

(٤) انظر: «تفسير ابن كثير» (ط. دار ابن حزم): ٤١٢ و١٦٦٩ و٢٠٠٢.

ٱلَّذِينَ ٱهۡتَدَوۡاْ هُدٗىۗ ﴾ [مريم:٧٦]، وقوله: ﴿ وَٱلَّذِينَ ٱهۡتَدَوۡاْ زَادَهُمۡ هُدٗى وَءَاتَىٰهُمۡ تَقۡوَىٰهُمۡ ١٧ ﴾ [محمد:١٧].

وقد يدخل في ذلك أيضًا تسهيل طريق الجنة الحسي يوم القيامة - وهو الصراط - وما قبله وما بعده من الأهوال، فييسر ذلك علىٰ طالب العلم للانتفاع به، فإن العلم يدل علىٰ الله من أقرب الطرق إليه، فمن سلك طريقه، ولم يعرج عنه، وصل إلىٰ الله تعالىٰ وإلىٰ الجنة من أقرب الطرق وأسهلها فسهلت عليه الطرق الموصلة إلىٰ الجنة كلها في الدنيا والآخرة، فلا طريق إلىٰ معرفة الله، وإلىٰ الوصول إلىٰ رضوانه، والفوز بقربه، ومجاورته في الآخرة إلا بالعلم النافع الذي بعث الله به رسله، وأنزل به كتبه، فهو الدليل عليه، وبه يهتدىٰ في ظلمات الجهل والشبه والشكوك، ولهذا سمىٰ الله كتابه نورًا؛ لأنه يهتدىٰ به في الظلمات(١).

❁ **ومن الأدلة** علىٰ هذا السبب النافع والباب الموصل إلىٰ توفيق الله تعالىٰ الذي هو العلم بالله ودينه؛

❁ قول الله تعالىٰ: ﴿ وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ فِينَا لَنَهۡدِيَنَّهُمۡ سُبُلَنَاۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَمَعَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ٦٩ ﴾ [العنكبوت:٦٩].

✍ **قال المفسر السعدي** رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «وعلىٰ أن من جد واجتهد في طلب العلم الشرعي، فإنه يحصل له من الهداية والمعونة علىٰ تحصيل مطلوبه

---

(١) «جامع رسائل ابن رجب» ١٠١٨/ ٣().

أمور إلهية، خارجة عن مدرك اجتهاده، وتيسر له أمر العلم»(١).

❁ وما جاء عن معاوية رضي الله عنه قال: «سَمِعْت النبيَّ ﷺ يَقُولُ: «**مَن يُرِدْ الله به خَيْرًا يُفقِّهه في الدِّين**»(٢).

✍ **قال ابن حجر** رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «في ترجمة الباب إثبات الخير لمن تفقه في الدين وإن ذلك لا يكون بالاكتساب بل لمن يفتح الله عليه به، ومفهوم الحديث أن من لم يتفقه في الدين ويتعلم قواعد الإسلام فقد حرم الخير»(٣).

✍ **وقال محمد بن كعب القرظي** رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «إذا أراد الله بعبده خيرًا جعل فيه ثلاث خصال:

فقهًا في الدين، وزهدًا في الدنيا، وجعله بصيرًا بعيوبه»(٤).

✍ **وقال أيوب السختياني** رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «إن من سعادة الحدث والأعجمي أن يوفقهما الله لعالم من أهل السنة»(٥).

✍ **وقال العلامة الفوزان** -حفظه الله-: «ولا شك أن زيادة العلم تفيد الإنسان وكلما زاد علم الإنسان بالكتاب والسنة زادت هدايته»(٦).

✍ **وقال العلامة العثيمين** رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «إن من نعمة الله سبحانه وتعالىٰ علىٰ

---

(١) تيسير الكريم الرحمن (٦٣٥/ ١).
(٢) أخرجه البخاري باب العلم برقم (٦٩)، ومسلم (١٧١٩) باب الزكاة.
(٣) فتح الباري (١/ ٢٢٦).
(٤) صفوة الصفوة لابن الجوزي (٢/ ٤٧٣).
(٥) شرح أصول الاعتقاد للالكائي (١/ ٦٦).
(٦) التعليق القويم (١/ ٢٩٧).

العبد أن يحبب إليه العلم وذلك لأن العلم الشرعي مفتاح كل خير»[١].

✍ **وقال ابن الجوزي** رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «ليس في الوجود شيء أشرف من العلم كيف لا وهو الدليل فإذا عدم وقع الضلال»[٢].

✍ **وقال السمهودي**: ومفهومه أن من لم يفقهه في الدين ولم يرشده لم يرد به خيرًا.

✍ **وقال المناوي** رَحِمَهُ ٱللَّهُ: أي وفقه لإصابة الرشد وهو إصابة الحق ذكره القاضي.

وفيه أن العناية الربانية وإن كان غيبها عنا فلها شهادة تدل عليها ودلالة تهدي إليها فمن ألهمه الله الفقه في الدين ظهرت عناية الحق به وأنه أراد به خيرًا عظيمًا.

فإذا عبد الله بما أمر ونهىٰ بعد أن فهم أسرار الشريعة وانكشف له الغطاء عن تدبيره فيما أمر ونهىٰ انشرح صدره وكان أشد تسارعًا إلىٰ فعل المأمور وتجنب المنهي وذلك أعظم الخيور وغيره إنما يعبده علىٰ مكابدة وعسر لأن القلب وإن أطاع وانقاد لأمر الله تعالىٰ فالنفس إنما تنشط وتنقاد إذا رأت نفع شيء أو ضره وأما من فهم تدبير الله تعالىٰ في ذلك فينشرح صدره ويخف عليه فعله فذلك هو الفقه»[٣].

---

(١) تفسير سورة غافر (٧).

(٢) صيد الخاطر (١١٢).

(٣) فيض القدير (٢٥٨/ ١).

❁ وما جاء أيضًا عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال النبي ﷺ: «**من سلك طريقا يلتمس فيه علما سهل الله له طريقا إلىٰ الجنة**»(١).

✍ **قال العلامة الصنعاني** رحمه الله: (من سلك طريقًا) ظاهراه حسية، قيل: أو معنوية (يلتمس فيه علمًا) يطلب علمًا نافعًا في الدين أو هو المراد عند الإطلاق. (سهل الله له طريقًا إلىٰ الجنة) يسر له أعمالًا صالحة يسلك بها إلىٰ الجنة فإن طلب العلم سبب لتيسير البشرىٰ وفيه فضل العلم(٢).

✍ **وقال صاحب «التنبيهات السنية» العلامة عبد العزيز الرشيد** رحمه الله: «لا بد للعبد من تعلم الإسلام بالفعل، فإنه قبل التعليم جاهل لا يعرف شيئًا، كما قال سبحانه: ﴿وَٱللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّنۢ بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْـًٔا﴾ [النحل:٧٨] الآية، فإن هداه الله سبب له من يعلمه الإسلام فصار مهديا بالفعل، بعد أن كان مهديا بالقوة، وإن خذله قيض له ما يغير له فطرته»(٣).

✍ **وقال العلامة العثيمين** رحمه الله: «سهل الله له به طريقا إلىٰ الجنة» يعني سهل الله له هداية التوفيق بالطريق إلىٰ الجنة، والمراد بالعلم هنا علم الشريعة وما يسانده من علوم العربية والتاريخ وما أشبه ذلك»(٤).

✍ **وقال ابن الجوزي** رحمه الله: «اعلم أن أول تلبيس إبليس علىٰ الناس

---

(١) أخرجه الترمذي (٢٦٤٦)، ومسلم (٢٦٩٩) مطولًا. بلفظه إلا أنه قال بدل يلتمس: يطلب.

(٢) التنوير شرح الجامع الصغير (٢٦٥/ ١٠).

(٣) التنبيهات السنية للشيخ عبد العزيز الرشيد (٤٢/ ١).

(٤) شرح الأربعين النووية (٣٥٧/ ١).

صدهم عن العلم؛ لأن العلم نور فإذا أطفأ مصابيحهم خبطهم في الظلام كيف شاء»(١).

❁ **ومن الأدلة:** سؤال الأعرابي عن سبب التوفيق إلىٰ الجنة وهذا من طلب العلم فعن أبي أيوب أن أعرابيًّا عرض لرسول الله ﷺ وهو في سفر، فأخذ بخطام ناقته - أو بزمامها ثم قال: يا رسول الله - أو يا محمد - أخبرني بما يقربني من الجنة، وما يباعدني من النار، قال: فكف النبي ﷺ، ثم نظر في أصحابه، ثم قال: «**لقد وفق، أو لقد هدي**»، قال: كيف قلت؟ قال: فأعاد، فقال النبي ﷺ: «**تعبد الله لا تشرك به شيئًا، وتقيم الصلاة، وتؤتي الزكاة، وتصل الرحم، دع الناقة**»(٢).

✍ **قال شيخ الإسلام** رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «إذا ضعف العلم حار السالك ولم يدر أين يسلك»(٣).

✍ **وقال ابن الجوزي** رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «إبليس إنما يتمكن من الإنسان علىٰ قدر قلة العلم فكلما علم الإنسان قل تمكن الشيطان منه وكلما قل علمه كثر تمكنه منه»(٤).

✍ **وقال العلامة عبد العزيز بن باز** رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «وحصول العلم النافع من أعظم التيسير والتسهيل لأن طالب العلم الشرعي يدرك بعلمه من الخير

---

(١) تلبيس إبليس (١/ ٢٨٩).

(٢) أخرجه مسلم، باب بيان الإيمان الذي يدخل به الجنة برقم (١٣).

(٣) الفتاوىٰ (١٠/ ٥٤٤).

(٤) تلبيس إبليس (١/ ٣٣٤).

وأسباب النجاة ما لا يتيسر للجاهل»(١).

✍ **وقال أيضًا** رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «فإذا رأيت الرجل يتبع حلقات العلم، ويسأل عن العلم، ويتفقه ويتبصر فيه، فذلك من علامات أن الله أراد به خيرًا، فليلزم ذلك، وليجتهد ولا يمل ولا يضعف، فالعلم من أسباب النجاة ومن الدلائل على الخير»(٢).

✍ **وقال ابن القيم** رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «حب العلم وطلبه أصل كل طاعة وحب الدنيا والمال وطلبهما أصل كل سيئة»(٣).

✍ **وقال ابن تيمية** رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «بحسب قلة علم الرجل يضله الشيطان»(٤).

✍ **وقال أبو بكر بن عياش** رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «من لم يطلب العلم لم يرزق عقلا»(٥).

✍ **وقال شيخ الإسلام** رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «لا ينال الهدىٰ إلا بالعلم، ولا ينال الرشاد إلا بالصبر»(٦).

✍ **قال ابن رجب** رَحِمَهُ ٱللَّهُ: ومن سلك طريقة طلب العلم علىٰ ما ذكرناه، تمكن من فهم جواب الحوادث الواقعة غالبا، لأن أصولها توجد في تلك

---

(١) فتاوىٰ ابن باز (١/ ٣٥٠).
(٢) مجموع فتاوىٰ ابن باز (٥/ ٦٨).
(٣) مفتاح دار السعادة (١/ ٤١٩).
(٤) الصارم المنكي (١/ ٤٠١).
(٥) صفوة الصفوة (٣/ ١٦٥).
(٦) مجموع الفتاوىٰ (١٠/ ٤٠).

الأصول المشار إليها، ولا بد أن يكون سلوك هذا الطريق خلف أئمة أهله المجمع علىٰ هدايتهم ودرايتهم كالشافعي وأحمد وإسحاق وأبي عبيد ومن سلك مسلكهم فإن من ادعىٰ سلوك هذا الطريق علىٰ غير طريقهم، وقع في مفاوز ومهالك، وأخذ بما لا يجوز الأخذ به، وترك ما يجب العمل به. وملاك الأمر كله أن يقصد بذلك وجه الله، والتقرب إليه بمعرفة ما أنزل علىٰ رسوله، وسلوك طريقه، والعمل بذلك، ودعاء الخلق إليه، ومن كان كذلك وفقه الله وسدده، وألهمه رشده، وعلمه ما لم يكن يعلم، وكان من العلماء الممدوحين في الكتاب في قوله تعالىٰ: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُاْ﴾ [فاطر:٢٨]، ومن الراسخين في العلم(١).

✍ **وقال عبد الله بن وهب** رَحِمَهُ ٱللَّهُ: العلم حيث شاء الله جعله والعلم حسن لمن رزق خيره وهو قسم من الله تعالىٰ(٢).

✍ **قال ابن القيم في «نونيته»:**

العلم يدخل قلب كل موفق ∴ من غير بواب ولا استئذان
ويرده المحروم من خذلانه ∴ لا تشقنا يا رب بالخذلان

✍ **وذكر عن الأوزاعي قال:** جاء رجل إلىٰ ابن مسعود فقال: يا أبا عبد الرحمن، أي الأعمال أفضل؟ قال: العلم، ثم سأله أي الأعمال أفضل؟ قال: العلم، قال: أنا أسألك عن أفضل الأعمال، وأنت تقول: العلم؟ قال:

---

(١) جامع العلوم والحكم (٢٥٠/ ١).
(٢) ترتيب المدارك (١/ ١٨٦).

ويحك، إن مع العلم بالله ينفعك قليل العمل وكثيره، ومع الجهل بالله لا ينفعك قليل العمل ولا كثيره(١).

✍ وقال العلامة ابن رجب رَحِمَهُ ٱللَّهُ: فالإنسان يولد مفطورًا علىٰ قبول الحق، فإن هداه الله سبب له من يعلمه الهدىٰ، فصار مهتديا بالفعل بعد أن كان مهتديا بالقوة، وإن خذله الله، قيض له من يعلمه ما يغير فطرته قال ﷺ: «**كل مولود يولد علىٰ الفطرة، فأبواه يهودانه وينصرانه ويمجسانه**»(٢).

[٧] من أسباب التوفيق الاستعانة بالله على فعل الطاعة وترك المعصية

لتعلم أيها القارئ أعانني الله وإياك أن الاستعانة هي العنصر المحرك لآلة الجوارح والزيت الموقد للرغبة والهمة الداعية للعمل فالإعانة شرط وجودي بوجودها يوجد العمل وبعدمها يعدم العمل فقد يوجد أغلب اسباب التوفيق عند العبد كالتوحيد والنية والدعاء ربما وغيرها ولكن مع ذلك ليس ثم أعانة من الله للعبد لمانع منعها أو حائل حال دونها نعوذ بالله من الخذلان والحرمان والله المستعان.

❁ **ومن الأدلة عليه** قوله تعالىٰ: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ۝٥﴾ [الفاتحة:٥].

✍ **قال العلامة السعدي** رَحِمَهُ ٱللَّهُ: هي الاعتماد علىٰ الله تعالىٰ في جلب المنافع، ودفع المضار، مع الثقة به في تحصيل ذلك، والقيام بعبادة الله

---

(١) شرح البخاري لابن بطال (١٢٣/ ١).

(٢) جامع العلوم والحكم (٣٩/ ٢).

والاستعانة به هو الوسيلة للسعادة الأبدية، والنجاة من جميع الشرور، فلا سبيل إلىٰ النجاة إلا بالقيام بهما. وإنما تكون العبادة عبادة، إذا كانت مأخوذة عن رسول الله ﷺ مقصودا بها وجه الله. فبهذين الأمرين تكون عبادة، وذكر «الاستعانة» بعد «العبادة» مع دخولها فيها، لاحتياج العبد في جميع عباداته إلىٰ الاستعانة بالله تعالىٰ. فإنه إن لم يعنه الله، لم يحصل له ما يريده من فعل الأوامر، واجتناب النواهي»(١).

✍ **وقال ابن كثير** رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «علىٰ طاعتك وعلىٰ أمورنا كلها. لأن العبادة له هي المقصودة، والاستعانة وسيلة إليها، والاهتمام والحزم هو أن يقدم ما هو الأهم فالأهم، والله أعلم. من جعله نفسه وحده أهلا لعبادة الله تعالىٰ الذي لا يستطيع أحد أن يعبده حق عبادته، ولا يثني عليه كما يليق به، والعبادة مقام عظيم يشرف به العبد لانتسابه إلىٰ جناب الله تعالىٰ»(٢).

❁ وقوله تعالىٰ: ﴿ وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱلْعَزِيزِ ٱلرَّحِيمِ ﴿٢١٧﴾ ﴾ [الشعراء:٢١٧].

✍ **قال السعدي** رَحِمَهُ ٱللَّهُ: أعظم مساعد للعبد علىٰ القيام بما أمر به، الاعتماد علىٰ ربه، والاستعانة بمولاه علىٰ توفيقه للقيام بالمأمور، فلذلك أمر الله تعالىٰ بالتوكل عليه فقال: ﴿ وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱلْعَزِيزِ ٱلرَّحِيمِ ﴿٢١٧﴾ ﴾.

والتوكل: هو اعتماد القلب علىٰ الله تعالىٰ، في جلب المنافع، ودفع المضار، مع ثقته به، وحسن ظنه بحصول مطلوبه، فإنه عزيز رحيم، بعزته

---

(١) تيسير الكريم الرحمن (٣٩/ ١).

(٢) تفسير القرآن العظيم (١٣٥ - ١٣٦/ ١).

يقدر علىٰ إيصال الخير، ودفع الشر عن عبده، وبرحمته به، يفعل ذلك ثم نبهه علىٰ الاستعانة باستحضار قرب الله، والنزول في منزل الإحسان(١).

✍ وقال العلامة العثيمين رَحِمَهُ ٱللَّهُ: فاحرص- يا أخي المسلم- علىٰ مراقبة الله عَزَّوَجَلَّ وأن تقوم بطاعته امتثالا لأمره واجتنابا لنهيه، ونسأل الله العون علىٰ ذلك؛ لأن الله إذا لم يعنا، فإننا مخذولون؛ كما قال تعالىٰ: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ۝٥﴾ [الفاتحة:٥] فإذا وفق العبد للهداية والاستعانة في إطار الشريعة فهذا هو الذي أنعم الله عليه(٢).

✍ قال العلامة السعدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: ﴿وَمَا تَوْفِيقِيٓ إِلَّا بِٱللَّهِۚ﴾ [هود:٨٨].

أي: وما يحصل لي من التوفيق لفعل الخير، والانفكاك عن الشر إلا بالله تعالىٰ، لا بحولي ولا بقوتي. ﴿عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ﴾ أي: اعتمدت في أموري، ووثقت في كفايته، ﴿وَإِلَيْهِ أُنِيبُ﴾ في أداء ما أمرني به من أنواع العبادات، وفي هذا التقرب إليه بسائر أفعال الخيرات.

وبهذين الأمرين تستقيم أحوال العبد، وهما الاستعانة بربه، والإنابة إليه، كما قال تعالىٰ: ﴿فَٱعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِۚ﴾ [هود:١٢٣] وقال: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ۝٥﴾ [الفاتحة:٥](٣).

---

(١) تيسير الكريم الرحمن (٥٩٩/ ١).
(٢) شرح رياض الصالحين (٣٣٢/ ١).
(٣) تيسير الكريم الرحمن (٣٨٧/ ١).

❁ **ومن أدلة السنة** ما ورد عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: كنت خلف رسول الله ﷺ يومًا فقال: «**يا غلام إني أعلمك كلمات احفظ الله يحفظك احفظ الله تجده تجاهك إذا سألت فاسأل الله وإذا استعنت فاستعن بالله واعلم أن الأمة لو اجتمعت علىٰ أن ينفعوك بشيء لم ينفعوك إلا بشيء قد كتبه الله لك ولو اجتمعوا علىٰ أن يضروك بشيء لم يضروك إلا بشيء قد كتبه الله عليك رفعت الأقلام وجفت الصحف**»(١).

✍ **قال الحافظ ابن رجب** رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «وأما الاستعانة بالله عَزَّوَجَلَّ دون غيره من الخلق، فلأن العبد عاجز عن الاستقلال بجلب مصالحه، ودفع مضاره، ولا معين له علىٰ مصالح دينه ودنياه إلا الله عَزَّوَجَلَّ، فمن أعانه الله، فهو المعان، ومن خذله فهو المخذول، وهذا تحقيق معنىٰ قول: «لا حول ولا قوة إلا بالله: فإن المعنىٰ لا تحول للعبد من حال إلىٰ حال، ولا قوة له علىٰ ذلك إلا بالله، وهذه كلمة عظيمة وهي كنز من كنوز الجنة، فالعبد محتاج إلىٰ الاستعانة بالله في فعل المأمورات، وترك المحظورات، والصبر علىٰ المقدورات كلها في الدنيا وعند الموت وبعده من أهوال البرزخ ويوم القيامة، ولا يقدر علىٰ الإعانة علىٰ ذلك إلا الله عَزَّوَجَلَّ، فمن حقق الاستعانة عليه في ذلك كله أعانه. وفي الحديث الصحيح عن النبي ﷺ قال: «احرص علىٰ ما ينفعك واستعن بالله ولا تعجز».

ومن ترك الاستعانة بالله، واستعان بغيره، وكله الله إلىٰ من استعان به

---

(١) جامع الترمذي (٢٥١٤)، وقال الترمذي: حسن صحيح. وقال الشيخ الألباني: صحيح.

فصار مخذولًا. كتب الحسن إلىٰ عمر بن عبد العزيز: لا تستعن بغير الله، فيكلك الله إليه. ومن كلام بعض السلف: يا رب عجبت لمن يعرفك كيف يرجو غيرك، وعجبت لمن يعرفك كيف يستعين بغيرك(١).

❁ وأيضًا ما رواه أبو هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «**المؤمن القوي خير وأحب إلىٰ الله من المؤمن الضعيف، وفي كلٍّ خير، احرص علىٰ ما ينفعك واستعن بالله ولا تعجز، فإن أصابك شيء فلا تقل لو أني فعلت كذا وكذا، ولكن قل قدر الله وما شاء فعل، فإن لو تفتح عمل الشيطان**»(٢).

✍ **قال النووي** رَحِمَهُ ٱللَّهُ: احرص علىٰ طاعة الله تعالىٰ والرغبة فيما عنده واطلب الإعانة من الله تعالىٰ علىٰ ذلك ولا تعجز ولا تكسل عن طلب الطاعة ولا عن طلب الإعانة(٣).

✍ **وقال شيخ الإسلام** رَحِمَهُ ٱللَّهُ: ويسأل الله أن يعينه علىٰ طاعته، فبذلك يحصل له كل خير، ويندفع عنه كل شر ولهذا كان أنفع الدعاء، وأعظمه وأحكمه دعاء الفاتحة: ﴿ ٱهۡدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ ۝٦ صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنۡعَمۡتَ عَلَيۡهِمۡ غَيۡرِ ٱلۡمَغۡضُوبِ عَلَيۡهِمۡ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ ۝٧ ﴾ [الفاتحة:٦، ٧]، فإنه إذا هداه هذا الصراط أعانه علىٰ طاعته وترك معصيته، فلم يصبه شر، لا في الدنيا ولا في الآخرة.

---

(١) جامع العلوم والحكم (٤٨٢/ ١).

(٢) صحيح ابن ماجة (٦٤)، وقال العلامة الألباني: (حسن). الظلال ٣٥٦: وأخرجه مسلم - (٢٦٦٤).

(٣) شرح النووي علىٰ مسلم (٢١٥/ ١٦).

لكن الذنوب هي من لوازم نفس الإنسان، وهو محتاج إلىٰ الهدىٰ في كل لحظة، وهو إلىٰ الهدىٰ أحوج منه إلىٰ الأكل والشرب(١).

✍ **وقال الحافظ ابن رجب** رَحِمَهُ ٱللَّهُ: فالله سبحانه إذا أراد توفيق عبد وهدايته أعانه، ووفقه لطاعته، فكان ذلك فضلا منه، وإذا أراد خذلان عبد، وكله إلىٰ نفسه، وخلىٰ بينه وبينها، فأغواه الشيطان لغفلته عن ذكر الله، واتبع هواه، وكان أمره فرطا(٢).

✍ **قال ابن القيم** رَحِمَهُ ٱللَّهُ: وأصل المعاصي كلها العجز، فإن العبد يعجز عن أسباب أعمال الطاعات، وعن الأسباب التي تبعده عن المعاصي، وتحول بينه وبينها، فيقع في المعاصي(٣).

✍ **قال شيخ الإسلام** رَحِمَهُ ٱللَّهُ: قوم ينظرون إلىٰ جانب الأمر والنهي والعبادة والطاعة شاهدين لإلهية الرب سبحانه الذي أمروا أن يعبدوه ولا ينظرون إلىٰ جانب القضاء والقدر والتوكل والاستعانة وهو حال كثير من المتفقهة والمتعبدة؛ فهم مع حسن قصدهم وتعظيمهم لحرمات الله ولشعائره يغلب عليهم الضعف والعجز والخذلان؛ لأن الاستعانة بالله والتوكل عليه واللجأ إليه والدعاء له هي التي تقوي العبد وتيسر عليه الأمور(٤).

---

(١) الحسنة والسيئة (٨٤/ ١).

(٢) جامع العلوم والحكم (٦٧٩/ ٢).

(٣) زاد المعاد (٣٢٦/ ٢).

(٤) مجموع الفتاوىٰ (١٠/ ٣٢).

✍ **وقال ابن القيم** رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «فالناس في هذين الأصلين وهما العبادة والاستعانة أربعة أقسام»

(١) أجلها وأفضلها أهل العبادة والاستعانة بالله عليها:

فعباد الله غاية مرادهم وطلبهم منه أن يعينهم عليها ويوفقهم للقيام بها ولهذا كان من أفضل ما يسأل الرب تبارك وتعالىٰ الإعانة علىٰ مرضاته وهو الذي علمه النبي لحبه معاذ بن جبل رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ فقال يا معاذ والله إني لأحبك فلا تنس أن تقول دبر كل صلاة اللهم أعني علىٰ ذكرك وشكرك وحسن عبادتك

فأنفع الدعاء طلب العون علىٰ مرضاته وأفضل المواهب إسعافه بهذا المطلوب وجميع الأدعية المأثورة مدارها علىٰ هذا وعلىٰ دفع ما يضاده وعلىٰ تكميله وتيسير أسبابه فتأملها

✍ **قال شيخ الإسلام** ابن تيمية قدس الله روحه تأملت أنفع الدعاء فإذا هو سؤال العون علىٰ مرضاته ثم رأيته في الفاتحة في ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ۝٥﴾ [الفاتحة:٥] ومقابل

(٢) هؤلاء القسم الثاني وهم المعرضون عن عبادته والاستعانة به فلا عبادة ولا استعانة بل إن سأله أحدهم واستعان به فعلىٰ حظوظه وشهواته لا علىٰ مرضاة ربه وحقوقه فإنه سبحانه يسأله من في السموات والأرض يسأله أولياؤه وأعداؤه ويمد هؤلاء وهؤلاء وأبغض خلقه عدوه إبليس ومع هذا فقد سأله حاجة فأعطاه إياها ومتعه بها ولكن لما لم تكن عونًا له علىٰ مرضاته كانت زيادة له في شقوته وبعده عن الله وطرده عنه وهكذا كل من

استعان به علىٰ أمر وسأله إياه ولم يكن عونا علىٰ طاعته كان مبعدًا له عن مرضاته قاطعا له عنه ولا بد.

فصل القسم الثالث: من له نوع عبادة بلا استعانة وهؤلاء نوعان:

أحدهما القدرية القائلون بأنه قد فعل بالعبد جميع مقدوره من الألطاف وأنه لم يبق في مقدوره إعانة له علىٰ الفعل فإنه قد أعانه بخلق الآلات وسلامتها وتعريف الطريق وإرسال الرسل وتمكينه من الفعل فلم يبق بعد هذا إعانة مقدورة يسأله إياها بل قد ساوىٰ بين أوليائه وأعدائه في الإعانة فأعان هؤلاء كما أعان هؤلاء ولكن أولياءه اختاروا لنفوسهم الإيمان وأعداءه اختاروا لنفوسهم الكفر من غير أن يكون الله سبحانه وفق هؤلاء بتوفيق زائد أوجب لهم الإيمان وخذل هؤلاء بأمر آخر أوجب لهم الكفر فهؤلاء لهم نصيب منقوص من العبادة لا استعانة معه فهم موكولون إلىٰ أنفسهم مسدود عليهم طريق الاستعانة والتوحيد.

النوع الثاني من لهم عبادات وأوراد ولكن حظهم ناقص من التوكل والاستعانة لم تتسع قلوبهم لارتباط الأسباب بالقدر وتلاشيها في ضمنه وقيامها به وأنها بدون القدر كالموات الذي لا تأثير له بل كالعدم الذي لا وجود له وأن القدر كالروح المحرك لها والمعول علىٰ المحرك الأول.

فلم تنفذ قوىٰ بصائرهم من المتحرك إلىٰ المحرك ومن السبب إلىٰ المسبب ومن الآلة إلىٰ الفاعل فضعفت عزائمهم وقصرت هممهم فقل نصيبهم من إياك نستعين ولم يجدوا ذوق التعبد بالتوكل والاستعانة وإن وجدوا ذوقه بالأوراد والوظائف.

فهؤلاء لهم نصيب من التوفيق والنفوذ والتأثير بحسب استعانتهم وتوكلهم ولهم من الخذلان والضعف والمهانة والعجز بحسب قلة استعانتهم وتوكلهم ولو توكل العبد علىٰ الله حق توكله في إزالة جبل عن مكانه وكان مأمورا بإزالته لأزاله(١).

❁ ومنها قوله جل وعلا: ﴿قَالَ رَبِّ ٱلسِّجۡنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدۡعُونَنِيٓ إِلَيۡهِۖ وَإِلَّا تَصۡرِفۡ عَنِّي كَيۡدَهُنَّ أَصۡبُ إِلَيۡهِنَّ وَأَكُن مِّنَ ٱلۡجَٰهِلِينَ ٣٣﴾ [يوسف:٣٣].

✍ **قال ابن القيم** رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «فلا يركن العبد إلىٰ نفسه وصبره وحاله وعفته ومتىٰ ركن إلىٰ ذلك تخلت عنه عصمة الله وأحاط به الخذلان»(٢).

✍ **وقال شيخ الإسلام** رَحِمَهُ ٱللَّهُ: فإذا أراد الله بعبد خيرًا ألهمه دعاءه والاستعانة به، وجعل استعانته ودعاءه سببا للخير الذي قضاه له(٣).

✍ **وكان رواد العجلي** رَحِمَهُ ٱللَّهُ يقول: مولاي عبدك يحب الاتصال بطاعتك فأعنه عليها بتوفيقك، مولاي عبدك يحب اجتناب خطيئتك فأعنه علىٰ ذلك بمنك، مولاي عبدك عظيم الرجاء لخيرك فلا تقطع رجاءه يوم يفرح بخيرك الفائزون(٤).

❁ ومنها قوله تعالىٰ: ﴿طَاعَةٞ وَقَوۡلٞ مَّعۡرُوفٞۚ فَإِذَا عَزَمَ ٱلۡأَمۡرُ فَلَوۡ صَدَقُواْ ٱللَّهَ

---

(١) مدارج السالكين (٨٢/ ١).
(٢) روضة المحبين (٤١٣/ ١).
(٣) اقتضاء الصراط المستقيم (٢٢٩/ ٢).
(٤) صفة الصفوة (١٦٢/ ٣).

لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ ﴿٢١﴾ [محمد:٢١].

✍ **قال العلامة السعدي** رَحِمَهُ ٱللَّهُ: ففي هذه الحال لو صدقوا الله بالاستعانة به، وبذل الجهد في امتثاله ﴿لَكَانَ خَيْرًا لَّهُم﴾ [آل عمران:١١٠] من حالهم الأولىٰ، وذلك من وجوه:

- **منها** أن العبد ناقص من كل وجه، لا قدرة له إلا إن أعانه الله، فلا يطلب زيادة علىٰ ما هو قائم بصدده.

- **ومنها**: أنه إذا تعلقت نفسه بالمستقبل، ضعف عن العمل، بوظيفة وقته، وبوظيفة المستقبل، أما الحال، فلأن الهمة انتقلت عنه إلىٰ غيره، والعمل تبع للهمة، وأما المستقبل، فإنه لا يجيء حتىٰ تفتر الهمة عن نشاطها فلا يعان عليه.

- **ومنها**: أن العبد المؤمل للآمال المستقبلة، مع كسله عن عمل الوقت الحاضر، شبيه بالمتألي الذي يجزم بقدرته، علىٰ ما يستقبل من أموره، فأحرىٰ به أن يخذل ولا يقوم بما هم به ووطن نفسه عليه، فالذي ينبغي أن يجمع العبد همه وفكرته ونشاطه علىٰ وقته الحاضر، ويؤدي وظيفته بحسب قدرته، ثم كلما جاء وقت استقبله بنشاط وهمة عالية مجتمعة غير متفرقة، مستعينا بربه في ذلك، فهذا حري بالتوفيق والتسديد في جميع أموره.

ثم ذكر تعالىٰ حال المتولي عن طاعة ربه، وأنه لا يتولىٰ إلىٰ خير، بل إلىٰ شر(١).

---

(١) تيسير الكريم الرحمن (٧٨٨/ ١).

❁ **ومن الأدلة من السنة** ما رواه عبدالله بن عباس كان النبي ﷺ يدعو: «**رب أعني ولا تعن علي**»(١).

✍ **قال المباركفوري** رَحِمَهُ ٱللَّهُ: قوله «ولا تعن علي»؛ يعني: ولا تغلب علي أعدائي، أعان زيد عمرا إذا نصره، وأعان زيد علىٰ عمرو إذا نصر أعداء عمرو حتىٰ حاربوا عمرا، ومثله: «وانصرني ولا تنصر علي».

فإن قيل: فإذا كان معناهما واحدا، فأي فائدة في التكرار؟.

قلنا: أكثر استعمال الإعانة في الدعاء في طلب إعانة الله علىٰ الذكر والطاعة، وأكثر استعمال النصرة في طلب النصرة علىٰ الأعداء.

فقوله: «أعني ولا تعن علي»؛ معناه وفقني لذكرك وشكرك وعبادتك، ولا تغلب علي من يمنعني عن طاعتك من شياطين الإنس والجن(٢).

❁ وما جاء عن أبي هريرة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ عن النبي ﷺ أنه قال: «**أتحبون أن تجتهدوا في الدعاء؟ قولوا: اللهم أعنا علىٰ شكرك وذكرك وحسن عبادتك**»(٣).

---

(١) سنن أبي داود (١٥٠٩)، صحيح ابن ماجة (٣٠٨٨)، صحيح الأدب المفرد (٦٦٥)، قال الشيخ الألباني: صحيح.

(٢) المفاتيح شرح مشكاة المصابيح (٢٤٥/ ٣).

(٣) قال الألباني في «السلسلة الصحيحة» ٢/ ٥٢٤: أخرجه أحمد (٢/ ٢٩٩)، وعنه أبو نعيم في «الحلية» (٩/ ٢٢٣) بإسناد صحيح، فالإسناد صحيح. وقد أخرجه الحاكم (١/ ٤٩٩).

❁ وعن معاذ بن جبل: أن رسول الله ﷺ أخذ بيده وقال: **يا معاذ والله إني لأحبك والله إني لأحبك**» فقال: «**أوصيك يا معاذ لا تدعن في دبر كل صلاة تقول اللهم أعني علىٰ ذكرك وشكرك وحسن عبادتك**».

وأوصىٰ بذلك معاذ الصنابحي وأوصىٰ به الصنابحي أبا عبد الرحمن(١).

ومعناه: «أي وفقني بها»(٢).

وقيل: «إذ لا يتمكن منه إلا بتوفيق الله وإعانته وشرح صدره وتنوير بصيرته»(٣).

وقيل: «المطلوب منه شرح الصدر، وتيسير الأمر، وإطلاق اللسان»(٤).

✍ **قَالَ الإِمَامُ ابن القَيِّمِ** رَحِمَهُ ٱللَّهُ: أفضل ما يُسأل الرب تبارك وتعالىٰ: الإعانة علىٰ مرضاته، وهو الذي علّمه النبي لمعاذ بن جبل فقال: «**يا معاذ! والله إني لأحبك، فلا تنس أن تقول دبر كل صلاة: اللهم أعني ذكرك وشكرك وحسن عبادتك**». فأنفع الدعاء: طلب العون علىٰ مرضاته، وأفضل

---

(١) أخرجه أبو داود في سننه (١٥٢١)، والنسائي (١٣٠٣)، قال الشيخ الألباني: (صحيح). انظر حديث رقم: ٧٩٦٩ في صحيح الجامع، صحيح الترغيب (١٥٩٦).

(٢) بذل المجهود شرح سنن أبي داود (٦/ ٢٦٠).

(٣) شرح سنن أبي داود لابن رسلان (٧/ ٣٣٥).

(٤) مرعاة المفاتيح (٣/ ٣٠٦).

المواهب: إسعافه بهذا المطلوب(١).

✍ **وقال شيخ الإسلام ابن تيميَّة** رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «تأمَّلت أنفع الدعاء فإذا هو سؤال العون علىٰ مرضاته، ثم رأيته في الفاتحة في: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾»(٢).

✍ **قال ابن رجب** رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «فالعبد محتاج إلى الاستعانة بالله في مصالح دينه ودنياه»(٣).

✍ **قال أبو فراس الحمداني**: «من استعان بغير الله في طلب فإن ناصره عجز وخذلان».

[٨] من أسباب التوفيق الدعاء لتيسر الطاعة وتكريه المعصية

وإليك أخي يسر الله أمرك وآتاك رشدك سبب من أسباب التوفيق به تستمطر الرحمات وتستنزل البركات وينال به رفيع الدرجات وينجو به العبد من الآفات والهلكات فهو نافع ناجع في طلب المرغوبات والمطلوبات ودفع المكروهات والمرهوبات فهو وسيلة الاتصال بين العبد وربه وأقرب باب يدخل به العبد علىٰ مولاه طالبًا راغبًا سائلًا راجيًا مؤملًا في خيره لائذًا به من شر ما عنده من عقوبته ومقته وخذلانه

❁ **فمن الأدلة في هذا الباب** ما روته أم المؤمنين عائشة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهَا قالت:

---

(١) مدارج السالكين (١/ ١٠٠).

(٢) [مدارج السالكين (١/ ٧٨)].

(٣) مجموع رسائل ابن رجب (٣/ ١٣٥).

«قالت سلوا الله كل شيء، حتىٰ الشسع، فإن الله إن لم ييسره، لم يتيسر»(١).

✍ **قال العلامة الصنعاني** رَحِمَهُ ٱللَّهُ «فإذا لا طريق إلىٰ حصول شيء من الخير في الدين والدنيا إلا من الرب تعالىٰ وطلبه من طريق نيله فلا يعجز العبد عن السؤال فإن الله لا يبخل عن العطاء»(٢).

✍ **وقال المناوي** رَحِمَهُ ٱللَّهُ: فإذن لا طريق إلىٰ حصول أي مطلوب من جلائل النعم ودقائقها إلا بالتطفل علىٰ موائد كرم من له الأمر وفي الإنجيل سلوا تعطوا اطلبوا تجدوا اقرعوا يفتح لكم كل من سأل أعطىٰ ومن طلب وجد ومن يقرع يفتح له(٣).

❁ وعن أنس رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله ﷺ: «**ليسأل أحدكم ربه حاجته كلها حتىٰ يسأله شسع نعله إذا انقطع**»(٤).

---

(١) قال الألباني في «السلسلة الضعيفة والموضوعة» (٣/ ٥٤٠): أخرجه أبو يعلىٰ في «مسنده» (٢/ ٢١٦)، وهذا سند موقوف جيد رجاله كلهم ثقات رجال مسلم، ورواه ابن السني في «اليوم والليلة» (٣٤٩) موقوفًا. بسند حسن [تخريج الضعيفة (٢١)].

(٢) التنوير شرح الجامع الصغير (٦/ ٤١١).

(٣) فيض القدير (٤/ ١٤٥).

(٤) أخرجه الترمذي (٤/ ٢٩٢ - تحفة و٢٢/ ١٢٦/ ١ - مخطوط)، وابن حبان (٢٤٠٢)، وابن السني في «عمل اليوم والليلة» (٣٤٨/ ٢)، والمخلص في «الفوائد المنتقاة» (١٣/ ٢٤٨/ ٢)، وابن عدي في «الكامل» (٣٣١/ ٢)، وأبو نعيم في «أخبار أصبهان» (٢/ ٢٨٩)، والضياء المقدسي في «الأحاديث المختارة» (١/ ٥٠١). انظر: تخريج المشكاة حديث: (٢٢٥١ - ٢٩) قال العلامة الألباني: (حسن).

❁ وعن أبي ذر رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ فيما يروي عن الله تبارك وتعالىٰ أنه قال: «**يا عبادي إني حرمت الظلم علىٰ نفسي وجعلته بينكم محرمًا فلا تظالموا، يا عبادي كلكم ضال إلا من هديته فاستهدوني أهدكم**»(١).

✍ **قال العلامة العثيمين** رَحِمَهُ ٱللَّهُ: أي اطلبوا مني أهدكم، والهداية هنا تشمل هداية العلم وهداية التوفيق العباد كلهم ضال في العلم وفي العمل إلا من هداه الله عَزَّوَجَلَّ وإذا كان الأمر كذلك فالواجب طلب الهداية من الله.

✍ **وقال** رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «أي: كلكم تائه عن الصراط المستقيم إلا من هديته وعلمته ووفقته فاطلبوا الهداية مني لا من غيري»(٢).

✍ **وقال ابن القيم** رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «الدعاء الذي هو توحيد وافتقار، وعبودية، وتوكل، وسؤال لمن بيده الخير كله الذي لا يأتي بالحسنات إلا هو، ولا يصرف السيئات إلا هو الذي إذا فتح لعبده رحمة لم يستطع أحد حبسها عنه، وإذا أمسكها لم يستطع أحد إرسالها إليه من التطير والتنجيم واختيار الطالع ونحوه. فهذا الدعاء، هو الطالع الميمون السعيد، طالع أهل السعادة والتوفيق، الذين سبقت لهم من الله الحسنىٰ، لا طالع أهل الشرك والشقاء والخذلان، الذين يجعلون مع الله إلها آخر، فسوف يعلمون»(٣).

✍ **قال شيخ الإسلام** رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «وليكثر من ذلك ومن الدعاء فإنه مفتاح

---

(١) أخرجه مسلم برقم (٤٦٧٤).

(٢) تعليقات شرح الأربعين النووية للعثيمين (١/٣٩)، وانظر: شرح الأربعين للعثيمين (١/٢٦٢).

(٣) زاد المعاد (٢/٤٠٥).

كل خير»(١).

✍ **قال العلامة ابن القيم** رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «إذا أراد بعبده خيرًا وفقه لاستفراغ وسعه وبذل جهده في الرغبة والرهبة إليه فإنهما مادتا التوفيق فبقدر قيام الرغبة والرهبة في القلب يحصل التوفيق، فإن قلت فالرغبة والرهبة بيده لا بيد العبد قلت نعم والله وهما مجرد فضله ومنته وإنما يجعلهما في المحل الذي يليق بهما ويحبسهما عمن لا يصلح لهما»(٢).

✍ **وقال العلامة ابن رجب** رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «وأما سؤال المؤمن من الله الهداية، فإن الهداية نوعان: هداية مجملة وهي الهداية للإسلام والإيمان وهي حاصلة للمؤمن، وهداية مفصلة، وهي هداية إلىٰ معرفة تفاصيل أجزاء الإيمان والإسلام وإعانته علىٰ فعل ذلك، وهذا يحتاج إليه كل مؤمن ليلا ونهارا، ولهذا أمر الله عباده أن يقرؤوا في كل ركعة من صلاتهم قوله: ﴿ ٱهۡدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ ﴾»(٣).

✍ **وقال ابن القيم** رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «أعرف العارفين من شكىٰ نفسه إلىٰ الله»(٤).

✍ **وقال ابن رجب** رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «فما دام العبد يلح في الدعاء، ويطمع في

---

(١) مجموع الفتاوىٰ (١٠/ ٦٦١).
(٢) شفاء العليل (٢٠٧/ ١).
(٣) جامع العلوم والحكم (٤٠/ ٢).
(٤) الفوائد (١٢٧/ ١).

الإجابة من غير قطع الرجاء، فهو قريب من الإجابة، ومن أدمن قرع الباب، يوشك أن يفتح له. وفي «صحيح الحاكم» عن أنس مرفوعًا: «لا تعجزوا عن الدعاء، فإنه لن يهلك مع الدعاء أحد»(١).

✍ **وقال ابن القيم** رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «فمفتاح التوفيق الدعاء والافتقار إلىٰ الله»(٢).

✍ **وقال ابن بدران الحنبلي** رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «ومن طرح نفسه بباب رب الأرباب لم يحتج إلىٰ زمن طويل في فتح الأبواب»(٣).

✍ **وقال ابن تيمية** رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «فإذا أراد الله بعبد خيرًا ألهمه دعاءه والاستعانة به، وجعل استعانته ودعاءه سببا للخير الذي قضاه له»(٤).

✍ **وقال شيخ الإسلام** رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «والعبد مضطر دائمًا إلىٰ أن يهديه الله الصراط المستقيم فهو مضطر إلىٰ مقصود هذا الدعاء؛ فإنه لا نجاة من العذاب ولا وصول إلىٰ السعادة إلا بهذه الهداية»(٥).

✍ **وقال ابن القيم** رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «فإذا اراد الله بعبده خيرًا فتح له من ابواب التوبة والندم والانكسار والذل والافتقار والاستعانة به وصدق اللجأ إليه

---

(١) جامع العلوم والحكم (٢/ ٤٠٤).
(٢) الفوائد (١/ ١٤١).
(٣) نزهة الخاطر العاطر (١/ ٩).
(٤) اقتضاء الصراط المستقيم (٢/ ٢٢٩).
(٥) مجموع الفتاوىٰ (١٤/ ٣٧).

ودوام التضرع والدعاء والتقرب إليه بما امكن من الحسنات»(١).

✍ **وقَالَ الإِمَامُ ابن القَيِّمِ** رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «وشهدت شيخ الإسلام قدس الله روحه إذا أعيته المسائل واستصعبت عليه فر منها إلىٰ التوبة والاستغفار، والاستغاثة بالله واللجأ إليه، واستنزال الصواب من عنده، والاستفتاح من خزائن رحمته، فقلما يلبث المدد الإلهي أن يتتابع عليه مدا، وتزدلف الفتوحات الإلهية إليه بأيتهن يبدأ، ولا ريب أن من وفق هذا الافتقار علمًا وحالًا، وسار قلبه في ميادينه بحقيقة وقصد فقد أعطي حظه من التوفيق، ومن حرمه فقد منع الطريق والرفيق، فمتىٰ أعين مع هذا الافتقار ببذل الجهد في درك الحق فقد سلك به الصراط المستقيم، وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء والله ذو الفضل العظيم»(٢).

✍ **وقال ابن الجوزي** رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «ومتىٰ رأيت في نفسك عجزًا فسل المنعم، أو كسلًا فالجأ إلىٰ الموفق، فلن تنال خيرًا إلا بطاعته، ولا يفوتك خير إلا بمعصيته، فمن الذي أقبل عليه فلم يرد كل مراد؟ ومن الذي أعرض عنه فمضىٰ بفائدة؟ أو حظي بغرض من أغراضه؟»(٣).

✍ **وقال ابن القيم** رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «والله يهدي من يشاء إلىٰ الصواب ويفتح لمن آدام قرع باب التوفيق منه كل باب»(٤).

---

(١) الوابل الصيب (١٣/ ١).
(٢) أعلام الموقعين (٤/ ١٣٢).
(٣) لفتة الكبد إلىٰ نصيحة الولد (٥١/ ١).
(٤) الطب النبوي (١٣٥/ ١).

[٩] من أسباب التوفيق مجاهدة النفس على الطاعة وترك المعصية

المجاهدة يا رعاك الله شديدة علىٰ النفس تفتقر بحد ذاتها إلىٰ توفيق وثبات حتىٰ تستقيم النفس وتروض بعد التوحش وتذلل بعد صعوبة وتنقاد بعد عصيان تلك هي النفس فطرت علىٰ حب الدعة والراحة والسكون فإن جاهدتها وألفت استقامت وتلذذت بعد بذل جهدك والاستعانة بربك ولو بعد زمن.

ومن الأدلة التي تحث وترغب في هذا:

❁ قوله تعالىٰ: ﴿وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ فِينَا لَنَهۡدِيَنَّهُمۡ سُبُلَنَاۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَمَعَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ٦٩﴾ [العنكبوت:٦٩].

✍ **قال السعدي** رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «الذين جاهدوا أعداءهم، وبذلوا مجهودهم في اتباع مرضاته، ﴿لَنَهۡدِيَنَّهُمۡ سُبُلَنَاۚ﴾ أي: الطرق الموصلة إلينا، وذلك لأنهم محسنون. ﴿وَإِنَّ ٱللَّهَ لَمَعَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾: بالعون والنصر والهداية. دل هذا، علىٰ أن أحرىٰ الناس بموافقة الصواب أهل الجهاد، وعلىٰ أن من أحسن فيما أمر به أعانه الله ويسر له أسباب الهداية»(١).

✍ **قال العلامة ابن القيم** رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «علق سبحانه الهداية بالجهاد، فأكمل الناس هداية أعظمهم جهادا، وأفرض الجهاد جهاد النفس، وجهاد الهوىٰ، وجهاد الشيطان، وجهاد الدنيا فمن جاهد هذه الأربعة في الله هداه الله سبل

---

(١) تيسير الكريم الرحمن (٦٣٥/ ١).

رضاه الموصلة إلىٰ جنته، ومن ترك الجهاد فاته من الهدىٰ بحسب ما عطل من الجهاد.

✍ **قال الجنيد**: والذين جاهدوا أهواءهم فينا بالتوبة لنهدينهم سبل الاخلاص، ولا يتمكن من جهاد عدوه في الظاهر إلا من جاهد هذه الأعداء باطنا، فمن نصر عليها نصر علىٰ عدوه، ومن نصرت عليه نصر عليه عدوه»(١).

❁ وقوله تعالىٰ: ﴿قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ ذَٰلِكَ أَزْكَىٰ لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا يَصْنَعُونَ ﴿٣٠﴾﴾ [النور:٣٠].

✍ **قال شيخ الإسلام** رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «وذلك أن ترك السيئات هو من أعمال النفس فإنه يؤمن أن السيئات مذمومة ويكره فعلها ويجاهد نفسه إذا دعته إليها إن كان مصدقا لكتاب ربه مؤمنا بما جاء عن نبيه ﷺ، وهذا التصديق والإيمان والكراهة وجهاد النفس أعمال تعملها النفس المزكاة فتزكو النفس بذلك أيضًا»(٢).

✍ **وقال الشيخ عبدالكريم الخضير** رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «علىٰ العبد أن يُجاهد نفسه حتىٰ تألف الطاعة وتنفر من المعصية، وتكون رغبتها مع ما جاء به النبي ﷺ وأمر به، وإذا مَنعَ ﷺ من شيءٍ تجد نفسه الطمأنينة والراحة لتركه والنفور

---

(١) الفوائد (٨٥/ ١).

(٢) تزكية النفس (٢٢/ ١).

منه»(١).

✍ **وقَالَ الإِمَامُ ابن القَيِّمِ** رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «فأكْمَلُ الناسِ هدَايَةً أعْظَمُهمْ جِهادًا وأفرضُ الجِهادِ جِهادُ النفسِ وجِهادُ الهوىٰ وجِهادُ الشَّيْطَان وجِهادُ الدُّنيَا فمَن جَاهدَ هذِه الأربعَةَ في الله هدَاه الله سُبلَ رضَاه المُوصِلَةُ إِلَىٰ جَنته»(٢).

✍ **وقال العلامة الشنقيطي** رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «قوله تعالىٰ: والذين جاهدوا فينا لنهدينهم سبلنا.

ذكر جل وعلا في هذه الآية الكريمة أن الذين جاهدوا فيه أنه يهديهم إلىٰ سبل الخير والرشاد، وأقسم علىٰ ذلك بدليل اللام في قوله: لنهدينهم. وهذا المعنىٰ جاء مبينا في آيات أخر؛ كقوله تعالىٰ: ﴿وَٱلَّذِينَ ٱهۡتَدَوۡاْ زَادَهُمۡ هُدًى﴾ [محمد:١٧]، وقوله تعالىٰ: ﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ فَزَادَتۡهُمۡ إِيمَٰنًا﴾ [التوبة:١٢٤] الآية»(٣).

ومن الأحاديث الوارد في هذا:

❁ ما جاء عن أبي ذر رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ قال: سألت رسول الله ﷺ: «**أفضل الجهاد أن تجاهد نفسك وهواك في ذات الله** عَزَّوَجَلَّ»(٤).

---

(١) الرياض الزكية شرح الأربعين النووية - ص٤١٥.

(٢) الفوائد (٥٨).

(٣) أضواء البيان (١٦٣/ ٦).

(٤) قال الألباني في «السلسلة الصحيحة» ٣/ ٤٨٣: رواه ابن مله في «الأمالي» (٣/ ٢)، وأبو نعيم في «الحلية» (٢/ ٢٤٩)، والديلمي (١/ ١/ ١٢٧).

❁ وعن فضالة بن عبيد مرفوعًا عن النبي ﷺ قال: «**المجاهد من جاهد نفسه لله أو قال في الله** عَزَّوَجَلَّ»(١).

✍ **قال الصنعاني** رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «(المجاهد) حقيقة (من جاهد نفسه) علىٰ فعل الطاعات ومنها الجهاد في سبيل الله وعلىٰ ترك المنكرات وبالجملة فكل طاعة لا تتم إلا بجهاد النفس»(٢).

✍ **وقال في التيسير**: «زاد في رواية لله أي قهر نفسه الأمارة بالسوء علىٰ ما فيه رضا الله من فعل الطاعة، وتجنب المعصية وجهادها أصل كل جهاد، فإنه ما لم يجاهدها لم يمكنه جهاد العدو الخارج»(٣).

✍ **وقال ابن رجب** رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «فهذا الجهاد يحتاج أيضًا إلىٰ صبر، فمن صبر علىٰ مجاهدة نفسه وهواه وشيطانه، غلبه وحصل له النصر والظفر، وملك نفسه، فصار عزيزًا ملكًا، ومن جزع ولم يصبر علىٰ مجاهدة ذلك، غلب وقهر وأسر، وصار عبدًا ذليلًا أسيرًا في يدي شيطانه وهواه، كما قيل:

إذا المرء لم يغلب هواه أقامه ∴ بمنزلة فيها العزيز ذليل»(٤)

---

(١) أخرجه أحمد (٦/ ٢٠ - ٢٢)، والترمذي (٣/ ٢ - تحفة)، وابن حبان. قال الشيخ الألباني: ثم وقفت علىٰ إسناد الحديث عند سويد بن حجير فانظر «أفضل المؤمنين» (١٤٩١) (١٦٢٤) من طريق أبي هانئ الخولاني أن عمرو بن مالك الجنبي أخبره أنه سمع فضالة بن عبيد يحدث عن رسول الله ﷺ أنه قال: فذكره، وقال الترمذي: «حديث حسن صحيح». قلت: وإسناده جيد.

(٢) التنوير شرح الجامع الصغير (٤٦٦/ ١٠).

(٣) التيسير شرح الجامع الصغير (٤٥٤/ ٢).

(٤) جامع العلوم والحكم (٤٩٠/ ١).

✍ **وقَالَ الإِمَامُ ابن القَيِّمِ**: «الدُنيا والشّيطان عَدُوان خَارجان عنكَ، والنفسُ عَدو بين جَنبيكَ، ومِن سُنةِ الجِهادِ ﴿قَٰتِلُواْ ٱلَّذِينَ يَلُونَكُم﴾ [التوبة:١٢٣]»(١).

✍ **وقال الجنيد**: «باب كل علم نفيس جليل بذل المجهود، وليس من طلب الله ببذل المجهود كمن طلبه من طريق الجود»(٢).

✍ **وقال العلامة العثيمين** رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «المجاهدة تعني مجاهدة الإنسان نفسه ومجاهدة غيره، فأما مجاهدة الإنسان نفسه فإنها من أشق الأشياء، ولا تتم مجاهدة الغير إلا بمجاهدة النفس أولًا، ومجاهدة النفس تكون بأن يجاهد الإنسان نفسه علىٰ شيئين، علىٰ فعل الطاعات، وعلىٰ ترك المعاصي؛ لأن فعل الطاعات ثقيل علىٰ النفس إلا من خففه الله عليه، وترك المعاصي كذلك ثقيل علىٰ النفس إلا من خففه الله عليه، فتحتاج النفس إلىٰ مجاهدة لا سيما مع قلة الرغبة في الخير، فإن الإنسان يعاني من نفسه معاناة شديدة؛ ليحملها علىٰ فعل الخير»(٣).

✍ **وقال ابن القيم** رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «ولايزال العبد يعاني الطاعة، ويألفها، ويحبها، ويؤثرها حتىٰ يرسل الله سبحانه برحمته عليه الملائكة تؤزُّه إليها أزًّا، وتحرضه عليها، وتزعجه عن فراشه ومجلسه إليها»(٤).

---

(١) (بدائع الفوائد) (٣/ ص ١٢٠٢-١٢٠٣).
(٢) الزهد الكبير للبيهقي (٢٨٣/ ١).
(٣) شرح رياض الصالحين (٥١/ ٢).
(٤) الداء والدواء (١٤٠/ ١).

✍ **وقال ابن الجوزي** رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «يا هذا زاحم باجتهادك المتقين وسر في سرب أهل اليقين هل القوم إلا رجال طرقوا باب التوفيق ففتح لهم»(١).

✍ **وقال قتادة** رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «ابن آدم إن كنت لا تريد أن تأتي الخير إلا بنشاط، فإن نفسك إلىٰ السآمة وإلىٰ الفترة وإلىٰ الملل أميل، ولكن المؤمن هو المتحامل، والمؤمن المتقوي، وأن المؤمنين هم العجاجون إلىٰ الله بالليل والنهار. وما زال المؤمنون يقولون ربنا ربنا في السر والعلانية حتىٰ استجاب لهم»(٢).

✍ **وقال ابن المبارك** رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «إن الصالحين كانت أنفسهم تواتيهم علىٰ الخير عفوا وإن أنفسنا لا تواتينا إلا كرها»(٣).

✍ **وقال سفيان بن عيينة** رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «كان يقال الجهاد عشرة فجهاد العدو واحد وجهادك نفسك تسعة»(٤).

✍ **وقال سفيان الثوري** رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «ما عالجت شيئًا أشد علي من نفسي مرة علي ومرة لي»(٥).

✍ **وقال أبو المغربي**: «من ظن أنه يفتح عليه شيء من هذا الطريق أو

---

(١) التبصرة (٢/ ٤٥٠).

(٢) [الحلية (تهذيبه) ١/ ٤٠٨].

(٣) مختصر منهاج القاصدين لابن قدامة (٤٢٧/ ١).

(٤) حلية الأولياء (٧/ ٢٨٤).

(٥) الزهد الكبير للبيهقي (٢٨٣/ ١).

يكشف له عن شيء منه إلا بلزوم المجاهدة فهو علىٰ غلط»(١).

✍ **وقال ابن تيمية** رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «إذا اجتهد واستعان بالله تعالىٰ، ولازم الاستغفار والاجتهاد، فلا بد أن يؤتيه الله من فضله ما لم يخطر ببال. وإذا رأىٰ أنه لا ينشرح صدره، ولا يحصل له حلاوة الإيمان، ونور الهداية، فليكثر التوبة والاستغفار، وليلازم الاجتهاد بحسب الإمكان، فإن الله يقول: ﴿وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ فِينَا لَنَهۡدِيَنَّهُمۡ سُبُلَنَاۚ﴾ [العنكبوت:٦٩]»(٢).

✍ **قال شيخ الإسلام** رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «لأن الصبر ثلاثة أقسام:

صبر علىٰ الطاعة حتىٰ يفعلها، فإن العبد لا يكاد يفعل المأمور به إلا بعد صبر ومصابرة، ومجاهدة لعدوه الظاهر والباطن، فبحسب هذا الصبر يكون أداؤه للمأمورات وفعله للمستحبات»(٣).

من نماذج السلف الموفقين في مجاهدة النفس وحث الشرع على مجاهدة النفس:

❁ فعن أبي سعيد الخدري رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ أن ناسًا من الأنصار سألوا رسول الله ﷺ فأعطاهم، ثم سألوه فأعطاهم، حتىٰ نفد ما عنده فقال: «**ما يكون عندي من خير فلن أدخره عنكم، ومن يستعفف يعفه الله، ومن يستغن يغنه الله، ومن يتصبر يصبره الله، وما أعطي أحد عطاء خيرًا وأوسع من الصبر**»(٤).

---

(١) الزهد الكبير للبيهقي (٢٨٣/ ١).

(٢) الفتاوىٰ [١١/ ٣٩٠].

(٣) جامع المسائل (١٦٦/ ١).

(٤) رواه النسائي ٥/ ٩٨، وأحمد ٣/ ٩، ٤٧، والطيالسي ٣/ ٦١٨ (٢٢٧٥)، وأبو يعلىٰ ٣/ ٣٦٧ - ٣٦٨ (١١٢٩)، و٣/ ٤٥٥ (١٢٦٧)، والبغوي في «معجم الصحابة» =⇦

✍ **قال الحافظ ابن حجر** رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «ومن يتصبر أي يعالج نفسه علىٰ ترك السؤال ويصبر إلىٰ أن يحصل له الرزق وقوله يصبره الله أي فإنه يقويه ويمكنه من نفسه حتىٰ تنقاد له ويذعن لتحمل الشدة فعند ذلك يكون الله معه فيظفره بمطلوبه»(١).

✍ **وقال المباركفوري** رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «ومن يتصبر»؛ أي: ومن أمر نفسه بالصبر ووضع الصبر علىٰ نفسه بالتكلف يسهل الله عليه الصبر»(٢).

✍ **وقال مورق العجلي** رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «تعلمت الصمت في عشر سنين وما قلت شيئًا قط إذا غضبت أندم عليه إذا زال غضبي»(٣).

✍ **وقال ثابت البناني** رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «كابدت صلاة الليل عشرين سنه وتنعمت بها عشرين سنة»(٤).

✍ **وقال الحافظ الذهبي** رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «ولا بد للنفس من مجاهدة وتأديب»(٥).

= ٣/ ١٩ (٩٢٧)، وابن حبان ٨/ ١٩١ - ١٩٢ (٣٣٩٨) من طرق عن أبي سعيد الخدري. والحديث أصله في «الصحيحين»، وسيأتي برقم (١٤٦٩) كتاب: الزكاة، باب: الاستعفاف عن المسألة، ورواه مسلم (١٠٥٣)..

(١) فتح الباري (٣٠٤/ ١١).

(٢) المفاتيح شرح مشكاة المصابيح (٥١٧/ ٢).

(٣) الحلية (٢٣٥/ ٢)، وطبقات ابن سعد (٢١٤/ ٧).

(٤) السير (٥٢٢/ ٥).

(٥) السير للذهبي (٣٠٣/ ٨).

✍ **وقال الشيخ علي الطنطاوي** رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «وفكرت فيما كنت أكابد من ألم الطاعة، فإذا الألم قد ذهب وبقي الثواب، ونظرت فيما استمتعت به من لذة المعصية، فإذا هو قد ذهب وبقي الحساب؛ فندمت علىٰ كل لحظة لم أجعلها في طاعة»(١).

[١٠] من أسباب التوفيق عناية الله ومعيته الخاصة بهم وتربيته الخاصة بهم

إن من آثار محبة الله للعبد وثمارها أن يحيط الله عبده المؤمن بعناية ومعية خاصة فلا يزال العبد في رياضها يتقلب في أنواع من الطاعات المحبوبات لله من حسنة إلىٰ حسنة يوفقه لما يحب ليدخله دار كرامته وهي السلعة الغالية والجنة العالية دار أولياءه ومستقر رحمته فالله يعطيهم ما يحبون ويوفقهم لما يحب.

❁ **ومن أدلة المعية من القرآن** قوله تعالىٰ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَواْ وَّٱلَّذِينَ هُم مُّحۡسِنُونَ ١٢٨﴾ [النحل:١٢٨].

✍ **قال العلامة السعدي** رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «والله مع المتقين المحسنين، بعونه وتوفيقه وتسديده، وهم الذين اتقوا الكفر والمعاصي، وأحسنوا في عبادة الله، بأن عبدوا الله كأنهم يرونه فإن لم يكونوا يرونه فإنه يراهم، والإحسان إلىٰ الخلق ببذل النفع لهم من كل وجه. نسأل الله أن يجعلنا من المتقين المحسنين»(٢).

---

(١) حديث النفس (١/ ٢٨٨).

(٢) تيسير الكريم الرحمن (٤٥٢/ ١).

❁ وقوله تعالىٰ: ﴿وَٱصۡطَنَعۡتُكَ لِنَفۡسِي ٤١﴾ [طه:٤١].

✍ **قال العلامة السعدي** «أي: أجريت عليك صنائعي ونعمي، وحسن عوائدي، وتربيتي، لتكون لنفسي حبيبًا مختصًّا، وتبلغ في ذلك مبلغا لا يناله أحد من الخلق، إلا النادر منهم، وإذا كان الحبيب إذا أراد اصطناع حبيبه من المخلوقين، وأراد أن يبلغ من الكمال المطلوب له ما يبلغ، يبذل غاية جهده، ويسعىٰ نهاية ما يمكنه في إيصاله لذلك، فما ظنك بصنائع الرب القادر الكريم، وما تحسبه يفعل بمن أراده لنفسه، واصطفاه من خلقه؟»(١).

✍ **قال العلامة السعدي** رَحِمَهُ ٱللَّهُ في تفسير قوله تعالىٰ: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱسۡتَعِينُواْ بِٱلصَّبۡرِ وَٱلصَّلَوٰةِۚ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴾ [البقرة:١٥٣]:

«أي: مع من كان الصبر لهم خُلقًا وصفة وملكة، بمعونته وتوفيقه وتسديده، فهانت عليهم بذلك المشاق والمكاره، وسهل عليهم كل عظيم، وزالت عنهم كل صعوبة، وهذه معية خاصة، تقتضي محبته ومعونته، ونصره وقربه، وهذه منقبة عظيمة للصابرين، فلو لم يكن للصابرين فضيلة إلا أنهم فازوا بهذه المعية من الله، لكفىٰ بها فضلًا وشرفًا»(٢).

❁ **ومن أدلة السنة** ما ورد عن أبي هريرة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله ﷺ: «**إن الله تعالىٰ قال: من عادىٰ لي وليا فقد آذنته بالحرب، وما تقرب إلي عبدي بشيء أحب إلي مما افترضته عليه، وما زال عبدي يتقرب إلي بالنوافل حتىٰ**

---

(١) تيسير الكريم الرحمن (٥٠٤/ ١).

(٢) تيسير الكريم الرحمن (١/ ٧٤).

أحبه، فإذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به وبصره الذي يبصر به ويده التي يبطش بها ورجله التي يمشي عليها، وإن سألني لأعطينه ولئن استعاذني لأعيذنه، وما ترددت عن شيء أنا فاعله ترددي عن قبض نفس المؤمن، يكره الموت وأنا أكره مساءته»(١).

✍ **قال شيخ الإسلام** رَحِمَهُ ٱللَّهُ في «المجموع» (١٨/ ١٢٩ - ١٣١): «هذا حديث شريف، وهو أشرف حديث روي في صفة الأولياء».

✍ **وقال العلامة العثيمين** رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «وهو: أن الله تعالىٰ يسدد هذا الولي في سمعه وبصره وعمله، بحيث يكون إدراكه بسمعه وبصره وعمله بيده ورجله كله لله تعالىٰ إخلاصًا، وبالله تعالىٰ استعانة، وفي الله تعالىٰ شرعًا واتباعًا، فيتم له بذلك كمال الإخلاص والاستعانة والمتابعة، وهذا غاية التوفيق، وهذا ما فسره به السلف، وهو تفسير مطابق لظاهر اللفظ، موافق لحقيقته، متعين بسياقه، وليس فيه تأويل، ولا صرف للكلام عن ظاهره. ولله الحمد والمنة»(٢).

✍ **وقال الخطابي**: «المعنىٰ توفيق الله لعبده في الأعمال التي يباشرها بهذه الأعضاء، وتيسير المحبة له فيها بأن يحفظ جوارحه عليه ويعصمه عن مواقعة ما يكره الله من الإصغاء إلىٰ اللهو بسمعه، ومن النظر إلىٰ ما نهىٰ الله عنه ببصره، ومن البطش فيما لا يحل له بيده، ومن السعي إلىٰ الباطل برجله.

---

(١) قال الألباني في «السلسلة الصحيحة» ٤/ ١٨٤: أخرجه البخاري (٤/ ٢٣١)، وأبو نعيم في «الحلية» (١/ ٤)، والبغوي في «شرح السنة» (١/ ١٤٢/ ٢).

(٢) القواعد المثلىٰ (٦٩/ ١).

وإلىٰ هذا نحا الداودي، ومثله الكلاباذي، وعبر بقوله أحفظه فلا يتصرف إلا في محابي، لأنه إذا أحبه كره له أن يتصرف فيما يكرهه منه»(١).

✍ وقال العلامة العثيمين رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «وقيل: المعنىٰ أن الله يسدده في سمعه وبصره ويده ورجله، ويكون المعنىٰ: أن يوفق هذا الإنسان فيما يسمع ويبصر ويمشي ويبطش. وهذا أقرب، أن المراد: تسديد الله تعالىٰ العبد في هذه الجوارح»(٢).

✍ قَالَ الإِمَامُ ابن القَيِّمِ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «قَالَ أبو عَلِيٍّ الدقاق: «فازَ الصَّابرون بعِزِّ الدَّارَيْن لِأنهمْ نالُوا مِن الله مَعِيَّته»(٣).

✍ قال الحافظ ابن رجب رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «فإذا وفق الله عبدًا توكل بحفظه وكلاءته، وهدايته وإرشاده، وتوفيقه وتسديده. وإذا أخذله وكله إلىٰ نفسه أو إلىٰ غيره»(٤).

✍ قال الحافظ ابن رجب رَحِمَهُ ٱللَّهُ في المعية وأنواعها ومعناها: «وقوله ﷺ: «احفظ الله تجده أمامك» وفي رواية أخرىٰ: «تجاهك» معناه أن من حفظ حدود الله وراعىٰ حقوقه، وجد الله معه في جميع الأحوال، يحوطه وينصره ويحفظه ويوفقه ويؤيده ويسدده، فإنه قائم علىٰ كل نفس بما كسبت، وهو تعالىٰ مع الذين اتقوا والذين هم محسنون.

---

(١) الفرقان لابن تيمية (٤٧/ ١).
(٢) شرح الأربعين النووية (٣٧٧/ ١).
(٣) عُدَّةُ الصَّابرين (٧٧).
(٤) مجموع رسائل ابن رجب (١٤١/ ١).

قال قتادة: ومن يتق الله يكن معه، ومن يكن الله معه فمعه الفئة التي لا تغلب، والحارس الذي لا ينام، والهادي الذي لا يضل.

كتب بعض السلف إلىٰ أخ له أما بعد؛ فإن كان الله معك فمن تخاف؟ وإن كان عليك فمن ترجو؟ والسلام.

وهذه المعية الخاصة بالمتقين، فإن المعية الخاصة تقتضي النصر والتأييد والحفظ والإعانة، كما قال تعالىٰ لموسىٰ وهارون: ﴿لَا تَخَافَآ إِنَّنِي مَعَكُمَآ أَسۡمَعُ وَأَرَىٰ﴾ [طه:٤٦]، وقوله تعالىٰ: ﴿إِذۡ يَقُولُ لِصَٰحِبِهِۦ لَا تَحۡزَنۡ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَاۖ﴾ [التوبة:٤٠].

وكان ﷺ قد قال لأبي بكر الصديق رضي الله عنه في تلك الحال: «**ما ظنك باثنين الله ثالثهما؟**»(١).

فهذا غير المعنىٰ المذكور في قوله تعالىٰ: ﴿مَا يَكُونُ مِن نَّجۡوَىٰ ثَلَٰثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمۡ ...﴾ [المجادلة:٧].

فإن ذلك عام لكل جماعة، ومن هذا المعنىٰ الخاص الحديث الإلهي وقوله فيه: «**ولا يزال عبدي يتقرب إلي بالنوافل حتىٰ أحبه، فإذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به وبصره الذي يبصر به، ويده التي يبطش بها، ورجله التي يمشي بها**»(٢).

---

(١) أخرجه البخاري (٤٦٦٣).

(٢) سبق تخريجه ص (١٨٩).

إلىٰ غير ذلك من نصوص الكتاب والسنة الدالة علىٰ قرب الرب سبحانه ممن أطاعه واتقاه، وحفظ حدوده وراعاه. فمن حفظ الله وراعىٰ حقوقه وجده أمامه وتجاهه علىٰ كل حال، فاستأنس به واستغن به عن خلقه.

❁ وفي الحديث: «**أفضل الإيمان أن يعلم العبد أن الله معه حيث كان**» خرجه الطبراني(١)، وغيره وبسط هذا القول يطول جدًّا(٢).

✍ **قال العلامة السعدي** رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «وتربيته تعالىٰ لخلقه نوعان: عامة وخاصة.

فالعامة: هي خلقه للمخلوقين، ورزقهم، وهدايتهم لما فيه مصالحهم، التي فيها بقاؤهم في الدنيا.

والخاصة: تربيته لأوليائه، فيربيهم بالإيمان، ويوفقهم له، ويكمله لهم، ويدفع عنهم الصوارف، والعوائق الحائلة بينهم وبينه، وحقيقتها: تربية

---

(١) أخرجه الطبراني في الأوسط (٨٧٩٦) من حديث عبادة بن الصامت.
وقال الهيثمي في «المجمع» (١/ ٦٠): رواه الطبراني في الأوسط والكبير، تفرد به عثمان بن كثير، قال المحقق: ولم أر من ذكره بثقة ولا جرح. اهـ.
وأخرجه أبو نعيم في الحلية (٦/ ١٢٤)، وقال: غريب من حديث عروة، لم نكتبه إلا من حديث محمد بن مهاجر.
[قال الشيخ الألباني: [ضعيف]، رواه أبو داود والترمذي واللفظ له، وقال: حديث حسن غريب، وابن ماجه، انظر: [ضعيف الترغيب و الترهيب رقم الحديث: (١٣١٥)].

(٢) مجموع رسائل ابن رجب (١١٤/ ٣)، و(جامع العلوم والحكم (٤٧١/ ١).

التوفيق لكل خير، والعصمة عن كل شر»(١).

✍ **قال شيخ الإسلام** رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «من كان الله يحبه استعمله فيما يحبه»(٢).

✍ **قال ابن القيم** رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «إذا أحب الله عبدًا اصطنعه لنفسه، واجتباه لمحبته، واستخلصه لعبادته، فشغل همه به، ولسانه بذكره، وجوارحه بخدمته»(٣).

✍ **كتب أحد السلف لأخيه**: «إذا كان الله معك فمن تخاف، وإذا كان عليك فمن ترجو»(٤).

❁ عن الحسن بن علي قال: «علمني جدي رسول الله ﷺ كلمات أقولهن في قنوت الوتر: «**اللهم عافني فيمن عافيت وتولني فيمن توليت واهدني فيمن هديت وقني شر ما قضيت وبارك لي فيما أعطيت إنك تقضي ولا يقضىٰ عليك إنه لا يذل من واليت سبحانك ربنا تباركت وتعاليت**»(٥).

وقوله ﷺ «**وتولني فيمن توليت**».

---

(١) تيسير الكريم الرحمن (١/ ٣٩).

(٢) العبودية (١١٣/ ١).

(٣) الفوائد (٩٨/ ١).

(٤) جامع العلوم والحكم (١/ ٤٤١).

(٥) قال العلامة الألباني: (صحيح) الإرواء ٤٢٩: المشكاة ١٢٧٣، التعليق علىٰ ابن خزيمة ١٠٩٥، صحيح أبي داود ١٢٨١، صحيح ابن ماجة (٩٦٧)، صحيح سنن النسائي (١٧٤٥).

«والولاية الخاصة المقصودة في هذا الدعاء تقتضي التوفيق والنصرة والعناية وإخراجه أولياءه من الظلمات إلىٰ النور ومن الجهل إلىٰ العلم والإيمان واليقين فهي ولاية رحمة ورأفة وإصلاح»(١).

✍ **وقال الشيخ عبد الرزاق البدر** -حفظه الله-: «وفيه سؤال التولي الكامل الذي يقتضي التوفيق والإعانة والنصر والتسديد والإبعاد عن كل ما يغضب الله تعالىٰ»(٢).

❁ عن أبي عنبة الخولاني رضي الله عنه -وهو من أصحاب النبي ﷺ وهو ممن صلىٰ القبلتين كلتيهما- يقول: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**لا يزال الله يغرس في هذا الدين غرسًا يستعملهم في طاعته**»(٣).

✍ **قال العلامة السعدي** رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «وخواص عبيده، الذين لم يزل يربيهم ببره، ويدر عليهم بركاته الظاهرة والباطنة، خصوصًا وقد أمره بإلقاء أموره إليه، ووعده، فهناك لا تسأل عن كل أمر يتيسر، وصعب يسهل، وخطوب تهون، وكروب تزول، وأحوال وحوائج تقضى، وبركات تنزل، ونقم تدفع، وشرور ترفع»(٤).

---

(١) اللآلئ الزكية شرح الأدعية النبوية ماهر مقدم (٣١٥).

(٢) جامع الأدعية والأذكار (٨٣٦/ ١).

(٣) قال الألباني في «السلسلة الصحيحة» ٥/ ٥٧١: أخرجه البخاري في «التاريخ - الكنىٰ» (ص ٦١)، وابن ماجة (١/ ٧ - ٨)، وابن حبان في «صحيحه» (٣٢٦ - الإحسان)، وفي «الثقات» (٤/ ٧٥)، والدولابي في «الكنىٰ» (١/ ٤٦)، وابن شاهين في «السنة» (١٨/ ٤٧/ ١)، وابن عدي (٥٨/ ٢)، وابن منده في «المعرفة» (٢/ ١/ ١) قال: هذا إسناد صحيح، رجاله كلهم ثقات وهو حديث حسن.

(٤) تفسير السعدي (١/ ٦٥٧).

من أنواع المعية والرعاية والعناية الربانية للعبد المؤمن

(١) حفظ الله لعبده المؤمن من الدنيا

❁ جاء عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: «**إن الله** عَزَّوَجَلَّ **ليحمي عبده المؤمن الدنيا وهو يحبه، كما تحمون مريضكم الطعام والشراب**»(١).

✍ **وقال حذيفة** رضي الله عنه: «إن الله تعالىٰ ليحمي المؤمن من الدنيا، كما يحمي أهل المريض مريضهم الطعام»(٢).

✍ **وسلمان الفارسي** رضي الله عنه قال: إنما مثل المؤمن في الدنيا كمثل المريض معه طبيبه الذي يعلم داءه ودواءه، فإذا اشتهىٰ ما يضره منعه وقال لا تقربه، فإنك إن أتيته أهلكك، فلا يزال يمنعه حتىٰ يبرأ من وجعه، وكذلك المؤمن يشتهي أشياء كثيرة مما قد فضل به غيره من العيش، فيمنعه الله عَزَّوَجَلَّ إياه، ويحجزه حتىٰ يتوفاه، فيدخله الجنة(٣).

✍ **وقال ابن مسعود** رضي الله عنه: إن العبد ليهم بالأمر من التجارة والإمارة حتىٰ ييسر له، فينظر الله إليه فيقول للملائكة: اصرفوه عنه، فإني إن يسرته له أدخلته النار فيصرفه الله عنه، فيظل يتطير، يقول: سبقني فلان، دهاني فلان، وما هو إلا فضل الله عَزَّوَجَلَّ(٤).

---

(١) رواه الحاكم وقال: صحيح الإسناد، صحيح الترغيب (٣١٧٩)، قال الشيخ الألباني: (صحيح).

(٢) [الحلية (تهذيبه) ١/ ٢٠٦].

(٣) [صفة الصفوة ١/ ٢٥٨].

(٤) [الجامع المنتخب/ ١٤٠].

✍ **وقال ابن الجوزي** رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «تفكرت في قول شيبان الراعي لسفيان: يا سفيان! عد منع الله إياك عطاء منه لك؛ فإنه لم يمنعك بخلا، إنما منعك لطفا. فرأيته كلام من قد عرف الحقائق.

ثم قال: فإن الإنسان قد يريد المستحسنات الفائقات فلا يقدر، وعجزه أصلح له؛ لأنه لو قدر عليهن، تشتت قلبه، إما بحفظهن، أو بالكسب عليهن. فإن قوي عشقه لهن؛ ضاع عمره، وانقلب هم الآخرة إلىٰ الاهتمام بهن. فإن لم يردنه، فذاك الهلاك الأكبر. وإن طلبن نفقة، لم يطقها؛ كان سبب ذهاب مروءته وهلاك عرضه. وإن أردن الوطء، وهو عاجز، فربما أهلكنه أو فجرن. وإن مات مشعوقه، هلك هو أسفا. فالذي يطلب الفائق يطلب سكينا لذبحه، وما يعلم(١).

❁ عن حذيفة مرفوعًا بلفظ: «**إن الله ليحمي عبده المؤمن كما يحمي الراعي الشفيق غنمه عن مراتع الهلكة**»(٢).

❁ وعن رافع بن خديج رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**إذا أحب الله** عَزَّوَجَلَّ **عبدًا حماه الدنيا كما يظل أحدكم يحمي سقيمه الماء**».

❁ وفي لفظ عن قتادة بن النعمان: «**إذا أحب الله عبدًا حماه في الدنيا كما يحمي أحدكم سقيمه الماء**»(٣).

---

(١) صيد الخاطر (٣٢٩/ ١).

(٢) وأخرجه الديلمي (١/ ٢/ ٢٣٩)، ورواه أبو نعيم (١/ ٢٧٦).

(٣) رواه الطبراني بإسناد حسن والترمذي (٢٠٣٥)، وانظر: صحيح الترغيب والترهيب (٣١٨٠)، قال الشيخ الألباني: (صحيح). انظر حديث رقم: ٢٨٢ في صحيح الجامع.

(٢) تسخير الملائكة للعبد المؤمن تحثه على الطاعة وتصرفه عن المعصية :

✍ **قال العلامة السعدي** رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «فمن لطفه بعبده المؤمن، أن هداه إلىٰ الخير هداية لا تخطر بباله، بما يسر له من الأسباب الداعية إلىٰ ذلك، من فطرته علىٰ محبة الحق والانقياد له وإيزاعه تعالىٰ لملائكته الكرام، أن يثبتوا عباده المؤمنين، ويحثوهم علىٰ الخير، ويلقوا في قلوبهم من تزيين الحق ما يكون داعيًا لاتباعه»(١).

❁ قال تعالىٰ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَـٰمُواْ تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ أَلَّا تَخَافُواْ وَلَا تَحْزَنُواْ وَأَبْشِرُواْ بِٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى كُنتُمْ تُوعَدُونَ ﴿٣٠﴾﴾ [فصلت:٣٠].

✍ **قال العلامة السعدي** رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «ويقولون لهم أيضًا - مثبتين لهم، ومبشرين: ﴿ نَحْنُ أَوْلِيَآؤُكُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْـَٔاخِرَةِ ﴾ [فصلت:٣١] يحثونهم في الدنيا علىٰ الخير، ويزينونه لهم، ويرهبونهم عن الشر، ويقبحونه في قلوبهم، ويدعون الله لهم، ويثبتونهم عند المصائب والمخاوف، وخصوصا عند الموت وشدته، والقبر وظلمته، وفي القيامة وأهوالها، وعلىٰ الصراط، وفي الجنة يهنئونهم بكرامة ربهم، لهم»(٢).

✍ **قال العلامة ابن كثير** رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «أي: تقول الملائكة للمؤمنين عند الاحتضار: نحن كنا أولياءكم، أي: قرناءكم في الحياة الدنيا، نسددكم

---

(١) «تيسير الكريم الرحمن» ٧٥٦/ ١().

(٢) تيسير الكريم الرحمن (٧٤٨/ ١).

ونوفقكم، ونحفظكم بأمر الله، وكذلك نكون معكم في الآخرة نؤنس منكم الوحشة في القبور، وعند النفخة في الصور، ونؤمنكم يوم البعث والنشور، ونجاوز بكم الصراط المستقيم، ونوصلكم إلىٰ جنات النعيم»(١).

✍ **وقال ابن أبي حاتم**: حدثنا أبو زرعة، حدثنا عبد السلام بن مطهر، حدثنا جعفر بن سليمان: سمعت ثابتًا قرأ سورة «حم السجدة» حتىٰ بلغ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسۡتَقَٰمُواْ تَتَنَزَّلُ عَلَيۡهِمُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ﴾ [فصلت:٣٠] فوقف فقال: بلغنا أن العبد المؤمن حين يبعثه الله من قبره، يتلقاه الملكان اللذان كانا معه في الدنيا، فيقولان له: لا تخف ولا تحزن، ﴿وَأَبۡشِرُواْ بِٱلۡجَنَّةِ ٱلَّتِي كُنتُمۡ تُوعَدُونَ ٣٠﴾ [فصلت:٣٠]. قال: فيؤمن الله خوفه، ويقر عينه فما عظيمة يخشىٰ الناس يوم القيامة إلا هي للمؤمن قرة عين، لما هداه الله، ولما كان يعمل له في الدنيا»(٢).

❁ وعن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «**إن للمساجد أوتادًا، الملائكة جلساؤهم، إن غابوا يفتقدونهم، وإن مرضوا عادوهم، وإن كانوا في حاجة أعانوهم**»(٣).

---

(١) تفسير القرآن العظيم (٧/ ١٧٧).

(٢) نفس المصدر السابق (٧/ ١٧٧).

(٣) رواه أحمد من رواية ابن لهيعة، ورواه الحاكم من حديث عبد الله بن سلام دون قوله جليس المسجد إلىٰ آخره، فإنه ليس في أصلي، وقال: صحيح علىٰ شرطهما موقوف.

قلت: ولفظ حديثه: «**إن للمساجد أوتادًا هم أوتادها لهم جلساء من الملائكة فإن**

⇦=

❁ وعن جابر رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «**إذا أوىٰ الرجل إلىٰ فراشه ابتدره ملك وشيطان فيقول الملك اختم بخير ويقول الشيطان اختم بشر فإن ذكر الله ثم نام بات الملك يكلؤه وإذا استيقظ قال الملك افتح بخير وقال الشيطان افتح بشر فإن قال الحمد لله الذي رد علي نفسي ولم يمتها في منامها الحمد لله الذي** ﴿يُمْسِكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ أَن تَزُولَا﴾ [فاطر:٤١] إلىٰ آخر الآية **الحمد لله الذي يمسك** ﴿ٱلسَّمَآءَ أَن تَقَعَ عَلَى ٱلْأَرْضِ إِلَّا بِإِذْنِهِۦٓ﴾ [الحج:٦٥] **فإن وقع عن سريره فمات دخل الجنة**»(١).

❁ وروي عن ميثم -رجل من أصحاب رسول الله ﷺ- قال: «**بلغني أن الملك يغدو برايته مع أول من يغدو إلىٰ المسجد فلا يزال بها معه حتىٰ يرجع فيدخل بها منزله وإن الشيطان يغدو برايته إلىٰ السوق مع أول من يغدو فلا يزال بها معه حتىٰ يرجع فيدخلها منزله**»(٢).

❁ عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال: «**ما من خارج يخرج يعني من بيته إلا بيده رايتان راية بيد ملك وراية بيد شيطان، فإن خرج لما يحب الله** عَزَّوَجَلَّ **اتبعه الملك برايته فلم يزل تحت راية الملك حتىٰ يرجع إلىٰ بيته، وإن خرج**

= **غابوا سألوا عنهم وإن كانوا مرضىٰ عادوهم وإن كانوا في حاجة أعانوهم**». انظر: صحيح الترغيب (٣٢٩) قال الشيخ الألباني: (حسن صحيح).

(١) انظر: تخريج الأدب المفرد: قال الألباني: ضعيف الإسناد موقوفًا. وانظر: ضعيف الترغيب (٣٤٦).

(٢) قال الشيخ الألباني: رواه ابن أبي عاصم وأبو نعيم في معرفة الصحابة، صحيح الترغيب والترهيب (٤٢٢) (صحيح موقوف).

لما يسخط الله اتبعه الشيطان برايته فلم يزل تحت راية الشطان حتىٰ يرجع إلىٰ بيته»(١).

❁ عن حسان بن ثابت قال في حلقة فيهم أبو هريرة: أنشدك الله يا أبا هريرة، هل سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**أجب عني، أيدك الله بروح القدس؟**» فقال: اللهم نعم(٢).

❁ عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: «**إذا جلس القاضي في مكانه هبط عليه ملكان يسددانه ويوفقانه ويرشدانه، ما لم يجر فإذا جار عرجا وتركاه**»(٣).

❁ عن عبد الله بن أبي أوفىٰ قال: قال رسول الله ﷺ: «**إن الله مع القاضي ما لم يجر فإذا جار وكله إلىٰ نفسه**»(٤).

❁ عن أنس قال: قال رسول الله ﷺ: «**من سأل القضاء وكل إليه، ومن**

---

(١) أخرجه الإمام أحمد في مسنده (٨٢٦٩) قال العلامة أحمد شاكر: إسناده صحيح.

(٢) إسناده صحيح، ورواه مسلم ٢: ٢٥٩، ورواه البخاري ٦: ٢٢١، وقد أخرجه الإسماعيلي، من رواية عبد الجبار بن العلاء وراه أحمد (١٧٨٩٨) بلفظ «**يا حسان اهج المشركين فإن جبريل معك أو إن روح القدس معك** ﷺ» عن البراء بن عازب.

(٣) أخرجه البيهقي ١٠/ ٨٨، والخطيب في «تاريخ بغداد» ٨/ ١٧٦ و١٤/ ١٢٠، وعن عمران بن حصين أخرجه الطبراني في «الكبير» ١٨/ ٦٠٢ بالألفاظ والحديث فيه ضعف.

(٤) صحيح ابن ماجة (١٨٧٠)، قال الشيخ الألباني: (حسن). انظر: التعليق الرغيب ٣/ ١٣٨، المشكاة ٣٧٤١، صحيح الجامع (١٨٢٦).

أجبر عليه نزل عليه ملك فيسدده»(١).

❁ وجاءَ أن عُمَر بن الْخَطَّابِ اخْتصَمَ إِلَيْه مُسْلِمٌ ويَهودِيٌّ فرأىٰ عُمَر أن الْحَقَّ لِلْيَهودِيِّ فقَضَىٰ لَه فقَالَ لَه الْيَهودِيُّ والله لَقَدْ قَضَيْت بالْحَقِّ فضَربه عُمَر بن الْخَطَّاب بالدِّرةِ ثُمَّ قَالَ ومَا يُدْريكَ فقَالَ لَه الْيَهودِيُّ إِنا نجِدُ أنه لَيْسَ قَاضٍ يَقْضِي بالْحَقِّ إِلَّا كَان عَن يَمِينه مَلَكٌ وعَن شِمَالِه مَلَكٌ يُسَدِّدَانه ويُوفقَانه لِلْحَقِّ مَا دَامَ مَعَ الْحَقِّ فإِذَا تركَ الْحَقَّ عَرجَا وتركَاه(٢).

❁ وقوله تعالىٰ: ﴿إِذْ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ أَنِّي مَعَكُمْ فَثَبِّتُواْ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْۚ سَأُلْقِي فِي قُلُوبِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱلرُّعْبَ فَٱضْرِبُواْ فَوْقَ ٱلْأَعْنَاقِ وَٱضْرِبُواْ مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ ١٢﴾ [الأنفال:١٢].

✍ **قال العلامة السعدي** رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «ومن ذلك أن الله أوحىٰ إلىٰ الملائكة ﴿أَنِّي مَعَكُمْ﴾ بالعون والنصر والتأييد، ﴿فَثَبِّتُواْ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْۚ﴾ أي: ألقوا في قلوبهم، وألهموهم الجراءة علىٰ عدوهم، ورغبوهم في الجهاد وفضله»(٣).

✍ **وقال ابن كثير** رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «أي: ثبتوا أنتم المسلمين وقووا أنفسهم علىٰ

---

(١) إسناده ضعيف لضعف عبد الأعلىٰ بن عامر الثعلبي وبلال بن أبي موسىٰ: وهو ابن مرداس. إسرائيل: هو ابن يونس بن أبي إسحاق. وأخرجه ابن أبي شيبة ٧/ ٢٣٥-٢٣٦، والترمذي (١٣٢٣)، وابن ماجه (٢٣٠٩)، ومحمد بن خلف الملقب بوكيع في «أخبار القضاة» ١/ ٦٣، والضياء في «المختارة» (١٥٨١) من طريق وكيع بن الجراح، بهذا الإسناد..

(٢) أخرجه مالك في الموطأ مرسلا عن سعيد بن المسيب عن عمر رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ (١٢٠٦).

(٣) تيسير الكريم الرحمن (٣١٦/ ١).

أعدائهم، عن أمري لكم بذلك»(١).

❁ وعن مسروق قال: دخلت أنا وأبو عطية علىٰ عائشة رضي الله عنها فقلنا لها: يا أم المؤمنين، إن أبا عبد الرحمن يعني ابن مسعود يقول: من أحب لقاء الله أحب الله لقاءه، ومن كره لقاء الله كره الله لقاءه، فأينا يحب الموت؟ فقالت: يرحم الله ابن أم عبد، حدث أول الحديث وأمسك عن آخره، ثم أنشأت تحدث فقالت: «إذا أراد الله بعبد خيرًا بعث إليه ملكًا قبل موته بعام يسدده ويوفقه حتىٰ يموت علىٰ خير أحايينه، فيقول الناس: مات فلان علىٰ خير أحايينه، فإذا حضر ورأىٰ ما أعد له، جعل يتهوع نفسه من الحرص علىٰ أن يخرج، هناك أحب لقاء الله وأحب الله لقاءه، وإذا أراد الله بعبد غير ذلك، قيض له شيطانا قبل موته بعام يغويه ويصده حتىٰ يموت علىٰ شر أحايينه، فيقول الناس: مات فلان علىٰ شر أحايينه، فإذا حضر ورأىٰ ما أعد له حتىٰ يبتلع نفسه، كراهية أن تخرج، هناك: كره لقاء الله، وكره الله لقاءه»(٢).

✍ **قال العلامة ابن القيم** رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «ولايزال العبد يعاني الطاعة، ويألفها، ويحبها، ويؤثرها حتىٰ يرسل الله سبحانه برحمته عليه الملائكة تؤزُّه إليها أزًّا، وتحرضه عليها، وتزعجه عن فراشه ومجلسه إليها»(٣).

✍ **قال ابن القيم** رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «ومن مراتب الإلهام: أن يخاطب الملك خطابًا جزئيًّا وهذا يقع لغير الأنبياء فقد كانت الملائكة تخاطب عمران بن

---

(١) تفسير القرآن العظيم (٢٥/ ٤).

(٢) الشريعة للآجري (٩٧٦/ ٢).

(٣) الداء والدواء (١٤٠/ ١).

حصين بالسلام فلما اكتوىٰ تركت فلما ترك الكي عادت.

وهذا الخطاب نوعان:

(١) **خطاب يسمعه بإذنه**: وهذا نادر بالنسبة لعموم المؤمنين

(٢) **خطاب يلقىٰ في قلبه**: يخاطب به الملك روحه.

وقد جاء في الحديث «إن للشيطان لمة بابن آدم وللملك لمة فأما لمة الشيطان فإيعاد بالشر وتكذيب بالحق وأما لمة الملك فإيعاد بالخير وتصديق بالحق فمن وجد ذلك فليعلم أنه من الله تعالىٰ فليحمد الله ومن وجد الأخرىٰ فليتعوذ بالله من الشيطان[(١)]»[(٢)].

✍ **وعن هشام بن زياد** أخو العلاء بن زياد قال: كان العلاء بن زياد يحيي كل ليلة جمعة فوجد ليلة فترة فقال لامرأته: «يا أسماء إني أجد فترة فإذا مضىٰ كذا وكذا فأيقظيني» قالت: نعم، فأتاه آت في منامه فأخذ بناصيته فقال: يا ابن زياد قم فاذكر الله يذكرك قال: فقام فما زالت تلك الشعرات التي أخذها منه قائمة حتىٰ مات رَحِمَهُ ٱللَّهُ»[(٣)].

✍ **وقال شيخ الإسلام** رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «والله قد جعل الملائكة تلقي في نفس العبد الخواطر، كما قال عبد الله بن مسعود رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ: «إن للملك لمة،

---

(١) أخرجه الترمذي والنسائي وابن حبان عن ابن مسعود. قال الشيخ الألباني: (ضعيف). انظر حديث رقم: ١٩٦٣ في ضعيف الجامع.

(٢) مدارج السالكين (٤٦/ ١).

(٣) حلية الأولياء لأبي نعيم (٢٤٤/ ٢).

وللشيطان لمة، فلمة الملك تصديق بالحق، ووعد بالخير، ولمة الشيطان تكذيب بالحق، وإيعاد بالشر»، وقد ثبت عنه ﷺ في «الصحيح» أنه قال: «**ما منكم من أحد إلا وقد وكل به قرينه من الملائكة، وقرينه من الجن**»، قالوا: وإياك يا رسول الله؟ قال: «**وأنا، إلا أن الله قد أعانني عليه، فلا يأمرني إلا بخير**».

فالسيئة التي يهم بها العبد إذا كانت من إلقاء الشيطان علم بها الشيطان، والحسنة التي يهم بها العبد إذا كانت من إلقاء الملك علم بها الملك أيضًا بطريق الأولىٰ، وإذا علم بها هذا الملك، أمكن علم الملائكة الحفظة لأعمال بني آدم. انتهىٰ كلامه»(١).

[١١] الصدق مع الله في حصول الطاعة ورجاء الله والدار الآخرة من أسباب التوفيق

✍ **قال العلامة السعدي** رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «فالذي وصفه السرف والكذب، لا ينفك عنهما، لا يهديه الله، ولا يوفقه للخير؛ لأنه رد الحق بعد أن وصل إليه وعرفه، فجزاؤه أن يعاقبه الله، بأن يمنعه الهدىٰ، كما قال تعالىٰ: ﴿فَلَمَّا زَاغُوٓاْ أَزَاغَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمۡۚ﴾ [الصف:٥].

﴿وَنُقَلِّبُ أَفۡـِٔدَتَهُمۡ وَأَبۡصَٰرَهُمۡ كَمَا لَمۡ يُؤۡمِنُواْ بِهِۦٓ أَوَّلَ مَرَّةٖ وَنَذَرُهُمۡ فِي طُغۡيَٰنِهِمۡ يَعۡمَهُونَ ١١٠﴾ [الأنعام:١١٠].

---

(١) مجموع الفتاوىٰ ٤/ ٢٥٣ - ٢٥٤.

﴿وَٱللَّهُ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ٧﴾ [الصف:٧]»(١) .

أيها الأخ القارئ الكريم؛ اعلم أعانك الله علىٰ طاعته وترك معصيته، أن الصدق ليس في لسانك فحسب؛ بل في أفعالك ومواقفك، وطلبك ومطلوبك، ودعائك وعبوديتك كلها، إن هي انبعثت من قلب سُقِي الإيمان، وحُشِي من الصدق، فهذا المتعامل مع الله مباشرة، وتصل علاقته مع مولاه بلا واسطة، فتُحقق آماله، ويُهدىٰ سبيله، ويُرشد في جميع أموره وشؤونه، فهو معدن نفيس ينفس به صاحبه، ويُغلىٰ ثمنه عند ربه، وانظر في باب الصدق وحقيقته ومنزلة الصادقين وثمرته(٢).

❁ **ومن أدلة الصدق** قوله تعالىٰ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَكُونُواْ مَعَ ٱلصَّٰدِقِينَ ١١٩﴾ [التوبة:١١٩].

✍ **قال العلامة السعدي** رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «﴿وَكُونُواْ مَعَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾ في أقوالهم وأفعالهم وأحوالهم، الذين أقوالهم صدق، وأعمالهم، وأحوالهم لا تكون إلا صدقا خلية من الكسل والفتور، سالمة من المقاصد السيئة، مشتملة علىٰ الإخلاص والنية الصالحة، فإن الصدق يهدي إلىٰ البر، وإن البر يهدي إلىٰ الجنة»(٣).

❁ وقال تعالىٰ: ﴿قَالَ ٱللَّهُ هَٰذَا يَوۡمُ يَنفَعُ ٱلصَّٰدِقِينَ صِدۡقُهُمۡۚ لَهُمۡ جَنَّٰتٞ تَجۡرِي مِن

---

(١) «تيسير الكريم الرحمن» ٧٣٧/ ١().

(٢) مدارج السالكين (٢٥٧/ ٢)، وما بعدها.

(٣) تيسير الكريم الرحمن (٣٥٥/ ١).

تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدٗاۚ رَّضِيَ ٱللَّهُ عَنۡهُمۡ وَرَضُواْ عَنۡهُۚ ذَٰلِكَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡعَظِيمُ ﴿١١٩﴾ ﴾ [المائدة:١١٩].

✍ **قال العلامة السعدي** رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «مبينا لحال عباده يوم القيامة، ومن الفائز منهم ومن الهالك، ومن الشقي ومن السعيد، ﴿هَٰذَا يَوۡمُ يَنفَعُ ٱلصَّٰدِقِينَ صِدۡقُهُمۡۚ ﴾، والصادقون هم الذين استقامت أعمالهم وأقوالهم ونياتهم على الصراط المستقيم والهدي القويم، فيوم القيامة يجدون ثمرة ذلك الصدق»(١).

۞ وقال تعالى: ﴿۞ لَّيۡسَ ٱلۡبِرَّ أَن تُوَلُّواْ وُجُوهَكُمۡ قِبَلَ ٱلۡمَشۡرِقِ وَٱلۡمَغۡرِبِ وَلَٰكِنَّ ٱلۡبِرَّ مَنۡ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلۡكِتَٰبِ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ وَءَاتَى ٱلۡمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ ذَوِي ٱلۡقُرۡبَىٰ وَٱلۡيَتَٰمَىٰ وَٱلۡمَسَٰكِينَ وَٱبۡنَ ٱلسَّبِيلِ وَٱلسَّآئِلِينَ وَفِي ٱلرِّقَابِ وَأَقَامَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَى ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلۡمُوفُونَ بِعَهۡدِهِمۡ إِذَا عَٰهَدُواْۖ وَٱلصَّٰبِرِينَ فِي ٱلۡبَأۡسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَحِينَ ٱلۡبَأۡسِۗ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُواْۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُتَّقُونَ ﴿١٧٧﴾ ﴾ [البقرة:١٧٧].

✍ **قال العلامة السعدي**: «الله الذي منه النصر والمعونة، التي وعدها الصابرين.

﴿أُوْلَٰٓئِكَ ﴾ أي: المتصفون بما ذكر من العقائد الحسنة، والأعمال التي هي آثار الإيمان، وبرهانه ونوره، والأخلاق التي هي جمال الإنسان وحقيقة

---

(١) تيسير الكريم الرحمن (٢٤٩/ ١).

الإنسانية، فأولئك هم ﴿ٱلَّذِينَ صَدَقُواْ﴾ في إيمانهم، لأن أعمالهم صدقت إيمانهم، ﴿وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُتَّقُونَ﴾ لأنهم تركوا المحظور، وفعلوا المأمور؛ لأن هذه الأمور مشتملة علىٰ كل خصال الخير، تضمنا ولزوما، لأن الوفاء بالعهد، يدخل فيه الدين كله، ولأن العبادات المنصوص عليها في هذه الآية أكبر العبادات، ومن قام بها، كان بما سواها أقوم، فهؤلاء هم الأبرار الصادقون المتقون.

وقد علم ما رتب الله علىٰ هذه الأمور الثلاثة، من الثواب الدنيوي والأخروي»(١).

❁ وقال تعالىٰ: ﴿مِّنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ رِجَالٞ صَدَقُواْ مَا عَٰهَدُواْ ٱللَّهَ عَلَيۡهِۖ فَمِنۡهُم مَّن قَضَىٰ نَحۡبَهُۥ وَمِنۡهُم مَّن يَنتَظِرُۖ وَمَا بَدَّلُواْ تَبۡدِيلٗا ٢٣﴾ [الأحزاب:٢٣].

✍ **قال المفسر السعدي** رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «أي: بسبب صدقهم، في أقوالهم، وأحوالهم، ومعاملتهم مع الله، واستواء ظاهرهم وباطنهم، وقدرنا ما قدرنا، من هذه الفتن والمحن، والزلازل، ليتبين الصادق من الكاذب، فيجزي الصادقين بصدقهم ﴿وَيُعَذِّبَ ٱلۡمُنَٰفِقِينَ﴾ [الأحزاب:٢٤] الذين تغيرت قلوبهم وأعمالهم، عند حلول الفتن، ولم يفوا بما عاهدوا الله عليه. ﴿إِن شَآءَ﴾ تعذيبهم، بأن لم يشأ هدايتهم، بل علم أنهم لا خير فيهم، فلم يوفقهم.

---

(١) تيسير الكريم الرحمن (٨٣/ ١).

﴿أَوۡ يَتُوبَ عَلَيۡهِمۡۚ﴾ بأن يوفقهم للتوبة والإنابة»(١).

وقد خص الله بوصف بعض الأنبياء في القرآن بالصديقية:

(١) إبراهيم عليه الصلاة والسلام:

❁ قال تعالىٰ: ﴿وَٱذۡكُرۡ فِي ٱلۡكِتَٰبِ إِبۡرَٰهِيمَۚ إِنَّهُۥ كَانَ صِدِّيقٗا نَّبِيّٗا ٤١﴾ [مريم:٤١].

✍ **قال السعدي** رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «جمع الله له بين الصديقية والنبوة.

فالصديق: كثير الصدق، فهو الصادق في أقواله وأفعاله وأحواله، المصدق بكل ما أمر بالتصديق به،. وذلك يستلزم العلم العظيم الواصل إلىٰ القلب، المؤثر فيه، الموجب لليقين، والعمل الصالح الكامل»(٢).

(٢) إدريس عليه الصلاة والسلام

❁ قال تعالىٰ: ﴿وَٱذۡكُرۡ فِي ٱلۡكِتَٰبِ إِدۡرِيسَۚ إِنَّهُۥ كَانَ صِدِّيقٗا نَّبِيّٗا ٥٦﴾ [مريم:٥٦].

✍ **قال العلامة السعدي** رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «جمع الله له بين الصديقية، الجامعة للتصديق التام، والعلم الكامل، واليقين الثابت، والعمل الصالح، وبين اصطفائه لوحيه، واختياره لرسالته ورفع الله ذكره في العالمين، ومنزلته بين المقربين، فكان عالي الذكر، عالي المنزلة»(٣).

---

(١) تيسير الكريم الرحمن (٦٦٠/ ١).

(٢) تيسير الكريم الرحمن (٤٩٤/ ١).

(٣) تيسير الكريم الرحمن (١١١٠/ ١).

(٣) عيسى ابن مريم وأمه عليهما الصلاة والسلام

❁ قال تعالىٰ: ﴿مَّا ٱلۡمَسِيحُ ٱبۡنُ مَرۡيَمَ إِلَّا رَسُولٞ قَدۡ خَلَتۡ مِن قَبۡلِهِ ٱلرُّسُلُ وَأُمُّهُۥ صِدِّيقَةٞۖ كَانَا يَأۡكُلَانِ ٱلطَّعَامَۗ ٱنظُرۡ كَيۡفَ نُبَيِّنُ لَهُمُ ٱلۡأٓيَٰتِ ثُمَّ ٱنظُرۡ أَنَّىٰ يُؤۡفَكُونَ ٧٥﴾ [المائدة:٧٥].

✍ **قال السعدي** رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «أي: هذا أيضًا غايتها، أن كانت من الصديقين الذين هم أعلىٰ الخلق رتبة بعد الأنبياء»(١).

وقد وصف الله جملة من عباد ه الأخيار من أهل الجنة بالصديقية الذين توفرت فيهم شروطها.

❁ قال تعالىٰ: ﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ فَأُوْلَٰٓئِكَ مَعَ ٱلَّذِينَ أَنۡعَمَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلصِّدِّيقِينَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَٱلصَّٰلِحِينَۚ وَحَسُنَ أُوْلَٰٓئِكَ رَفِيقٗا ٦٩﴾ [النساء:٦٩].

✍ **قال العلامة السعدي** رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «وهم: الذين كمل تصديقهم بما جاءت به الرسل، فعلموا الحق وصدقوه بيقينهم، وبالقيام به قولا وعملا وحالا ودعوة إلىٰ الله»(٢).

❁ وقال تعالىٰ: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦٓ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصِّدِّيقُونَۖ وَٱلشُّهَدَآءُ عِندَ رَبِّهِمۡ لَهُمۡ أَجۡرُهُمۡ وَنُورُهُمۡۖ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَكَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَآ أُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلۡجَحِيمِ

---

(١) تيسير الكريم الرحمن (٢٣٩/ ١).

(٢) تيسير الكريم الرحمن (١٥٨/ ١).

﴿١٩﴾ [الحديد:١٩].

✍ **قال السعدي** رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «والإيمان عند أهل السنة: هو ما دل عليه الكتاب والسنة، هو قول القلب واللسان، وعمل القلب واللسان والجوارح، فيشمل ذلك جميع شرائع الدين الظاهرة والباطنة، فالذين جمعوا بين هذه الأمور هم الصديقون أي: الذين مرتبتهم فوق مرتبة عموم المؤمنين، ودون مرتبة الأنبياء»(١).

❁ وقال تعالىٰ: ﴿طَاعَةٌ وَقَوْلٌ مَّعْرُوفٌ ۚ فَإِذَا عَزَمَ ٱلْأَمْرُ فَلَوْ صَدَقُوا۟ ٱللَّهَ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ ﴿٢١﴾﴾ [محمد:٢١].

✍ **قال العلامة السعدي** رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «أي: جاءهم الأمر جد، وأمر محتم، ففي هذه الحال لو صدقوا الله بالاستعانة به، وبذل الجهد في امتثاله ﴿لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ﴾ من حالهم الأولىٰ، وذلك من وجوه:

منها: أن العبد ناقص من كل وجه، لا قدرة له إلا إن أعانه الله، فلا يطلب زيادة علىٰ ما هو قائم بصدده.

ومنها: أنه إذا تعلقت نفسه بالمستقبل، ضعف عن العمل، بوظيفة وقته، وبوظيفة المستقبل، أما الحال، فلأن الهمة انتقلت عنه إلىٰ غيره، والعمل تبع للهمة، وأما المستقبل، فإنه لا يجيء حتىٰ تفتر الهمة عن نشاطها فلا يعان عليه.

---

(١) تيسير الكريم الرحمن (٨٤٠/ ١).

ومنها: أن العبد المؤمل للآمال المستقبلة، مع كسله عن عمل الوقت الحاضر، شبيه بالمتألي الذي يجزم بقدرته، علىٰ ما يستقبل من أموره، فأحرىٰ به أن يخذل ولا يقوم بما هم به ووطن نفسه عليه، فالذي ينبغي أن يجمع العبد همه وفكرته ونشاطه علىٰ وقته الحاضر، ويؤدي وظيفته بحسب قدرته، ثم كلما جاء وقت استقبله بنشاط وهمة عالية مجتمعة غير متفرقة، مستعينا بربه في ذلك، فهذا حري بالتوفيق والتسديد في جميع أموره.

ثم ذكر تعالىٰ حال المتولي عن طاعة ربه، وأنه لا يتولىٰ إلىٰ خير، بل إلىٰ شر»(١).

✍ **قال ابن القيم** رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «صدق العبد مع ربه ليس للعبد شيء أنفع من صدقه ربه في جميع أموره مع صدق العزيمة، فيصدقه في عزمه وفي فعله، قال تعالىٰ: ﴿فَإِذَا عَزَمَ ٱلْأَمْرُ فَلَوْ صَدَقُوا۟ ٱللَّهَ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ ﴿٢١﴾﴾ [محمد:٢١].

فسعادته في صدق العزيمة وصدق الفعل، فصدق العزيمة جمعها وجزمها وعدم التردد فيها بل تكون عزيمة لا يشوبها تردد ولا تلوم. فإذا صدقت عزيمته بقي عليه صدق الفعل، وهو استفراغ الوسع وبذل الجهد فيه، وأن لا يتخلف عنه بشيء من ظاهره وباطنه، فعزيمة القصد تمنعه من ضعف الارادة والهمة، وصدق الفعل يمنعه من الكسل والفتور. ومن صدق الله في جميع أموره صنع الله له فوق ما يصنع لغيره. وهذا الصدق معنىٰ يلتئم من صحة الاخلاص وصدق التوكل، فأصدق الناس من صح اخلاصه

---

(١) تيسير الكريم الرحمن (١٥٨/ ١).

وتوكله»(١).

✍ **وقال ابن القيم** رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «فبينك وبينه صدق الطلب وإنما هي عزمة صادقة ونهضة حر ممن لنفسه عنده قدر وقيمة يغار عليها أن يبيعها بالدون وقد جاء في أثر إلهي يقول الله عَزَّوَجَلَّ ابن آدم خلقتك لنفسي فلا تلعب وتكفلت برزقك فلا تتعب ابن آدم اطلبني تجدني فإن وجدتني وجدت كل شيء وإن فتك فاتك كل شيء وأنا أحب إليك من كل شيء فمن طلب الله بصدق وجده ومن وجده أغناه وجوده عن كل شيء فأصبح حرا في غنىٰ ومهابة علىٰ وجهه أنواره وضياؤه وإن فاته مولاه جل جلاله تباعد ما يرجو وطال عناؤه ومن وصل إلىٰ هذا الغنىٰ قرت به كل عين لأنه قد قرت عينه بالله والفوز بوجوده ومن لم يصل إليه تقطعت نفسه علىٰ الدنيا حسرات وقد قال من أصبح والدنيا أكبر همه جعل الله فقره بين عينيه وشتت عليه شمله ولم يأته من الدنيا إلا ما قدر له ومن أصبح والآخرة أكبر همه جعل الله غناه في قلبه وجمع عليه شمله وأتته الدنيا وهي راغمة وكان الله بكل خير إليه أسرع فهذا هو الفقر الحقيقي والغنىٰ الحقيقي»(٢).

✍ **قال ابن القيم** رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «فصل ليس للعبد شيء أنفع من صدقه ربه في جميع أموره مع صدق العزيمة فيصدقه في عزمه وفي فعله قال تعالىٰ فإذا عزم الأمر فلو صدقوا الله لكان خيرًا لهم فسعادته في صدق العزيمة وصدق الفعل فصدق العزيمة جمعها وجزمها وعدم التردد فيها بل تكون عزيمة لا يشوبها

---

(١) الفوائد (٢٠٧/ ١).

(٢) طريق الهجرتين (٨٣/ ١).

تردد ولا تلوم فإذا صدقت عزيمته بقي عليه صدق الفعل وهو استفراغ الوسع وبذل الجهد فيه وأن لا يتخلف عنه بشيء من ظاهره وباطنه فعزيمة القصد تمنعه من ضعف الإرادة والهمة وصدق الفعل يمنعه من الكسل والفتور ومن صدق الله في جميع أموره صنع الله له فوق ما يصنع لغيره وهذا الصدق معنىٰ يلتئم من صحة الإخلاص وصدق التوكل فأصدق الناس من صح إخلاصه وتوكله»(١).

❁ وعن عبد الله بن مسعود قال: قال رسول الله ﷺ: «**عليكم بالصدق فإن الصدق يهدي إلىٰ البر وإن البر يهدي إلىٰ الجنة وما يزال الرجل يصدق ويتحرىٰ الصدق حتىٰ يكتب عند الله صديقا. وإياكم والكذب فإن الكذب يهدي إلىٰ الفجور وإن الفجور يهدي إلىٰ النار وما يزال الرجل يكذب ويتحرىٰ الكذب حتىٰ يكتب عند الله كذابا**»(٢).

❁ وفي رواية مسلم قال: «**إن الصدق بر وإن البر يهدي إلىٰ الجنة. وإن الكذب فجور وإن الفجور يهدي إلىٰ النار**»

✍ **قال القرطبي** رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «يهدي»: يرشد ويوصل، والبر: العمل الصالح. انتهىٰ.

✍ **وقال العلامة الأثيوبي** رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «فحق علىٰ كل من فهم عن الله تعالىٰ أن يلازم الصدق في الأقوال، والإخلاص في الأعمال، والصفاء في الأحوال،

---

(١) الفوائد (١٨٧/ ١).

(٢) رواه البخاري (٦٠٩٤)، ومسلم (٢٦٠٧).

فمن كان كذلك لحق بالأبرار، ووصل إلىٰ رضا الغفار، وفي هذا بيان فضيلة الصدق، وملازمته، وإن كان فيه مشقة، فإن عاقبته خير»(١).

✍ وقال **العلامة الصنعاني** رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «يدل عليه ويعود إليه، والواسم جامع لأنواع الخير كلها يهدي إلىٰ العمل الصالح الخالص من كل مذمة (وإن البر يهدي إلىٰ الجنة) يدل عليها ويوصل إلىٰ حلولها وهي غاية كل مطلوب وقد وقع نيلها بسبب الصدق فهو السبب الأولىٰ وسبب السبب»(٢).

✍ **وقال ابن العربي**: «بين أن الصدق هو الأصل الذي يهدي إلىٰ البر كله وذلك لأن الرجل إذا تحرىٰ الصدق لم يعص أبدًا لأنه إن أراد أن يشرب أو يزني أو يؤذي خاف أن يقال له زنيت أو شربت فإن سكت جر الريبة وإن قال لا كذب وإن قال نعم فسق وسقطت منزلته وذهبت حرمته (وما يزال الرجل يصدق) في كلامه (ويتحرىٰ الصدق) أي يجتهد فيه (حتىٰ يكتب عند الله صديقا) أي يحكم له بذلك ويستحق الوصف بمنزلة الصديقية»(٣).

✍ **وقَالَ الإِمَامُ ابن القَيِّمِ** رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «فالمحب الصادق إن نطق نطق لله وبالله، وإن سكت سكت لله، وإن تحرك فبأمر الله، وإن سكن فسكونه استعانة علىٰ مرضاة الله؛ فهو لله وبالله ومع الله»(٤).

---

(١) البحر الثجاج للأثيوبي(٣٢/ ٤٢).
(٢) التنوير شرح الجامع الصغير (٣٠٠/ ٧) التيسير شرح الجامع الصغير (٣٦٥/ ١).
(٣) فيض القدير (٤٥٣/ ٤).
(٤) [مفتاح دار السعادة(٤٥٣ - ٤٥٤)].

✍ **وقال ابن القيم** رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «صدق التأهب للقاء الله من أنفع ما للعبد وأبلغه في حصول استقامته، فإن من استعد للقاء الله انقطع قلبه عن الدنيا وما فيها ومطالبها وخمدت من نفسه نيران الشهوات وأخبت قلبه إلىٰ الله وعكفت همته علىٰ الله وعلىٰ محبته وإيثار مرضاته واستحدثت همة أخرىٰ وعلومًا أخر وولد ولادة أخرىٰ تكون نسبة قلبه فيها إلىٰ الدار الآخرة»(١).

✍ **وقال شيخ الإسلام** رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «وقلوب المؤمنين الصادقة هي العسكر التي لا تغلب والجند الذي لا يخذل»(٢).

✍ **وقال ابن باز** رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «من صدق مع الله وأخلص لله وفقه الله وأعانه وبارك له في جهوده وهدىٰ به الأمة وجعل له لسان صدق في العالمين»(٣).

✍ **وقال العلامة العثيمين** رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «من صدق مع الله في الإقبال علىٰ ربه وإن كان بطيئا جازاه الله تعالىٰ بأكمل من عمله وأفضل»(٤).

✍ **وقال ابن القيم** رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «العبد إذا تعرض وصدق في الطلب رجي له الظفر بمطلوبه»(٥).

✍ **وقال ابن أبي جمرة** رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «من كان صادق النية لا يقع وإن وقع لا

---

(١) طريق الهجرتين (٢٦٧/ ١).
(٢) مجموع الفتاوىٰ (٢٨/ ٦٤٤).
(٣) مجموع فتاوىٰ ابن باز (٢٧/ ٢٤).
(٤) القواعد المثلىٰ (١٧/ ١).
(٥) مدارج السالكين (٢/ ٣٧).

يقع إلا في خير ولو قصد الشر فإن الله يصرفه عنه»(١).

✍ **وقال العلامة ابن القيم** رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «وهل عمرت الجنان إلا بأهل الصدق؟»(٢).

✍ **وقال الحارث المحاسبي**: «الصادق هو الذي لا يبالي لو خرج كل قدر له في قلوب الخلق من أجل صلاح قلبه ولا يحب اطلاع الناس علىٰ مثاقيل الذر من حسن عمله ولا يكره أن يطلع الناس علىٰ السيء من عمله فإن كراهته لذلك دليل علىٰ أنه يحب الزيادة عندهم وليس هذا من علامات الصديقين»(٣).

✍ **وقال أبو بكر المروذي** وسئل الإمام أحمد رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «بم بلغ القوم حتىٰ مدحوا؟ فقال: بالصدق»(٤).

✍ **وقال العلامة ابن القيم** رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «حال الصادق في طلب العلم وحال الصادق في طلب الدنيا فكل صادق في طلب شيء لا يستقر له قرار ولا يدوم علىٰ حالة واحدة.

وأيضًا: فإن الصادق مطلوبه رضىٰ ربه وتنفيذ أوامره وتتبع محابه فهو

---

(١) فتح الباري للحافظ ابن حجر (١/ ٤٠٥٨).

(٢) مفتاح دار السعادة (٢/ ٤٧٥).

(٣) مدارج السالكين (٢/ ٢٧٨).

(٤) تسهيل السابلة لمريد معرفة الحنابلة (١/ ٥٢) مناقب الإمام أحمد (٢٧٤-١/ ٢٦٧).

متقلب فيها يسير معها أين توجهت ركائبها ويستقل معها أين استقلت مضاربها فبينا هو في صلاة إذ رأيته في ذكر ثم في غزو ثم في حج ثم في إحسان للخلق بالتعليم وغيره من أنواع النفع ثم في أمر بمعروف أو نهي عن منكر أو في قيام بسبب فيه عمارة الدين والدنيا ثم في عيادة مريض أو تشييع جنازة أو نصر مظلوم إن أمكن إلىٰ غير ذلك من أنواع القرب والمنافع.

فهو في تفرق دائم لله وجمعية علىٰ الله لا يملكه رسم ولا عادة ولا وضع ولا يتقيد بقيد ولا إشارة ولا بمكان معين يصلىٰ فيه لا يصلىٰ في غيره وزي معين لا يلبس سواه وعبادة معينة لا يلتفت إلىٰ غيرها مع فضل غيرها عليها أو هي أعلىٰ من غيرها في الدرجة وبعد ما بينهما كبعد ما بين السماء والأرض.

فكلام أبي القاسم الجنيد حق كلام راسخ في الصدق عالم بتفاصيله وآفاته ومواضع اشتباهه بالكذب.

وأيضًا فحمل الصدق كحمل الجبال الرواسي لا يطيقه إلا أصحاب العزائم فهم يتقلبون تحته تقلب الحامل بحمله الثقيل والرياء والكذب خفيف كالريشة لا يجد له صاحبه ثقلا ألبتة فهو حامل له في أي موضع اتفق بلا تعب ولا مشقة ولا كلفة فهو لا يتقلب تحت حمله ولا يجد ثقله وقال بعضهم: لا يشم رائحة الصدق عبد داهن نفسه أو غيره وقال بعضهم: الصادق الذي يتهيأ له أن يموت ولا يستحيي من سره لو كشف قال الله تعالىٰ: ﴿فَتَمَنَّوُاْ ٱلْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٩٤﴾﴾ [البقرة:٩٤]. قلت: هذه الآية فيها للناس كلام معروف قالوا: إنها معجزة للنبي أعجز بها اليهود

ودعاهم إلىٰ تمني الموت وأخبر: أنهم لا يتمنونه أبدًا وهذا علم من أعلام نبوته إذ لا يمكن الاطلاع علىٰ بواطنهم إلا بأخبار الغيب ولم ينطق الله ألسنتهم بتمنيه أبدًا وفي أثر إلهي: من صدقني في سريرته صدقته في وعلامة هذا الصادق: أن لا يتحمل داعية تدعو إلىٰ نقض عهد يعني أن الصادق حقيقة: هو الذي قد انجذبت قوىٰ روحه كلها إلىٰ إرادة الله وطلبه والسير إليه والاستعداد للقائه ومن تكون هذه حاله: لا يحتمل سببا يدعوه إلىٰ نقض عهده مع الله بوجه وقوله: ولا يصبر علىٰ صحبة ضده.

الضد عند القوم: هم أهل الغفلة وقطاع طريق القلب إلىٰ الله وأضر شيء علىٰ الصادق: صحبتهم بل لا تصبر نفسه علىٰ ذلك أبدًا إلا جمع ضرورة وتكون صحبتهم له في تلك الحال بقالبه وشبحه دون قلبه وروحه فإن هذا لما استحكمت الغفلة عليه كما استحكم الصدق في الصادق: أحست روحه بالأجنبية التي بينه وبينهم بالمضادة فاشتدت النفرة وقوي الهرب وبحسب هذه الأجنبية»(١).

✍ **وقال ابن القيم** رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «قال تعالىٰ: ﴿هَٰذَا يَوۡمُ يَنفَعُ ٱلصَّٰدِقِينَ صِدۡقُهُمۡۚ لَهُمۡ جَنَّٰتٞ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدٗاۚ رَّضِيَ ٱللَّهُ عَنۡهُمۡ وَرَضُواْ عَنۡهُۚ ذَٰلِكَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡعَظِيمُ ١١٩﴾ [المائدة:١١٩]، وقال تعالىٰ: ﴿وَٱلَّذِي جَآءَ بِٱلصِّدۡقِ وَصَدَّقَ بِهِۦٓ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُتَّقُونَ﴾ [الزمر:٣٣] فالذي جاء بالصدق: هو من شأنه الصدق في قوله وعمله وحاله، فالصدق في هذه الثلاثة:

---

(١) مدارج السالكين (٢٨٠-٢٨١- ٢٨٣/ ٢).

فالصدق في الأقوال: استواء اللسان علىٰ الأقوال كاستواء السنبلة علىٰ ساقها.

والصدق في الأعمال: استواء الأفعال علىٰ الأمر والمتابعة كاستواء الرأس علىٰ الجسد.

والصدق في الأحوال: استواء أعمال القلب والجوارح علىٰ الإخلاص واستفراغ الوسع وبذل الطاقة فبذلك يكون العبد من الذين جاءوا بالصدق وبحسب كمال هذه الأمور فيه وقيامها به: تكون صديقيته»(١).

[١٢] ترك الذنوب من أسباب التوفيق

أيها الساعي إلىٰ الله اعلم أوصلك إلىٰ مرضاته أن الطريق صعب والسفر طويل وأن مما يوقف سيرك ويضعف همتك ويعيقك عن المواصلة ويكسلك عن اللحاق بالقوم هي عوارض الذنوب كم أقعدت عن طاعة وأثقلت عن الآخرة فهي ولاشك رفيق خبيث وجليس سوء كم ضل من مسافر بسببها وحار من سالك وأطفأت تلك الذنوب سراج الهداية عن كثير من السالكين، فإن تراكم الذنوب يسد الأبواب ويردم الطرق إلىٰ الله حين تتراكم علىٰ صاحبها كالحجارة الغليظة تثقل عن النهوض إلىٰ الطاعة وعن القيام علىٰ عتبة العبودية قال سبحانه: ﴿كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿١٤﴾﴾ [المطففين:١٤]»

✍ **قال الفضيل بن عياض** رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «قلة التوفيق وفساد الرأي وطلب

---

(١) مدارج السالكين (٢/ ٢٧٠).

الدنيا بعمل الآخرة تتولد من كثرت الذنوب»(١).

✍ **وقال العلامة ابن القيم** رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «وأما العوائق فهي أنواع المخالفات ظاهرها وباطنها، فإنها تعوق القلب عن سيره إلىٰ الله وتقطع عليه طريقه، وهي ثلاثة أمور: شرك وبدعة ومعصية، فيزول عائق الشرك بتجريد التوحيد، وعائق البدعة بتحقيق السنة، وعائق المعصية بتصحيح التوبة. وهذه العوائق لا تتبين للعبد حتىٰ يأخذ في أهبة السفر ويتحقق بالسير إلىٰ الله والدار الآخرة. فحينئذ تظهر له هذه العوائق يحسس بتعويقها له بحسب قوة سيره وتجرده للسفر، والا فما دام قاعدا لا تظهر له كوامنها وقواطعها»(٢).

✍ **وقال** رَحِمَهُ ٱللَّهُ **أيضًا**: «قلة التوفيق وفساد الرأي، وخفاء الحق، وفساد القلب، وخمول الذكر، وإضاعة الوقت، ونفرة الخلق، والوحشة بين العبد وبين ربه، ومنع اجابة الدعاء، وقسوة القلب، ومحق البركة في الرزق والعمر، وحرمان العلم، ولباس الذل، واهانة العدو، وضيق الصدر، والابتلاء بقرناء السوء الذين يفسدون القلب ويضيعون الوقت، وطول الهم والغم، وضنك المعيشة، وكسف البال... تتولد من المعصية والغفلة عن ذكر الله، كما يتولد الزرع عن الماء، والإحراق عن النار وأضداد هذه تتولد عن الطاعة»(٣).

✍ **وقال ابن القيم** رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «ومن عقوبات الذنوب والمعاصي ومنها: تعسير أموره عليه. فلا يتوجه لأمر إلا يجده مغلقًا دونه، أو متعسرًا عليه.

---

(١) شعب الإيمان للبيهقي (٩/ ٢٠٥).

(٢) الفوائد (١٦٦/ ١).

(٣) الفوائد (٣٥/ ١).

وهذا كما أن من اتقىٰ الله جعل له من أمره يسرًا، فمن عطل التقوىٰ جعل له من أمره عسرًا.

ويالله العجب! كيف يجد العبد أبواب الخير والمصالح مسدودة عنه، وطرقها معسرة عليه، وهو لا يعلم من أين أتي؟»(١).

✍ **وقال شيخ الإسلام** رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «فإن المعاصي قيد وحبس لصاحبها عن الجولان في فضاء التوحيد وعن جني ثمار الأعمال الصالحة»(٢).

✍ **وقَالَ الإِمَامُ ابن القَيِّمِ** رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «فما خلَّىٰ الله بينك وبين الذنب إلا بعد أن خذلك، وخلَّىٰ بينك وبين نفسك، ولو عصمك ووفقك، لما وجد الذنب إليك سبيلًا»(٣).

✍ **وقال ابن القيم** رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «فإن المطلوب وقاية شرور سيئات الأعمال ذلك اليوم، وهي سيئات في أنفسها.

قيل: وقاية السيئات نوعان: أحدهما: وقاية فعلها بالتوفيق فلا تصدر منه. والثاني: وقاية جزائها بالمغفرة فلا يعاقب عليها»(٤).

✍ **قال الحافظ ابن كثير** رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «أن الذنوب والمعاصي والشهوات تخذل صاحبها عند الموت مع خذلان الشيطان له. فيجتمع عليه الخذلان مع ضعف الإيمان.

---

(١) الداء والدواء (١٣٤/ ١).

(٢) التفسير الكبير (١٣/ ٣).

(٣) مدارج السالكين (١٨٧/ ١).

(٤) الداء والدواء (٢٧٠/ ١).

فيقع في سوء الخاتمة. قال الله تعالىٰ: ﴿وَكَانَ ٱلشَّيۡطَٰنُ لِلۡإِنسَٰنِ خَذُولٗا ٢٩﴾ [الفرقان:٢٩]»(١).

✍ **قال الفضيل بن عياض** «قلة التوفيق وفساد الرأي وطلب الدنيا بعمل الآخرة من كثرة الذنوب»(٢).

✍ **وقال العلامة ابن القيم** رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «طالب الله والدار الآخرة لا يستقيم له سيره وطلبه إلا بحبسين حبس قلبه في طلبه ومطلوبه، وحبسه عن الالتفات إلىٰ غيرة. وحبس لسانه عما لا يفيده، وحبسه علىٰ ذكر الله وما يزيد في ايمانه ومعرفته. وحبس جوارحه عن المعاصي والشهوات، وحبسها علىٰ الواجبات والمندوبات، فلا يفارق الحبس حتىٰ يلقىٰ ربه فيخلصه من السجن إلىٰ أوسع فضاه وأطيبه. ومتىٰ لم يصبر علىٰ هذين الحبسين وفر منهما إلىٰ فضاء الشهوات أعقبه ذلك الحبس الفظيع عند خروجه من الدنيا، فكل خارج من الدنيا إما متخلص من الحبس وإما ذاهب إلىٰ الحبس»(٣).

✍ **وقال** رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «لو لم يكن في ترك الذنوب والمعاصي وتيسير ما عسر علىٰ أرباب الفسوق والمعاصي، وتسهيل الطاعات عليه، وتيسير العلم»(٤).

---

(١) البداية والنهاية (٩/ ١٨٤).

(٢) تاريخ مدينة دمشق (٤٢٦/ ٤٨).

(٣) الفوائد (٥٢/ ١).

(٤) الفوائد (١٦٣/ ١).

✍ **وقال** رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «أساس الخير أن تؤمن بما شاءه تعالىٰ أساس كل خير أن تعلم أن ما شاء الله كان، وما لم يشأ لم يكن. فتيقن حينئذ أن الحسنات من نعمه، فتشكره عليها، وتتضرع إليه أن لا يقطعها عنك، وأن السيئات من خذلانه وعقوبته»(١).

✍ **وقال** رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «ومن المعلوم أن المعاصي والذنوب تعمي بصيرة القلب فلا يدرك الحق كما ينبغي، وتضعف قوته وعزيمته فلا يصبر عليه. بل قد تتوارد علىٰ القلب حتىٰ ينعكس إدراكه، كما ينعكس سيره، فيدرك الباطل حقًّا، والحق باطلا، والمعروف منكرا، والمنكر معروفا. فينتكس في سيره، ويرجع عن سفره إلىٰ الله والدار الآخرة، إلىٰ سفره إلىٰ مستقر النفوس المبطلة التي رضيت بالحياة الدنيا، واطمأنت بها، وغفلت عن الله وآياته، وتركت الاستعداد للقائه.

ولو لم يكن في عقوبة الذنوب إلا هذه العقوبة وحدها لكانت كافية داعية إلىٰ تركها والبعد منها، والله المستعان»(٢).

✍ **وقال** رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «ومن عقوباتها: أنها تعمي بصيرة القلب وتطمس نوره، وتسد طرق العلم وتحجب مواد الهداية»(٣).

✍ **وقال رجل للحسن البصري** رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «أعياني قيام الليل، فقال له:

---

(١) الفوائد (١٠١/ ١).

(٢) الداء والدواء (٢٢٢/ ١).

(٣) الداء والدواء (١٨٧/ ١).

قيدتك خطاياك»(١).

✍ **وقال سليمان التيمي** رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «الحسنة نور في القلب وقوة في العمل والسيئة ظلمة في القلب وضعف في العمل»(٢).

✍ **وقال الفضيل بن عياض** رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «إذا لم تقدر علىٰ قيام الليل وصيام النهار فاعلم أنك محروم كبلتك خطاياك»(٣).

✍ **وقال ابن القيم** رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «والمقصود أن الذنوب تنسي العبد حظه من هذه التجارة الرابحة، وتشغله بالتجارة الخاسرة، وكفىٰ بذلك عقوبة. والله المستعان»(٤).

✍ **وقال** رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «ومن عقوباتها: أنها تستدعي نسيان الله لعبده، وتركه، وتخليته بينه وبين نفسه وشيطانه. وهناك الهلاك الذي لا يرجىٰ معه نجاة. ومن عقوباتها: أنها تنسي العبد نفسه، فإذا نسي نفسه أهملها وأفسدها وأهلكها.

فإن قيل: كيف ينسىٰ العبد نفسه؟ وإذا نسي نفسه، فأي شيء يذكر؟ وما معنىٰ نسيانه نفسه؟

قيل: نعم، ينسىٰ نفسه أعظم نسيان. قال تعالىٰ: ﴿ وَلَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ نَسُوا۟

---

(١) صفوة الصفوة (٣/ ١٦٦).

(٢) تهذيب حلية الأولياء (١/ ٤٤١).

(٣) تهذيب السير (٢/ ٥٤٤).

(٤) الداء والدواء (١/ ٢٤٨).

ٱللَّهَ فَأَنسَىٰهُمْ أَنفُسَهُمْ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴾ [الحشر:١٩] فلما نسوا ربهم سبحانه نسيهم وأنساهم أنفسهم كما قال: ﴿نَسُوا۟ ٱللَّهَ فَنَسِيَهُمْ ۗ﴾ [التوبة:٦٧] فعاقب سبحانه من نسيه عقوبتين: إحداهما: أنه سبحانه نسيه. والثانية: أنه أنساه نفسه.

ونسيانه سبحانه للعبد: إهماله، وتركه، وتخليه عنه، وإضاعته؛ فالهلاك أدنىٰ إليه من اليد للفم!

وأما إنساؤه نفسه فهو: إنساؤه لحظوظها العالية وأسباب سعادتها وفلاحها وصلاحها وما تكمل به، ينسيه ذلك جميعه، فلا يخطره بباله، ولا يجعله علىٰ ذكره، ولا يصرف إليه همته فيرغب فيه، فإنه لا يمر بباله حتىٰ يقصده ويؤثره»(١).

✍ **وقال الحسن البصري** رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «لا يزال العبد بخير ما لم يصب كبيرة تفسد عليه قلبه وعقله»(٢).

[١٣] شرح الصدر للطاعة وضيقه من المعصية من أسباب التوفيق

ومن أدلة هذا السبب العظيم من القرآن الكريم

❁ قوله تعالىٰ: ﴿فَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يَهْدِيَهُۥ يَشْرَحْ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ ۖ وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُۥ يَجْعَلْ صَدْرَهُۥ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِى ٱلسَّمَآءِ ۚ كَذَٰلِكَ يَجْعَلُ

---

(١) الداء والدواء (٢٤٤/ ١).

(٢) مصنف ابن أبي شيبة (٣٦٧٩٠).

ٱللَّهُ ٱلرِّجْسَ عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٢٥﴾ [الأنعام:١٢٥].

✍ **قال العلامة المفسر السعدي** رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «يقول تعالىٰ -مبينًا لعباده علامة سعادة العبد وهدايته، وعلامة شقاوته وضلاله-: إن من انشرح صدره للإسلام، أي: اتسع وانفسح، فاستنار بنور الإيمان، وحيي بضوء اليقين، فاطمأنت بذلك نفسه، وأحب الخير، وطوعت له نفسه فعله، متلذذا به غير مستثقل، فإن هذا علامة علىٰ أن الله قد هداه، ومن عليه بالتوفيق، وسلوك أقوم الطريق.

وأن علامة من يرد الله أن يضله، أن يجعل صدره ضيقًا حرجًا. أي: في غاية الضيق عن الإيمان والعلم واليقين، قد انغمس قلبه في الشبهات والشهوات، فلا يصل إليه خير، لا ينشرح قلبه لفعل الخير كأنه من ضيقه وشدته يكاد يصعد في السماء، أي: كأنه يكلف الصعود إلىٰ السماء، الذي لا حيلة له فيه.

وهذا سببه، عدم إيمانهم، هو الذي أوجب أن يجعل الله الرجس عليهم، لأنهم سدوا علىٰ أنفسهم باب الرحمة والإحسان، وهذا ميزان لا يعول، وطريق لا يتغير، ﴿فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَٱتَّقَىٰ ﴿٥﴾ وَصَدَّقَ بِٱلْحُسْنَىٰ ﴿٦﴾ فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلْيُسْرَىٰ ﴿٧﴾ وَأَمَّا مَنۢ بَخِلَ وَٱسْتَغْنَىٰ ﴿٨﴾ وَكَذَّبَ بِٱلْحُسْنَىٰ ﴿٩﴾ فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلْعُسْرَىٰ ﴿١٠﴾﴾ [الليل:٥-١٠]»(١).

✍ **وقال صاحب التنبيهات السنية**: «قوله: (فمن يرد الله أن يهديه): أي من شاء -سبحانه- أن يدله ويرشده ويوفقه ويجعل قلبه قابلا للخير هداه

---

(١) تيسير الكريم الرحمن (٢٧٢/ ١).

-سبحانه وتعالىٰ- ووفقه، فهداية القلوب إليه -سبحانه- يهدي من يشاء بفضله، ويضل من يشاء بعدله، فلا تطلب الهداية إلا منه -سبحانه- فهو الهادي كما قال: (من يهده الله فلا مضل له ومن يضلل فلا هادي له)، وفي الحديث: «**كلكم ضال إلا من هديته فاستهدوني أهدكم**»(١).

✍ **وقال الحافظ ابن كثير** رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «أي: ييسره له وينشطه ويسهله لذلك، فهذه علامة علىٰ الخير»(٢).

❁ **ومنها قوله تعالىٰ:** ﴿أَفَمَن شَرَحَ ٱللَّهُ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ فَهُوَ عَلَىٰ نُورٍ مِّن رَّبِّهِۦ ۚ فَوَيْلٌ لِّلْقَٰسِيَةِ قُلُوبُهُم مِّن ذِكْرِ ٱللَّهِ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٢٢﴾﴾ [الزمر:٢٢].

✍ **قال المفسر ابن السعدي** رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «أفيستوي من شرح الله صدره للإسلام، فاتسع لتلقي أحكام الله والعمل بها، منشرحا قرير العين، علىٰ بصيرة من أمره، أي: لا تلين لكتابه، ولا تتذكر آياته، ولا تطمئن بذكره، بل هي معرضة عن ربها، ملتفتة إلىٰ غيره، فهؤلاء لهم الويل الشديد، والشر الكبير. وأي ضلال أعظم من ضلال من أعرض عن وليه؟ ومن كل السعادة في الإقبال عليه، وقسا قلبه عن ذكره، وأقبل علىٰ كل ما يضره؟»(٣).

❁ **ومنها أيضًا** قوله تعالىٰ: ﴿أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ ﴿١﴾﴾ [الشرح:١].

✍ **قال المفسر السعدي** رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «أي: نوسعه لشرائع الدين والدعوة

---

(١) التنبيهات السنية شرح العقيدة الواسطية عبدالعزيز الرشيد (٤٢/ ١).
(٢) تفسير القرآن العظيم (٣٣٤/ ٣).
(٣) تيسير الكريم الرحمن (١٦٣٢/ ١).

إلىٰ الله، والاتصاف بمكارم الأخلاق، والإقبال علىٰ الآخرة، وتسهيل الخيرات فلم يكن ضيقًا حرجًا، لا يكاد ينقاد لخير، ولا تكاد تجده منبسطًا»(١).

❁ وقال تعالىٰ: ﴿رَبِّ ٱشۡرَحۡ لِي صَدۡرِي ٢٥﴾ [طه:٢٥].

✍ **قال العلامة السعدي** رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «فامتثل أمر ربه، وتلقاه بالانشراح والقبول، وسأله المعونة وتيسير الأسباب، التي هي من تمام الدعوة، فقال: ﴿رَبِّ ٱشۡرَحۡ لِي صَدۡرِي﴾ أي: وسعه وأفسحه، لأتحمل الأذىٰ القولي والفعلي، ولا يتكدر قلبي بذلك، ولا يضيق صدري، فإن الصدر إذا ضاق، لم يصلح صاحبه لهداية الخلق ودعوتهم»(٢).

✍ **وقال العلامة ابن كثير** رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «هذا سؤال من موسىٰ عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ لربه عَزَّوَجَلَّ، أن يشرح له صدره فيما بعثه به، فإنه قد أمره بأمر عظيم، وخطب جسيم، ومعناه أي: إن لم تكن أنت عوني ونصيري، وعضدي وظهيري، وإلا فلا طاقة لي بذلك»(٣).

ومن أدلة السنة الواردة في شرح الصدر:

❁ جاء عن وابصة بن معبد رَضِيَ ٱللَّهُ عَنۡهُ قال: «رأيت رسول الله ﷺ وأنا أريد أن لا أدع شيئًا من البر والإثم إلا سألت عنه فقال لي: «**ادن يا وابصة**» فدنوت

---

(١) تيسير الكريم الرحمن (٩٢٩/ ١).

(٢) تيسير الكريم الرحمن (٥٠٤/ ١).

(٣) تفسير القرآن العظيم (٢٨٢/ ٥).

منه حتىٰ مست ركبتي ركبته فقال لي: «**يا وابصة أخبرك عما جئت تسأل عنه** قلت يا رسول الله أخبرني قال: «**جئت تسأل عن البر والإثم**» قلت نعم فجمع أصابعه الثلاث فجعل ينكت بها في صدري ويقول: «**يا وابصة استفت قلبك والبر ما اطمأنت إليه النفس واطمأن إليه القلب والإثم ما حاك في القلب وتردد في الصدر وإن أفتاك الناس وأفتوك**»(١).

✍ **قال النووي** رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «قال العلماء البر يكون بمعنىٰ الصلة وبمعنىٰ اللطف والمبرة وحسن الصحبة والعشرة وبمعنىٰ الطاعة وهذه الامور هي مجامع حسن الخلق ومعنىٰ حاك في صدرك أي تحرك فيه وتردد ولم ينشرح له الصدر وحصل في القلب منه الشك وخوف كونه ذنبًا»(٢).

✍ **قال العلامة العثيمين** رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «فإن الإنسان ما دام صحيحا يسهل عليه العمل، لأنه صحيح منشرح الصدر منبسط النفس، والمريض يضيق صدره ولا تنبسط نفسه فلا يسهل عليه العمل»(٣).

✍ **قال العلامة ابن القيم** رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «فشرح الصدر كما أنه سبب الهداية فهو أصل كل نعمة وأساس كل خير وقد سأل كليم الرحمن موسىٰ بن عمران ربه أن يشرح له صدره لما علم أنه لا يتمكن من تبليغ رسالته والقيام بأعبائها إلا إذا شرح له صدره وقد عدد سبحانه من نعمه علىٰ خاتم أنبيائه

---

(١) رواه أحمد بإسناد حسن. صحيح الترغيب والترهيب (١٧٣٤) (حسن لغيره).
(٢) شرح النووي علىٰ مسلم (١١١/ ١٦).
(٣) شرح الأربعين النووية للعثيمين (٨١/ ١).

ورسله شرح صدره له وأخبر عن أتباعه أنه شرح صدورهم للإسلام»(١).

❁ وجاء عن أبي أمامة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «**إذا حاك في نفسك شيء فدعه**»(٢).

✍ **قال العلامة الصنعاني** رحمه الله: «(إذا حاك في نفسك شيء) بالحاء المهملة يقال حال هذا الأمر في نفسي إذا لم ينشرح الصدر له، ووقع فيه منه ريبة وشك، وفي معناه أحاديث واسعة (فدعه) فإنه تعالىٰ قد فطر العباد علىٰ عدم سكون قلوبهم إلىٰ ما فيه إثم ونحوه وإن ذلك علامة ما لا يرضاه الله منه، كما أنه إذا انشرح صدره وسكن إلىٰ أمر دل علىٰ أنه يرضاه وهذا في القرآن بمعناه كثير، ويأتي أنه يقدمه علىٰ فتوىٰ من أفتاه وهذا من الواعظ الذي يجعله الله تعالىٰ في قلب عبده، ويحتمل أنه يختص بالمؤمن لأن الكافر قد طبع علىٰ قلبه بل قد يرىٰ قلبه مطمئنا إلىٰ الكفر والمعاصي»(٣).

❁ عن أبي ذر الغفاري مرفوعًا: «**إذا أراد الله بعبد خيرًا فتح له قفل قلبه**»(٤).

---

(١) شفاء العليل (١٠٧/ ١).

(٢) أخرجه أحمد (٥/ ٢٥٥)، وابن حبان (١٧٦)، والحاكم (٤/ ٩٩)، وقال: صحيح، وقال المنذري (٢/ ٣٥٢): إسناده صحيح، وقال ابن رجب في جامع العلوم والحكم (١/ ٢٥): إسناده جيد علىٰ شرط مسلم، وصححه الألباني في صحيح الجامع (٤٨٤)، والسلسلة الصحيحة (٥٥٠)..

(٣) التنوير شرح الجامع الصغير (٢٠/ ٢).

(٤) قال الألباني في «السلسلة الضعيفة والموضوعة» (٥/ ٢٥٣): «ضعيف» رواه الديلمي (١/ ١/ ٩٤) عن شرحبيل بن الحكم عن عامر بن نايل عن كثير بن مرة

⇦=

✍ **قال المناوي** رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «أي أزال عن قلبه حجب الأشكال وبصر بصيرته مراتب أهل الكمال حتىٰ يصير قابلا للفيض السبحاني مستمدًّا للإمداد الرحماني فإذا هبت رياح الألطاف انكشفت الحجب عن أعين القلوب وفاضت الرحمة وأشرق النور وانشرح الصدر وانكشف للقلب سر الملكوت من وراء ستر الغيب غرائب العلوم تارة كالبرق الخاطف وأخرىٰ علىٰ التوالي إلىٰ حد ما وداومه في غاية الندور»(١).

✍ **قال العلامة الصنعاني** رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «وجعل فيه اليقين والصدق، وجعل قلبه واعيا لما سلك فيه، وجعل قلبه سليمًا، ولسانه صادقًا، وخليقته مستقيمةً، وجعل أذنه سميعةً، وعينه بصيرةً.

وشبه القلب بذي القفل كالصندوق ثم أثبت له القفل تخييلًا ثم الفتح ترشيحا وفسر ثمرة الفتح بقوله (وجعل فيه اليقين) هو خلاف الشك، والمراد جعل فيه اليقين بالإيمان والتصديق بما جاء عن الله وعن رسوله وعمل بمقتضاه وأيقن بالوعد فعمل طلبا للثواب وأيقن بالوعيد فترك المنهي عنه فإنه لا يقين لمن لا عمل له (والصدق) أي جعله مصدقًا لما يلقىٰ إليه من كلام الله ولكلام رسله (وجعل قلبه واعيًا) حافظًا (لما يسلك فيه) السلك الإدخال أي جعل قلبه حافظًا لما دخل إليه من الخير»(٢).

= قلت: وهذا إسناد ضعيف، شرحبيل وشيخه مجهولان، قال ابن خزيمة: «أنا أبرأ من عهدتهما».

(١) فيض القدير (٣٣٤/ ١).

(٢) التنوير شرح الجامع الصغير (٥٢٨/ ١).

✍ **قَالَ الإِمَامُ ابن القَيِّمِ** رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «فأيُّ نعِيمٍ أطْيَب مِن شَرحِ الصَّدْر وأيُّ عَذَاب أمَر مِن ضِيقِ الصَّدْر؟»(١).

✍ **قَالَ الإِمَامُ ابن القَيِّمِ** رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «فشرح الصدر من أعظم أسباب الهدىٰ وتضييقه من أسباب الضلال كما أن شرحه من أجل النعم وتضييقه من أعظم النقم»(٢).

[١٤] الجليس الصالح يعينك على الطاعة ويصرفك عن المعصية من أسباب التوفيق:

❁ **من أدلة هذا السبب النافع من السنة** ما رواه أبو موسىٰ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله ﷺ: «**مثل الجليس الصالح وجليس السوء كحامل المسك ونافخ الكير، فصاحب المسك إما إن يحذيك وإما أن تبتاع منه، ونافخ الكير إما أن يحرق ثيابك أو تجد منه ريحًا خبيثة**»(٣).

✍ **قال رجل لداود الطائي**: أوصني، فقال: صاحب أهل التقوىٰ، فإنهم أيسر أهل الدنيا مؤنة عليك، وأكثرهم لك معونة »(٤).

✍ **وقال محمد بن علي بن الحنفية لجابر الجعفي**: «يا جابر، إن أهل التقوىٰ أيسر أهل الدنيا مؤنة، وأكثرهم لك معونة، إن نسيت ذكروك، وإن

---

(١) الداء والدواء (٢٣٤/ ١).

(٢) شفاء العليل (ص١٠٧).

(٣) أخرجه البخاري في «صحيحه» رقم (٢١٠١)، وطرفه: (٥٥٣٤)، ومسلم رقم (٢٦٢٨).

(٤) «حلية الأولياء» (٣٤٦ / ٧).

ذكرت أعانوك»[١].

✍ **قال محمد بن كعب القرظي**: «قال لي عمر: لا تصحب من الأصحاب من خطرك عنده علىٰ قدر قضاء حاجته، فإذا انقضت حاجته انقطعت أسباب مودته، واصحب من الأصحاب ذا العلا في الخير، والأناة في الحق، يعينك علىٰ نفسك، ويكفيك مؤنته»[٢].

✍ **وقال أحمد بن أبي الحواري**: «سمعت أبا سليمان الداراني رَحِمَهُ ٱللَّهُ يقول: كنت أنظر إلىٰ الأخ من إخواني بالعراق فأعمل علىٰ رؤيته شهرًا، وسمعته يقول: إنما الأخ الذي تعظك رؤيته قبل أن يعظك بكلامه»[٣].

✍ **وعن مالك بن دينار** رَحِمَهُ ٱللَّهُ **قال**: كل جليس لا تستفيد منه خيرا فاجتنبه[٤].

✍ **قال المباركفوري** رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «وإما أن تبتاع منه» كذلك الجليس الصالح إما أن تنتفع بمجالسته بدلالته لك علىٰ الخير. «وإما أن تأخذ عنه» ما ينفعك في دنياك ودينك وهذا حث علىٰ مجالسة الصالحين، وحث علىٰ البعد عن مجالسة العاصين، ولذا قيل:

وقارن إذا قارنت حرًّا فإنما ∴ يزين ويزري بالفتىٰ قرناؤه»[٥]

---

(١) «حلية الأولياء» (٣/ ١٨٢).

(٢) حلية الأولياء (٣/ ٣٤٢).

(٣) [صفة الصفوة ٤/ ٤٤٤].

(٤) [الحلية (تهذيبه) ١/ ٤٢٥].

(٥) التحبير شرح الجامع الصغير (٦/٥٢٩).

✍ وقال **العلامة الصنعاني** رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «وأن تنتفع منه بنفع فالجليس الصالح إما أن يمنحك حكمة أو تأخذها منه بطلب الإفادة والتعليم أو تلذذ بحسن حديثه وخلقه وآداب شمائله. والترغيب في مجالسة من تنفع مجالسته، وفيه ضرب الأمثال وشرف المسك»(١).

✍ **وقال المهلب**: «وفيه بركة مجالسة الصالحين، وأن فيها تذكار لفعل الخير، وتنبيها علىٰ الازدياد من العمل الصالح، ولذلك أمر عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ بمجالسة العلماء، ولزوم حلق الذكر، وشبه الجليس الصالح بالعطار إن لم يصبك من متاعه لم تعدم طيب ريحه»(٢).

✍ **وقال العلامة السعدي** رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «ولهذا كان من أعظم نعم الله علىٰ العبد المؤمن، أن يوفقه لصحبة الأخيار. ومن عقوبته لعبده، أن يبتليه بصحبة الأشرار.

صحبة الأخيار توصل العبد إلىٰ أعلىٰ عليين، وصحبة الأشرار توصله إلىٰ أسفل سافلين.

صحبة الأخيار توجب له العلوم النافعة، والأخلاق الفاضلة والأعمال الصالحة، وصحبة الأشرار: تحرمه ذلك أجمع»(٣).

✍ **وقال مالك بن دينار**: يقول للمغيرة بن حبيب: «يا مغيرة انظر كل

---

(١) التنوير شرح الجامع الصغير (١٩٩/ ٤).
(٢) شرح البخاري لابن بطال (٢٢/ ٤).
(٣) بهجة قلوب الأبرار (١٥٧/ ١).

جليس وصاحب، لا تستفيد في دينك منه خيرًا فانبذ عنك صحبته»(١).

✍ **وعن أبي الأحوص**، قال: قال ابن مسعود: «لا عليك أن تصحب إلا من أعانك علىٰ ذكر الله»(٢).

✍ **وقال العلامة السعدي** رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «اشتمل هذا الحديث علىٰ الحث علىٰ اختيار الأصحاب الصالحين، والتحذير من ضدهم.

ومثل النبي ﷺ بهذين المثالين، مبينا أن الجليس الصالح: جميع أحوالك معه وأنت في مغنم وخير، كحامل المسك الذي تنتفع بما معه من المسك: إما بهبة، أو بعوض. وأقل ذلك: مدة جلوسك معه، وأنت قرير النفس برائحة المسك.

فالخير الذي يصيبه العبد من جليسه الصالح أبلغ وأفضل من المسك الأذفر، فإنه إما أن يعلمك ما ينفعك في دينك ودنياك، أو يهدي لك نصيحة، أو يحذرك من الإقامة علىٰ ما يضرك. فيحثك علىٰ طاعة الله، وبر الوالدين، وصلة الأرحام، ويبصرك بعيوب نفسك، ويدعوك إلىٰ مكارم الأخلاق ومحاسنها، بقوله وفعله وحاله. فإن الإنسان مجبول علىٰ الاقتداء بصاحبه وجليسه، والطباع والأرواح جنود مجندة، يقود بعضها بعضا إلىٰ الخير، أو إلىٰ ضده.

وأقل ما تستفيده من الجليس الصالح -وهي فائدة لا يستهان بها- أن

---

(١) الزهد للإمام أحمد (٥٣٨/ ١).

(٢) الزهد لأبي داود (١٤٣/ ١).

تكف بسببه عن السيئات والمعاصي، رعاية للصحبة، ومنافسة في الخير، وترفعا عن الشر، وأن يحفظك في حضرتك ومغيبك، وأن تنفعك محبته ودعاؤه في حال حياتك وبعد مماتك، وأن يدافع عنك بسبب اتصاله بك، ومحبته لك.

وتلك أمور لا تباشر أنت مدافعتها، كما أنه قد يصلك بأشخاص وأعمال ينفعك اتصالك بهم.

وفوائد الأصحاب الصالحين لا تعد ولا تحصىٰ. ولهذا كان من أعظم نعم الله علىٰ العبد المؤمن، أن يوفقه لصحبة الأخيار. ومن عقوبته لعبده، أن يبتليه بصحبة الأشرار.

صحبة الأخيار توصل العبد إلىٰ أعلىٰ عليين، وصحبة الأشرار توصله إلىٰ أسفل سافلين.

صحبة الأخيار توجب له العلوم النافعة، والأخلاق الفاضلة والأعمال الصالحة»(١).

❁ وعن أبي سعيد قال: قال رسول الله ﷺ: «**ما بعث الله من نبي ولا استخلف من خليفة إلا كانت له بطانتان: بطانة تأمره بالمعروف وتحضه عليه وبطانة تأمره بالشر وتحضه عليه والمعصوم من عصمه الله**»(٢).

---

(١) بهجة قلوب الأبرار (١٥٦/ ١).

(٢) قال الألباني في «السلسلة الصحيحة» ٤/ ١٩٣: أخرجه البخاري في «الأدب المفرد» (٢٥٦)، والترمذي في «السنن» (٢/ ٥٨ - ٥٩)، و«الشمائل المحمدية» (رقم -
⇦=

✍ **قال العلامة السعدي** رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «وأقل ما تستفيده من الجليس الصالح وهي فائدة لا يستهان بها أن تكف بسببه عن المعاصي والسيئات»(١).

✍ **وقال العلامة العثيمين** رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «فعليك باختيار الصديق الصالح الذي يدلك علىٰ الخير وبينه لك وتحثك عليه ويبين لك الشر ويحذرك منه»(٢).

✍ **وقال ابن القيم** رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «مجالسة الصالحين تحولك من ستة إلىٰ ستة:

من الشك إلىٰ اليقين، ومن الرياء إلىٰ الإخلاص، ومن الغفلة إلىٰ الذكر، ومن الرغبة في الدنيا إلىٰ الرغبة في الآخرة، ومن الكبر إلىٰ التواضع، ومن سوء النية إلىٰ النصيحة»(٣).

✍ **وقال العلامة السعدي** رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «إن من أعظم المكاسب وأجل المغانم كسب صداقة الأخيار واغتنام أدعيتهم في الحياة وبعد الممات»(٤).

= ١٣٤)، والطحاوي في «مشكل الآثار» (١/ ١٩٥ - ١٩٦)، والحاكم في «المستدرك» (٤/ ١٣١)، وعنه البيهقي في «شعب الإيمان» (٢/ ١٧/ ٢) عن أبي هريرة قال العلامة الألباني: وهذا إسناد صحيح علىٰ شرط الشيخين..

(١) بهجة قلوب الأبرار (١/ ١٥٦).

(٢) شرح حلية طالب العلم (١٥٧/ ١٥٨).

(٣) إغاثة اللهفان (١/ ١٣٦).

(٤) مجموع الفوائد واقتناص الآوابد (١/ ١٠٦).

✍ **ولقد أحسن من قال:**

تجنب قرين السوء وأصرم حباله ∴ فإن لم تجد عنه محيصا فداره
وأحبب حبيب الصدق واحذر مراءه ∴ تنل منه صفو الود ما لم تماره
وفي الشيب ما ينهىٰ الحليم عن الصبا ∴ إذا اشتعلت نيرانه في عذاره

✍ **وقال آخر:**

ما أصلح المرء الكريم كنفسه ∴ والمرء يصلحه الجليس الصالح

✍ **وقال سفيان الثوري** رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «ليكن جليسك من يزهدك في الدنيا ويرغبك في الآخرة وإياك ومجالسة أهل الدنيا فإنهم يفسدون عليك دينك ودنياك»(١).

✍ **وقال العلامة العثيمين** «احرص أن تصحب أناس أهل خير يرشدونك إذا غويت ويهدونك إذا ضللت ويذكرونك إذا نسيت ويعلمونك إذا جهلت»(٢).

✍ **وقال يحيىٰ بن معاذ** رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «لا تتخذوا من القرناء إلا من فيه ثلاث خصال: من حذرك غوائل الذنوب، وعرفك مدانس العيوب، وسايرك إلىٰ علام الغيوب»(٣).

✍ **وقال ابن شوذب** رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «إن من نعمة الله علىٰ الشاب إذا تنسك أن

---

(١) حلية الأولياء (٨٢/ ٧).
(٢) شرح البخاري للعثيمين (١/ ٦٢).
(٣) الحلية لأبي نعيم (١٠/ ٦٧).

يواخي صاحب سنة يحمله عليها»(١).

✍ **وقال الإمام حافظ حكمي في منظومة العقيدة والآداب والأخلاق:**

وصاحب إذا صاحبت كل موفق ∴ يقودك للخيرات نصحا ويرشد
وإياك والمرء الذي إن صحبته ∴ خسرت خسارا ليس فيه تردد

✍ **وقال العلامة العثيمين** رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «وعليه فتخير للزمالة والصداقة من يعينك علىٰ مطلبك، ويقربك إلىٰ ربك، ويوافقك علىٰ شريف غرضك ومقصدك، وخذ تقسيم الصديق في أدق المعايير. هذه الكلمات مأخوذة من قول الرسول عليه الصلاة والسلام: (مثل الجليس الصالح كحامل المسك... ومثل الجليس السوء كنافخ الكير).

فعليك باختيار الصديق الصالح الذي يدلك علىٰ الخير ويبينه لك ويحثك عليه ويبين لك الشر ويحذرك منه، وإياك وجليس السوء، فإن المرء علىٰ دين خليله، وكم من إنسان مستقيم قيد له شيطان من بني آدم فصده عن الاستقامة، وكم من إنسان جائر قاسي يسر له من يدله علىٰ الخير بسبب الصحبة، وكم من إنسان فاسق هداه الله تعالىٰ بما يسر له من صحبة الخير»(٢).

✍ **وقال آخر:**

اصحب خيار الناس حيث لقيتهم ∴ خير الصحابة من يكون عفيفا

---

(١) الإبانة لابن بطة (١/ ٢٠٥).

(٢) شرح حلية طالب العلم (١/ ١١٨).

والنـــاس مثـــل دراهـــم ميزتهـــا ∴ فوجـــدت منهـــا فضـــة وزيوفـــا

وأنشد آخر:

وصـاحب خيـار النـاس تـنج مسـلما ∴ وصاحب شـرار النـاس يومًا فتنـدما

وفي الآية الكريمة قوله تعالىٰ: ﴿ وَيَوْمَ يَعَضُّ ٱلظَّالِمُ عَلَىٰ يَدَيْهِ يَقُولُ يَٰلَيْتَنِي ٱتَّخَذْتُ مَعَ ٱلرَّسُولِ سَبِيلًا ﴿٢٧﴾ يَٰوَيْلَتَىٰ لَيْتَنِي لَمْ أَتَّخِذْ فُلَانًا خَلِيلًا ﴿٢٨﴾ لَّقَدْ أَضَلَّنِي عَنِ ٱلذِّكْرِ بَعْدَ إِذْ جَآءَنِي ۗ وَكَانَ ٱلشَّيْطَٰنُ لِلْإِنسَٰنِ خَذُولًا ﴿٢٩﴾ ﴾ [الفرقان:٢٧-٢٩] تحذير شديد من عاقبة الجليس السيء والصاحب الفاسد المنحرف الذي لا يرضىٰ أن يكون هو وحده علىٰ الشر وهناك من يعبد الله ويتقيه ويطلب العلم فلاشك أن سيجند نفسه ربما لأقرب الناس إليه ليفسده ويصرفه ويخذله ﴿حَتَّىٰ يَرُدُّوكُمْ عَن دِينِكُمْ إِنِ ٱسْتَطَٰعُوا۟ ﴾ [البقرة:٢١٧].

✍ **قال الإمام السعدي** رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «الآية. فلينظر العبد لنفسه وقت الإمكان وليتدارك الممكن قبل أن لا يمكن، وليوال من ولايته فيها سعادته وليعاد من تنفعه عداوته وتضره صداقته. والله الموفق»(١).

[١٥] الحذر من خطوات ومكائد الشيطان من أسباب التوفيق

لا شك أن العدو الحقيقي لك يا طالب الجنة هو نفس عدو أبيك عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ الذي أغواه بأكل الشجرة ليخرجه من جنة الخلد ولا يريد لأحد الرجوع إليها من ذريته لأنه علم أنه عنها مخذول ومنها محروم فكيف

---

(١) تيسر الكريم الرحمن (١/٥٨١).

سيرضىٰ أن يدخل أحد الجنة ويسعد وهو قد شقي في الدنيا والآخرة فلذلك أقسم بالله أنه سيغوي ذرية آدم أجمعين ثم علم أن من عباد الله الموفقين من لا يستطيع فقال: ﴿إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿٤٠﴾﴾ [الحجر:٤٠] وقال الله له ﴿ إِنَّ عِبَادِى ﴾ أي الموفقين المعصومين بعصمة التوفيق والمخلصين من خذلان الله: ﴿لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنٌ ﴾ ثم أخبره بمن يستطيع عليهم فقال: ﴿إِلَّا مَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْغَاوِينَ ﴿٤٢﴾﴾ [الحجر:٤٢] أي المخذولين المحرومين.

وهذه أدلة التحذير من صولاته وجولاته وخططه ومكره ووسائله وطرقه ومكائده ومزالقه فنسأل الله العصمة ونعوذ بالله من الفتنة.

❁ قال تعالىٰ: ﴿ لَّقَدْ أَضَلَّنِى عَنِ ٱلذِّكْرِ بَعْدَ إِذْ جَآءَنِى ۗ وَكَانَ ٱلشَّيْطَٰنُ لِلْإِنسَٰنِ خَذُولًا ﴿٢٩﴾﴾ [الفرقان:٢٩].

✍ **قال السعدي** رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «يزين له الباطل ويقبح له الحق، ويعده الأماني ثم يتخلىٰ عنه ويتبرأ منه كما قال لجميع أتباعه حين قضي الأمر»(١).

✍ **قال العلامة القرطبي** رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «والخذل الترك من الإعانة؛ ومنه خذلان إبليس للمشركين لما ظهر لهم في صورة سراقة بن مالك، فلما رأىٰ الملائكة تبرأ منهم. وكل من صد عن سبيل الله وأطيع في معصية الله فهو شيطان للإنسان، خذولا عند نزول العذاب والبلاء»(٢).

---

(١) تيسير الكريم الرحمن (١/ ٥٨١).

(٢) تفسير القرطبي (٢٦/ ١٣).

❁ وقال تعالىٰ: ﴿وَمَن يَعْشُ عَن ذِكْرِ ٱلرَّحْمَٰنِ نُقَيِّضْ لَهُۥ شَيْطَٰنًا فَهُوَ لَهُۥ قَرِينٌ ﴿٣٦﴾ وَإِنَّهُمْ لَيَصُدُّونَهُمْ عَنِ ٱلسَّبِيلِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُم مُّهْتَدُونَ ﴿٣٧﴾﴾ [الزخرف:٣٦-٣٧].

✍ **قال المفسر السعدي** رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «وقيض له الرحمن شيطانًا مريدًا، يقارنه ويصاحبه، ويعده ويمنيه، ويؤزُّه إلىٰ المعاصي أزًّا، بسبب تزيين الشيطان للباطل وتحسينه له، وإعراضهم عن الحق، فاجتمع هذا وهذا.

فإن قيل: فهل لهذا من عذر، من حيث إنه ظن أنه مهتد، وليس كذلك؟

قيل: لا عذر لهذا وأمثاله، الذين مصدر جهلهم الإعراض عن ذكر الله، مع تمكنهم علىٰ الاهتداء، فزهدوا في الهدىٰ مع القدرة عليه، ورغبوا في الباطل، فالذنب ذنبهم، والجرم جرمهم.

فهذه حالة هذا المعرض عن ذكر الله في الدنيا، مع قرينه، وهو الضلال والغي، وانقلاب الحقائق.

وأما حاله، إذا جاء ربه في الآخرة، فهو شر الأحوال، وهو: إظهار الندم والتحسر، والحزن الذي لا يجبر مصابه، والتبري من قرينه»(١).

✍ **وقال ابن كثير** رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «أي: يخذله عن الحق، ويصرفه عنه، ويستعمله في الباطل، ويدعوه إليه. هذا الذي تغافل عن الهدىٰ نقيض له من الشياطين من يضله، ويهديه إلىٰ صراط الجحيم. فإذا وافىٰ الله يوم القيامة يتبرم بالشيطان الذي وكل به»(٢).

---

(١) تيسير الكريم الرحمن (٧٦٦/ ١).

(٢) تفسير القرآن العظيم (١٠٨/ ٦) (٢٢٨/ ٦).

✍ **وقال ابن القيم** رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «ولما علم عدو الله إبليس أن المدار علىٰ القلب والاعتماد عليه، أجلب عليه بالوساوس، وأقبل بوجوه الشهوات إله، وزين له من الأقوال والأعمال ما يصده عن الطريق، وأمده من أسباب الغىٰ بما يقطعه عن أسباب التوفيق، ونصب له من المصايد والحبائل ما إن سلم من الوقوع فيها لم يسلم من أن يحصل له بها التعويق، فلا نجاة من مصائده ومكائده إلا بدوام الاستعانة بالله تعالىٰ، والتعريض لأسباب مرضاته، والتجاء القلب إليه، وإقباله عليه في حركاته وسكناته، والتحقق بذل العبودية الذي هو أولىٰ ما تلبس به الإنسان ليحصل له الدخول في ضمان ﴿إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَـٰنٌ﴾ [الحجر:٤٢]»(١).

✍ **وقال ابن الجوزي** رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «لا يزال الإنسان صريعًا تحت الشيطان حتىٰ يذكر الله ويتلو القرآن فحينئذٍ يستوي الإنسان قائمًا ويخر الشيطان صريعا فمن شاء أن يكون العدو عن لحاقه بطيئًا فليكن إلىٰ الذكر والتلاوة سريعًا استظهر بشرب ترياق القرآن علىٰ سم أفعىٰ الشيطان قبل أن تموت لسقياه»(٢).

✍ **وقال ابن القيم** رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «ومن كيد عدو الله إبليس أن يشم قلب العبد، فإن رأىٰ عنده قوة إقدام وعلو همة قلل عنده المأمور وأوهمه أنه لا يكفي، وأنه يحتاج معه إلىٰ مبالغة، وإن رأىٰ الغالب عنده الانكفاف والإحجام ثبطه عن المأمور وثقله عليه، حتىٰ يتركه أو بعضه، كما قال

---

(١) إغاثة اللهفان (٦/ ١).

(٢) التذكرة في الوعظ (١/ ١٥٢).

بعضهم: ما أمر الله بأمر إلا وللشيطان فيه نزغتان، إما إلىٰ إفراط وتقصير، وإما إلىٰ مجاوزة وغلو، ولا يبالي بأيهما ظفر، وقد اقتطع أكثر الناس إلا القليل في هذين الواديين، انتهىٰ»(١).

❁ وقال تعالىٰ: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّآ أَرْسَلْنَا ٱلشَّيَٰطِينَ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ تَؤُزُّهُمْ أَزًّا ﴿٨٣﴾﴾ [مريم:٨٣].

✍ **قال ابن كثير** رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «وقال قتادة: تزعجهم إزعاجا إلىٰ معاصي الله.

✍ **وقال سفيان الثوري**: تغريهم إغراء وتستعجلهم استعجالًا.

✍ **وقال السدي**: تطغيهم طغيانًا»(٢).

✍ **وقال السعدي** رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «وهذا من عقوبة الكافرين أنهم -لما لم يعتصموا بالله، ولم يتمسكوا بحبل الله، بل أشركوا به ووالوا أعداءه، من الشياطين- سلطهم عليهم، وقيضهم لهم، فجعلت الشياطين تؤزهم إلىٰ المعاصي أزا، وتزعجهم إلىٰ الكفر إزعاجا، فيوسوسون لهم، ويوحون إليهم، ويزينون لهم الباطل، ويقبحون لهم الحق، فيدخل حب الباطل في قلوبهم ويتشربها، فيسعىٰ فيه سعي المحق في حقه، فينصره بجهده ويحارب عنه، ويجاهد أهل الحق في سبيل الباطل، وهذا كله، جزاء له علىٰ توليه من وليه وتوليه لعدوه، جعل له عليه سلطان، وإلا فلو آمن بالله، وتوكل عليه، لم يكن له عليه سلطان»(٣).

---

(١) إغاثة اللهفان (١/ ١١٥).

(٢) تفسير القرآن العظيم (٢٦٢/ ٥).

(٣) تيسير الكريم الرحمن (٥٠٠/ ١).

✍ **وقال السعدي** رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «فيدفع الله عن المؤمنين المتوكلين عليه شر الشيطان ولا يبق له عليهم سبيل. ﴿إِنَّمَا سُلۡطَٰنُهُۥ﴾ [النحل:١٠٠] أي: تسلطه ﴿عَلَى ٱلَّذِينَ يَتَوَلَّوۡنَهُۥ﴾ أي: يجعلونه لهم وليًّا، وذلك بتخليهم عن ولاية الله، ودخولهم في طاعة الشيطان، وانضمامهم لحزبه، فهم الذين جعلوا له ولاية علىٰ أنفسهم، فأزَّهم إلىٰ المعاصي أزًّا وقادهم إلىٰ النار قودًا»(١).

✍ **وقال ابن تيمية** رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «الشيطان بمنزلة قاطع الطريق كلما أراد العبد السير إلىٰ الله تعالىٰ أراد قطع الطريق عليه»(٢).

✍ **وقال ابن القيم** رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «ما من طريق خير إلا والشيطان قاعد عليه يقطعه علىٰ السالك»(٣).

✍ **وقال ابن القيم** رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «تالله ما عدا عليك العدو إلا بعد أن تولىٰ عنك الولي فلا تظن أن الشيطان غلب ولكن الحافظ أعرض»(٤).

❁ وقال تعالىٰ: ﴿وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ ٱلشَّيۡطَٰنِ نَزۡغٞ فَٱسۡتَعِذۡ بِٱللَّهِۚ إِنَّهُۥ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٠٠﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوۡاْ إِذَا مَسَّهُمۡ طَٰٓئِفٞ مِّنَ ٱلشَّيۡطَٰنِ تَذَكَّرُواْ فَإِذَا هُم مُّبۡصِرُونَ ﴿٢٠١﴾﴾ [الأعراف:٢٠٠-٢٠١].

✍ **قال السعدي** رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «تحس منه بوسوسة، وتثبيط عن الخير، أو

---

(١) تيسير الكريم الرحمن (٤٤٩/ ١).
(٢) مجموع الفتاوىٰ (٢٢/ ٦٠٨).
(٣) إغاثة اللهفان (١/ ١٠٢).
(٤) الفوائد (٦٨/ ١).

حث علىٰ الشر، وإيعاز إليه، ولما كان العبد لا بد أن يغفل وينال منه الشيطان، الذي لا يزال مرابطا ينتظر غرته وغفلته، ذكر تعالىٰ علامة المتقين من الغاوين، وأن المتقي إذا أحس بذنب، ومسه طائف من الشيطان، فأذنب بفعل محرم أو ترك واجب - تذكر من أي باب أتي، ومن أي مدخل دخل الشيطان عليه، وتذكر ما أوجب الله عليه، وما عليه من لوازم الإيمان، فأبصر واستغفر الله تعالىٰ، واستدرك ما فرط منه بالتوبة النصوح والحسنات الكثيرة، فرد شيطانه خاسئًا حسيرًا، قد أفسد عليه كل ما أدركه منه»(١).

❁ وقال تعالىٰ: ﴿وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ ٱلشَّيۡطَٰنِ نَزۡغٞ﴾ [فصلت:٣٦].

«أي: أي وقت من الأوقات، أحسست بشيء من نزغات الشيطان، أي: من وساوسه وتزيينه للشر، وتكسيله عن الخير، وإصابة ببعض الذنوب، وإطاعة له ببعض ما يأمر به ﴿فَٱسۡتَعِذۡ بِٱللَّهِۖ﴾ أي: اسأله، مفتقرا إليه، أن يعيذك ويعصمك منه، ﴿إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡعَلِيمُ﴾ فإنه يسمع قولك وتضرعك، ويعلم حالك واضطرارك إلىٰ عصمته وحمايته»(٢).

مداخل الشيطان ووسائله في إغواء بني آدم:

(١) العين والفم:

✍ **قال ابن القيم** رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «وأكثر المعاصي إنما تولدها من فضول الكلام والنظر وهما أوسع مداخل الشيطان فإن جارحتيهما لا يملأن ولا

---

(١) تيسير الكريم الرحمن (٣١٣/ ١).

(٢) تيسير الكريم الرحمن (٧٥٠/ ١).

يسأمان»[١].

(٢) حالة العبد وغرائزه

✍ **قال ابن القيم** رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «أن الشيطان إنما يظفر بالإنسان غالبا عند السخط والشهوة فهناك يصطاده ولا سيما إذا استحكم سخطه فإنه يقول ما لا يرضي الرب ويفعل مالا يرضيه وينوي ما لا يرضيه»[٢].

(٣) خطوات الشيطان ليدخل على العبد منها

✍ **قال ابن القيم** رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «ولكنه ينحصر شره في ستة أجناس لا يزال بابن آدم حتىٰ ينال منه واحدا منها أو أكثر:

الشر الأول: شر الكفر والشرك ومعاداة الله ورسوله

فإذا ظفر بذلك من ابن آدم برد أنينه واستراح من تعبه معه وهو أول ما يريد من العبد فلا يزال به حتىٰ يناله منه فإذا نال ذلك صيره من جنده وعسكره واستنابه علىٰ أمثاله وأشكاله فصار من دعاة إبليس ونوابه فإذا يئس منه من ذلك وكان ممن سبق له الإسلام في بطن أمه نقله إلىٰ

المرتبة الثانية من الشر: وهي البدعة

وهي أحب إليه من الفسوق والمعاصي لأن ضررها في نفس الدين وهو ضرر متعد وهي ذنب لا يتاب منه وهي مخالفة لدعوة الرسل ودعا إلىٰ خلاف ما جاءوا به وهي باب الكفر والشرك فإذا نال منه البدعة وجعله من

---

(١) بدائع الفوائد (٢/ ٤٩٨).

(٢) مدارج السالكين (٢/ ٢٠٩).

أهلها بقي أيضًا نائبه وداعيا من دعائه فإن أعجزه من هذه المرتبة وكان العبد ممن سبقت له من الله موهبة السنة ومعاداة أهل البدع والضلال نقله إلىٰ

المرتبة الثالثة من الشر: وهي الكبائر

علىٰ اختلاف أنواعها فهو أشد حرصا علىٰ أن يوقعه فيها ولا سيما إن كان عالما متبوعا فهو حريص علىٰ ذلك لينفر الناس عنه ثم يشيع من ذنوبه ومعاصيه في الناس ويستنيب منهم من يشيعها ويذيعها تدينا وتقربا بزعمه إلىٰ الله تعالىٰ وهو نائب إبليس ولا يشعر فإن الذين يحبون أن تشيع الفاحشة في الذين آمنوا لهم عذاب أليم هذا إذا أحبوا إشاعتها وإذاعتها فكيف إذا تولوا هم إشاعتها وإذاعتها لا نصيحة منهم ولكن طاعة لإبليس ونيابة عنه كل ذلك لينفر الناس عنه وعن الانتفاع به وذنوب هذا ولو بلغت عنان السماء أهون عند الله من ذنوب هؤلاء فإنها ظلم منه لنفسه إذا استغفر الله وتاب إليه قبل الله توبته وبدل سيئاته حسنات وأما ذنوب أولئك فظلم للمؤمنين وتتبع لعورتهم وقصد لفضيحتهم والله سبحانه بالمرصاد لا تخفىٰ عليه كمائن الصدور ودسائس النفوس فإن عجز الشيطان عن هذه المرتبة نقله

المرتبة الرابعة وهي الصغائر:

التي إذا اجتمعت فربما أهلكت صاحبها كما قال النبي ﷺ: «**إياكم ومحقرات الذنوب فإن مثل ذلك مثل قوم نزلوا بفلاة من الأرض**» صحيح وذكر حديثا معناه أن كل واحد منهم جاء بعود حطب حتىٰ أوقدوا نارا عظيمة فطبخوا واشتووا ولا يزال يسهل عليه أمر الصغائر حتىٰ يستهين بها فيكون صاحب الكبيرة الخائف منها أحسن حالا منه فإن أعجزه العبد من

هذه المرتبة نقله إلىٰ:

المرتبة الخامسة: وهي إشغاله بالمباحات

التي لا ثواب فيها ولا عقاب بل عاقبتها فوت الثواب الذي ضاع عليه باشتغاله بها فإن أعجزه العبد من هذه المرتبة وكان حافظا لوقته شحيحا به يعلم مقدار أنفاسه وانقطاعها وما يقابلها من النعيم والعذاب نقله إلىٰ:

المرتبة السادسة: وهو أن يشغله بالعمل المفضول عما هو أفضل منه

ليزيح عنه الفضيلة ويفوته ثواب العمل الفاضل فيأمره بفعل الخير المفضول ويحضه عليه ويحسنه له إذا تضمن ترك ما هو أفضل وأعلىٰ منه وقل من يتنبه لهذا من الناس فإنه إذا رأىٰ فيه داعيا قويا ومحركا إلىٰ نوع من الطاعة لا يشك أنه طاعة وقربة فإنه لا يكاد يقول إن هذا الداعي من الشيطان فإن الشيطان لا يأمر بخير ويرىٰ أن هذا خير فيقول هذا الداعي من الله وهو معذور ولم يصل علمه إلىٰ أن الشيطان يأمر بسبعين بابا من أبواب الخير إما ليتوصل بها إلىٰ باب واحد من الشر وإما ليفوت بها خيرًا أعظم من تلك السبعين بابا وأجل وأفضل وهذا لا يتوصل إلىٰ معرفته إلا بنور من الله يقذفه في قلب العبد يكون سببه تجريد متابعة الرسول ﷺ وشدة عنايته بمراتب الأعمال عند الله وأحبها إليه وأرضاها له وأنفعها للعبد وأعمها نصيحة لله تعالىٰ ولرسوله ولكتابه ولعباده المؤمنين خاصتهم وعامتهم ولا يعرف هذا إلا من كان من ورثة الرسول ﷺ ونوابه في الأمة وخلفائه في الأرض وأكثر الخلق محجوبون عن ذلك فلا يخطر بقلوبهم والله تعالىٰ يمن بفضله علىٰ من يشاء من عباده فإن أعجزه العبد من هذه المراتب الست وأعيا عليه سلط

عليه حزبه من الإنس والجن بأنواع الأذىٰ والتكفير والتضليل والتبديع والتحذير منه وقصد إخماله وإطفائه ليشوش عليه قلبه ويشغل بحربه فكره وليمنع الناس من الانتفاع به فيبقىٰ سعيه في تسليط المبطلين من شياطين الإنس والجن عليه ولا يفتر ولا يني فحينئذ يلبس المؤمن لأمة الحرب ولا يضعها عنه إلىٰ الموت ومتىٰ وضعها أسر أو أصيب فلا يزال في جهاد حتىٰ يلقىٰ الله فتأمل هذا الفصل وتدبر موقعه وعظيم منفعته واجعله ميزانك تزن به الناس وتزن به الأعمال فإنه يطلعك علىٰ حقائق الوجود ومراتب الخلق والله المستعان وعليه التكلان ولو لم يكن في هذا التعليق إلا هذا الفصل لكان نافعا لمن تدبره ووعاه»(١).

✍ **وقال ابن القيم** رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «والشيطان. يريد من الإنسان الإسراف في أموره كلها فإنه إن رآه مائلا إلىٰ الرحمة زين له الرحمة حتىٰ لا يبغض ما أبغضه الله؛ ولا يغار لما يغار الله منه وإن رآه مائلا إلىٰ الشدة زين له الشدة في غير ذات الله حتىٰ يترك من الإحسان والبر واللين والصلة والرحمة ما يأمر به الله ورسوله ويتعدىٰ في الشدة فيزيد في الذم والبغض والعقاب علىٰ ما يحبه الله ورسوله: فهذا يترك ما أمر الله به من الرحمة والإحسان وهو مذموم مذنب في ذلك ويسرف فيما أمر الله به ورسوله من الشدة حتىٰ يتعدىٰ الحدود وهو من إسرافه في أمره. فالأول مذنب والثاني مسرف ﴿إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُسْرِفِينَ ﴿١٤١﴾﴾ [الأنعام:١٤١] فليقولا جميعًا: ﴿رَبَّنَا ٱغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا

---

(١) بدائع الفوائد (٢٦٠- ٢٦١-٢٦٢/ ٢).

وَإِسۡرَافَنَا فِيٓ أَمۡرِنَا وَثَبِّتۡ أَقۡدَامَنَا وَٱنصُرۡنَا عَلَى ٱلۡقَوۡمِ ٱلۡكَٰفِرِينَ ﴿١٤٧﴾ ﴾ [آل عمران:١٤٧]»(١).

✍ **وقال ابن القيم** رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «كل ذي لب يعلم أنه لا طريق للشيطان عليه إلا من ثلاث جهات:

أحدها: التزيد والإسراف: فيزيد علىٰ قدر الحاجة فتصير فضلة وهي حظ الشيطان ومدخله إلىٰ القلب وطريق الاحتراز من إعطاء النفس تمام مطلوبها من غذاء أو نوم أو لذة أو راحة فمتىٰ أغلقت هذا الباب حصل الأمان من دخول العدو منه **الثانية: الغفلة**: فإن الذاكر في حصن الذكر فمتىٰ غفل فتح باب الحصن فولجه العدو فيعسر عليه أو يصعب إخراجه **الثالثة**: تكلف ما لا يعنيه من جميع الأشياء»(٢).

✍ **وقال ابن القيم** رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «وما امر الله عَزَّوَجَلَّ بأمر إلا وللشيطان فيه نزغتان إما تقصير وتفريط وإما إفراط وغلو فلا يبالي بما ظفر من العبد من الخطيئتين فإنه يأتي إلىٰ قلب العبد فيستامه فإن وجد فيه فتورا وتوانيا وترخيصا اخذه من هذه الخطة فثبطه وأقعده وضربه بالكسل والتواني والفتور وفتح له باب التأويلات والرجاء وغير ذلك حتىٰ ربما ترك العبد المأمور جملة.

وإن وجد عنده حذرًا وجدًا وتشميرًا ونهضه وأيس أن يأخذه من هذا

---

(١) مجموع الفتاوىٰ (٢٩٢/ ١٥).

(٢) الفوائد (١٩١/ ١).

الباب أمره بالاجتهاد الزائد وسول له أن هذا لا يكفيك وهمتك فوق هذا وينبغي لك أن تزيد علىٰ العاملين وأن لا ترقد إذا رقدوا ولا تفطر إذا أفطروا وأن لا تفتر إذا فتروا وإذا غسل أحدهم يديه ووجهه ثلاث مرات فاغسل أنت سبعًا وإذا توضأ للصلاة فاغتسل أنت لها ونحو ذلك من الإفراط والتعدي فيحمله علىٰ الغلو والمجاوزة وتعدي الصراط المستقيم كما يحمل الأول علىٰ التقصير دونه وأن لا يقربه ومقصوده من الرجلين إخراجهما عن الصراط المستقيم هذا بأن لا يقربه ولا يدلو منه وهذا بأن يجاوزه ويتعداه وقد فتن بهذا أكثر الخلق ولا ينجي من ذلك إلا علم راسخ وإيمان وقوة علىٰ محاربته ولزوم الوسط والله المستعان»(١).

أنواع التخذيل عن الطاعات وحرمان المؤمن الحسنات

❁ **ومن أدلته** ما جاء عن سبرة بن أبي فاكه رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**إن الشيطان قعد لابن آدم بأطرقه، فقعد له بطريق الإسلام، فقال: تسلم وتذر دينك ودين آبائك وآباء أبيك؟! فعصاه فأسلم، ثم قعد له بطريق الهجرة، فقال: تهاجر وتدع أرضك وسماءك، وإنما مثل المهاجر كمثل الفرس في الطول؟! فعصاه فهاجر، ثم قعد له بطريق الجهاد، فقال: تجاهد فهو جهد النفس والمال، فتقاتل فتقتل، فتنكح المرأة، ويقسم المال؟! فعصاه فجاهد**». فقال رسول الله ﷺ: رَحِمَهُ ٱللَّهُ **فمن فعل ذلك كان حقًّا علىٰ الله** عَزَّوَجَلَّ **أن يدخله الجنة. ومن قتل كان حقًّا علىٰ الله أن يدخله الجنة. وإن غرق كان حقًّا علىٰ الله أن يدخله الجنة، أو وقصته دابته كان حقًّا علىٰ الله أن يدخله**

---

(١) الوابل الصيب (٢٦/ ١).

الجنة»(١).

❁ وعن ابن بريدة عن أبيه مرفوعًا: «**ما يخرج رجل صدقته حتىٰ يفك بها لحيي سبعين شيطانًا**»(٢).

❁ وعن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «**يعقد الشيطان علىٰ قافية رأس أحدكم إذا هو نام ثلاث عقد يضرب علىٰ كل عقدة عليك ليل طويل فارقد فإن استيقظ فذكر الله انحلت عقدة فإن توضأ انحلت عقدة فإن صلىٰ انحلت عقدة فأصبح نشيطًا طيب النفس وإلا أصبح خبيث النفس كسلان**»(٣).

❁ وعن ابن مسعود رضي الله عنه قال: ذُكر عند النبي ﷺ رجل نام ليلة حتىٰ

---

(١) قال الألباني في «السلسلة الصحيحة» ٦/ ١١٨٦: أخرجه البخاري في «التاريخ الكبير» (٢/ ٢/ ١٨٧ - ١٨٨)، والنسائي (٢/ ٥٨)، وابن حبان (٣٨٥/ ١٦٠١ - الموارد)، والبيهقي في «شعب الإيمان» (٤/ ٢١/ ٤٢٤٦)، وابن أبي شيبة في «المصنف» (٥/ ٢٩٣)، ومن طريقه الطبراني في «المعجم الكبير» (٧/ ١٣٨)، وأحمد (٣/ ٤٨٣)، وهذا إسناد جيد رجاله كلهم ثقات. وقال الشيخ الألباني: (صحيح) انظر حديث رقم: ١٦٥٢ في صحيح الجامع.

(٢) قال الألباني في «السلسلة الصحيحة» ٣/ ٢٦٤: رواه ابن خزيمة في «صحيحه» (١/ ٢٤٨/ ٢)، والحاكم (١/ ٤١٧)، وأحمد (٥/ ٣٥٠)، والطبراني في «الأوسط» (١/ ٩٠/ ١ - زوائد المعجمين) قال الشيخ الألباني: (صحيح).

(٣) رواه مالك والبخاري ومسلم وأبو داود والنسائي وابن ماجه «وعنده فيصبح نشيطًا طيب النفس قد أصاب خيرًا وإن لم يفعل أصبح كسلان خبيث النفس لم يصب خيرا» صحيح الترغيب (٦٤٧).

أصبح قال: «ذاك رجل بال الشيطان في أذنيه أو قال في أذنه»(١).

✍ **قال العلامة العثيمين** رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «الشعور بالرياء من الشيطان ليصد الإنسان عن طاعة الله عَزَّوَجَلَّ والشيطان أعاذنا الله وإياكم منه يشم من القلب فإن وجد منه قوة علىٰ الطاعة رماه بسهم الرياء وقال له: أنت مرائي، وإن رأىٰ منه معه ضعفا في الطاعة رماه بسهم التهاون والإعراض حتىٰ يدع العمل»(٢).

[١٦] تزكية الله لنفس عبده المؤمن وتسهيل التزكية عليه من أسباب التوفيق

تزكية النفس تهيؤها واستعدادها وتخليتها قبل تحليتها بعد بذل الأسباب التي سبق ذكرها للعمل والسير في الطريق إلىٰ الله وتعتزم علىٰ ترك أسباب الخذلان والبعد عما ينفر النفس عن العمل فإن النفس لابد من اتزان معها في المعاملة فإن لها إقبال وإدبار فكن حكيما وفقك الله في ترويضها وقيادتها لما تحب لها الوصول إليه فلا إفراط مخل ولا تفريط ممل

❁ **ومن أدلة هذا السبب** قال تعالىٰ: ﴿قَدۡ أَفۡلَحَ مَن زَكَّىٰهَا ۝٩﴾ [الشمس:٩].

✍ **قال العلامة السعدي** رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «أي: طهر نفسه من الذنوب، ونقاها من العيوب، ورقاها بطاعة الله، وعلاها بالعلم النافع والعمل الصالح»(٣).

---

(١) رواه البخاري ومسلم والنسائي وابن ماجه صحيح الترغيب والترهيب (رقم الحديث: ٦٤٤).

(٢) نور علىٰ الدرب (شريط رقم ٣٧٣).

(٣) تيسير الكريم الرحمن (٩٢٦/ ١).

✍ **وقال ابن كثير** رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «﴿فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَىٰهَا ۝٨﴾ [الشمس:٨] أي: خلقها سوية مستقيمة علىٰ الفطرة القويمة، كما قال تعالىٰ: ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا ۚ فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِي فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا ۚ لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِ ۚ﴾ [الروم:٣٠] وقال رسول الله ﷺ: «كل مولود يولد علىٰ الفطرة، فأبواه يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه، كما تولد البهيمة بهيمة جمعاء هل تحسون فيها من جدعاء؟». أخرجاه من رواية أبي هريرة(١).

❁ وفي «صحيح مسلم» من رواية عياض بن حمار المجاشعي، عن رسول الله ﷺ قال: «**يقول الله** عَزَّوَجَلَّ: **إني خلقت عبادي حنفاء فجاءتهم الشياطين فاجتالتهم عن دينهم**»(٢).

وقوله: ﴿فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَىٰهَا ۝٨﴾ [الشمس:٨] أي: فأرشدها إلىٰ فجورها وتقواها، أي: بين لها ذلك، وهداها إلىٰ ما قدر لها.

قال ابن عباس: ﴿فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَىٰهَا ۝٨﴾ [الشمس:٨] بين لها الخير والشر. وكذا قال مجاهد، وقتادة، والضحاك، والثوري.

يحتمل أن يكون المعنىٰ: قد أفلح من زكىٰ نفسه، أي: بطاعة الله -كما قال قتادة- وطهرها من الأخلاق الدنيئة والرذائل. ويروىٰ نحوه عن مجاهد، وعكرمة، وسعيد بن جبير. وكقوله: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن تَزَكَّىٰ ۝١٤ وَذَكَرَ ٱسْمَ رَبِّهِۦ فَصَلَّىٰ

---

(١) صحيح البخاري برقم (١٣٨٥)، و«صحيح مسلم» برقم (٢٦٥٨).

(٢) «صحيح مسلم» برقم (٢٨٦٥).

﴿١٥﴾ [الأعلى:١٤-١٥][(١)].

❁ يقول تعالىٰ: ﴿قَدۡ أَفۡلَحَ مَن تَزَكَّىٰ ١٤﴾ [الأعلى:١٤].

✍ **قال العلامة ابن كثير** رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «أي: طهر نفسه من الأخلاق الرذيلة، وتابع ما أنزل الله علىٰ رسوله، صلوات الله وسلامه عليه»[(٢)].

✍ **وقال السعدي** رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «قد فاز وربح من طهر نفسه ونقاها من الشرك والظلم ومساوئ الأخلاق»[(٣)].

❁ وقال تعالىٰ: ﴿أَلَمۡ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ يُزَكُّونَ أَنفُسَهُمۚ بَلِ ٱللَّهُ يُزَكِّي مَن يَشَآءُ وَلَا يُظۡلَمُونَ فَتِيلًا ٤٩﴾ [النساء:٤٩].

✍ **قال السعدي** رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «أي: بالإيمان والعمل الصالح بالتخلي عن الأخلاق الرذيلة، والتحلي بالصفات الجميلة»[(٤)].

✍ **قال سفيان بن عيينة وقتادة وغيرهما**: قد أفلح من زكىٰ نفسه بطاعة الله وصالح الأعمال[(٥)].

✍ **وقال أبو الفرج**: «معنىٰ زكاها: طهرها من الذنوب وأصلحها

---

(١) تفسير القرآن العظيم (٨/٤١١).

(٢) تفسير القرآن العظيم (٤٩٤٥).

(٣) تيسير الكريم الرحمن (١/٩٢٠).

(٤) تفسير القرآن العظيم (١/١٨٢).

(٥) رواه عبد الرزاق في تفسيره (٣/ ٤٣١)، وابن جرير في تفسيره (٢٤/ ٤٤٤)..

بالطاعة»[١].

✍ **وقيل**: قد أفلحت نفس زكَّاها الله، وقد خابت نفس دسَّاها الله. وهذا قول الفراء والزجاج[٢].

✍ **وقال الشيخ سعيد القحطاني** رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «وأسباب تزكية النفس ثلاثة:

(١) الإيمان والتوحيد.

(٢) المتابعة لرسول الله ﷺ.

(٣) الفرائض والواجبات والسنن

ثم قال: «وهذه هي الطريق الشرعي لتزكية النفس وليس كما تزعم الصوفية المنحرفة ابتي تهرب بالنفس عن واقع الناس وتتخلىٰ عن الواجبات والسنن وعن الشرائع والتكاليف زاعمة أن الخلوات والكهوف والمفازات والإغراق في أذكار بدعية هي الطريقة لتصفية النفس وتزكيتها من الرذائل إنها قد استغنت بمواجيدها وخزعبلاتها عن الكتاب والسنة فقد حصل الذوق والكشف والعلم اللدني وعبارة «حدثني قلبي عن ربي» مكان الانقياد والاتباع لأوامر الله والبعد عما نهىٰ الله ورسوله ﷺ»[٣].

❁ وعن زيد بن أرقم قال: لا أعلمكم إلا ما كان رسول الله ﷺ يعلمنا

---

(١) زاد المسير (٤/ ٤٥١)..

(٢) معاني القرآن للفراء (٣/ ٢٦٧)، ومعاني القرآن للزجاج (٥/ ٣٣٢).

(٣) تزكية النفس بتحقيق الشيخ سعيد القحطاني (١٦).

«**اللهم آت نفسي تقواها وزكها أنت خير من زكاها أنت وليها ومولاها**»(١).

وقوله: «وزكها أنت خير من زكاها»: أي طهرها. «وخير» هنا ليست للمفاضلة، لكن لإثبات أنه لا مزكىٰ لها سواه، كما قال بعد: «أنت وليها ومولاها»(٢).

✍ **وقال الصنعاني** رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «فالمراد أفلح من قبل تزكية الله له وهل لك إلىٰ قبول تزكية الله إياك بالإيمان فالرب فاعل التزكية والعبد مطاوع»(٣).

✍ **وقال المباركفوري** رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «قوله: «آت نفسي تقواها»؛ أي: ارزقها الاحتراز عما يضرها ويهلكها في الآخرة. «وزكها»؛ أي: طهرها عن الأفعال والأقوال والأخلاق الذميمة»(٤).

✍ **وقال المناوي** رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «(أنت خير من زكاها) أي من جعلها زاكية يعني لا مزكي لها إلا أنت فإنه تعالىٰ هو الذي يزكي النفوس فتصير زاكية أي عاملة بالطاعة فالله هو المزكي والعبد هو المتزكي قال الطيبي فإسناد التزكية إلىٰ النفس في الآية هو نسبة الكسب إلىٰ العبد لا خلق الفعل كما زعمه المعتزلة لأن الخبر به يقتضي المناسبة المشاركة بين كسب العبد وخلق القدرة فيه، قال الحراني والتزكية اكتساب الزكاة وهي نماء النفس بما هو لها

---

(١) وراه مسلم في صحيحه(٤٨٩٩)، وسنن النسائي (٥٤٥٨). انظر السلسلة الصحيحة (٤٠٠٥)، قال الشيخ الألباني: صحيح.

(٢) إكمال المعلم بفوائد مسلم (٨/ ٢٢٠).

(٣) التنوير شرح الجامع الصغير (٣/ ١٧٨).

(٤) المفاتيح شرح المصابيح (٣/ ٢٣٤).

وهو بمنزلة الغذاء للجسم (أنت وليها) التي يتولاها بالنعمة في الدارين (ومولاها) سيدها»(١).

❁ **ومنها كذلك** أيضًا قال تعالىٰ: ﴿فَقُلْ هَل لَّكَ إِلَىٰٓ أَن تَزَكَّىٰ ﴿١٨﴾ وَأَهْدِيَكَ إِلَىٰ رَبِّكَ فَتَخْشَىٰ ﴿١٩﴾﴾ [النازعات:١٨-١٩].

✍ **قال العلامة السعدي** رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «أي: هل لك في خصلة حميدة، ومحمدة جميلة، يتنافس فيها أولو الألباب، وهي أن تزكي نفسك وتطهرها من دنس الكفر والطغيان، إلىٰ الإيمان والعمل الصالح؟

﴿وَأَهْدِيَكَ إِلَىٰ رَبِّكَ﴾ أي: أدلك عليه، وأبين لك مواقع رضاه، من مواقع سخطه»(٢).

✍ **وقال القرطبي** رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «أي: وأرشدك إلىٰ طاعة ربك ﴿فَتَخْشَىٰ﴾ أي: تخافه وتتقيه»(٣).

✍ **وقال شيخ الإسلام** رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «وأصل الزكاة الزيادة في الخير. ومنه يقال: زكا الزرع (وزكا المال) إذا نما. ولن ينمو الخير إلا بترك الشر، كالزرع الذي لا يزكو حتىٰ يزال عنه الدغل، فكذلك النفس والأعمال لا تزكوا (حتىٰ يزال عنها ما يناقضها)، ولا يكون الرجل متزكيًا قد زكي إلا مع ترك الشر؛ (ومن لم يترك الشر لا يكون زاكيا البته فإن الشر) يدنس النفس ويدسيها.

---

(١) فيض القدير (١٩٤/ ٢).

(٢) تيسير الكريم الرحمن (٩٠٩/ ١).

(٣) تفسير القرطبي (٢٠١/ ١٩).

فالبر والتقوىٰ يبسط النفس ويشرح الصدر بحيث يجد الإنسان في نفسه أنه (اتسع وعظم) عما كان عليه قبل»[(١)].

✍ **وقال** رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «وذلك أن ترك السيئات هو من أعمال (النفس) فإنه (يؤمن) أن السيئات مذمومة ويكره فعلها ويجاهد نفسه إذا دعته إليها (إن كان مصدقا لكتاب ربه مؤمنا بما جاء عن نبيه ﷺ)، وهذا التصديق (والإيمان)، والكراهة وجهاد النفس أعمال تعملها النفس المزكاة فتزكو (النفس) بذلك أيضًا؛ بخلاف ما إذا عملت السيئات فإنها (تتدنس)، وتندس وتنقمع كالزرع إذا نبت معه الدغل[(٢)]»[(٣)].

✍ **وقال قتادة وابن عيينة** رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «قد أفلح من زكىٰ نفسه بطاعة الله وصالح الأعمال»[(٤)].

✍ **وقال شيخ الإسلام** رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «والتحقيق أن الآية تتناول كل ما يتزكىٰ به الإنسان من التوحيد والأعمال الصالحة. (كما قال موسىٰ لفرعون) ﴿هَل لَّكَ إِلَىٰٓ أَن تَزَكَّىٰ ١٨﴾ [النازعات:١٨]»[(٥)].

---

(١) تزكية النفس لابن تيمية(١٩/ ١).

(٢) الدغل: الشجر الملتف الذي يكمن أهل الفساد فيه.

(٣) تزكية النفس لابن تيمية (٢٣/ ١).

(٤) مختصر منهاج القاصدين (٤٢٧/ ١).

(٥) تزكية النفس لابن تيمية (٢٨/ ١).

[١٧] الانتفاع بالمواعظ والاتعاظ بالقرآن والسنة من أسباب التوفيق

فالعمل ناتج عن نية وعزيمة منبعثة من سماع الحق الداعي إليه والمرغب في نيل المطلوب الذي أُعدَّ عند الله من فضله ورحمته المترتب علىٰ العمل فما أسلم من أسلم إلا لما انتفع بما سمع ولا صلح صالح ولا طلب العلم طالب ولا عُرف بالعبادة والطاعة من عرف إلا لما سمعوا من قوارع القلوب ما يدفع النفوس إلىٰ الطاعة دفعا وساقهم إلىٰ الله مساقا طيبا وكذلك قل بالعكس لا ضل من ضل إلا من أقفل الله قلبه من أن يدخله الحق إليه وأصك الله سمعه من سماع الخير الذي ينتفع به.

✍ **قال العلامة السعدي** رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «أخبر تعالىٰ أنه يضرب للناس الأمثال، ويوضح لعباده في كتابه الحلال والحرام، لأجل أن يتفكروا في آياته ويتدبروها، فإن التفكر فيها يفتح للعبد خزائن العلم، ويبين له طرق الخير والشر، ويحثه علىٰ مكارم الأخلاق، ومحاسن الشيم، ويزجره عن مساوئ الأخلاق، فلا أنفع للعبد من التفكر في القرآن والتدبر لمعانيه»(١).

❁ **ومن أدلته من كتاب الله تعالىٰ** قوله تعالىٰ: ﴿وَلَوْ أَنَّا كَتَبْنَا عَلَيْهِمْ أَنِ ٱقْتُلُوٓاْ أَنفُسَكُمْ أَوِ ٱخْرُجُواْ مِن دِيَٰرِكُم مَّا فَعَلُوهُ إِلَّا قَلِيلٌ مِّنْهُمْ ۖ وَلَوْ أَنَّهُمْ فَعَلُواْ مَا يُوعَظُونَ بِهِۦ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ وَأَشَدَّ تَثْبِيتًا ﴿٦٦﴾ وَإِذًا لَّءَاتَيْنَٰهُم مِّن لَّدُنَّآ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿٦٧﴾ وَلَهَدَيْنَٰهُمْ صِرَٰطًا مُّسْتَقِيمًا ﴿٦٨﴾﴾ [النساء:٦٦-٦٨].

✍ **قال المفسر السعدي** رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «ثم أخبر أنهم لو فعلوا ما يوعظون به

---

(١) تيسير الكريم الرحمن (٨٥٣/ ١).

أي: ما وظف عليهم في كل وقت بحسبه، فبذلوا هممهم، ووفروا نفوسهم للقيام به وتكميله، ولم تطمح نفوسهم لما لم يصلوا إليه، ولم يكونوا بصدده، وهذا هو الذي ينبغي للعبد، أن ينظر إلىٰ الحالة التي يلزمه القيام بها فيكملها، ثم يتدرج شيئًا فشيئًا حتىٰ يصل إلىٰ ما قدر له من العلم والعمل في أمر الدين والدنيا، وهذا بخلاف من طمحت نفسه إلىٰ أمر لم يصل إليه ولم يؤمر به بعد، فإنه لا يكاد يصل إلىٰ ذلك بسبب تفريق الهمة، وحصول الكسل وعدم النشاط.

ثم رتب ما يحصل لهم علىٰ فعل ما يوعظون به، وهو أربعة أمور:

(أحدها) الخيرية في قوله: ﴿لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ﴾ [النساء:٦٦].

أي: لكانوا من الأخيار المتصفين بأوصافهم من أفعال الخير التي أمروا بها، أي: وانتفىٰ عنهم بذلك صفة الأشرار، لأن ثبوت الشيء يستلزم نفي ضده.

(الثاني) حصول التثبيت والثبات وزيادته، فإن الله يثبت الذين آمنوا بسبب ما قاموا به من الإيمان، الذي هو القيام بما وعظوا به، فيثبتهم في الحياة الدنيا عند ورود الفتن في الأوامر والنواهي والمصائب، فيحصل لهم ثبات يوفقون لفعل الأوامر وترك الزواجر التي تقتضي النفس فعلها، وعند حلول المصائب التي يكرهها العبد. فيوفق للتثبيت بالتوفيق للصبر أو للرضا أو للشكر. فينزل عليه معونة من الله للقيام بذلك، ويحصل له الثبات علىٰ الدين، عند الموت وفي القبر.

وأيضًا فإن العبد القائم بما أمر به، لا يزال يتمرن علىٰ الأوامر الشرعية

حتىٰ يألفها ويشتاق إليها وإلىٰ أمثالها، فيكون ذلك معونة له علىٰ الثبات علىٰ الطاعات.

(الثالث) قوله: ﴿وَإِذًا لَّآتَيۡنَٰهُم مِّن لَّدُنَّآ أَجۡرًا عَظِيمًا ٦٧﴾ [النساء:٦٧] أي: في العاجل والآجل الذي يكون للروح والقلب والبدن، ومن النعيم المقيم مما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر علىٰ قلب بشر.

(الرابع) الهداية إلىٰ صراط مستقيم. وهذا عموم بعد خصوص، لشرف الهداية إلىٰ الصراط المستقيم، من كونها متضمنة للعلم بالحق، ومحبته وإيثاره والعمل به، وتوقف السعادة والفلاح علىٰ ذلك، فمن هدي إلىٰ صراط مستقيم، فقد وفق لكل خير واندفع عنه كل شر وضير»(١).

❁ وقوله تعالىٰ: ﴿ٱلَّذِينَ يَسۡتَمِعُونَ ٱلۡقَوۡلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحۡسَنَهُۥٓۚ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَىٰهُمُ ٱللَّهُۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمۡ أُوْلُواْ ٱلۡأَلۡبَٰبِ ١٨﴾ [الزمر:١٨].

✍ **قال العلامة ابن كثير** رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «أي: المتصفون بهذه الصفة هم الذين هداهم الله في الدنيا والآخرة، أي: ذوو العقول الصحيحة، والفطر المستقيمة»(٢).

✍ **وقال السمعاني** رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «أي: أرشدهم الله إلىٰ الحق»(٣).

---

(١) تيسير الكريم الرحمن (١٨٥/ ١).
(٢) تفسير القرآن العظيم (٩٠/ ٧).
(٣) تفسير السمعاني (٤٦٤/ ٤).

✍ **وقال العلامة البيضاوي** رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «ذلك دلالة علىٰ أن الهداية تحصل بفعل الله وقبول النفس لها»(١).

«هم أصحاب العقول الصافية، السليمة من معارضة الوهم ومنازعة الهوىٰ، المستحقون للهداية، لا غيرهم. وفيه دليل علىٰ أن الهداية تحصل بفضل الله تعالىٰ»(٢).

وقال: «أي: أولئك المتصفون بتلك الصفات الجليلة هم الذين هداهم الله لما يرضاه، ووفقهم لنيل رضاه»(٣).

«وطوبىٰ لمن اتعظ بالموعظة الحسنة»(٤).

أي «وفقهم الله للرشاد وإصابة الصواب، لا الذين يعرضون عن سماع الحق، ويعبدون ما لا يضر، ولا ينفع»(٥).

❁ ومما ورد في ذكر هذا السبب من أحاديث النبي ﷺ ما جاء عن أبي موسىٰ عن النبي ﷺ قال: «**مثل ما بعثني الله به من الهدىٰ والعلم كمثل الغيث الكثير أصاب أرضا فكان منها نقية قبلت الماء فأنبتت الكلأ والعشب الكثير وكانت منها أجادب أمسكت الماء فنفع الله بها الناس فشربوا وسقوا**

---

(١) تفسير البيضاوي (٦٢/ ٥).
(٢) البحر المديد (٦٤/ ٥).
(٣) صفوة التفاسير (٦٨/ ٣).
(٤) روح البيان (١٤٨/ ٢).
(٥) تفسير القرطبي (٢٧٤/ ٢٤).

وزرعوا وأصابت منها طائفة أخرىٰ إنما هي قيعان لا تمسك ماء ولا تنبت كلأ فذلك مثل من فقه في دين الله ونفعه ما بعثني الله به فعلم وعلم ومثل من لم يرفع بذلك رأسا ولم يقبل هدىٰ الله الذي أرسلت به»(١).

✍ **قال القرطبي في شرح هذا الحديث:** «ضرب مثل لما جاء به النبي ﷺ من العلم والدين، ولمن جاءهم بذلك، فشبه ما جاء به بالمطر العام الذي يأتي الناس في حال إشرافهم علىٰ الهلاك يحييهم، ويغيثهم، ثم شبه السامعين له: بالأرض المختلفة؛ فمنهم: العالم العامل المعلم، فهذا بمنزلة الأرض الطيبة شربت، فانتفعت في نفسها، وأنبتت، فنفعت غيرها، ومنهم الجامع للعلم، الحافظ له، المستغرق لزمانه في جمعه ووعيه؛ غير أنه لم يتفرغ للعمل بنوافله، ولا ليتفقه فيما جمع، لكنه أداه لغيره كما سمعه، فهذا بمنزلة الأرض الصلبة التي يستقر فيها الماء فينتفع الناس بذلك الماء، فيشربون ويسقون، وهذا القسم هو الذي قال فيه النبي ﷺ: «**نضر الله امرأً سمع مني حديثًا فبلغه غيره، فرب حامل فقه إلىٰ من هو أفقه منه ورب حامل فقه ليس بفقيه**» لا يقال: فتشبيه هذا القسم بهذه الأرض التي أمسكت علىٰ غيرها، ولم تشرب في نفسها يقتضي ألا تكون عملت بما لزمها من العلم، ولا من الدين، ولم يقم بما وجب عليه من أمور الدين، فلا ينسب للعلماء ولا للمسلمين؛ لأنا نقول: القيام بالواجبات ليس خاصًّا بالعلماء، بل يستوي فيها العلماء وغيرهم. ومن لم يقم بواجبات علمه كان من الطائفة الثالثة التي لم تشرب، ولم تمسك؛ لأنه لما لم يعمل بما وجب عليه لم ينتفع بعلمه؛

---

(١) أخرجه البخاري رقم (٧٩)، ومسلم رقم (٢٢٨٢).

ولأنه عاص فلا يصلح للأخذ عنه. وقوله: «وأصاب طائفة أخرىٰ» هذا مثل للطائفة الثالثة التي بلغها الشرع فلم تؤمن، ولم تقبل وشبهها بالقيعان السبخة التي لا تقبل الماء في نفسها وتفسده علىٰ غيرها، فلا يكون منها إنبات ولا يحصل بما حصل فيها نفع و«القيعان» جمع قاع، وهو ما انخفض من الأرض، وهو المستنقع أيضًا، وهذا يعم ما يفسد فيه الماء، وما لا يفسد، لكن مقصود الحديث: ما يفسد فيه الماء.

وقوله: «سقوا ورعوا» يقال: سقىٰ وأسقىٰ بمعنىٰ واحد. وقيل: سقيته ناولته ما يشرب وأسقيته: جعلت له سقيا، ورعوا من الرعي، وقد رويته عن بعض المقيدين: زرعوا من الزرع، وكلاهما صحيح.

وقوله: «فذلك مثل من فقه في دين الله، ونفعه ما بعثني الله به فعلم وعلم» هذا مثال الطائفة الأولىٰ.

وقوله: «ومثل من لم يقبل هدىٰ الله الذي أرسلت به» مثال الطائفة الثالثة، وسكت عن الثانية إما لأنها قد دخلت في الأولىٰ بوجه؛ لأنها قد حصل منها نفع في الدين، وإما لأنه أخبر بالأهم فالأهم، وهما الطائفتان المتقابلتان: العليا، والسفلىٰ، والله تعالىٰ أعلم. اهـ»(١).

وصف الله الموفقين المنتفعين بالمواعظ والذكرى بأوصاف منها:

(١) وصفهم بالإيمان

❁ قال تعالىٰ: ﴿وَذَكِّرْ فَإِنَّ ٱلذِّكْرَىٰ تَنفَعُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۝٥٥﴾ [الذاريات:٥٥].

---

(١) المفهم (٦/ ٨٣ - ٨٤).

✍ **قال شيخ الإسلام** رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «والنفع نوعان: حصول النعمة، واندفاع النقمة. ونفس اندفاع النقمة نفع وإن لم يحصل معه نفع آخر، ونفس المنافع التي يخاف معها عذاب نفع، وكلاهما نفع. فالنفع تدخل فيه الثلاثة، والثلاثة تحصل بالذكرىٰ»(١).

✍ **قال العلامة السعدي** رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «والتذكير نوعان: تذكير بما لم يعرف تفصيله، مما عرف مجمله بالفطر والعقول فإن الله فطر العقول علىٰ محبة الخير وإيثاره، وكراهة الشر والزهد فيه، وشرعه موافق لذلك، فكل أمر ونهي من الشرع، فإنه من التذكير، وتمام التذكير، أن يذكر ما في المأمور به، من الخير والحسن والمصالح، وما في المنهي عنه، من المضار.

والنوع الثاني من التذكير: تذكير بما هو معلوم للمؤمنين، ولكن انسحبت عليه الغفلة والذهول، فيذكرون بذلك، ويكرر عليهم ليرسخ في أذهانهم، وينتبهوا ويعملوا بما تذكروه، من ذلك، وليحدث لهم نشاطا وهمة، توجب لهم الانتفاع والارتفاع.

وأخبر الله أن الذكرىٰ تنفع المؤمنين، لأن ما معهم من الإيمان والخشية والإنابة، واتباع رضوان الله، يوجب لهم أن تنفع فيهم الذكرىٰ، وتقع الموعظة منهم موقعها»(٢).

---

(١) التفسير من مجموع الفتاوىٰ (٢٢٧/ ٤).

(٢) تيسير الكريم الرحمن (١٨٥٨/ ١).

(٢) وصفهم الله بالخشية

❁ قال تعالىٰ: ﴿فَذَكِّرْ إِن نَّفَعَتِ ٱلذِّكْرَىٰ ۝٩ سَيَذَّكَّرُ مَن يَخْشَىٰ ۝١٠﴾ [الأعلى:١٠].

❁ وقال تعالىٰ: ﴿إِنَّمَا تُنذِرُ مَنِ ٱتَّبَعَ ٱلذِّكْرَ وَخَشِيَ ٱلرَّحْمَٰنَ بِٱلْغَيْبِ ۖ فَبَشِّرْهُ بِمَغْفِرَةٍ وَأَجْرٍ كَرِيمٍ ۝١١﴾ [يس:١١].

✍ **قال العلامة السعدي** رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «أي: ما دامت الذكرىٰ مقبولة، والموعظة مسموعة، سواء حصل من الذكرىٰ جميع المقصود أو بعضه.

ومفهوم الآية أنه إن لم تنفع الذكرىٰ، بأن كان التذكير يزيد في الشر، أو ينقص من الخير، لم تكن الذكرىٰ مأمورًا بها، بل منهيا عنها، فالذكرىٰ ينقسم الناس فيها قسمين: منتفعون وغير منتفعين.

فأما المنتفعون، فقد ذكرهم بقوله: ﴿سَيَذَّكَّرُ مَن يَخْشَىٰ﴾ الله تعالىٰ، فإن خشية الله تعالىٰ، وعلمه بأن سيجازيه علىٰ أعماله توجب للعبد الانكفاف عن المعاصي والسعي في الخيرات»(١).

(٣) وصفهم الله بحياة القلوب

❁ قال تعالىٰ: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى ٱلسَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ ۝٣٧﴾ [ق:٣٧].

✍ **قال العلامة السعدي** رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «أي: قلب عظيم حي، ذكي، زكي،

---

(١) تيسير الكريم الرحمن (٩٢٠/ ١).

فهذا إذا ورد عليه شيء من آيات الله، تذكر بها، وانتفع، فارتفع وكذلك من ألقىٰ سمعه إلىٰ آيات الله، واستمعها، استماعًا يسترشد به، وقلبه ﴿شَهِيدٌ﴾ أي: حاضر، فهذا له أيضًا ذكرىٰ وموعظة، وشفاء وهدىٰ.

وأما المعرض، الذي لم يلق سمعه إلىٰ الآيات، فهذا لا تفيده شيئًا، لأنه لا قبول عنده، ولا تقتضي حكمة الله هداية من هذا وصفه ونعته»(١).

(٤) وصفهم الله بالإيمان بالغيب وإقام الصلاة

✍ **قال العلامة السعدي** رَحِمَهُ ٱللَّهُ: ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ۚ وَإِن تَدْعُ مُثْقَلَةٌ إِلَىٰ حِمْلِهَا لَا يُحْمَلْ مِنْهُ شَيْءٌ وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ ۗ إِنَّمَا تُنذِرُ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِٱلْغَيْبِ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ ۚ وَمَن تَزَكَّىٰ فَإِنَّمَا يَتَزَكَّىٰ لِنَفْسِهِۦ ۚ وَإِلَى ٱللَّهِ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٨﴾﴾ [فاطر:١٨].

❁ قال الله تعالىٰ: أي: هؤلاء الذين يقبلون النذارة وينتفعون بها، أهل الخشية لله بالغيب، أي: الذين يخشونه في حال السر والعلانية، والمشهد والمغيب، وأهل إقامة الصلاة، بحدودها وشروطها وأركانها وواجباتها وخشوعها، لأن الخشية لله تستدعي من العبد العمل بما يخشىٰ من تضييعه العقاب، والهرب مما يخشىٰ من ارتكابه - العذاب، والصلاة تدعو إلىٰ الخير، وتنهىٰ عن الفحشاء والمنكر»(٢).

---

(١) تيسير الكريم الرحمن (٨٠٧/ ١).

(٢) تيسير الكريم الرحمن (٦٨٧/ ١).

(٥) وصفهم بالإيمان بالآخرة

❁ قال تعالىٰ: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّمَنْ خَافَ عَذَابَ ٱلْآخِرَةِ ۚ ذَٰلِكَ يَوْمٌ مَّجْمُوعٌ لَّهُ ٱلنَّاسُ وَذَٰلِكَ يَوْمٌ مَّشْهُودٌ ﴿١٠٣﴾﴾ [هود:١٠٣]، وقال تعالىٰ: ﴿إِنَّمَآ أَنتَ مُنذِرُ مَن يَخْشَىٰهَا ﴿٤٥﴾﴾ [النازعات:٤٥].

✍ **قال العلامة السعدي** رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «أي: إنما نذارتك نفعها لمن يخشىٰ مجيء الساعة، ويخاف الوقوف بين يديه، فهم الذين لا يهمهم سوىٰ الاستعداد لها والعمل لأجلها. وأما من لا يؤمن بها، فلا يبالي به ولا بتعنته، لأنه تعنت مبني علىٰ العناد والتكذيب، وإذا وصل إلىٰ هذه الحال، كان الإجابة عنه عبثا، ينزه الحكيم عنه»(١).

(٦) وصفهم الله برقة القلوب

❁ قال تعالىٰ: ﴿ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ ٱلْحَدِيثِ كِتَٰبًا مُّتَشَٰبِهًا مَّثَانِيَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ هُدَى ٱللَّهِ يَهْدِي بِهِۦ مَن يَشَآءُ ۚ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ ﴿٢٣﴾﴾ [الزمر:٢٣].

✍ **قال العلامة السعدي** رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «وهكذا ينبغي للقارئ للقرآن، المتدبر لمعانيه، أن لا يدع التدبر في جميع المواضع منه، فإنه يحصل له بسبب ذلك خير كثير، ونفع غزير.

ولما كان القرآن العظيم بهذه الجلالة والعظمة، أثر في قلوب أولي

---

(١) تيسير الكريم الرحمن (٢٠٧٢/ ١).

الألباب المهتدين، فلهذا قال تعالىٰ: ﴿تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ﴾ [الزمر:٢٣] لما فيه من التخويف والترهيب المزعج، ﴿ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ﴾ [الزمر:٢٣] أي: عند ذكر الرجاء والترغيب، فهو تارة يرغبهم لعمل الخير، وتارة يرهبهم من عمل الشر.

﴿ذَٰلِكَ﴾ الذي ذكره الله من تأثير القرآن فيهم ﴿هُدَى ٱللَّهِ﴾ أي: هداية منه لعباده، وهو من جملة فضله وإحسانه عليهم، ﴿يَهْدِى بِهِۦ﴾ أي: بسبب ذلك ﴿مَن يَشَآءُ﴾ من عباده. ويحتمل أن المراد بقوله: ﴿ذَٰلِكَ﴾ أي: القرآن الذي وصفناه لكم.

﴿هُدَى ٱللَّهِ﴾ الذي لا طريق يوصل إلىٰ الله إلا منه ﴿يَهْدِى بِهِۦ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ﴾ ممن حسن قصده، كما قال تعالىٰ: ﴿يَهْدِى بِهِ ٱللَّهُ مَنِ ٱتَّبَعَ رِضْوَٰنَهُۥ سُبُلَ ٱلسَّلَٰمِ﴾ [المائدة:١٦].

﴿وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ﴾ لأنه لا طريق يوصل إليه إلا توفيقه والتوفيق للإقبال علىٰ كتابه، فإذا لم يحصل هذا، فلا سبيل إلىٰ الهدىٰ، وما هو إلا الضلال المبين والشقاء»(١).

✍ **قال العلامة ابن القيم** رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «وإنما ينتفع بالعظة بعد حصول ثلاثة أشياء:

---

(١) تيسير الكريم الرحمن (١٦٣٣/ ١).

شدة الافتقار إليها، والعمىٰ عن عيب الواعظ، وتذكر الوعد والوعيد:

(١) إنما يشتد افتقار العبد إلىٰ العظة وهي الترغيب والترهيب إذا ضعفت إنابته وتذكره وإلا فمتىٰ قويت إنابته وتذكره: لم تشتد حاجته إلىٰ التذكير والترغيب والترهيب ولكن تكون الحاجة منه شديدة إلىٰ معرفة الأمر النهي والعظة يراد بها أمران: الأمر والنهي المقرونان بالرغبة والرهبة.

ونفس الرغبة والرهبة فالمنيب المتذكر: شديد الحاجة إلىٰ الأمر والنهي والمعرض الغافل شديد الحاجة إلىٰ الترغيب والترهيب والمعارض المتكبر: شديد الحاجة إلىٰ المجادلة.

(٢) وأما العمىٰ عن عيب الواعظ: فإنه إذا اشتغل به حرم الانتفاع بموعظته لأن النفوس مجبولة علىٰ عدم الانتفاع بكلام من لا يعمل بعلمه ولا ينتفع به وهذا بمنزلة من يصف له الطبيب دواء لمرض به مثله والطبيب معرض عنه غير ملتفت إليه.

فالعمىٰ عن عيب الواعظ: من شروط تمام الانتفاع بموعظته.

(٣) وأما تذكر الوعد والوعيد: فإن ذلك يوجب خشيته والحذر منه ولا تنفع الموعظة إلا لمن آمن به وخافه ورجاه.

❁ قال الله تعالىٰ: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّمَنْ خَافَ عَذَابَ ٱلْآخِرَةِ﴾ [هود:١٠٣].

❁ وقال تعالىٰ: ﴿سَيَذَّكَّرُ مَن يَخْشَىٰ ﴿١٠﴾﴾ [الأعلى:١٠].

❁ وقال: ﴿إِنَّمَآ أَنتَ مُنذِرُ مَن يَخْشَىٰهَا ﴿٤٥﴾﴾ [النازعات:٤٥].

أصرح من ذلك قوله تعالىٰ: ﴿فَذَكِّرْ بِٱلْقُرْءَانِ مَن يَخَافُ وَعِيدِ ﴿٤٥﴾﴾ [ق:٤٥] بالوعد والوعيد وذكره: شرط في الانتفاع بالعظات والآيات والعبر يستحيل حصوله بدونه»(١).

[١٨] من أسباب التوفيق الصلاة

ذكر الله سبحانه وتعالىٰ أن الصلاة مما يستعان به علىٰ الشدائد وتحمل المشاق وأنها سبب من أسباب التيسير.

❁ قال تعالىٰ: ﴿وَٱسْتَعِينُواْ بِٱلصَّبْرِ وَٱلصَّلَوٰةِ ۚ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى ٱلْخَٰشِعِينَ﴾ [البقرة:٤٥].

❁ وقال تعالىٰ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱسْتَعِينُواْ بِٱلصَّبْرِ وَٱلصَّلَوٰةِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٥٣﴾﴾ [البقرة:١٥٣].

✍ **قال ابن كثير** رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «فإن الصلاة من أكبر العون علىٰ الثبات في الأمر»(٢).

✍ **وقال** رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «وبين تعالىٰ أن أجود ما يستعان به علىٰ تحمل المصائب الصبر والصلاة»(٣).

❁ قال تعالىٰ: ﴿وَٱلَّذِينَ صَبَرُواْ ٱبْتِغَآءَ وَجْهِ رَبِّهِمْ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ [الرعد:٢٢].

---

(١) مدارج السالكين (١/ ٤٤٨).
(٢) تفسير القرآن العظيم (١/ ٢١٥).
(٣) تفسير القرآن العظيم (١/ ٤٤٦).

✍ **وقَالَ الإِمَامُ ابن القَيِّمِ** رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «وهذان هما العونان علىٰ مصالح الدنيا والآخرة وهما الصبر والصلاة»(١).

✍ **وقال ابن القيم** رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «الصلاة أكبر العون علىٰ تحصيل مصالح الدنيا والآخرة»(٢).

✍ **وقال العلامة القرطبي في «تفسيره»**: «خص الصلاة بالذكر من بين سائر العبادات تنويها بذكرها، وكان عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ إذا حزبه أمر فزع إلىٰ الصلاة»(٣).

✍ **وقال ابن القيم** رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «فإن حضور العبد في الصلاة وخشوعه فيها وتكميله لها واستفراغه وسعة في إقامتها وإتمامها علىٰ قدر رغبته في الله تعالىٰ.

✍ **قال الإمام أحمد في رواية مهنا بن يحيىٰ**: إنما حظهم من الإسلام علىٰ قدر حظهم من الصلاة ورغبتهم في الإسلام علىٰ قدر رغبتهم في الصلاة فاعرف نفسك يا عبد الله واحذر أن تلقىٰ الله عَزَّوَجَلَّ ولا قدر للإسلام عندك. فإن قدر الإسلام في قلبك كقدر الصلاة في قلبك»(٤).

السبب كون الصلاة سبب للتوفيق لأنها عمود الإسلام وأعظم أركانه بعد

---

(١) بدائع التفسير (٢/ ٧٨).
(٢) زاد المعاد (٤/ ٢٠٩).
(٣) تفسير القرطبي (١/ ٣٧١).
(٤) الصلاة وحكم تاركها (١/ ١٤٠).

الشهادتين فمن قويت صلته بالله في صلاته لاشك أنه سيدفعه ذلك للإقبال علىٰ طاعة ربه وتمنعه الصلاة وتنهاه عن معصية الله؛ لقوله تعالىٰ: ﴿وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَۖ إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ﴾ [العنكبوت:٤٥].

✍ **وقال ابن القيم** رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «وقد كان عمر بن الخطاب يكتب إلىٰ الآفاق إن أهم أموركم عندي الصلاة فمن حفظها حفظ دينه ومن ضيعها فهو لما سواها أضيع ولاحظ في الإسلام لمن ترك الصلاة»(١).

✍ **قال**: «فكل مستخف بالصلاة مستهين بها فهو مستخف بالإسلام مستهين به وإنما حظهم من الإسلام علىٰ قدر حظهم من الصلاة ورغبتهم في الإسلام علىٰ القادر رغبتهم في الصلاة فاعرف نفسك يا عبد الله واحذر أن تلقي الله ولا قدر للإسلام عندك فإن قدر الإسلام في قلبك كقدر الصلاة في قلبك.

وقد جاء الحديث عن النبي ﷺ أنه قال: «الصلاة عمود الدين» المقاصد الحسنة رقم ألست تعلم أن الفسطاط إذا سقط عموده سقط الفسطاط ولم ينتفع بالطنب ولا بالأوتاد وإذا قام عمود الفسطاط انتفعت بالطنب والأوتاد وكذلك الصلاة من الإسلام.

وجاء في الحديث «**إن أول ما يسأل عنه العبد يوم القيامة من عمله صلاته فإن تقبلت منه صلاته تقبل منه سائر عمله وإن ردت عليه صلاته رد عليه سائر عمله**» مجمع الزوائد فصلاتنا آخر ديننا وهي أول ما نسأل عنه غدا من

---

(١) رواه البيهقي في سننه (٣/ ٢٤٧).

أعمالنا يوم القيامة فليس بعد ذهاب الصلاة إسلام ولا دين إذا صارت الصلاة آخر ما يذهب من الإسلام هذا كله كلام أحمد. والصلاة أول فروض الإسلام وهي آخر ما يفقد من الدين فهي أول الإسلام وآخره فإذا ذهب أوله وآخره فقد ذهب جميعه وكل شيء ذهب أوله وآخره فقد ذهب جميعه. قال الإمام أحمد كل شيء يذهب آخره فقد ذهب جميعه، فإذا ذهبت صلاة المرء ذهب دينه»(١).

✍ **وقال ابن القيم** رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «وأما الصلاة.. فشأنها في تفريح القلب وتقويته، وشرحه وابتهاجه ولذته أكبر شأن، وفيها من اتصال القلب والروح بالله، وقربه والتنعم بذكره، والابتهاج بمناجاته، والوقوف بين يديه، واستعمال جميع البدن وقواه وآلاته في عبوديته، وإعطاء كل عضو حظه منها، واشتغاله عن التعلق بالخلق وملابستهم ومحاوراتهم، وانجذاب قوىٰ قلبه وجوارحه إلىٰ ربه وفاطره، وراحته من عدوه حالة الصلاة ما صارت به من أكبر الأدوية والمفرحات والأغذية التي لا تلائم إلا القلوب الصحيحة. وأما القلوب العليلة، فهي كالأبدان لا تناسبها إلا الأغذية الفاضلة.

فالصلاة من أكبر العون علىٰ تحصيل مصالح الدنيا والآخرة، ودفع مفاسد الدنيا والآخرة، وهي منهاة عن الإثم، ودافعة لأدواء القلوب، ومطردة للداء عن الجسد، ومنورة للقلب، ومبيضة للوجه، ومنشطة للجوارح والنفس، وجالبة للرزق، ودافعة للظلم، وناصرة للمظلوم، وقامعة لأخلاط الشهوات، وحافظة للنعمة، ودافعة للنقمة، ومنزلة للرحمة، وكاشفة للغمة،

---

(١) الصلاة وحكم تاركها (٣٤/ ١).

ونافعة من كثير من أوجاع البطن»(١).

✍ **وقال ابن القيم** رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «فما استدفعت شرور الدنيا والآخرة واستجلبت مصالحهما بمثل الصلاة وسر ذلك أن الصلاة بالله عَزَّوَجَلَّ وعلىٰ قدر صلة العبد بربه عَزَّوَجَلَّ تفتح عليه من الخيرات أبوابها وتقطع عنه من الشرور أسبابها وتفيض عليه مواد التوفيق من ربه عَزَّوَجَلَّ والعافية والصحة والغنيمة والغنىٰ والراحة والنعيم والأفراح والمسرات كلها محضرة لديه ومسارعة إليه صبر الصبر نصف الايمان فإنه ماهية مركبة من صبر وشكر»(٢).

✍ **قال العلامة ابن كثير** رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «يقول تعالىٰ مخبراً عن الإنسان وما هو مجبول عليه من الأخلاق الدنيئة: ﴿إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ خُلِقَ هَلُوعًا ﴿١٩﴾﴾ [المعارج:١٩]، ثم قال: ﴿إِلَّا ٱلْمُصَلِّينَ ﴿٢٢﴾﴾ [المعارج:٢٢] أي: الإنسان من حيث هو متصف بصفات الذم إلا من عصمه الله ووفقه، وهداه إلىٰ الخير ويسر له أسبابه، وهم المصلون ﴿ٱلَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ دَآئِمُونَ ﴿٢٣﴾﴾ [المعارج:٢٣] قيل: معناه يحافظون علىٰ أوقاتهم وواجباتهم. قاله ابن مسعود، ومسروق، وإبراهيم النخعي»(٣).

✍ **قال يونس بن عبيد** رَحِمَهُ ٱللَّهُ قال: «خصلتان إذا صلحتا من العبد،

---

(١) الطب النبوي (١/ ١٧٣).

(٢) الطب النبوي (١/ ٢٥٧).

(٣) تفسير القرآن العظيم (٨/ ٢٢٠).

صلح ما سواهما: صلاته ولسانه»(١).

(١٦) من أسباب التوفيق أن يحبب الله الطاعة إلى العبد المؤمن ويبغض إليه المعصية

❁ قال تعالىٰ: ﴿وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ فِيكُمۡ رَسُولَ ٱللَّهِۚ لَوۡ يُطِيعُكُمۡ فِي كَثِيرٖ مِّنَ ٱلۡأَمۡرِ لَعَنِتُّمۡ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ حَبَّبَ إِلَيۡكُمُ ٱلۡإِيمَٰنَ وَزَيَّنَهُۥ فِي قُلُوبِكُمۡ وَكَرَّهَ إِلَيۡكُمُ ٱلۡكُفۡرَ وَٱلۡفُسُوقَ وَٱلۡعِصۡيَانَۚ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلرَّٰشِدُونَ ٧﴾ [الحجرات:٧].

✍ **قال ابن القيم** رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «يخاطب الله جل وعلا عباده المؤمنين، فيقول: لولا توفيقي لكم لما أذعنت نفوسكم للإيمان، فلم يكن الإيمان بمشورتكم وتوفيق أنفسكم، ولكني حببته إليكم وزينته في قلوبكم، وكرهت إليكم ضده الكفر والفسوق»(٢).

✍ **وقال أيضًا** رَحِمَهُ ٱللَّهُ «والتوفيق إرادة الله من نفسه أن يفعل بعبده ما يصلح به العبد، بأن يجعله قادرًا علىٰ فعل ما يرضيه، مريدًا له، محبًّا له، مؤثرًا له علىٰ غيره، ويبغض إليه ما يسخطه، ويكرهه إليه، وهذا مجرد فعله، والعبد محل له، قال تعالىٰ: ﴿وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ حَبَّبَ إِلَيۡكُمُ ٱلۡإِيمَٰنَ وَزَيَّنَهُۥ فِي قُلُوبِكُمۡ وَكَرَّهَ إِلَيۡكُمُ ٱلۡكُفۡرَ وَٱلۡفُسُوقَ وَٱلۡعِصۡيَانَۚ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلرَّٰشِدُونَ ٧ فَضۡلٗا مِّنَ ٱللَّهِ وَنِعۡمَةٗۚ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٞ ٨﴾ [الحجرات:٧-٨].

فهو سبحانه عليم بمن يصلح لهذا الفضل ومن لا يصلح له، حكيم

---

(١) سير أعلام النبلاء (٦/ ٢٩٣).

(٢) «مدارج السالكين» (١/ ٤٤٧).

يضعه في مواضعه وعند أهله، لا يمنعه أهله، ولا يضعه عند غير أهله»(١).

فإذا حبَّب اللهُ الطاعةَ إلىٰ عبده وفعلها أتت الحسنة بأختها وكثر خيره وزادت حسناته وقلت سيئاته قال

✍ **قال بعض السلف**: إن من عقوبة السيئة السيئة بعدها، وإن من ثواب الحسنة الحسنة بعدها، فالعبد إذا عمل حسنة قالت أخرىٰ إلىٰ جانبها: اعملني أيضًا، فإذا عملها قالت الثانية كذلك، وهلم جرّا، فتضاعف الربح وتزايدت الحسنات. وكذلك جانب السيئات أيضًا، حتىٰ تصير الطاعات والمعاصي هيئات راسخة وصفات لازمة وملكات ثابتة. فلو عطل المحسن الطاعة لضاقت عليه نفسه، وضاقت عليه الأرض بما رحبت، وأحس من نفسه بأنه كالحوت إذا فارق الماء، حتىٰ يعاودها، فتسكن نفسه، وتقر عينه»(٢).

✍ **قال العلامة ابن رجب** رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «ثواب الحسنة الحسنة بعدها».

وإلىٰ هذا إشارة بقوله تعالىٰ: ﴿ وَيَزِيدُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ٱهۡتَدَوۡاْ هُدٗىۗ ﴾ [مريم:٧٦].

---

(١) «مدارج السالكين» (١/ ٤١٥).

(٢) ذكره المؤلف في «طريق الهجرتين» (٤٨٦)، «الداء والدواء» ١٣٩ / ١()، وضمنه كلامه في «المدارج» (١/ ١٨٤)، و«الفوائد» (٣٥). ونسبه شيخ الإسلام إلىٰ سعيد بن جبير. «مجموع الفتاوىٰ» (١٠/ ١١)، وانظر (١٥/ ٢٤٦)، ل(١٨/ ١٧٧).

وقوله: ﴿ وَٱلَّذِينَ ٱهۡتَدَوۡاْ زَادَهُمۡ هُدٗى وَءَاتَىٰهُمۡ تَقۡوَىٰهُمۡ ١٧ ﴾ [محمد:١٧](١).

✍ **قال العلامة السعدي** رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «والله تعالىٰ يحبب إليكم الإيمان، ويزينه في قلوبكم، بما أودع الله في قلوبكم من محبة الحق وإيثاره، وبما ينصب علىٰ الحق من الشواهد، والأدلة الدالة علىٰ صحته، وقبول القلوب والفطر له، وبما يفعله تعالىٰ بكم، من توفيقه للإنابة إليه، ويكره إليكم الكفر والفسوق، أي: الذنوب الكبار، والعصيان: هي ما دون ذلك من الذنوب بما أودع في قلوبكم من كراهة الشر، وعدم إرادة فعله، وبما نصبه من الأدلة والشواهد علىٰ فساده، وعدم قبول الفطر له، وبما يجعله الله من الكراهة في القلوب له ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ ﴾ أي: الذين زين الله الإيمان في قلوبهم، وحببه إليهم، وكره إليهم الكفر والفسوق والعصيان ﴿هُمُ ٱلرَّٰشِدُونَ ﴾ أي: الذين صلحت علومهم وأعمالهم، واستقاموا علىٰ الدين القويم، والصراط المستقيم»(٢).

✍ **قال القرطبي** «أي حسنه إليكم حتىٰ اخترتموه. وهم الذين وفقهم الله فحبب إليهم الإيمان وكره إليهم الكفر أي قبحه عندهم والراشدون أهل الرشد الاستقامة علىٰ طريق الحق مع تصلب فيه»(٣).

❁ عن ابن رفاعة الزرقي، عن أبيه قال: لما كان يوم أحد وانكفأ

---

(١) «جامع العلوم والحكم» ١١١٨/ ٣().

(٢) تيسير الكريم الرحمن (١/ ٧٦٥).

(٣) تفسير القرطبي (١٦/ ٣١٥).

المشركون، قال رسول الله ﷺ: «**استووا حتىٰ أثني علىٰ ربي عَزَّوَجَلَّ**» فصاروا خلفه صفوفا، فقال: «**اللهم لك الحمد كله. اللهم لا قابض لما بسطت، ولا باسط لما قبضت، ولا هادي لمن أضللت، ولا مضل لمن هديت. ولا معطي لما منعت، ولا مانع لما أعطيت. ولا مقرب لما باعدت، ولا مباعد لما قربت. اللهم ابسط علينا من بركاتك ورحمتك وفضلك ورزقك. اللهم، إني أسألك النعيم المقيم الذي لا يحول ولا يزول. اللهم إني أسألك النعيم يوم العيلة، والأمن يوم الخوف. اللهم إني عائذ بك من شر ما أعطيتنا، ومن شر ما منعتنا. اللهم حبب إلينا الإيمان وزينه في قلوبنا، وكره إلينا الكفر والفسوق والعصيان، واجعلنا من الراشدين**»(١).

✍ **قَالَ الإِمَامُ ابن رجَب** رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «فمَن أرادَ الله به خَيْرًا حَبب إِلَيْه الإِيمَان وزَيَّنه في قَلْبه وكَره إِلَيْه الكُفر والفسُوقَ والعِصْيَان فصَار مِن الراشِدِين ومَن أرادَ به شَرًّا خَلَّىٰ بيْنه وبيْن نفسِه فأتبعَه الشَّيْطَان فحَبب إِلَيْه الكُفر والفسُوقَ والعِصْيَان فكَان مِن الغَاوين»(٢).

✍ **قال ابن القيم** رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «فتحبيبه سبحانه الإيمان إلىٰ عباده المؤمنين هو إلقاء محبته في قلوبهم وهذا لا يقدر عليه سواه وأما تحبيب العبد الشيء إلىٰ غيره فإنما هو بتزيينه وذكر أوصافه وما يدعو إلىٰ محبته فأخبر سبحانه أنه جعل في قلوب عباده المؤمنين الأمرين حبه وحسنه الداعي إلىٰ حبه

---

(١) المسند (٣/ ٤٢٤)، والنسائي في السنن الكبرىٰ برقم (١٠٤٤٥). وصححه العلامة الألباني في صحيح الأدب المفرد برقم (٦٩٩).

(٢) لَطَائِف المَعَارف (٣٤٥).

وألقىٰ في قلوبهم كراهة ضده من الكفر والفسوق والعصيان وإن ذلك محض فضله ومنته عليهم حيث لم يكلهم إلىٰ أنفسهم بل تولىٰ هو سبحانه هذا التحبيب والتزيين وتكريه ضده فجاد عليهم به فضلا منه ونعمة والله عليم بمواقع فضله ومن يصلح له ومن لا يصلح حكيم بجعله في مواضعه»[(١)].

---

(١) شفاء العليل (٥٧/ ١).

الجزء الثاني

الموفقون هم السعداء
في الدنيا والآخرة

فصل في

السعادة نعمة على الموفق محروم منها المخذول

اعلم أخي القارئ الكريم -رعاك الله- أن السعادة نعمة عزيزة غالية وهي راحة وسرور ونعيم ولذة وأنس يجدها السعيد الموفق لها المتسبب في أسبابها الطالب لها من أبوابها الشرعية الدينية لا الأسباب الدنيوية وهي شريفة لا ينال إلا ذو همة وعزيمة وإرادة قوية صادقة **كما قال ابن القيم** رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

«فإن الحياة الطيبة إنما تنال بالهمة العالية، والمحبة الصادقة، والإرادة الخالصة، فعلىٰ قدر ذلك تكون الحياة الطيبة، وأخس الناس حياة أخسهم همة، وأضعفهم محبة وطلبا، وحياة البهائم خير من حياته»(١).

وبهذه النعمة يطيب للعارفين والصالحين والعابدين عيشهم في حياتهم فهي تسلية لهم من مصائب الدنيا وسلوة عن نكد الدنيا وعنائها وتعبها عوضهم الله الرضا بالله والطمأنينة به طاعة وحبا وأنسا ومعرفة لله عَزَّوَجَلَّ.

✍ **قال الفضل بن عيسىٰ** رَحِمَهُ ٱللَّهُ «والله لو جمع للعابدين لذاذات الدنيا بحذافيرها لكان امتهانهم أنفسهم لله بطاعته ألذ وأحلىٰ عندهم من ذلك

---

(١) المحبة لله للختلي (٢٠٩).

كله»[١].

✍ **وقال بعض العارفين**: «مساكين أهل الدنيا، خرجوا من الدنيا وما ذاقوا أطيب ما فيها، قيل: وما أطيب ما فيها؟ قال: محبة الله، والإنس به، والشوق إلىٰ لقائه، والتنعم بذكره وطاعته»[٢].

✍ **وقال آخر**: «إنه ليمر بي أوقات أقول فيها: إن كان أهل الجنة في مثل هذا إنهم لفي عيش طيب»[٣].

✍ **وقال آخر**: «والله ما طابت الدنيا إلا بمحبته وطاعته، ولا الجنة إلا برؤيته ومشاهدته»[٤].

✍ **وقال ابن القيم** رَحِمَهُ ٱللَّهُ «فإن من لم ير نعمة الله عليه إلا في مأكله وملبسه وعافية بدنه وقيام وجهه بين الناس فليس له نصيب من هذا النور ألبتة فنعمة الله بالإسلام والإيمان وجذب عبده إلىٰ الإقبال عليه والتنعم

---

(١) روىٰ أبو نعيم في الحلية (٨/ ١٦٧) بإسناده عن عبد الله بن المبارك قال: «أهل الدنيا خرجوا من الدنيا قبل أن يتطعموا أطيب ما فيها»، قيل له: وما أطيب ما فيها؟ قال: «المعرفة بالله عَزَّوَجَلَّ».

(٢) ذكر ابن كثير في البداية والنهاية (١٠/ ٢٥٧) عن أبي سليمان الداراني أنه قال: «إنه لتمر بالقلب أوقات يرقص فيها طربا، فأقول: إن كان أهل الجنة في مثل هذا إنهم لفي عيش طيب».

(٣) روىٰ أبو نعيم في الحلية (٩/ ٣٧٢) بإسناده عن ذي النون المصري قال: «ما طابت الدنيا إلا بذكره، ولا طابت الآخرة إلا بعفوه، ولا طابت الجنان إلا برؤيته».

(٤) بدائع الفوائد (١/ ١٤٤).

بذكره والتلذذ بطاعته هو أعظم النعم وهذا إنما يدرك بنور العقل وهداية التوفيق»[(١)].

✍ **قيل للتابعي راشد بن سعد** رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

«ما النعيم؟

قال: طيب النفس..

قيل: فما الغنىٰ؟

قال: صحة الجسد»[(٢)].

---

(١) مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين (١/ ١٦٤).

(٢) الورع للحافظ أبي بكر المروذي (ص ١٩١).

فصل

حقيقة السعادة

لقد بين الله حقيقة السعادة التي ظنها كثير من الخلق ممن جهل سرها ومضمونها وظنها في جمع الدنيا ومتاعها وزخرفها الفاني فكرس جهده وأتعب نفسه وشغل وقته جله أو كله في جمعها وكسبها ولكنه تفاجئ بأنه لم يزدد بها إلا همًّا وغمًّا وشبقًا ونهمة لا يشبع ولا يقنع عبد للدنيا تعس وانتكس وإذا شيك فلا انتقش

✍ **وصدق من قال في وصفها:**

النارُ آخر دينار نطقت به ∴ والهمُّ آخر هذا الدرهم الجاري
والمرءُ بينهما إن كان مفتقرًا ∴ معذب القلب بين الهمِّ والنار

ويشهد لهذا قوله تعالىٰ: ﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ أَعْمَىٰ ﴿١٢٤﴾﴾ [طه:١٢٤] وفي هذه الآية أخبر الله عن أحوال المخذولين وما يعانون من الشقاء والضنك فقال في بداية الآية بحرف الشرط الدالة عند أهل الأصول علىٰ العموم كل من أعرض عن ذكري كائنًا من كان رجلًا أو امرأة ملكًا أو مملوك غنيًّا أو فقيرًا أو علىٰ أي منزلة أو رتبة أو مكانة شريفة أو وضيعة فإنها لا تذهب عنه مكانته ضيق صدره وضيق قلبه ما دام قلبه من التقوىٰ خاليًا وعن الله بعيدًا.

✍ **قال العلامة ابن كثير** رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «قال ابن عباس: لا يضل في الدنيا، ولا يشقىٰ في الآخرة. ﴿ وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي ﴾ أي: خالف أمري، وما أنزلته علىٰ رسولي، أعرض عنه وتناساه وأخذ من غيره هداه ﴿فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا﴾ أي: في الدنيا، فلا طمأنينة له، ولا انشراح لصدره، بل صدره ضيق حرج لضلاله، وإن تنعم ظاهره، ولبس ما شاء وأكل ما شاء، وسكن حيث شاء، فإن قلبهما لم يخلص إلىٰ اليقين والهدىٰ، فهو في قلق وحيرة وشك، فلا يزال في ريبة يتردد. فهذا من ضنك المعيشة»(١).

✍ **وقال ابن تيمية** رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «لكن النفس من لوازمها الإرادة والحركة فإنها حية حياة طبيعية، لكن سعادتها أن تحيا الحياة النافعة فتعبد الله، ومتىٰ لم تحيا هذه الحياة كانت ميتة، وكان ما لها من الحياة الطبيعية موجبا لعذابها، فلا هي حية متنعمة بالحياة، ولا ميتة مستريحة من العذاب»(٢).

✍ **وقَالَ الإِمَامُ ابن القَيِّمِ** رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «والله سبحانه خلق الخلق لينيلهم هذه اللذة الدائمة في دار الخلد، وأما الدنيا فمنقطعة، ولذاتها لا تصفو أبدًا ولا تدوم، بخلاف الآخرة فإن لذاتها دائمة، ونعيمها خالص من كل كدر وألم، وفيها ما تشتهيه الأنفس وتلذ الأعين مع الخلود أبدًا»(٣).

✍ **وقال ابن رجب** رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «ففي الحقيقة النعيم الذي لا ينفد هو طاعة

---

(١) تفسير القرآن العظيم (٣٢٣/ ٥).

(٢) مجموع الفتاوىٰ (٢٠٦/ ٨).

(٣) [الداء والدواء(٥٤١)].

الله وذكره، ومحبته والأنس به والشوق إلىٰ لقائه، فإن هذا نعيم لأهله في الدنيا».

✍ **قال مالك بن دينار**: في بعض الكتب يقول الله: «أيها الصديقون تنعموا بذكري، فإنه لكم في الدنيا نعيم، وفي الآخرة جزاء». وقال: ما تنعم المتنعمون بمثل ذكر الله عَزَّوَجَلَّ.

✍ **وقال إبراهيم بن أدهم**: لو يعلم الملوك وأبناء الملوك ما نحن فيه لجالدونا عليه بالسيوف.

✍ **قال أبو سليمان**: أهل الليل في ليلهم ألذ من أهل اللهو في لهوهم، ولولا الليل ما أحببت البقاء في الدنيا، وإنه ليمر علىٰ القلب أوقات يضحك فيه ضحكًا.

✍ **وكان بعض العارفين يقول**: إنه ليمر بي أوقات أقول: إن كان أهل الجنة في مثل ما أنا فيه إنهم لفي عيش طيب.

أهل المحبة قوم شأنهم عجب ∴ يقودهم حزن يهزهم طرب
العيش عيشهم والملك ملكهم ∴ ما الناس إلا هم أبانوا أم اقتربوا

فهذا نعيم في الدنيا، فإذا انتقلوا إلىٰ البرزخ فهم في نعيم أزيد من ذلك، كما قال بعض السلف: أنعم الناس أجساد في التراب أمنت العذاب، وانتظرت الثواب.

✍ **وقال عمر بن عبد العزيز**: ما أعلم أحدًا أنعم ممن صار إلىٰ هذه القبور، وأمن من عذاب الله عَزَّوَجَلَّ، وإذا بعثوا إلىٰ الجزاء حينئذ فلهم النعيم

الأعظم في جنات النعيم، وينادي مناد إن لكم أن تحيوا فلا تموتوا أبدًا، وإن لكم أن تصحوا فلا تسقموا أبدًا، وإن لكم أن تشبوا فلا تهرموا أبدًا، وإن لكم أن تنعموا فلا تبأسوا أبدًا.

❁ وقوله ﷺ: «**وقرة عين لا تنقطع**». قرة العين من جملة النعيم»(١).

✍ **قال ابن رجب** رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «وليس هو في قدرة العبد، ولكنه من فضل الله ورحمته: ما يعوض الله عباده العارفين به، الزاهدين فيما يفنىٰ من المال والشرف، مما يعجله الله لهم في الدنيا من شرف التقوىٰ وهيبة الخلق لهم في الظاهر، ومن حلاوة المعرفة والإيمان والطاعة في الباطن.

وهي الحياة الطيبة التي وعدها الله لمن عمل صالحًا من ذكرًا أو أنثىٰ وهو مؤمن، وهذه الحياة الطيبة لم يذقها الملوك في الدنيا ولا أهل الرئاسات والحرص علىٰ الشرف، كما قال إبراهيم بن أدهم.

لو يعلم الملوك وأبناء الملوك ما نحن فيه لجالدونا عليه بالسيوف.

ومن رزقه الله ذلك اشتغل به عن طلب الشرف الزائل والرئاسة الفانية»(٢).

✍ **قَالَ الإِمَامُ ابن القَيِّمِ** رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «وأيّ حياة أطيَب مِن حياة مَن اجتمعت همومه كلها وصَارت همًّا واحدًا في مَرضاة الله»(٣).

---

(١) مجموع رسائل ابن رجب (١/ ١٧١).

(٢) مجموع رسائل ابن رجب (١/ ٩١).

(٣) بدائع التفسير ٢/ ١٢٠.

✍ **قال ابن القيم** رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «فالعبد لا يزال رابحًا علىٰ ربه أفضل مما قدم له وهذا المتقرب بقلبه وروحه وعمله يفتح عليه ربه بحياة لا تشبه ما الناس فيه من أنواع الحياة بل حياة من ليس كذلك بالنسبة إلىٰ حياته كحياة الجنين في بطن أمه بالنسبة إلىٰ حياة أهل الدنيا ولذتهم فيها بل أعظم من ذلك فهذا نموذج من بيان شرف هذه الحياة وفضلها وإن كان علم هذا يوجب لصاحبه حياة طيبة فكيف إن انصبغ القلب به وصار حالًا ملازمًا لذاته فالله المستعان فلا عيش إلا عيش المحبين الذين قرت أعينهم بحبيبهم وسكنت نفوسهم إليه واطمأنت قلوبهم به واستأنسوا بقربه وتنعموا بحبه ففي القلب فاقة لا يسدها إلا محبة الله والإقبال عليه والإنابة إليه ولا يلم شعثه بغير ذلك ألبتة ومن لم يظفر بذلك فحياته كلها هموم وغموم وآلام وحسرات فإنه إن كان ذا همة عالية تقطعت نفسه علىٰ الدنيا حسرات فإن همته لا ترضىٰ فيها بالدون وإن كان مهينا خسيسًا فعيشه كعيش أخس الحيوانات فلا تقر العيون إلا بمحبة الحبيب الأول.

نقل فؤادك حيث شئت من الهوىٰ ∴ ما الحب إلا للحبيب الأول
كم منزل في الأرض يألفه الفتىٰ ∴ وحنينه أبدًا لأول منزل»(١)

✍ **قال ابن القيم** رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «وكما أن من نهىٰ نفسه عن الهوىٰ كانت الجنة مأواه، فكذا يكون قلبه في هذه الدار في جنة عاجلة لا يشبه نعيم أهلها نعيم البتة، بل التفاوت الذي بين النعيمين كالتفاوت الذي بين نعيم الدنيا والآخرة. وهذا أمر لا يصدق به إلا من باشر قلبه هذا وهذا.

---

(١) مدارج السالكين (٢٧٤/ ٣).

ولا تحسب أن قوله تعالىٰ: ﴿إِنَّ ٱلْأَبْرَارَ لَفِى نَعِيمٍ ﴿١٣﴾ وَإِنَّ ٱلْفُجَّارَ لَفِى جَحِيمٍ ﴿١٤﴾﴾ [الانفطار: ١٣ - ١٤]، مقصور علىٰ نعيم الآخرة وجحيمها فقط، بل في دورهم الثلاثة هم كذلك، أعني: دار الدنيا، ودار البرزخ، ودار القرار، فهؤلاء في نعيم، وهؤلاء في جحيم. وهل النعيم إلا نعيم القلب؟ وهل العذاب إلا عذاب القلب؟»(١).

✍ **قال ابن القيم**: «وجنة المعرفة والمحبة والإنس بالله والشوق إلىٰ لقائه والفرح، والرضىٰ به وعنه مأوىٰ روحه في هذه الدار.

فمن كانت هذه الجنة مأواه ها هنا، كانت جنة الخلد مأواه يوم المعاد.

ومن حرم هذه الجنة، فهو لتلك أشد حرمانا. والأبرار في النعيم، وإن اشتد بهم العيش، وضاقت عليهم الدنيا. والفجار في جحيم، وإن اتسعت عليهم الدنيا.

❁ قال تعالىٰ: ﴿مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً﴾ [النحل:٩٧] وطيب الحياة جنة الدنيا.

❁ وقال تعالىٰ: ﴿فَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يَهْدِيَهُۥ يَشْرَحْ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُۥ يَجْعَلْ صَدْرَهُۥ ضَيِّقًا حَرَجًا﴾ [الأنعام:١٢٥] فأي نعيم أطيب من شرح الصدر؟ وأي عذاب أمر من ضيق الصدر؟ وقال تعالىٰ: ﴿أَلَآ إِنَّ أَوْلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦٢﴾ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَكَانُوا۟ يَتَّقُونَ

---

(١) الداء والدواء (١٨٦/ ١).

﴿٦٣ لَهُمُ ٱلْبُشْرَىٰ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِي ٱلْأَخِرَةِ ۚ لَا تَبْدِيلَ لِكَلِمَٰتِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ٦٤﴾ [يونس:٦٢-٦٤].

فالمؤمن المخلص لله من أطيب الناس عيشا، وأنعمهم بالًا، وأشرحهم صدرًا، وأسرهم قلبًا. وهذه جنة عاجلة قبل الجنة الآجلة»(١).

---

(١) الداء والدواء (٤٥٨/ ١).

فصل في

أنواع السعادات

✍ **قال ابن القيم** رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «أنواع السعادات التي تؤثرها النفوس ثلاثة:

سعادة خارجية عن ذات الإنسان، بل هي مستعارة له من غيره، تزول باسترداد العارية، وهي سعادة المال والجاه وتوابعهما، فبينا المرء بها سعيد ملحوظ بالعناية مرموق بالأبصار، إذ أصبح في اليوم الواحد أذل من وتد بقاع يشجج رأسه بالفهر واجي.

فالسعادة والفرح بهذه كفرح الأقرع بجمة ابن عمه، والجمال بها كجمال المرء بثيابه وبزته، فإذا جاوز بصرك كسوته فليس وراء عَبَّادان[1] قرية.

السعادة الثانية: سعادة في جسمه وبدنه؛ كصحته واعتدال مزاجه،

---

(١) عبَّادان: بلدةٌ علىٰ الضفَّة الغربية لدجلة، تحت البصرة، ليس وراءها قريةٌ غير البحر (الخليج العربي)، وهي الآن ميناءٌ كبير تنتهي فيه أنابيب النفط الإيراني. انظر: «معجم البلدان» (عبَّادان)، و«الروض المعطار» (٤٠٧)، و«بلدان الخلافة الشرقية» (٧٠).

والعبارةُ مثلٌ سائر. وتطلقُ كنايةً عن الرجل الحسن الصورة وليس وراءه حاصل. انظر: «مجمع الأمثال» (٢/ ٢٥٧)، و«الكناية والتعريض» (١١٥)، و«تتمة يتيمة الدهر» (٥/ ٢٣٥).

وتناسب أعضائه، وحسن تركيبه، وصفاء لونه، وقوة أعصابه.

فهذه ألصق به من الأولىٰ، ولكن هي في الحقيقة خارجة عن ذاته وحقيقته؛ فإن الإنسان إنسان بروحه وقلبه لا بجسمه وبدنه، كما قيل:

يا خادم الجسم كم تشقىٰ بخدمته ∴ فأنت بالروح لا بالجسم إنسان

فنسبة هذه إلىٰ روحه وقلبه كنسبة ثيابه ولباسه إلىٰ بدنه؛ فإن البدن أيضًا عارية للروح وآلة لها ومركب من مراكبها، فسعادتها بصحته، وجماله وحسنه سعادة خارجة عن ذاتها وحقيقتها.

السعادة الثالثة: هي السعادة الحقيقية، وهي سعادة نفسانية روحية قلبية، وهي سعادة العلم النافع وثمرته؛ فإنها هي الباقية علىٰ تقلب الأحوال، والمصاحبة للعبد في جميع أسفاره، وفي دوره الثلاثة أعني دار الدنيا، ودار البرزخ، ودار القرار، وبها يترقىٰ في معارج الفضل ودرجات الكمال.

أما الأولىٰ، فإنما تصحبه في البقعة التي فيها ماله وجاهه.

والثانية، فعرضة للزوال والتبدل بنكس الخلق والرد إلىٰ الضعف.

فلا سعادة في الحقيقة إلا هذه الثالثة، التي كلما طال عليها الأمد ازدادت قوة وعلوا، وإذا عدم المال والجاه فهي مال العبد وجاهه، وتظهر قوتها وأثرها بعد مفارقة البدن إذا انقطعت السعادتان الأولتان

وهذه السعادة لا يعرف قدرها ويبعث علىٰ طلبها إلا العلم بها؛ فعادت السعادة كلها إلىٰ العلم وما يقتضيه، والله يوفق من يشاء، لا مانع لما أعطىٰ ولا معطي لما منع.

وإنما رغب أكثر الخلق عن اكتساب هذه السعادة وتحصيلها لوعورة طريقها، ومرارة مباديها، وتعب تحصيلها، وأنها لا تنال إلا علىٰ جسر من التعب فإنها لا تحصل إلا بالجد المحض، بخلاف الأولتين، فإنهما حظ قد يحوزه غير طالبه، وبخت قد يحرزه غير جالبه من ميراث أو هبة أو غير ذلك، وأما سعادة العلم فلا يورثك إياها إلا بذل الوسع، وصدق الطلب، وصحة النية»(١).

---

(١) مفتاح دار السعادة (٢٩٧- ٢٩٨/ ١).

فصل في

أصول السعادة

✍ **قال شيخ الإسلام** رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «الإيمان بالله تعالىٰ ورسوله ﷺ هو جماع العبادة وأصلها»(١).

✍ **وقال العلامة ابن القيم** رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «والعبد إذا عزم علىٰ فعل أمر فعليه أن يعلم أولًا هل هو طاعة لله أم لا فإن لم يكن طاعة فلا يفعله إلا أن يكون مباحا يستعين به علىٰ الطاعة وحينئذ يصير طاعة فإذا بان له أنه طاعة فلا يقدم عليه حتىٰ ينظر هل هو معان عليه أم لا فإن لم يكن معانا عليه فلا يقدم عليه فيذل نفسه وإن كان معانا عليه بقي عليه نظر آخر وهو أن يأتيه من بابه فإن أتاه من غير بابه أضاعه أو فرط فيه أو أفسد منه شيئًا فهذه الأمور الثلاثة أصل سعادة العبد وفلاحه»(٢).

✍ **وقال ابن القيم** رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «والافتقار إليه في طلب الهداية التي هي أصل سعادة الدارين»(٣).

✍ **وقال ابن القيم** رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «وتقدم أن هذا من كمال قوة الحب

---

(١) مجموع الفتاوىٰ (٢٠/ ١٩٣).

(٢) إعلام الموقعين (١٧٩/ ٢).

(٣) زاد المعاد (٣١٨/ ٤).

والبغض.

ولا يتم له هذا إلا بأمرين: قوة الإدراك، وشجاعة القلب، فإن التخلف عن ذلك والعمل بخلافه يكون إما لضعف الإدراك بحيث إنه لم يدرك مراتب المحبوب والمكروه علىٰ ما هي عليه، إما لضعف في النفس، وعجز في القلب، بحيث لا يطاوعه علىٰ إيثار الأصلح؛ لرفع علمه بأنه الأصلح، فإذا صح إدراكه، وقويت نفسه، وتشجع قلبه علىٰ إيثار المحبوب الأعلىٰ والمكروه الأدنىٰ فقد وفق لأسباب السعادة.

فمن الناس من يكون سلطان شهوته أقوىٰ من سلطان عقله وإيمانه، فيقهر الغالب الضعيف، ومنهم من يكون سلطان إيمانه وعقله أقوىٰ من سلطان شهوته، وإذا كان كثير من المرضىٰ يحميه الطبيب عما يضره، فتأبىٰ عليه نفسه وشهوته إلا تناوله، ويقدم شهوته علىٰ عقله، وتسميه الأطباء: عديم المروءة، فهكذا أكثر مرضىٰ القلوب يؤثرون ما يزيد مرضهم، لقوة شهوتهم له.

فأصل الشر من ضعف الإدراك وضعف النفس ودناءتها، وأصل الخير من كمال الإدراك وقوة النفس وشرفها وشجاعتها.

فالحب والإرادة أصل كل فعل ومبدؤه، والبغض والكراهة أصل كل ترك ومبدؤه، وهاتان القوتان في القلب، أصل سعادة العبد وشقاوته»(١).

✍ **وقال ابن القيم** رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «الأصول التي انبنىٰ عليها سعادة العبد ثلاثة، ولكل واحد منهما ضد، فمن فقد ذلك الأصل حصل علىٰ ضده.

---

(١) الجواب الكافي (١٩٢/ ١).

التوحيد وضده الشرك، والسنة وضدها البدعة، والطاعة وضدها المعصية.

ولهذه الثلاثة ضد واحد: وهو خلو القلب من الرغبة في الله وفيما عنده، ومن الرهبة منه ومما عنده»(١).

✍ **وقال ابن القيم** رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «الأصول التي انبنىٰ عليها سعادة العبد ثلاثة، ولكل واحد منهما ضد، فمن فقد ذلك الأصل حصل علىٰ ضده. التوحيد وضده الشرك، والسنة وضدها البدعة، والطاعة وضدها المعصية ولهذه الثلاثة ضد واحد: وهو خلو القلب من الرغبة في الله وفيما عنده، ومن الرهبة منه ومما عنده»(٢).

✍ **وقال شيخ الإسلام** رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «إن الناس عليهم أن يؤمنوا بالله ورسوله، فيصدقوه فيما أخبر، ويطيعوه فيما أمر فهذا أصل السعادة وجماعها»(٣).

✍ **وقال شيخ الإسلام** رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «أن العلم الذي هو أصل السعادة ورأسها هو العلم بالله»(٤).

✍ **وقال شيخ الإسلام** رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «والله سبحانه وتعالىٰ قد تفضل علىٰ بني آدم بأمرين هما أصل السعادة الفطرة:

أحدهما: أن كل مولود يولد علىٰ الفطرة كما في «الصحيحين» عن النبي

---

(١) الفوائد (١١٣/ ١).

(٢) الفوائد (١١٣/ ١).

(٣) منهاج السنة (١٥٤/ ٢).

(٤) الصفدية (٢٥٠/ ٢).

ﷺ أنه قال: «**كل مولود يولد علىٰ الفطرة فأبواه يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه كما تنتج البهيمة بهيمة جمعاء هل تحسون فيها من جدعاء**» ثم يقول أبو هريرة: اقروا إن شئتم ﴿فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا﴾ [الروم:٣٠].

❁ قال تعالىٰ: ﴿ فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا ۚ فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا ۚ لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ ﴾ [الروم:٣٠]

❁ وفي «صحيح مسلم» عن عياض بن حمار عن النبي ﷺ قال: «**يقول الله تعالىٰ خلقت عبادي حنفاء، فاجتالهم الشياطين، وحرمت عليهم ما أحللت لهم، وأمرتهم أن يشركوا بي ما لم أنزل به سلطانًا**»، فالنفس بفطرتها إذا تركت كانت مقرة لله بالإلهية محبة له تعبده لا تشرك به شيئًا ولكن يفسدها ما يزين لها شياطين الإنس والجن بما يوحي بعضهم إلىٰ بعض من الباطل قال تعالىٰ: ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنۢ بَنِىٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ ۖ قَالُوا۟ بَلَىٰ ۛ شَهِدْنَآ ۛ أَن تَقُولُوا۟ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَٰذَا غَٰفِلِينَ ﴿١٧٢﴾ أَوْ تَقُولُوٓا۟ إِنَّمَآ أَشْرَكَ ءَابَآؤُنَا مِن قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِّنۢ بَعْدِهِمْ ۖ أَفَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ ٱلْمُبْطِلُونَ ﴿١٧٣﴾﴾ [الأعراف:١٧٢- ١٧٣]، وتفسير هذه الآية مبسوط في غير هذا الموضع هداية الله.

- **الثاني** أن الله تعالىٰ قد هدىٰ الناس هداية عامة بما جعل فيهم بالفطرة من المعرفة وأسباب العلم وبما أنزل إليهم من الكتب وأرسل إليهم من الرسل قال تعالىٰ: ﴿ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ ﴿١﴾ خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ مِنْ عَلَقٍ ﴿٢﴾ ٱقْرَأْ وَرَبُّكَ

ٱلْأَكْرَمُ ﴿٣﴾ ٱلَّذِى عَلَّمَ بِٱلْقَلَمِ ﴿٤﴾ عَلَّمَ ٱلْإِنسَٰنَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ﴿٥﴾﴾ [العلق:١-٥]»(١).

✍ **وقال شيخ الإسلام** رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «حب الله أعظم الأنواع المحمودة بل عبادة الله وحده لا شريك له هي أصل السعادة ورأسها التي لا ينجو أحد من العذاب إلا بها وعبادة إله آخر من دونه هو أصل الشقاء ورأسه الذي لا يبقي في العذاب إلا أهله»(٢).

✍ **وقال شيخ الإسلام** رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «فأصل السعادة تصديق خبره، وطاعة أمره وأصل الشقاوة معارضة خبره وأمره بالرأي والهوىٰ»(٣).

✍ **وقال ابن القيم** رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «وأن أصل السعادة محبة الله وحده ومحبة ما يحبه الله(٤).

✍ **وقال ابن القيم** رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «أن حياة القلب وإشراقه مادة كل خير فيه وموته وظلمته مادة كل شر وفتنة فيه أصل كل خير وسعادة للعبد، بل لكل حي ناطق: كمال حياته ونوره. فالحياة والنور مادة الخير كله، قال الله تعالىٰ: ﴿أَوَمَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَٰهُ وَجَعَلْنَا لَهُۥ نُورًا يَمْشِى بِهِۦ فِى ٱلنَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُۥ فِى ٱلظُّلُمَٰتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا﴾ [الأنعام:١٢٢]»(٥).

---

(١) الحسنة والسيئة (٦٦/ ١).

(٢) جامع الرسائل لابن تيمية (١٩٧/ ٢)، وانظر: قاعدة في المحبة (١١/ ١).

(٣) درء تعارض العقل والنقل (٢٠٦/ ٥).

(٤) الداء والدواء (٢٤/ ١).

(٥) إغاثة اللهفان (٢٠/ ١).

✍ **وقال شيخ الإسلام** رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «أصل السعادة وأصل النجاة من العذاب هو توحيد الله تعالىٰ بعبادته وحده لا شريك له والإيمان برسله واليوم الآخر والعمل الصالح»(١).

✍ وقال ابن والقيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ «والعبد إذا عزم علىٰ فعل أمر فعليه أن يعلم أولًا هل هو طاعة لله أم لا فإن لم يكن طاعة فلا يفعله إلا أن يكون مباحا يستعين به علىٰ الطاعة وحينئذ يصير طاعة فإذا بان له أنه طاعة فلا يقدم عليه حتىٰ ينظر هل هو معان عليه أم لا فإن لم يكن معانا عليه فلا يقدم عليه فيذل نفسه وإن كان معانًا عليه بقي عليه نظر آخر وهو أن يأتيه من بابه فإن أتاه من غير بابه أضاعه أو فرط فيه أو أفسد منه شيئًا فهذه الأمور الثلاثة أصل سعادة العبد وفلاحه وهي معنىٰ قول العبد ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ۝٥ ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ﴾ فأسعد الخلق أهل العبادة والاستعانة والهداية إلىٰ المطلوب وأشقاهم من عدم الأمور الثلاثة ومنهم من يكون له نصيب من إياك نعبد ونصيبه من إياك نستعين معدوم أو ضعيف فهذا مخذول مهين محزون ومنهم من يكون نصيبه من إياك نستعين قويًّا ونصيبه من إياك نعبد ضعيفًا أو مفقودًا فهذا له نفوذ وتسلط وقوة ولكن لا عاقبة له بل عاقبته أسوأ عاقبة ومنهم من يكون له نصيب من ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ۝٥﴾ [الفاتحة:٥] ولكن نصيبه من الهداية إلىٰ المقصود ضعيف جدا كحال كثير من العباد والزهاد الذين قل علمهم بحقائق ما بعث الله به رسوله ﷺ - من الهدىٰ

---

(١) الانتصار لأهل الأثر (٢٩٥/ ١).

ودين الحق»[١].

✍ **وقال ابن القيم** رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «فأصل الشر من ضعف الإدراك، وضعف النفس ودناءتها. وأصل الخير من كمال الإدراك، وقوة النفس وشرفها وشجاعتها.

فالحب والإرادة أصل كل فعل ومبدؤه، والبغض والكراهة أصل كل ترك ومبدؤه. وهاتان القوتان في القلب أصل سعادة العبد وشقاوته»[٢].

✍ **وقال ابن القيم** رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «ومن ساعده التوفيق وأعين بنور البصيرة حتىٰ وقف علىٰ أسرار هذه السورة وما اشتملت عليه من التوحيد ومعرفة الذات والاسماء والصفات والأفعال واثبات الشرع والقدر والمعاد وتجريد توحيد الربوبية والالهية وكمال التوكل والتفويض إلىٰ من له الأمر كله وله الحمد كله وبيده الخير كله وإليه يرجع الأمر كله والافتقار إليه في طلب الهداية التي هي أصل سعادة الدارين» وعلم ارتباط معانيها بجلب مصالحهما، ودفع مفاسدهما، وأن العاقبة المطلقة التامة، والنعمة الكاملة منوطة بها، موقوفة علىٰ التحقق بها، أغنته عن كثير من الأدوية والرقىٰ، واستفتح بها من الخير أبوابه، ودفع بها من الشر أسبابه»[٣].

---

(١) إعلام الموقعين (١٨٠/ ٢).

(٢) الداء والدواء (٤٤٨/ ١).

(٣) الطب النبوي (٢٦٩/ ١)، زاد المعاد (٣١٨/ ٤).

فصل في

أركان السعادة

✍ **قال ابن القيم** رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «الله سبحانه المسؤول المرجو الإجابة أن يمتعكم بالإسلام والسنة والعافية، فإن سعادة الدنيا والآخرة ونعيمهما وفوزهما مبني علىٰ هذه الأركان الثلاثة، وما اجتمعن في عبد بوصف الكمال إلا وقد كملت نعمة الله عليه، وإلا فنصيبه من نعمة الله بحسب نصيبه منها.

والنعمة نعمتان: نعمة مطلقة ونعمة مقيدة.

فالنعمة المطلقة: هي المتصلة بسعادة الأبد، وهي نعمة الإسلام والسنة، وهي النعمة التي أمرنا الله سبحانه أن نسأله في صلواتنا أن يهدينا صراط أهلها ومن خصهم بها وجعلهم أهل الرفيق الأعلىٰ، حيث يقول تعالىٰ: ﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ فَأُوْلَٰٓئِكَ مَعَ ٱلَّذِينَ أَنۡعَمَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلصِّدِّيقِينَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَٱلصَّٰلِحِينَۚ وَحَسُنَ أُوْلَٰٓئِكَ رَفِيقٗا ٦٩﴾ [النساء:٦٩] فهؤلاء الأصناف الأربعة هم أهل هذه النعمة المطلقة، وأصحابها»(١).

مدار السعادات:

✍ **قال العلامة السعدي** رَحِمَهُ ٱللَّهُ في تفسير قول الله تعالىٰ: قال: «﴿وَلَٰكِن

(١) اجتماع الجيوش (٣/ ١).

كُونُواْ رَبَّٰنِيِّـۧنَ بِمَا كُنتُمۡ تُعَلِّمُونَ ٱلۡكِتَٰبَ وَبِمَا كُنتُمۡ تَدۡرُسُونَ ﴿٧٩﴾ [آل عمران:٧٩]

أي: ولكن يأمرهم بأن يكونوا ربانيين، أي: علماء حكماء حلماء معلمين للناس ومربيهم، بصغار العلم قبل كباره، عاملين بذلك، فهم يأمرون بالعلم والعمل والتعليم التي هي مدار السعادة، وبفوات شيء منها يحصل النقص والخلل»(١).

✍ **قال العلامة السعدي** أيضًا: «أمر الله باتباع ملة أبينا إبراهيم عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ بالتوحيد وترك الشرك الذي هو مدار السعادة، وبتركه حصول الشقاوة»(٢).

✍ **وقال** رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «﴿إِنَّمَا ٱلۡمُؤۡمِنُونَ﴾ أي: على الحقيقة ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ لَمۡ يَرۡتَابُواْ وَجَٰهَدُواْ بِأَمۡوَٰلِهِمۡ وَأَنفُسِهِمۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِۚ﴾ [الحجرات:١٥] أي: من جمعوا بين الإيمان والجهاد في سبيله، فإن من جاهد الكفار، دل ذلك، على الإيمان التام في القلب، لأن من جاهد غيره على الإسلام، والقيام بشرائعه، فجهاده لنفسه على ذلك، من باب أولى وأحرى؛ ولأن من لم يقو على الجهاد، فإن ذلك، دليل على ضعف إيمانه، وشرط تعالى في الإيمان عدم الريب، وهو الشك، لأن الإيمان النافع هو الجزم اليقيني، بما أمر الله بالإيمان به، الذي لا يعتريه شك، بوجه من الوجوه.

وقوله: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصَّٰدِقُونَ ﴿١٥﴾﴾ [الحجرات:١٥] أي: الذين صدقوا إيمانهم بأعمالهم الجميلة، فإن الصدق، دعوى كبيرة في كل شيء

---

(١) تيسير الكريم الرحمن (١٣٦/ ١).

(٢) تيسير الكريم الرحمن (١٣٨/ ١).

يدعىٰ يحتاج صاحبه إلىٰ حجة وبرهان، وأعظم ذلك، دعوىٰ الإيمان، الذي هو مدار السعادة، والفوز الأبدي، والفلاح السرمدي، فمن ادعاه، وقام بواجباته، ولوازمه، فهو الصادق المؤمن حقًّا، ومن لم يكن كذلك، علم أنه ليس بصادق في دعواه، وليس لدعواه فائدة، فإن الإيمان في القلب لا يطلع عليه إلا الله تعالىٰ»(١).

✍ **وقال** رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «فإن طاعة الله وطاعة رسوله، مدار السعادة، وعنوان الفلاح»(٢).

✍ **قال** رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «مدار السعادة ومادتها أمران: الإخلاص لله، الذي أصله الإيمان بالله، والإحسان إلىٰ الخلق بوجوه الإحسان، الذي من أعظمها، دفع ضرورة المحتاجين بإطعامهم ما يتقوتون به»(٣).

✍ **قال العلامة ابن القيم** رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «ومن فضائل الذكر: أنه يورثه المحبة التي هي روح الإسلام وقطب رحىٰ الدين ومدار السعادة والنجاة وقد جعل الله لكل شيء سببًا وجعل سبب المحبة دوام الذكر فمن أراد أن ينال محبة الله عَزَّوَجَلَّ فليلهج بذكره»(٤).

---

(١) تيسير الكريم الرحمن (٨٠٢/ ١).
(٢) تيسير الكريم الرحمن (٨٦٧/ ١).
(٣) تيسير الكريم الرحمن (٨٨٣/ ١).
(٤) الوابل الصيب (٦١/ ١).

فصل في

مراتب السعادة

✍ **قال ابن القيم** رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «فأول مراتب سعادته أن تكون له أذن واعية وقلب يعقل ما تعيه الأذن فإذا سمع وعقل واستبانت له الجادة ورأىٰ عليها تلك الأعلام ورأىٰ أكثر الناس منحرفين عنها يمينًا وشمالًا فلزمها ولم ينحرف مع المنحرفين الذين كان سبب انحرافهم عدم قبول العهد أو قبلوه بكره ولم يأخذوه بقوة ولا عزيمة ولا حدثوا أنفسهم بفهمه وتدبره والعمل بما فيه وتنفيذ وصاياه.

فإذا شامه الشيطان ورأىٰ هذا مبلغ همته وعزيمته رماه بالعصبية والحمية للآباء وسلفه وزين له أن هذا هو الحق وما خالفه باطل ومثل له الهدىٰ في صورة الضلال والضلال في صورة الهدىٰ بتلك العصبية والحمية التي أسست علىٰ غير علم فرضاه أن يكون مع عشيرته وقومه له ما لهم وعليه ما عليهم فخذل عن الهدىٰ وولاه الله ما تولىٰ فلو جاءه كل هدىٰ يخالف قومه وعشيرته لم يره.

وإذا كانت همته أعلىٰ من ذلك ونفسه أشرف وقدره أعلىٰ أقبل علىٰ حفظ عهده وفهمه وتدبره وعلم أن لصاحب العهد شأنًا ليس كشأن غيره فأخذ نفسه بمعرفته من نفس العهد فوجده قد تعرف إليه وعرفه نفسه وصفاته

وأسماءه وأفعاله وأحكامه فعرف من ذلك العهد قيومًا بنفسه مقيمًا لغيره غنيًّا عن كل ما سواه.

فإذا عرف بقلبه وتيقن صفات صاحب العهد وأشرقت أنوارها علىٰ قلبه فصارت له كالمعاينة»(١).

---

(١) الفوائد (١٦٦/ ١).

فصل في

عناوين السعادة

✍ **قال ابن القيم** رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «كل نوع من أنواع المحبة له حكم متبوعه فالمحبة النافعة المحمودة التي هي عنوان سعادة العبد، توابعها كلها نافعة له، حكمها حكم متبوعها. فإن بكىٰ نفعه، وإن حزن

نفعه، وإن فرح نفعه، وإن انقبض نفعه وإن انبسط نفعه. فهو يتقلب في منازل المحبة وأحكامها في مزيد وربح وقوة»(١).

✍ **وقال ابن القيم** رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم الله سبحانه وتعالىٰ المسؤول المرجو الإجابة أن يتولاكم في الدنيا والآخرة وأن يسبغ عليكم نعمه ظاهرة وباطنة وأن يجعلكم ممن إذا أنعم عليه شكر واذا ابتلىٰ صبر وإذا أذنب استغفر فإن هذه الأمور الثلاثة عنوان سعادة العبد وعلامة فلاحه في دنياه وأخراه ولا ينفك عبد عنها أبدًا فإن العبد دائم التقلب بين هذه الأطباق الثلاث»(٢).

✍ **وقال ابن القيم** رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «وبهذا يعلم عنوان سعادة العبد وشقاوته،

---

(١) الداء والدواء (٤٧٥/ ١).

(٢) الوابل الصيب (١١/ ١) القواعد الأربع للمجدد الشيخ محمد بن عبدالوهاب النجدي (١).

فإن الطيب لا يناسبه إلا الطيب ولا يرضىٰ إلا به، ولا يسكن إلا إليه، ولا يطمئن قلبه إلا به، فله من الكلام الكلم الطيب الذي لا يصعد إلىٰ الله تعالىٰ إلا هو، وهو أشد شيء نفرة عن الفحش في المقال، والتفحش في اللسان والبذاء والكذب والغيبة والنميمة والبهت وقول الزور وكل كلام خبيث.

وكذلك لا يألف من الأعمال إلا أطيبها، وهي الأعمال التي اجتمعت علىٰ حسنها الفطر السليمة مع الشرائع النبوية، وزكتها العقول الصحيحة، فاتفق علىٰ حسنها الشرع والعقل والفطرة، مثل أن يعبد الله وحده لا يشرك به شيئًا، ويؤثر مرضاته علىٰ هواه، ويتحبب إليه جهده وطاقته، ويحسن إلىٰ خلقه ما استطاع، فيفعل بهم ما يحب أن يفعلوا به، ويعاملوه به، ويدعهم مما يحب أن يدعوه منه، وينصحهم بما ينصح به نفسه، ويحكم لهم بما يحب أن يحكم له به، ويحمل أذاهم ولا يحملهم أذاه، ويكف عن أعراضهم ولا يقابلهم بما نالوا من عرضه، وإذا رأىٰ لهم حسنا أذاعه، وإذا رأىٰ لهم سيئًا كتمه، ويقيم أعذارهم ما استطاع فيما لا يبطل شريعة، ولا يناقض لله أمرًا ولا نهيًا. وله أيضًا من الأخلاق أطيبها وأزكاها، كالحلم والوقار والسكينة والرحمة والصبر والوفاء، وسهولة الجانب ولين العريكة والصدق، وسلامة الصدر من الغل والغش والحقد والحسد، والتواضع وخفض الجناح لأهل الإيمان، والعزة والغلظة علىٰ أعداء الله، وصيانة الوجه عن بذله وتذلله لغير الله، والعفة والشجاعة والسخاء والمروءة، وكل خلق اتفقت علىٰ حسنه الشرائع والفطر والعقول.

وكذلك لا يختار من المطاعم إلا أطيبها، وهو الحلال الهنيء المريء

الذي يغذي البدن والروح أحسن تغذية، مع سلامة العبد من تبعته.

وكذلك لا يختار من المناكح إلا أطيبها وأزكاها، ومن الرائحة إلا أطيبها وأزكاها، ومن الأصحاب والعشراء إلا الطيبين منهم، فروحه طيب، وبدنه طيب، وخلقه طيب وعمله طيب، وكلامه طيب، ومطعمه طيب، ومشربه طيب، وملبسه طيب، ومنكحه طيب، ومدخله طيب، ومخرجه طيب، ومنقلبه طيب، ومثواه كله طيب»(١).

✍ وقال العلامة السعدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «وكثيرًا ما يجمع تعالىٰ بين الصلاة والزكاة في القرآن، لأن الصلاة متضمنة للإخلاص للمعبود، والزكاة والنفقة متضمنة للإحسان علىٰ عبيده، فعنوان سعادة العبد إخلاصه للمعبود، وسعيه في نفع الخلق، كما أن عنوان شقاوة العبد عدم هذين الأمرين منه، فلا إخلاص ولا إحسان»(٢).

✍ وقال العلامة السعدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «وقد أثنىٰ الله تعالىٰ علىٰ الراسخين في العلم بسبع صفات هي عنوان سعادة العبد:

إحداها: العلم الذي هو الطريق الموصل إلىٰ الله، المبين لأحكامه وشرائعه.

الثانية: الرسوخ في العلم وهذا قدر زائد علىٰ مجرد العلم، فإن الراسخ في العلم يقتضي أن يكون عالمًا محققًا، وعارفًا مدققًا، قد علمه الله ظاهر

---

(١) زاد المعاد (٦٥- ٦٦/ ١).

(٢) تيسير الكريم الرحمن (٤٠/ ١).

العلم وباطنه، فرسخ قدمه في أسرار الشريعة علمًا وحالًا وعملًا.

الثالثة: أنه وصفهم بالإيمان بجميع كتابه ورد لمتشابهه إلىٰ محكمه، بقوله ﴿يَقُولُونَ ءَامَنَّا بِهِۦ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا﴾ [آل عمران:٧].

الرابعة: أنهم سألوا الله العفو والعافية مما ابتلي به الزائغون المنحرفون.

الخامسة: اعترافهم بمنة الله عليهم بالهداية وذلك قوله ﴿رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا﴾ [آل عمران:٨].

السادسة: أنهم مع هذا سألوه رحمته المتضمنة حصول كل خير واندفاع كل شر، وتوسلوا إليه باسمه الوهاب.

السابعة: أنه أخبر عن إيمانهم وإيقانهم بيوم القيامة وخوفهم منه، وهذا هو الموجب للعمل الرادع عن الزلل»(١).

✍ **قال العلامة السعدي** رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «وهذا عنوان سعادة العبد أن يكون شاكرًا لله علىٰ نعمه الدينية والدنيوية وأن يرىٰ جميع النعم من ربه، فلا يفخر بها ولا يعجب بها بل يرىٰ أنها تستحق عليه شكرًا كثيرًا»(٢).

✍ **وقال العلامة السعدي** رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «فأمر الله عباده المؤمنين، بما يقتضيه الإيمان، بالله وبرسوله، من امتثال أوامر الله، واجتناب نواهيه، وأن يكونوا ماشين، خلف أوامر الله، متبعين لسنة رسول الله ﷺ، في جميع أمورهم، وأن

---

(١) تيسير الكريم الرحمن (١٢٣/ ١).

(٢) تيسير الكريم الرحمن (٦٠٢/ ١).

لا يتقدموا بين يدي الله ورسوله، ولا يقولوا، حتىٰ يقول، ولا يأمروا، حتىٰ يأمر، فإن هذا، حقيقة الأدب الواجب، مع الله ورسوله، وهو عنوان سعادة العبد وفلاحه، وبفواته، تفوته السعادة الأبدية، والنعيم السرمدي، وفي هذا، النهي الشديد عن تقديم قول غير الرسول ﷺ، علىٰ قوله، فإنه متىٰ استبانت سنة رسول الله ﷺ، وجب اتباعها، وتقديمها علىٰ غيرها، كائنًا ما كان»(١).

✍ **وقال ابن القيم** رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «والمحبة المحمودة هي المحبة النافعة التي تجلب لصاحبها ما ينفعه في دنياه وآخرته، وهذه المحبة هي عنوان سعادته والضارة هي التي تجلب لصاحبها ما يضره في دنياه وآخرته، وهي عنوان شقاوته»(٢).

✍ **وقال ابن القيم** رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «وأدب المرء: عنوان سعادته وفلاحه وقلة أدبه: عنوان شقاوته وبواره فما استجلب خير الدنيا والآخرة بمثل الأدب ولا استجلب حرمانها بمثل قلة الأدب»(٣).

✍ **وقال حبيب الفارسي** رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «إن من سعادة المرء أن يموت وتموت معه ذنوبه»(٤).

✍ **وقال ابن القيم** رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «فتأمل كيف وقع المقدور مكتنفا بأمرين:

---

(١) تيسير الكريم الرحمن (٧٩٩/ ١).
(٢) الداء والدواء (٤٧٣/ ١).
(٣) مدارج السالكين (٣٩٣/ ٢).
(٤) حلية الأولياء (٦/ ١٥٢).

التوكل الذي هو مضمون الاستخارة قبله، والرضىٰ بما يقضي الله له بعده، وهما عنوان السعادة. وعنوان الشقاء أن يكتنفه ترك التوكل والاستخارة قبله، والسخط بعده، والتوكل قبل القضاء. فإذا أبرم القضاء وتم، انتقلت العبودية إلىٰ الرضىٰ بعده»(١).

✍ **قال العلامة السعدي** رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «أي: كل أهل دين وملة، له وجهة يتوجه إليها في عبادته، وليس الشأن في استقبال القبلة، فإنه من الشرائع التي تتغير بها الأزمنة والأحوال، ويدخلها النسخ والنقل، من جهة إلىٰ جهة، ولكن الشأن كل الشأن، في امتثال طاعة الله، والتقرب إليه، وطلب الزلفىٰ عنده، فهذا هو عنوان السعادة ومنشور الولاية، وهو الذي إذا لم تتصف به النفوس، حصلت لها خسارة الدنيا والآخرة، كما أنها إذا اتصفت به فهي الرابحة علىٰ الحقيقة، وهذا أمر متفق عليه في جميع الشرائع، وهو الذي خلق الله له الخلق، وأمرهم به»(٢).

✍ **قال العلامة السعدي** رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «في قوله تعالىٰ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱلَّذِينَ هَاجَرُواْ وَجَٰهَدُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ أُوْلَٰٓئِكَ يَرۡجُونَ رَحۡمَتَ ٱللَّهِۚ وَٱللَّهُ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ٢١٨﴾ [البقرة:٢١٨] هذه الأعمال الثلاثة، هي عنوان السعادة وقطب رحىٰ العبودية، وبها يعرف ما مع الإنسان، من الربح والخسران، فأما الإيمان، فلا تسأل عن فضيلته، وكيف تسأل عن شيء هو الفاصل بين أهل السعادة وأهل

---

(١) زاد المعاد (٤٠٦/ ٢).

(٢) تيسير الكريم المنان (٧٢/ ١).

الشقاوة، وأهل الجنة من أهل النار؟ وهو الذي إذا كان مع العبد، قبلت أعمال الخير منه، وإذا عدم منه لم يقبل له صرف ولا عدل، ولا فرض، ولا نفل.

وأما الهجرة: فهي مفارقة المحبوب المألوف، لرضا الله تعالىٰ، فيترك المهاجر وطنه وأمواله، وأهله، وخلانه، تقربًا إلىٰ الله ونصرة لدينه.

وأما الجهاد: فهو بذل الجهد في مقارعة الأعداء، والسعي التام في نصرة دين الله، وقمع دين الشيطان، وهو ذروة الأعمال الصالحة، وجزاؤه، أفضل الجزاء، وهو السبب الأكبر، لتوسيع دائرة الإسلام وخذلان عباد الأصنام، وأمن المسلمين علىٰ أنفسهم وأموالهم وأولادهم.

فمن قام بهذه الأعمال الثلاثة علىٰ لأوائها ومشقتها كان لغيرها أشد قياما به وتكميلا.

فحقيق بهؤلاء أن يكونوا هم الراجون رحمة الله، لأنهم أتوا بالسبب الموجب للرحمة، وفي هذا دليل علىٰ أن الرجاء لا يكون إلا بعد القيام بأسباب السعادة»(١).

✍ **قال العلامة السعدي** رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «في قوله تعالىٰ: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تَتَّقُواْ ٱللَّهَ يَجۡعَل لَّكُمۡ فُرۡقَانٗا وَيُكَفِّرۡ عَنكُمۡ سَيِّـَٔاتِكُمۡ وَيَغۡفِرۡ لَكُمۡۗ وَٱللَّهُ ذُو ٱلۡفَضۡلِ ٱلۡعَظِيمِ ٢٩ ﴾ [الأنفال:٢٩] امتثال العبد لتقوىٰ ربه عنوان السعادة، وعلامة الفلاح، وقد رتب الله علىٰ التقوىٰ من خير الدنيا والآخرة شيئًا كثيرًا،

---

(١) تيسير الكريم المنان (٩٨/ ١).

فذكر هنا أن من اتقىٰ الله حصل له أربعة أشياء، كل واحد منها خير من الدنيا وما فيها:

الأول: الفرقان: وهو العلم والهدىٰ الذي يفرق به صاحبه بين الهدىٰ والضلال، والحق والباطل، والحلال والحرام، وأهل السعادة من أهل الشقاوة.

الثاني والثالث: تكفير السيئات، ومغفرة الذنوب، وكل واحد منهما داخل في الآخر عند الإطلاق وعند الاجتماع يفسر تكفير السيئات بالذنوب الصغائر، ومغفرة الذنوب بتكفير الكبائر.

الرابع: الأجر العظيم والثواب الجزيل لمن اتقاه وآثر رضاه علىٰ هوىٰ نفسه»(١).

✍ **قال العلامة السعدي** رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «قال تعالىٰ: ﴿ثُمَّ كَانَ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ [البلد:١٧] أي: آمنوا بقلوبهم بما يجب الإيمان به، وعملوا الصالحات بجوارحهم. من كل قول، وفعل واجب أو مستحب.

﴿وَتَوَاصَوْاْ بِٱلصَّبْرِ﴾ علىٰ طاعة الله وعن معصيته، وعلىٰ أقدار الله المؤلمة بأن يحث بعضهم بعضا علىٰ الانقياد لذلك، والإتيان به كاملا منشرحا به الصدر، مطمئنة به النفس.

﴿وَتَوَاصَوْاْ بِٱلْمَرْحَمَةِ﴾ للخلق، من إعطاء محتاجهم، وتعليم جاهلهم،

---

(١) تيسير الكريم المنان (٣١٩/ ١).

والقيام بما يحتاجون إليه من جميع الوجوه، ومساعدتهم علىٰ المصالح الدينية والدنيوية، وأن يحب لهم ما يحب لنس ويكره لهم ما يكره لنفسه، أولئك الذين قاموا بهذه الأوصاف، الذين وفقهم الله لاقتحام هذه العقبة.

﴿أُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلۡمَيۡمَنَةِ ١٨﴾ [البلد:١٨] لأنهم أدوا ما أمر الله به من حقوقه وحقوق عباده، وتركوا ما نهوا عنه، وهذا عنوان السعادة وعلامتها»(١).

---

(١) تيسير الكريم المنان (٩٢٤/ ١).

فصل في

علامات السعادة

✍ **وقال ابن القيم** رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «فعلامة السعادة أن تكون حسنات العبد خلف ظهره وسيئاته نصب عينيه وعلامة الشقاوة أن يجعل حسناته نصب عينيه وسيئاته خلف ظهره والله المستعان»(١).

✍ **وقال ابن القيم** رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «واشتغل بعيبه ونفسه وطوبىٰ لمن شغله عيبه عن عيوب الناس وويل لمن نسي عيبه وتفرغ لعيوب الناس فالأول علامة السعادة والثاني علامة الشقاوة»(٢).

✍ **وقال ابن القيم** رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «فإذا اراد الله بعبده خيرًا فتح له من ابواب التوبة والندم والانكسار والذل والافتقار والاستعانة به وصدق اللجأ إليه ودوام التضرع والدعاء والتقرب إليه بما امكن من الحسنات ما تكون تلك السيئة به رحمته حتىٰ يقول عدو الله يا ليتني تركته ولم أوقعه.

وهذا معنىٰ قول بعض السلف أن العبد ليعمل الذنب يدخل به الجنة ويعمل الحسنة يدخل بها النار قالوا كيف قال يعمل الذنب فلا يزال نصب عينيه منه مشفقًا وجلًا باكيًا نادمًا مستحيًا من ربه تعالىٰ ناكس الرأس بين يديه

---

(١) مفتاح دار السعادة (٢٩٨/ ١).

(٢) طريق الهجرتين (٢٧٢/ ١).

منكسر القلب له فيكون ذلك الذنب أنفع له من طاعات كثيرة بما ترتب عليه من هذه الأمور التي بها سعادة العبد وفلاحه حتىٰ يكون ذلك الذنب سبب دخوله الجنة.

ويفعل الحسنة فلا يزال يمن بها علىٰ ربه ويتكبر بها ويرىٰ نفسه ويعجب بها ويستطيل بها ويقول فعلت وفعلت فيورثه من العجب والكبر والفخر والاستطالة ما يكون سبب هلاكه فإذا أراد الله تعالىٰ بهذا المسكين خيرًا ابتلاه بأمر يكسره به ويذل به عنقه ويصغر به نفسه عنده وإن أراد به غير ذلك خلاه وعجبه وكبره وهذا هو الخذلان الموجب لهلاكه.

فإن العارفين كلهم مجمعون علىٰ أن التوفيق أن لا يكلك الله تعالىٰ إلىٰ نفسك والخذلان أن يكلك الله تعالىٰ إلىٰ نفسك فمن اراد الله به خيرًا فتح له باب الذل والانكسار ودوام اللجأ إلىٰ الله تعالىٰ والافتقار إليه ورؤية عيوب نفسه وجهلها وعدوانها ومشاهدة فضل ربه وإحسانه ورحمته وجوده وبره وغناه وحمده فالعارف سائر إلىٰ الله تعالىٰ بين هذين الجناحين لا يمكنه أن يسير إلا بهما فمتىٰ فاته واحد منهما فهو كالطير الذي فقد أحد جناحيه»(١).

✍ **وعن أبي عثمان الجيزي** رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «من علامة السعادة أن تطيع وتخاف أن لا تقبل ومن علامة الشقاء أن تعصي وترجو أن تنجو»(٢).

✍ **وعكس هذه الصفات من صفات السعداء وقال الفضيل بن عياض:**

---

(١) الوابل الصيب (١٤/ ١).

(٢) فتح الباري (٣٠١/ ١١).

«خمس من علامات الشقوة: القسوة في القلب. وجمود العين. وقلة الحياء. والرغبة في الدنيا. وطول الأمل»(١).

✍ **قَالَ الإِمَامُ ابن القَيِّمِ** رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «السعادة بثلاث: شكر النعمة، والصبر علىٰ البلاء، والتوبة من الذنب.. فإن هذه الأمور الثلاثة عنوان سعادة العبد، وعلامة فلاحه في دنياه وأخراه، ولا ينفك عبد عنها أبدًا»(٢).

✍ **وقال أبو علي الحسن بن علي الجوزجاني**: «من علامات السعادة علىٰ العبد: تيسير الطاعة عليه، وموافقة السنة في أفعاله، وصحبته لأهل الصلاح، وحسن أخلاقه مع الإخوان، وبذل معروفه للخلق واهتمامه للمسلمين، ومراعاته لأوقاته»(٣).

✍ **وقال شيخ الإسلام** رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «أهل السعادة هم أهل التوحيد»(٤).

✍ **وقال ابن تيمية** رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «السعادة والهدىٰ في متابعة النبي ﷺ والضلال والشقاء في مخالفته»(٥).

✍ **وقال العلامة ابن القيم** رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «**علامات السعادة والفلاح** أن العبد كلما زيد في علمه زيد في تواضعه ورحمته وكلما زيد في خوفه وحذره وكلما

---

(١) مدارج السالكين (٢/ ٢٤٩).
(٢) الوابل الصيب (ص٥).
(٣) الاعتصام للشاطبي (١/ ١٢٣).
(٤) مجموع الفتاوىٰ (٩/ ٢٩).
(٥) مجموع الفتاوىٰ (١٩/ ٩٣).

زيد في عمره نقص من حرصه وكلما زيد في ماله زيد في سخائه وبذله وكلما زيد في قدره وجاهه زيد في قربه من الناس وقضاء حوائجهم والتواضع لهم.

وعلامات الشقاوة أنه كلما زيد في علمه زيد في كبره وتيهه وكلما زيد في عمله زيد في فخره واحتقاره للناس وحسن ظنه بنفسه وكلما زيد في عمره زيد في حرصه وكلما زيد في ماله زيد في بخله وإمساكه وكلما زيد في قدره وجاهه زيد في كبره وتيهه وهذه الأمور ابتلاء من الله وامتحان يبتلي بها عباده فيسعد بها أقوام ويشقىٰ بها أقوام وكذلك الكرامات امتحان وابتلاء»(١).

✍ **وقال ابن القيم** رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «فمحبة العلم من علامات السعادة وبغض العلم من علامات الشقاوة»(٢).

✍ **وقال العلامة السعدي** رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «فإذا كان العبد يجد أعمال الخير ميسرة له، مسهلة عليه، ويجد نفسه محفوظا بحفظ الله من الأعمال التي تضره، كان هذا من البشرىٰ التي يستدل بها المؤمن علىٰ عاقبة أمره؛ فإن الله أكرم الأكرمين، وأجود الأجودين. وإذا ابتدأ عبد بالإحسان أتمه. فأعظم منة وإحسان يمن به عليه إحسانه الديني. فيسر المؤمن بذلك أكمل سرور: سرور بمنة الله عليه بأعمال الخير، وتيسيرها؛ لأن أعظم علامات الإيمان محبة الخير، والرغبة فيه، والسرور بفعله. وسرور ثان بطمعه الشديد في إتمام الله نعمته عليه، ودوام فضله»(٣).

---

(١) الفوائد (١/ ١٥٥).

(٢) مفتاح دار السعادة (١/ ٣٨٥).

(٣) بهجة قلوب الأبرار (١/ ٢١٤).

✍ **وقال العلامة ابن القيم** رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «فمن علامات السعادة صرف اهتمامه إلىٰ أمر الله دون ضمانه ومن علامات الحرمان فراغ قلبه من الاهتمام بأمره وحبه وخشيته والاهتمام بضمانه والله المستعان»(١).

---

(١) الفوائد (١١٥/ ١).

فصل في

أسباب السعادة

✍ **وقال ابن القيم** رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «فبين العبد وبين السعادة والفلاح: قوة عزيمة وصبر ساعة وشجاعة نفس وثبات قلب والفضل بيد الله يؤتيه من يشاء والله ذو الفضل العظيم»(١).

✍ **وقال ابن القيم** رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «وأطيب العيش وألذه علىٰ الإطلاق عيش المحبين المشتاقين المستأنسين، فحياتهم هي الحياة الطيبة في الحقيقة، ولا حياة للعبد أطيب ولا أنعم ولا أهنأ منها. وهي الحياة الطيبة المذكورة في قوله تعالىٰ: ﴿مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً﴾ [النحل:٩٧].

وقد ضمن الله سبحانه لكل من عمل صالحًا أن يحييه حياة طيبة، فهو صادق الوعد الذي لا يخلف وعده. وأي حياة أطيب من حياة من اجتمعت همومه كلها، وصارت هما واحدا في مرضاة الله، ولم شعث قلبه بالإقبال علىٰ الله، واجتمعت إراداته وأفكاره التي كانت منقسمة -بكل واد منها شعبة- علىٰ الله. فصار ذكر محبوبه الأعلىٰ، وحبه، والشوق إلىٰ لقائه،

---

(١) مدارج السالكين (٨/ ٢).

والأنس بقربه هو المستولي عليه وعليه تدور همومه وإراداته وقصوده، بل خطرات قلبه. فإن سكت سكت بالله، وإن نطق نطق بالله. وإن سمع فبه يسمع، وإن أبصر فبه يبصر. وبه يبطش، وبه يمشي، وبه يتحرك، وبه يسكن. وبه يحيا، وبه يموت، وبه يبعث»(١).

✍ **وقال ابن القيم** رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «أن هذا كمال قوة الحب والبغض.

ولا يتم له هذا إلا بأمرين: قوة الإدراك، وشجاعة القلب. فإن التخلف عن ذلك والعمل بخلافه يكون إما لضعف الإدراك بحيث إنه لم يدرك مراتب المحبوب والمكروه علىٰ ما هي عليه، وإما لضعف في النفس وعجز في القلب لا يطاوعه لإيثار الأصلح له، مع علمه بأنه الأصلح. فإذا صح إدراكه، وقويت نفسه، وتشجع القلب علىٰ إيثار المحبوب الأعلىٰ والمكروه الأدنىٰ، فقد وفق لأسباب السعادة»(٢).

۞ جاء في حديث سعد بن أبي وقاص رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله: «**من سعادة ابن آدم: استخارة الله** عَزَّوَجَلَّ **ومن سعادة ابن آدم رضاه بما قضىٰ الله ومن شقوة ابن آدم: سخطه بما قضىٰ الله ومن شقاوة ابن آدم ترك استخارة الله**»(٣). فالرضا بالقضاء من أسباب السعادة والتسخط علىٰ القضاء من أسباب الشقاوة»(٤).

---

(١) الداء والدواء (٤٣٠/ ١).

(٢) الداء والدواء (٤٤٨/ ١).

(٣) قال الشيخ الألباني: (ضعيف) انظر حديث رقم: ٥٣٠٠ في ضعيف الجامع.

(٤) مدارج السالكين (٢٠٨/ ٢).

✍ **قال ابن القيم** رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «كان شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ يقول: من أراد السعادة الابدية فليلزم عتبة العبودية»(١).

✍ **وقَالَ الإِمَامُ ابن القَيِّمِ** رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «الإسلام والسنة والعافية سعادة الدنيا والآخرة ونعيمهما مبني علىٰ هذه الأركان الثلاثة»(٢).

✍ **وقال ابن القيم** رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «ولا تظن أن قوله تعالىٰ: ﴿إِنَّ ٱلْأَبْرَارَ لَفِى نَعِيمٍ ﴿١٣﴾ وَإِنَّ ٱلْفُجَّارَ لَفِى جَحِيمٍ ﴿١٤﴾﴾ [الانفطار: ١٣ - ١٤]، مختص بيوم المعاد فقط، بل هؤلاء في نعيم في دورهم الثلاثة، وهؤلاء في جحيم في دورهم الثلاثة. وأي لذة ونعيم في الدنيا أطيب من بر القلب، وسلامة الصدر، ومعرفة الرب تعالىٰ ومحبته، والعمل علىٰ موافقته؟ وهل العيش في الحقيقة إلا عيش القلب السليم؟»(٣).

وقَالَ الإِمَامُ ابن القَيِّمِ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «ويَا عَجَبا لَو صَحَّت العُقُولُ لَعَلِمَت أن طَرِيقَ تحْصِيلِ اللَّذَةِ والفرحَةِ والسُّرور وطِيب العَيْشِ إنمَا هو في رضَاءٍ مِن النعِيمِ كُلِّه في رضَاه والألَمُ والعَذَاب كُلُّه في سَخَطِه وغَضَبه ففي رضَاه قُرةُ العُيُون وسُرور النفوسِ وحَيَاةُ القُلُوب ولَذَّةُ الأرواحِ وطِيب الحَيَاةِ ولَذَّةُ العَيْشِ وأطْيَب النعِيمِ»(٤).

---

(١) المجموع القيم (٢٧٤/ ١).
(٢) اجتماع الجيوش ٣٣/ ٢.
(٣) الداء والدواء (٢٨٢/ ١).
(٤) الدَّاءُ والدَّواء (١٠٣).

✍ **وقال ابن القيم** رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «ومعلوم أن كمال العبد هو بأن يكون عارفًا بالنعيم الذي يطلبه، والعمل الذي يوصل إليه، وأن يكون مع ذلك فيه إرادة جازمة لذلك العمل، ومحبة صادقة لذلك النعيم، وإلا فالعلم بالمطلوب وطريقه لا يحصله إن لم يقترن بذلك العمل، والإرادة الجازمة لا توجب وجود المراد إلا إذا لازمها الصبر. فصارت سعادة العبد وكمال لذته ونعيمه موقوفًا علىٰ هذه المقامات الخمسة علمه بالنعيم المطلوب ومحبته له، وعلمه بالطريق الموصل إليه وعمله به، وصبره علىٰ ذلك. قال الله تعالىٰ: ﴿وَٱلْعَصْرِ ۝١ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَفِى خُسْرٍ ۝٢ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلْحَقِّ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلصَّبْرِ ۝٣﴾ [العصر: ١-٣]»(١).

✍ **وقال العلامة ابن القيم** رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «من سبقت له سابقة السعادة، دل علىٰ الدليل قبل الطلب»(٢).

✍ **وقال الجشمي**: «يقال إن آدم عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ سعد بخمسة أشياء: اعترف بالذنب، وندم عليه، ولام نفسه، وسارع إلىٰ التوبة، ولم يقنط من الرحمة، وشقي إبليس بخمسة أشياء: لم يقر بالذنب، ولم يندم، ولم يلم نفسه بل أضاف إلىٰ ربه فلم يتب، وقنط من الرحمة»(٣).

---

(١) إغاثة اللهفان (١٨٠/ ٢).

(٢) الفوائد (٤٨/ ١).

(٣) محاسن التأويل للقاسمي (٢٦/ ٥).

فصل في

موانع السعادة

✍ **قال ابن القيم** رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «فإنه سبحانه رتب المعيشة الضنك علىٰ الإعراض عن ذكره.

فالمعرض عنه له من ضنك المعيشة بحسب إعراضه، وإن تنعم في الدنيا بأصناف النعيم، ففي قلبه من الوحشة والذل والحسرات التي تقطع القلوب»(١).

✍ **وقال ابن القيم** رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «ومن عقوباتها - أي الذنوب والمعاصي -: أنها تجرئ علىٰ العبد من لم يكن يجترئ عليه من أصناف المخلوقات. فيجترئ عليه الشياطين بالأذىٰ والإغواء، والوسوسة، والتخويف، والتحزين، وإنسائه ما مصلحته في ذكره، ومضرته في نسيانه؛ فتجترئ عليه الشياطين حتىٰ تؤزُّه إلىٰ معصية الله أزًّا.

ويجترئ عليه شياطين الإنس بما تقدر عليه من أذاه في غيبته وحضوره. ويجترئ عليه أهله وخدمه وأولاده وجيرانه، حتىٰ الحيوان البهيم!»(٢).

---

(١) الداء والدواء (٢٧٩/ ١).

(٢) الداء والدواء(٢١٢/ ١).

✍ **وقال ابن القيم** رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «فالذنب إما أن يميت القلب، أو يمرضه مرضا مخوفا، أو يضعف قوته، ولا بد، حتىٰ ينتهي ضعفه إلىٰ الأشياء الثمانية التي استعاذ منها النبي ﷺ، وهي:

الهم والحزن، والعجز والكسل، والجبن والبخل، وضلع الدين وغلبة الرجال.

وكل اثنين منها قرينان؛ فالهم والحزن قرينان، فإن المكروه الوارد علىٰ القلب إن كان من أمر مستقبل يتوقعه أحدث الهم، وإن كان من أمر ماض قد وقع أحدث الحزن. والعجز والكسل قرينان، فإن تخلف العبد عن أسباب الخير والفلاح إن كان لعدم قدرته فهو العجز، وإن كان لعدم إرادته فهو الكسل.

والجبن والبخل قرينان، فإن عدم النفع منه إن كان ببدنه فهو الجبن، وإن كان بماله فهو البخل.

وضلع الدين وقهر الرجال قرينان، فإن استعلاء الغير عليه إن كان بحق فهو من ضلع الدين، وإن كان بباطل فهو قهر الرجال»(١).

والمقصود أن الذنوب من أقوىٰ الأسباب الجالبة لهذه الثمانية، كما أنها من أقوىٰ الأسباب الجالبة لجهد البلاء، ودرك الشقاء، وسوء القضاء،

---

(١) وانظر شرح الحديث في طريق الهجرتين (٨٦)، ومفتاح دار السعادة (١/ ٣٧٥)، وبدائع الفوائد (٧١٤).

وشماتة الأعداء[١]. ومن أقوىٰ الأسباب الجالبة لزوال نعم الله، وتحول عافيته، وفجاءة نقمته، وجميع سخطه[٢] [٣].

---

(١) جاء التعوذ منها في حديث أبي هريرة رضي الله عنه. أخرجه البخاري في الدعوات، باب التعوذ من جهد البلاء (٦٣٤٧)؛ ومسلم في الذكر والدعاء، باب في التعوذ من سوء القضاء... (٢٧٠٧).

(٢) وجاء التعوذ منها في حديث ابن عمر رضي الله عنهما. أخرجه مسلم في الذكر والدعاء، باب أكثر أهل الجنة الفقراء... (٢٧٣٩).

كذا نقله المصنف في طريق الهجرتين أيضًا عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه.

ولكن شيخ الإسلام نسبه في مجموع الفتاوىٰ (٨/ ١٦٣) إلىٰ عمر بن عبد العزيز رَحِمَهُ ٱللَّهُ.

وقد ورد من دعاء العباس بن عبد المطلب في الاستسقاء بلفظ «اللهم إنه لم ينزل بلاء إلا بذنب، ولم يكشف إلا بتوبة...» أخرجه ابن عساكر في تاريخه (٢٦/ ٣٥٩) بسند ضعيف جدًّا.

(٣) الداء والدواء (١٧٩/ ١).

فصل في

انقسام الناس إلى شقي وسعيد

من المعلوم _ يا رعاك الله _ أن العباد ليسوا في منزلة واحدة، ولا مرتبة متساوية، ولا طريقة متفقة، فأعمالهم وسعيهم ومذاهبهم شتىٰ، وأفكارهم مختلفة متباينة، فجعل الله شرعه حاكمًا فاصلًا مبينًا للعقائد والطرق الصحيحة، وجعلها طريقًا للسعادة في الدارين، ورد الطرق الضالة، والعقائد الزائغة، وجعلها طريقًا للشقاء، وأمد المكلفين وأعدهم بحواس الإدراك، كما قال سبحانه وتعالىٰ: ﴿أَلَمْ نَجْعَل لَّهُۥ عَيْنَيْنِ ۝٨ وَلِسَانًا وَشَفَتَيْنِ ۝٩ وَهَدَيْنَٰهُ ٱلنَّجْدَيْنِ ۝١٠﴾ [البلد:٨-١٠].

۞ وقال عَزَّوَجَلَّ: ﴿إِنَّا خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن نُّطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَّبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَٰهُ سَمِيعًۢا بَصِيرًا ۝٢ إِنَّا هَدَيْنَٰهُ ٱلسَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا ۝٣﴾ [الإنسان:٢-٣]، فحصل التمايز والانقسام بين الطوائف والفرق والأمم في قبول الحق؛ فترتب علىٰ قبولهم للحق أو ردهم له فيهم الشقي والسعيد، وذلك حاصل في يوم القيامة يوم الفصل: ﴿يَوْمَ يَأْتِ لَا تَكَلَّمُ نَفْسٌ إِلَّا بِإِذْنِهِۦ ۚ فَمِنْهُمْ شَقِىٌّ وَسَعِيدٌ ۝١٠٥﴾ [هود:١٠٥] وقد علم الله تعالىٰ بعلمه السابق شقيهم من سعيدهم قبل خلق السموات والأرض بخمسين ألف سنة وكتب ذلك وقدره في كتابه وقضاه.

❁ فعن علي رضي الله عنه قال كنا في جنازة في بقيع الغرقد فأتانا النبي ﷺ فقعد وقعدنا حوله ومعه مخصرة فنكس فجعل ينكت بمخصرته ثم قال: «**ما منكم من أحد ما من نفس منفوسة إلا كتب مكانها من الجنة والنار وإلا قد كتب شقية أو سعيدة**» فقال رجل: يا رسول الله أفلا نتكل علىٰ كتابنا وندع العمل فمن كان منا من أهل السعادة فسيصير إلىٰ عمل أهل السعادة وأما من كان منا من أهل الشقاوة فسيصير إلىٰ عمل أهل الشقاوة؟ قال: «**أما أهل السعادة فييسرون لعمل السعادة وأما أهل الشقاوة فييسرون لعمل الشقاوة** ثم قرأ ﴿فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَاتَّقَىٰ ۝٥ وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَىٰ ۝٦﴾ [الليل:٥، ٦] الآية(١).

يوم صوره في رحم أمه:

❁ جاء عن عبد الله بن مسعود قال: حدثنا رسول الله ﷺ وهو الصادق المصدوق: «**إن أحدكم يجمع خلقه في بطن أمه أربعين يومًا ثم يكون في ذلك علقة مثل ذلك ثم يكون في ذلك مضغة مثل ذلك ثم يرسل الملك فينفخ فيه الروح ويؤمر بأربع كلمات بكتب رزقه وأجله وعمله وشقي أو سعيد فوالذي لا إله غيره إن أحدكم ليعمل بعمل أهل الجنة حتىٰ ما يكون بينه وبينها إلا ذراع فيسبق عليه الكتاب فيعمل بعمل أهل النار فيدخلها وإن أحدكم ليعمل بعمل أهل النار حتىٰ ما يكون بينه وبينها إلا ذراع فيسبق عليه الكتاب فيعمل بعمل أهل الجنة فيدخلها**»(٢).

---

(١) رواه البخاري برقم (١٢٧٤)، ومسلم برقم (٤٧٨٦).

(٢) رواه البخاري رقم (٢٩٦٩)، ومسلم رقم (٧٨٥).

❁ **ومن الأدلة** قوله تعالىٰ: ﴿يَوْمَ يَأْتِ لَا تَكَلَّمُ نَفْسٌ إِلَّا بِإِذْنِهِۦ ۚ فَمِنْهُمْ شَقِيٌّ وَسَعِيدٌ ﴿١٠٥﴾﴾ [هود:١٠٥].

❁ قال تعالىٰ: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا لِّتُنذِرَ أُمَّ ٱلْقُرَىٰ وَمَنْ حَوْلَهَا وَتُنذِرَ يَوْمَ ٱلْجَمْعِ لَا رَيْبَ فِيهِ ۚ فَرِيقٌ فِى ٱلْجَنَّةِ وَفَرِيقٌ فِى ٱلسَّعِيرِ ﴿٧﴾﴾ [الشورى:٧].

✍ **قال العلامة السعدي** رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «فالأشقياء، هم الذين كفروا بالله، وكذبوا رسله، وعصوا أمره، والسعداء، هم: المؤمنون المتقون.

وأما جزاؤهم ﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ شَقُوا۟﴾ أي: حصلت لهم الشقاوة، والخزي والفضيحة، ﴿فَفِى ٱلنَّارِ﴾ منغمسون في عذابها، مشتد عليهم عقابها، ﴿لَهُمْ فِيهَا﴾ من شدة ما هم فيه ﴿زَفِيرٌ وَشَهِيقٌ ﴿١٠٦﴾﴾ [هود:١٠٦] وهو أشنع الأصوات وأقبحها. ﴿خَٰلِدِينَ فِيهَآ﴾ أي: في النار، التي هذا عذابها ﴿مَا دَامَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ إِلَّا مَا شَآءَ رَبُّكَ ۚ﴾ أي: خالدين فيها أبدًا، إلا المدة التي شاء الله، أن لا يكونوا فيها، وذلك قبل دخولها، كما قاله جمهور المفسرين، فالاستثناء علىٰ هذا، راجع إلىٰ ما قبل دخولها، فهم خالدون فيها جميع الأزمان، سوىٰ الزمن الذي قبل الدخول فيها ﴿إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ ﴿١٠٧﴾﴾ [هود:١٠٧] فكل ما أراد فعله واقتضته حكمته فعله، تبارك وتعالىٰ، لا يرده أحد عن مراده.

﴿وَأَمَّا ٱلَّذِينَ سُعِدُوا۟﴾ أي: حصلت لهم السعادة، والفلاح، والفوز ﴿فَفِى ٱلْجَنَّةِ خَٰلِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ إِلَّا مَا شَآءَ رَبُّكَ ۖ﴾ ثم أكد ذلك بقوله:

﴿عَطَآءً غَيۡرَ مَجۡذُوذٖ ١٠٨﴾ [هود:١٠٨] أي: ما أعطاهم الله من النعيم المقيم، واللذة العالية، فإنه دائم مستمر، غير منقطع بوقت من الأوقات، نسأل الله الكريم من فضله»(١).

✍ وقال العلامة العثيمين رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «وهداية توفيق لقبول الحق والعمل به، تصديقا للخبر وقياما بالطلب، وهذه خاصة يختص الله بها من يشاء من عباده والناس في هذا الباب ينقسمون إلىٰ أقسام:

القسم الأول: من هدي الهدايتين، أي علمه الله ووفقه للحق وقبوله.

والقسم الثاني: من حرم الهدايتين، فليس عنده علم، وليس له عبادة.

والقسم الثالث: من هدي بالدلالة والإرشاد، ولكنه لم يهد هداية التوفيق، وهذا شر الأقسام، والعياذ بالله»(٢).

۞ وعن ابن عمر أن رسول الله ﷺ خطب الناس يوم فتح مكة، فقال: «**يا أيها الناس إن الله قد أذهب عنكم عبية الجاهلية وتعاظمها بآبائها، فالناس رجلان: رجل بر تقي كريم علىٰ الله، وفاجر شقي هين علىٰ الله، والناس بنو آدم، وخلق الله آدم من التراب، قال الله:** ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقۡنَٰكُم مِّن ذَكَرٖ وَأُنثَىٰ..﴾ إلىٰ قوله: ﴿إِنَّ أَكۡرَمَكُمۡ عِندَ ٱللَّهِ أَتۡقَىٰكُمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٞ﴾ [الحجرات:١٣]»(٣).

---

(١) تيسير الكريم الرحمن (٣٨٩/ ١).

(٢) شرح رياض الصالحين (١٢٤/ ٢).

(٣) أخرجه الترمذي (٣٢٦٦)، والبيهقي (٢/ ٨٧/ ٢)، وسنن أبي داود (٥١١٥)، =⇦

❁ وعن عبد الله بن عمرو رضي الله عنه قال: «خرج علينا رسول الله ﷺ وفي يده كتابان، فقال: «**أتدرون ما هذان الكتابان؟**» فقلنا: لا يا رسول الله، إلا أن تخبرنا، فقال للذي في يده اليمنىٰ: «**هذا كتاب من رب العالمين، فيه أسماء أهل الجنة وأسماء آبائهم وقبائلهم، ثم أجمل علىٰ آخرهم، فلا يزاد فيهم ولا ينقص منهم أبدًا**»، ثم قال للذي في شماله: «**هذا كتاب من رب العالمين، فيه أسماء أهل النار وأسماء آبائهم وقبائلهم، ثم أجمل علىٰ آخرهم، فلا يزداد فيهم ولا ينقص منهم**»، فقال أصحابه: ففيم العمل يا رسول الله إن كان أمر قد فرغ منه؟ فقال: «**سددوا وقاربوا، فإن صاحب الجنة يختم له بعمل أهل الجنة وإن عمل أي عمل وإن صاحب النار يختم له بعمل أهل النار وإن عمل أي عمل**». ثم قال رسول الله ﷺ بيديه فنبذهما، ثم قال: «**فرغ ربكم من العباد فريق في الجنة وفريق في السعير**»(١).

❁ وعن أبي الدرداء عن النبي ﷺ قال: «**خلق الله آدم حين خلقه فضرب كتفه اليمنىٰ فأخرج ذرية بيضاء كأنهم الذر وضرب كتفه اليسرىٰ فأخرج ذرية سوداء كأنهم الحمم فقال للذي في يمينه إلىٰ الجنة ولا أبالي وقال للذي في**

= صحيح الترغيب (٢٩٦٥) قال الشيخ الألباني: حسن. انظر حديث رقم: ٧٨٦٧ في صحيح الجامع.

(١) قال الألباني في «السلسلة الصحيحة» ٢/ ٥٢٨: أخرجه الترمذي (٣/ ١٩٩ ـ ٢٠٠)، وأحمد (٢/ ١٦٧)، وابن أبي عاصم في «السنة» (٣٤٨)، وأبو نعيم في «الحلية» (٥/ ١٦٨ ـ ١٦٩).

كفه اليسرىٰ إلىٰ النار ولا أبالي»[(١)].

---

(١) قال الألباني في «السلسلة الصحيحة» ١/ ٧٧: رواه أحمد وابنه في زوائد «المسند» (٦/ ٤٤١)، وابن عساكر في «تاريخ دمشق» (ج ١٥/ ١٣٦/ ١).

قلت: وإسناده صحيح.

قال الشيخ الألباني: (صحيح). انظر حديث رقم: ٣٢٣٤ في صحيح الجامع.

فصل في

أسباب سعادة الدنيا جزء من سعادة الآخرة ومعينة للظفر بها

❁ عن سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه قال رسول الله ﷺ «**أربع من السعادة: المرأة الصالحة، والمسكن الواسع، والجار الصالح، والمركب الهنيء. وأربع من الشقاء: الجار السوء، والمرأة السوء، والمسكن الضيق**»(١).

❁ وعن سعد بن أبي وقاص مرفوعًا قال: «**ثلاث من السعادة وثلاث من الشقاوة فمن السعادة: المرأة تراها تعجبك وتغيب فتأمنها علىٰ نفسها ومالك، والدابة تكون وطيئة فتلحقك بأصحابك، والدار تكون واسعة كثيرة المرافق. ومن الشقاوة المرأة تراها فتسوءك وتحمل لسانها عليك وإن غبت عنها لم تأمنها علىٰ نفسها، ومالك والدابة تكون قطوفًا، فإن ضربتها أتعبتك وإن تركتها لم تلحقك بأصحابك، والدار تكون ضيقة قليلة المرافق**»(٢).

---

(١) قال الألباني في «السلسلة الصحيحة» ١/ ٥٠٩: أخرجه ابن حبان في «صحيحه» (١٢٣٢)، والخطيب في «التاريخ» (١٢/ ٩٩)، وأخرجه أحمد (١/ ١٦٨)، وأخرجه الطبراني في «الكبير» (١/ ١٩/ ١)، و«الأوسط» (١/ ١٦٣/ ١).
قال العلامة الألباني: وهذا سند صحيح علىٰ شرط الشيخين/ صحيح الترغيب (٢٥٧٦).
قال الشيخ الألباني: (صحيح). انظر حديث رقم: ٨٨٧ في صحيح الجامع.

(٢) قال الألباني في «السلسلة الصحيحة» ٣/ ٣٩: أخرجه الحاكم (٢/ ١٦٢)أخرجه ابن
⇦=

✍ وقال ابن حبان رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «وإن من سعادة المرء خصالًا أربعًا: أن تكون زوجته موافقة، وولده أبرارًا، وإخوانه صالحين، وأن يكون رزقه في بلده»(١).

✍ **قال الشاعر:**

سعادة المرء في خمس إذا اجتمعت ∴ صلاح جيرانه والبر في ولده
وزوجة حسنت أخلاقها وكذا ∴ خل وفي ورزق المرء في بلده

فهذه الخصال هي أسباب مقتضية للسعادة متسببة في حصولها جالبة للمرء انشراح الصدر والفرح وطيب النفس والجمع بين هذه الأسباب كلها في حديث واحد لملازمتها للعبد في حياته وحاجته إليها الشديدة وهي جزء لا يتجزأ من حياته فلو صلحت هذه الأشياء وطابت فقد تم للعبد سعادته بها في الدنيا ووجودها من أعظم ما يعين العبد علىٰ أمر دينه وآخرته واستقرار عيشته وعبادته والله الموفق.

✍ **قال ابن النبيه الشاعر:**

نيطت سعادة دنياه بأخراه ∴ فهو السعيد ودنياه كأخراه(٢)

= عساكر في «تاريخ دمشق» (١٦/ ٢٣٢/ ١).
قال الشيخ الألباني: (حسن). انظر حديث رقم: ٣٠٥٦ في صحيح الجامع.
(١) روضة العقلاء ونزهة الفضلاء (١٠٠/ ١).
(٢) ديوان ابن النبيه (١٤٠/ ١).

✍ وقال الشاعر:

إذا اجتمع الإسلام والقوت للفتىٰ ∴ وكان صحيحا جسمه وهو في أمن
فقد ملك الدنيا جميعا وحازها ∴ وحق عليه الشكر لله ذي المن

أولاً: السعادة بالزوجة الصالحة

❁ عن عبد الله بن عمرو قال: قال رسول الله ﷺ: «**الدنيا كلها متاع وخير متاع الدنيا المرأة الصالحة**»(١).

✍ **قال العلامة الأثيوبي** رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «لأنها معينة علىٰ أمور الآخرة»

✍ **قال القرطبي** رَحِمَهُ ٱللَّهُ: هي الصالحة في دينها، ونفسها، والمصلحة لحال زوجها، وهذا كما قال في الحديث الآخر: «**ألا أخبركم بخير ما يكنز المرء؟**»، قالوا: بلىٰ، قال: «**المرأة الصالحة، التي إذا نظر إليها سرته، وإذا غاب عنها حفظته، وإذا أمرها أطاعته**»(٢).

✍ **قال الطيبي** رَحِمَهُ ٱللَّهُ: وقيد بالصالحة إيذانا بأنها شر لو لم تكن علىٰ هذه الصفة. انتهىٰ.

وفيه فيه الحث علىٰ البحث عن المرأة الصالحة؛ إذ هي أفضل متاع الدنيا، فينبغي للعاقل البحث، والتنقيب عنها؛ لتتكامل له الحياة المرضية

---

(١) رواه مسلم [١٤٦٧].

(٢) حديث ضعيف، أخرجه أبو داود برقم (١٦٦٤)، ورجال إسناده ثقات، وضعفه الشيخ الألباني رَحِمَهُ ٱللَّهُ. راجع: «ضعيف سنن أبي داود» ٢/ ١٢٦.

التي تتصل بالحياة الأبدية، والسعادة السرمدية(١).

❁ وعن ثوبان مرفوعًا: «**ليتخذ أحدكم قلبًا شاكرًا، ولسانًا ذاكرًا، وزوجة صالحة تعينه علىٰ أمر الآخرة**»(٢).

❁ وعن أنس رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «**من رزقه الله امرأة صالحة فقد أعانه علىٰ شطر دينه، فليتق الله في الشطر الباقي**»(٣).

✍ **قال العلامة العثيمين** رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «السعادة الزوجية لا تأتي بالعنف وفرض السيطرة فإن هذا خطأ ولكن ينظر إليها أنها زوجته وقرينته وأم أولاده وراعية بيته فيحترمها كما يحب أن تحترمه»(٤).

✍ **وقال الحافظ ابن رجب** رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «أن ابن آدم في الدنيا لا بد له من أهل يعاشرهم، ومال يعيش به، فهذان صاحبان يفارقانه ويفارقهما فالسعيد من اتخذ من ذلك ما يعينه علىٰ ذكر الله تعالىٰ، وينفعه في الآخرة. فيأخذ من

---

(١) البحر الثجاج شرح «صحيح مسلم» بن الحجاج (٨٢٥/ ٢٥).

(٢) قال الألباني في «السلسلة الصحيحة» ٥/ ٢٠٨: رواه الترمذي (٣٠٩٣)، وابن ماجة (١/ ٥٧١)، وأحمد (٥/ ٢٧٨ و٢٨٢)، وأبو نعيم في «الحلية» (١/ ١٨٢ و١٨٢ - ١٨٣)، والحافظ ابن حجر في «الأحاديث العاليات» (رقم ١٥) عن سالم بن أبي الجعد قال الشيخ الألباني: (صحيح). انظر حديث رقم: ٥٣٥٥ في صحيح الجامع.

(٣) أخرجه الطبراني في «الأوسط» (٣/ ١٦١/ ١)، والحاكم (٢/ ١٦١) صحيح الترغيب والترهيب (١٩١٦) (حسن لغيره).

(٤) نور علىٰ الدرب (١٠/ ١٣).

المال ما يبلغ به إلىٰ الآخرة، ويتخذ زوجة صالحة تعينه علىٰ إيمانه»(١).

صفات الزوجة السعيدة للعبد السعيد الموفق:

(١) عن محمد بن عجلان عن سعيد المقبري عن أبي هريرة قال: «قيل لرسول الله ﷺ: أي النساء خير؟ قال: «**خير النساء التي تسره إذا نظر وتطيعه إذا أمر ولا تخالفه في نفسها ولا مالها بما يكره**»(٢).

(٢) عن أبي أذينة الصدفي أن رسول الله ﷺ قال: «**خير نسائكم الودود الولود المواتية المواسية، إذا اتقين الله، وشر نسائكم المتبرجات المتخيلات وهن المنافقات لا يدخل الجنة منهن إلا مثل الغراب الأعصم**»(٣).

۞ وعن ابن عباس رضي الله عنهما قال النبي ﷺ قال: «**ألا أخبركم برجالكم من أهل الجنة؟ النبي في الجنة، والصديق في الجنة، والشهيد في الجنة، والمولود في الجنة، والرجل يزور أخاه في ناحية المصر لا يزوره إلا لله** عَزَّوَجَلَّ، **ونساؤكم من أهل الجنة الودود الولود العؤود علىٰ زوجها التي إذا غضب جاءت حتىٰ تضع يدها في يد زوجها، وتقول: لا أذوق غمضا حتىٰ ترضىٰ**»(٤).

---

(١) مجموع رسائل ابن رجب (٢/ ٤٢١).

(٢) قال الألباني في «السلسلة الصحيحة» ٤/ ٤٥٣: رواه النسائي (٢/ ٧٢)، والحاكم (٢/ ١٦١)، وأحمد (٢/ ٢٥١ و٤٣٢ و٤٣٨)، وقال الحاكم: «صحيح علىٰ شرط مسلم». ووافقه الذهبي. وقال العراقي (٢/ ٣٦)، وهو حديث حسن.

(٣) قال الألباني في «السلسلة الصحيحة» ٤/ ٤٦٤: أخرجه البيهقي في «السنن» (٧/ ٨٢ قال الشيخ الألباني: (صحيح) انظر حديث رقم: ٣٣٣٠ في صحيح الجامع.

(٤) قال الألباني في «السلسلة الصحيحة» ١/ ٥١٥: أخرجه تمام الرازي في «الفوائد» (ق

⇦=

فالزوجة الصالحة التي وجدت فيها هذه الصفات والأخلاق لا شك أنها نعمة من أعظم النعم التي بها تطيب الحياة الزوجية وتستقر الحالة النفسية ويحصل الراحة والانشراح وطيب العيش وقلة المشاكل وزوال منغصات الحياة وتخف علىٰ الزوجين عظم المسؤولية بوجود التكافل والتغافل والتكامل فيما بينهما فتعين الزوج بالمال والرأي والكلمة الطيبة ما يكون بذلك سببا لزوال همه وغمه وقضاء دينه وتنفيس ما يلقاه الزوج من متاعب الحياة وصعوبة العيش ويجد منها النفع الأخروي كذلك في حثه وترغيبه وإعانته علىٰ الطاعات وترك التفريط في الواجبات وتحفظ نفسها وأولادها ومتاع زوجها وخصوصياته عندها فبهذه الأشياء في الزوجة الصالحة كمال سعادة الرجل ولذته في عيشته معها حتىٰ يلقىٰ أحدهما ربه لذلك هيئ الله لنبيه في بداية دعوته بزوجته الصالحة خديجه رضي الله عنها قال عنها وهو يخبر عائشة «صدقتني حين كذبني الناس وواستني حين حرمني الناس بمالها ونفسها ورزقت منها الولد»

وقالت له أول يوم من أيام الرسالة لما رأىٰ جبريل عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ بصورته فزعًا مهدأة لروعة ورابطة لجأشه: «والله لا يخزيك الله أبدًا إنك لتحمل الكل وتقري الضيف وتعين علىٰ نوائب الحق»

✍ **وقال العلامة ابن العربي** رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «الزوجة الصالحة لا تأتي بسعيك

= ٢٠٢/ ١)، وعنه ابن عساكر (٢/ ٨٧/ ٢) بتمامه، وأبو بكر الشافعي في «الفوائد» (ق ١١٥ ١١٦)، وأبو نعيم في «الحلية» (٤/ ٣٠٣) نصفه الأول، والنسائي في «عشرة النساء» (١/ ٨٥/ ١).

فهي رزق يساق لمن أتقىٰ ربه ولا تتزوج إلا بالصالحة فإذا لم تكن صالحة فإنه لا يستقيم أمره معها إلا بذهاب جزء من دينه وذلك مشاهد معلوم بالتجربة»(١).

✍ وقال ابن رجب رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «السعيد من اتخذ زوجة صالحة تعينه علىٰ إيمانه»(٢).

✍ وقال العلامة العثيمين رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «إذا وفق الإنسان لامرأة صالحة في دينها وعقلها فهذا خير متاع الدنيا لأنها تحفظه في سره وماله وولده. وإذا كانت صالحة في العقل أيضًا، فإنها تدبر له التدبير الحسن في بيته وفي تربية أولادها، إن نظر إليها سرته، وإن غاب عنها حفظته، وإن وكل إليها لم تخنه، فهذه المرأة هي خير متاع الدنيا»(٣).

❁ عن أبي أمامة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ قال ﷺ: «**قلب شاكر ولسان ذاكر وزوجة صالحة تعينك علىٰ أمر دنياك ودينك خير ما اكتنز الناس**»(٤).

ثانيًا: السعادة بالبيت الواسع

❁ وقد جاء في الدعاء بسعة المسكن وكثرت مرافقه وعن أبي هريرة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ أن رجلًا قال: يا رسول الله سمعت دعاءك الليلة فكان الذي وصل إلي

---

(١) أحكام القرآن (١/ ٥٣٦).

(٢) رسائل ابن رجب (٢/ ٤٢١).

(٣) شرح رياض الصالحين (٥٤٩/ ١).

(٤) رواه ابن ماجه. قال الشيخ الألباني: (صحيح). انظر حديث رقم: ٤٤٠٩ في صحيح الجامع.

منه أنك تقول: «**اللهم اغفر لي ذنبي، ووسع لي في رزقي، وبارك لي فيما رزقتني** –قال:– **فهل تراهن تركن شيئًا**»(١).

وقد سبق في الحديث السابق في توضيح معنىٰ البيت الواسع «الدار تكون واسعة كثيرة المرافق من السعادة والدار تكون ضيقة قليلة المرافق من الشقاوة»

❁ والبيت بحد ذاته نعمة من النعم التي يجب شكر الله تعالىٰ عليها وقد استحب لمن أراد أن ينام أن يدعو من حديث أنس رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ كان إذا أوىٰ إلىٰ فراشه قال: «**الحمد لله الذي أطعمنا وسقانا وكفانا وآوانا فكم ممن لا كافي له ولا مؤوي**»(٢).

«فالمعنىٰ أنا نحمد الله علىٰ أن عرفنا نعمه، ووفقنا لأداء شكرها، فكم من منعم عليه لا يعرفون ذلك، ولا يشكرون، وكذلك الله مولىٰ الخلق كلهم بمعنىٰ: أنه ربهم، ومالكهم، لكنه ناصر للمؤمنين، ومحب لهم، فالفاء في «فكم» لتعليل الحمد. انتهىٰ»(٣).

فيستشعر في تلك اللحظة وذلك الوقت الذي كل إنسان عند نومه يأوي إلىٰ بيته الذي يستره ويحرز فيه نفسه وولده وزوجه وماله ومتاعه حتىٰ الدواب والطيور والبهائم لها بيوت وأوكار تأوي إليها إذا جاء الليل وحان

---

(١) جامع الترمذي (٣٤٩٨) قال الشيخ الألباني: (حسن). انظر حديث رقم: ١٢٦٥ في صحيح الجامع.

(٢) رواه مسلم (٤٨٩٠)، وأخرجه الترمذي (٣٣٩٤)، وفي سنن أبي داود (٥٠٥٢).

(٣) الكاشف عن حقائق السنن ٦/ ١٨٧٥.

وقت الراحة والنوم ويكمل هذه النعمة باتساعها وكثرت مرافقها ليتم فيها الراحة والتهوية للبيت ودخول الهواء وخروج الأوساخ والروائح الكريهة من البيت ولا يحتاج إلىٰ السعة عند تعدد المرافق للضيف وعند كثرت الأولاد وعند وجود متاع كثير أو كان دابة أو مركب فهذا لا يحصل إلا بسعة البيوت وكثرت المرافق ليزول تحمله بما لا يريد فقده ويخاف ضياعه وزوال الإحراج عنه والمشقة حين لا يوجد هذا في البيت. والله أعلم.

ثالثًا: الجار الصالح المعين على الطاعة ونوائب الدهر

فالجار الصالح من يوثق بأمانته في أمانة المال والعرض والنفس وتعرف من شهامته عند المواقف إذا دعت الحاجة إليه عند الغياب أو عند عدم القدرة علىٰ القيام بالواجب فيحسن الظن به لديانته وعفته ونصيحته ومروءته والإحسان والمعونة والكرم والعفة والسؤال عن الحال والمواساة بالقول والفعل وقد تعوذ النبي ﷺ من جار السوء في دار المقام الذي ينغص العيش ويضيق بوجوده كل واسع.

❁ عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «**تعوذوا بالله من جار السوء في دار المقام فإن جار البادية يتحول عنك**»(١).

❁ وفي لفظ «**استعيذوا بالله من شر جار المقام، فإن جار المسافر إذا شاء أن يزايل زايل**»(٢).

---

(١) رواه سنن النسائي (٥٥٠٢) قال الشيخ الألباني: (صحيح). انظر حديث رقم: ٢٩٦٧ في صحيح الجامع قال الشيخ الألباني: حسن صحيح.

(٢) قال الألباني في «السلسلة الصحيحة» ٣/ ٤٢٨: أخرجه الحاكم (١/ ٥٣٢)، وقال: =

❁ وقد نفىٰ عن الجار السيئ كمال الإيمان ويمنع من دخول الجنة دخولا أوليا بسبب إيذائه لجيرانه لما ينغص به من عيش جاره وتسبب الحرج والمشقة عليه فقال من حديث أنس قال: قال رسول الله ﷺ: «**لا يدخل الجنة من لا يأمن جاره بوائقه**»(١).

✍ وقال من حديث أنس بن مالك رضي الله عنه مرفوعًا «**ليس بمؤمن من لا يأمن جاره غوائله**»(٢).

-الجار الصالح يشترى بأغلى الأثمان

باع أبو الجهم العدوي داره بمائة ألف دينار، ثم قال للمشتري: بكم تشترون جِوار سعيد بن العاص؟

فقالوا: وهل يُشترىٰ جِوار قط؟

قال: ردُّوا عليَّ داري، وخذوا دراهمكم، والله لا أدع جِوار رجُل: إن فقِدت سأل عني، وإن رآني رحَّب بي، وإن غِبت حفظني، وإن شهدت قربني، وإن سألته أعطاني وإن لم أسأله ابتدأني، وإن نابتني جائحة فرج عني.

= «هذا حديث صحيح علىٰ شرط مسلم» أخرجه أحمد (٢/ ٣٤٦) من هذا الوجه بلفظ. «**تعوذوا بالله من شر جار المقام، فإن جار المسافر إذا شاء أن يزال زال**» وهو حديث حسن.

(١) رواه مسلم [انظر الإيمان باب بيان تحريم إيذاء الجار رقم ٤٦]، والبخاري (٢٩- باب إثم من لا يأمن جاره بوائقه..

(٢) قال الألباني في «السلسلة الصحيحة» ٥/ ٢١٣: أخرجه ابن نصر في «الصلاة» (١٤١/ ٢)، والحاكم (٤/ ١٦٥).

فبلغ ذلك سعيدًا فبعث إليه بمائة ألف درهم وقال له: أبقىٰ في دارك[١].

-الجار السُّوء يُباع بأبخس الأثمان.

كان لأبي الأسود الدؤلي جيران بالبصرة، يُؤذونه في الجِوار، ويَرمونه في الليل بالحجارة،

ويقول لهم: لِمَ ترجموني بالحجارة؟

فيقولون: إنما يرجمك الله تعالىٰ.

فيقول لهم: كذبتم، لو رجمني الله لأصابني، وأنتم ترجمونني ولا تصيبوني.

ثم باع الدار، فقيل له: بعت دارك؟

فقال: بل بعت جَاري.

يلومونني أن بعت بالرخص منزلي ∴ ولم يعرفوا جارا هناك ينغِّص
فقلت لهم: كفوا الملام فإنها ∴ بجيرانها تغلو الدِّيار وترخص[٢]

من السعادة أن يرزق مقومات الحياة السعيدة في الدنيا

❁ عن عبيد الله بن محصن الأنصاري عن أبيه مرفوعًا: «**من أصبح منكم**

---

(١) حياة الحيوان الكبرىٰ للدميري (١/ ٤٨٧)، وربيع الأبرار ونصوص الأخيار (١/ ٣٩٣).

(٢) قلادة النحر في وفيات أعيان الدهر (١/ ٥٠٨) شرح مقامات الحريري للشريشي (٣/ ٤٥٥-٤٥٦).

آمنا في سربه معافىٰ في جسده عنده قوت يومه، فكأنما حيزت له الدنيا بحذافيرها»(١).

✍ **قال الصنعاني** رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «(من أصبح منكم آمنا في سربه) بكسر السين علىٰ الأشهر أي في نفسه وروىٰ بفتحها أي في مسلكه وقيل بفتحتين أي في بيته (معافىٰ في جسده) صحيحا في بدنه (عنده قوت يومه) غداؤه وعشاؤه (فكأنما حيزت له الدنيا) أي ضمت وجمعت. (بحذافيرها) بجوانبها إذ ليس مع من نال الدنيا بجوانبها سوىٰ هذه الثلاث»(٢).

✍ **وقال شارح «رياض الصالحين»**: «يعني: كأنما جمعت وأعطيت له الدنيا بحذافيرها، وذلك أنه لو كانت الدنيا بحذافيرها فهو في النهاية سيملأ بطنه من طعام ويملأ بطنه من شراب، وينام علىٰ سريره الذي هو فيه ولن يشغل أكثر من سرير في النومة الواحدة، فعلىٰ ذلك فإن الإنسان الذي يصبح وهو آمن معافىٰ وعنده قوت يومه، كأنه أخذ الدنيا بما فيها، فصار ملكا من الملوك، فاحمدوا ربكم علىٰ ما أعطاكم من نعم، وعلىٰ ما أنعم عليكم بفضله وبكرمه، وسلوا الله من فضله ومن رحمته، فإنه لا يملكها إلا هو»(٣).

---

(١) قال الألباني في «السلسلة الصحيحة» ٥/ ٤٠٨: روي من حديث عبيد الله بن محصن الأنصاري وأبي الدرداء وابن عمر وعلي أخرجه البخاري في «الأدب المفرد» (٣٠٠)، و«التاريخ» (٣/ ١/ ٣٧٣)، والترمذي (٢٣٤٧)، وابن ماجة (٢/ ٥٢٥)، والحميدي في «مسنده» رقم (٤٣٩).

(٢) التنوير شرح الجامع الصغير (١١٠/ ١٠).

(٣) شرح رياض الصالحين لحطيبة (١٧/ ٣٥).

✍ وقال العلامة السعدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «فإن من أصبح آمنًا في سربه معافىٰ في بدنه عنده قوت يومه وليلته فكأنما حيزت له الدنيا بحذافيرها وأغبط الناس من عنده رزق يكفيه، وبيت يؤويه، وزوجة ترضيه، وسلم من الدين الذي يثقله ويؤذيه، فليس الغنىٰ عن كثرة العرض إنما الغني غني القلب»(١).

✍ **وقال صالح الدمشقي لابنه:** «يا بني، إذا مر بك يوم وليلة قد سلم فيهما دينك، وجسمك، ومالك، وعيالك فأكثر الشكر لله تعالىٰ، فكم من مسلوب دينه، ومنزوع ملكه، ومهتوك ستره، ومقصوم ظهره في ذلك اليوم، وأنت في عافية»(٢).

✍ وعن أبي عبد الرحمن البجلي قال سمعت عبد الله بن عمرو بن العاص وسأله رجل فقال: «ألست من فقراء المهاجرين فقال له عبد الله ألك امرأة تأوي إليها قال نعم قال ألك مسكن تسكنه قال نعم قال فأنت من الأغنياء قال فإني لي خادما قال فأنت من الملوك»(٣).

---

(١) الفواكه الشهية في الخطب المنبرية (٨١/ ١).

(٢) سير أعلام النبلاء (٣/ ٢٢٢).

(٣) رواه مسلم (٢٩٧٩) موقوفا (انظر صحيح الترغيب [٣٢٢٢]).

فصل

السعيد الموفق جنته في صدره

❁ ومن أدلة هذا الفصل العظيم قال تعالىٰ: ﴿ مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً ۖ وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٩٧﴾ ﴾ [النحل:٩٧].

✍ **قال العلامة السعدي** رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «وذلك بطمأنينة قلبه وسكون نفسه وعدم التفاته لما يشوش عليه قلبه ويرزقه الله رزقا حلالًا طيبًا من حيث لا يحتسب»(١).

✍ **وقال العلامة ابن كثير** رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «هذا وعد من الله تعالىٰ لمن عمل صالحًا -وهو العمل المتابع لكتاب الله تعالىٰ وسنة نبيه من ذكر أو أنثىٰ من بني آدم، وقلبه مؤمن بالله ورسوله، وإن هذا العمل المأمور به مشروع من عند الله -بأن يحييه الله حياة طيبة في الدنيا وأن يجزيه بأحسن ما عمله في الدار الآخرة. والحياة الطيبة تشمل وجوه الراحة من أي جهة كانت.

وقال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس أنها السعادة»(٢).

---

(١) تيسير الكريم الرحمن (٤٤٨/ ١).

(٢) تفسير القرآن العظيم (٦٠١/ ٤).

❁ قال تعالىٰ: ﴿إِنَّ ٱلۡأَبۡرَارَ لَفِي نَعِيمٖ ١٣﴾ [الانفطار:١٣].

✍ **وقال العلامة السعدي** رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «المراد بالأبرار، القائمون بحقوق الله وحقوق عباده، الملازمون للبر، في أعمال القلوب وأعمال الجوارح، فهؤلاء جزاؤهم النعيم في القلب والروح والبدن، في دار الدنيا وفي دار البرزخ وفي دار القرار»(١).

✍ **وقال ابن القيم** رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «وجنة المعرفة والمحبة والانس بالله والشوق إلىٰ لقائه والفرح به والرضىٰ عنه وبه مأوىٰ روحه في هذه الدار فمن كانت هذه الجنة مأواه ههنا كانت جنة الخلد مأواه يوم المعاد ومن حرم هذه الجنة فهو لتلك الجنة أشد حرمانا والابرار في نعين وإن اشتد بهم العيش وضاقت بهم الدنيا والفجار في جحيم وإن اتسعت عليهم الدنيا قال تعالىٰ من عمل صالحًا من ذكر أو أنثي وهو مؤمن فلنحيينه حياة طيبة وطيب الحياة جنة الدنيا قال تعالىٰ فمن يرد الله أن يهديه يشرح صدره للإسلام ومن يرد أن يضله يجعل صدره ضيقا حرجا فأي نعيم أطيب من شرح الصدر وأي عذاب أضيق من ضيق الصدر وقال تعالىٰ ألا إن أولياء الله لا خوف عليهم ولا هم يحزنون الذين آمنوا وكانوا يتقون لهم البشرىٰ في الحيوة الدنيا وفي الآخرة لا تبديل لكلمات الله ذلك هو الفوز العظيم فالمؤمن المخلص لله من أطيب الناس عيشًا، وأنعمهم بالًا، وأشرحهم صدرًا، وأسرهم قلبًا، وهذه جنة عاجلة قبل الجنة الآجلة»(٢).

---

(١) تيسير الكريم الرحمن (٢٠٨٣).

(٢) الجواب الكافي (١٣٩/ ١).

✍ **قال ابن القيم**: «الأبرار في النعيم، وإن اشتدّ بهم العيش، وضاقت عليهم الدنيا، والفجار في جحيم، وإن اتسعت عليهم الدنيا»(١).

✍ **قال شيخ الإسلام ابن تيمية** رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «فالإنسان إذا كان مقيمًا علىٰ طاعة الله باطنًا وظاهرًا كان في نعيم الإيمان والعلم وارد عليه من جهاته وهو في جنة الدنيا»(٢).

✍ **وقال الفضل بن عيسىٰ** رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «والله لو جمع للعابدين لذات الدنيا بحذافيرها لكان امتهانهم أنفسهم لله بطاعته ألذ وأحلىٰ عندهم من ذلك»(٣).

✍ **وقال شيخ الإسلام** رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «ليس في الدنيا نعيم يشبه نعيم الآخرة إلا نعيم الإيمان»(٤).

✍ **وقال العلامة ابن القيم** رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «أهل السعادة والفلاح فإن حياتهم في الدنيا أطيب الحياة ولهم في البرزخ وفي الآخرة أفضل الثواب.

❁ قال تعالىٰ: ﴿ مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً ﴾ فهذا في الدنيا، ثم قال: ﴿وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٩٧﴾﴾ [النحل:٩٧] فهذا في البرزخ والآخرة.

❁ وقال تعالىٰ: ﴿ وَٱلَّذِينَ هَاجَرُوا۟ فِى ٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ مَا ظُلِمُوا۟ لَنُبَوِّئَنَّهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا

---

(١) [الداء والدواء ص ٤٥٩].

(٢) مجموع الفتاوىٰ (١٦٠/ ١٤).

(٣) المحبة لله للختلي (٢٠٩).

(٤) مجموع الفتاوىٰ (٢٨/ ٣١).

حَسَنَةٗۖ وَلَأَجۡرُ ٱلۡأٓخِرَةِ أَكۡبَرُۚ لَوۡ كَانُواْ يَعۡلَمُونَ ﴿٤١﴾ [النحل:٤١].

❁ وقال تعالىٰ: ﴿وَأَنِ ٱسۡتَغۡفِرُواْ رَبَّكُمۡ ثُمَّ تُوبُوٓاْ إِلَيۡهِ يُمَتِّعۡكُم مَّتَٰعًا حَسَنًا إِلَىٰٓ أَجَلٖ مُّسَمّٗى وَيُؤۡتِ كُلَّ ذِي فَضۡلٖ فَضۡلَهُۥۖ﴾ [هود:٣]. فهذا في الآخرة.

❁ وقال تعالىٰ: ﴿قُلۡ يَٰعِبَادِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمۡۚ لِلَّذِينَ أَحۡسَنُواْ فِي هَٰذِهِ ٱلدُّنۡيَا حَسَنَةٞۗ وَأَرۡضُ ٱللَّهِ وَٰسِعَةٌۗ إِنَّمَا يُوَفَّى ٱلصَّٰبِرُونَ أَجۡرَهُم بِغَيۡرِ حِسَابٖ ﴿١٠﴾﴾ [الزمر:١٠].

فهذه أربعة مواضيع ذكر الله تعالىٰ فيها أنه يجزي المحسن بإحسانه جزاءين: جزاء في الدنيا وجزاء في الآخرة.

فالإحسان له جزاء معجل ولا بد، والإساءة لها جزاء معجل ولا بد.

ولو لم يكن إلا ما يجازي به المحسن من انشراح صدوره في انفساح قلبه وسروره ولذاته بمعاملة ربه عَزَّوَجَلَّ وطاعته وذكره ونعيم روحه بمحبته.

وذكره وفرحه بربه سبحانه وتعالىٰ أعظم مما يفرح القريب من السلطان الكريم عليه بسلطانه.

وما يجازي به المسيء من ضيق الصدر وقسوة القلب وتشتته وظلمته وحزازاته وغمه وهمه وحزنه وخوفه وهذا أمر لا يكاد من له أدني حس وحياة يرتاب فيه، بل الغموم والهموم والأحزان والضيق عقوبات عاجلة ونار دنيوية وجهنم حاضرة، والاقبال علىٰ الله تعالىٰ والانابة إليه والرضاء به وعنه وامتلاء القلب من محبته واللهج بذكره والفرح والسرور بمعرفته ثواب عاجل وجنة وعيش لا نسبة لعيش الملوك إليه البتة.

وسمعت شيخ الإسلام ابن تيمية قدَّس الله روحه يقول: إن في الدنيا جنة

من لم يدخلها لا يدخل جنة الاخرة وقال لي مرة ما يصنع أعدائي بي انا جنتي وبستاني في صدري أنّىٰ رحت فهي معي لا تفارقني إن حبسي خلوة وقتلي شهادة وإخراجي من بلدي سياحة وكان يقول في محبسه في القلعة لو بذلت ملء هذه القلعة ذهبًا ما عدل عندي شكر هده النعمة أو قال ما جزيتهم علىٰ ما تسببوا لي فيه من الخير ونحو هذا وكان يقول في سجوده وهو محبوس اللهم اعني علىٰ ذكرك وشكرك وحسن عبادتك ما شاء الله وقال لي مرة المحبوس من حبس قلبه عن ربه تعالىٰ والمأسور من أسره هواه ولما دخل إلىٰ القلعة وصار داخل سورها نظر إليه وقال: ﴿فَضُرِبَ بَيْنَهُم بِسُورٍ لَّهُۥ بَابٌۢ بَاطِنُهُۥ فِيهِ ٱلرَّحْمَةُ وَظَٰهِرُهُۥ مِن قِبَلِهِ ٱلْعَذَابُ ﴿١٣﴾﴾ [الحديد:١٣] (وعلم الله ما رأيت أحدًا أطيب عيشًا منه قط مع كل ما كان فيه من ضيق العيش وخلاف الرفاهية والنعيم بل ضدها ومع ما كان فيه من الحبس والتهديد والارهاق وهو مع ذلك من أطيب الناس عيشًا وأشرحهم صدرًا وأقواهم قلبًا وأسرهم نفسًا تلوح نضرة النعيم علىٰ وجهه وكنا إذا اشتد بنا الخوف وساءت منا الظنون وضاقت بنا الأرض أتيناه فما هو إلا أن نراه ونسمع كلامه فيذهب ذلك كله وينقلب انشراحها وقوة ويقينًا وطمأنينة فسبحان من أشهد عباده جنته قبل لقائه وفتح لهم أبوابها في دار العمل فأتاهم من روحها ونسيمها وطيبها ما استفرغ قواهم لطلبها والمسابقة إليها.

✍ **وكان بعض العارفين يقول**: لو علم الملوك وأبناء الملوك ما نحن فيه لجالدونا عليه بالسيوف وقال آخر مساكين أهل الدنيا خرجوا منها وما ذاقوا أطيب ما فيها قيل وما اطيب ما فيها قال محبة الله تعالىٰ ومعرفته وذكره أو نحو هذا وقال آخر انه لتمر بالقلب أوقات يرقص فيها طربًا، وقال آخر إنه

لتمر بي أوقات أقول إن كان أهل الجنة في مثل هذا إنهم لفي عيش طيب.

فبمحبة الله تعالىٰ ومعرفته ودوام ذكره والسكون إليه والطمأنينة إليه وإفراده بالحب والخوف والرجاء والتوكل والمعاملة بحيث يكون هو وحده المستولي علىٰ هموم العبد وعزماته وإرادته هو جنة الدنيا والنعيم الذي لا يشبهه نعيم وهو قرة عين المحبين وحياة العارفين وإنما تقر عيون الناس به علىٰ حسب قرة اعينهم بالله عَزَّوَجَلَّ فمن قرت عينه بالله قرت به كل عين ومن لم تقر عينه»(١).

✍ **قال الحافظ ابن رجب** رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «أن في الدنيا جنة معجلة، وهي معرفة الله ومحبته، والأنس به والشوق إلىٰ لقائه، وخشيته وطاعته، والعلم النافع يدل علىٰ ذلك، فمن دله علمه علىٰ دخول هذه الجنة المعجلة في الدنيا دخل الجنة في الآخرة، ومن لم يشم رائحتها لم يشم رائحة الجنة في الآخرة»(٢).

✍ **وقال أيضًا** رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «وسمعت شيخ الإسلام ابن تيمية قدس الله روحه يقول: إن في الدنيا جنة من لم يدخلها لم يدخل جنة الآخرة وقال بعض العارفين: إنه ليمر بالقلب أوقات أقول: إن كان أهل الجنة في مثل هذا إنهم لفي عيش طيب وقال بعض المحبين: مساكين أهل الدنيا خرجوا من الدنيا وما ذاقوا أطيب ما فيها قالوا: وما أطيب ما فيها قال: محبة الله والأنس به والشوق إلىٰ لقائه والإقبال عليه والإعراض عما سواه»(٣).

---

(١) الوابل الصيب (٧٠/ ١).

(٢) مجموع رسائل ابن رجب (٨٠/ ١).

(٣) مدارج السالكين (٤٥٤/ ١).

✍ **وقال ابن القيم** رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «ففاز المتقون المحسنون بنعيم الدنيا والآخرة وحصلوا علىٰ الحياة الطيبة في الدارين، فإن طيب النفس، وسرور القلب، وفرحه ولذته وابتهاجه وطمأنينته وانشراحه ونوره وسعته وعافيته من ترك الشهوات المحرمة، والشبهات الباطلة - هو النعيم علىٰ الحقيقة، ولا نسبة لنعيم البدن إليه»(١).

✍ **وقال ابن القيم** رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «أن يعرف العبد مقدار نعمة معافاته وفضله في توفيقه له وحفظه إياه فإنه من تربىٰ في العافية لا يعلم ما يقاسيه المبتلىٰ ولا يعرف مقدار النعمة فلو عرف أهل طاعة الله أنهم هم المنعم عليهم في الحقيقة وأن الله عليهم من الشكر أضعاف ما علىٰ غيرهم وأن تسودوا التراب ومضغوا الحصىٰ فهم أهل النعمة المطلقة»(٢).

✍ **وقال ابن القيم** رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «أنه امتثال لأمر الله الذي هو غاية سعادة العبد في معاشه ومعاده، فليس للعبد في دنياه وآخرته أنفع من امتثال أوامر ربه تبارك وتعالىٰ. وما سعد من سعد في الدنيا والآخرة إلا بامتثال أوامره وما شقي من شقي في الدنيا والآخرة إلا بتضييع أوامره»(٣).

✍ **وقال ابن القيم** رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «والله تعالىٰ إنما جعل الحياة الطيبة لمن آمن به وعمل صالحًا، كما قال تعالىٰ: ﴿مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً ۖ وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ

---

(١) الجواب الكافي (١٢١/ ١).

(٢) مفتاح دار السعادة (٢٩٣/ ١).

(٣) الداء والدواء (٤١٥/ ١).

﴿٩٧﴾ [النحل:٩٧]. فضمن لأهل الإيمان والعمل الصالح الجزاء في الدنيا بالحياة الطيبة وبالحسنىٰ يوم القيامة، فلهم أطيب الحياتين، وهم أحياء في الدارين. ونظير هذا قوله تعالىٰ: ﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ فِى هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا حَسَنَةٌ ۚ وَلَدَارُ ٱلْءَاخِرَةِ خَيْرٌ ۚ وَلَنِعْمَ دَارُ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٣٠﴾﴾ [النحل:٣٠](١).

✍ **وقال ابن القيم** رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «وإن هذا النعيم والسرور يصير في القبر رياضا وجنة، وذلك الضيق والحصر ينقلب في القبر عذابًا وسجنًا.

فحال العبد في القبر كحال القلب في الصدر نعيمًا وعذابًا، وسجنًا وانطلاقًا، ولا عبرة بانشراح صدر هذا لعارض، ولا بضيق صدر هذا لعارض، فإن العوارض تزول بزوال أسبابها، وإنما المعول علىٰ الصفة التي قامت بالقلب توجب انشراحه وحبسه، فهي الميزان، والله المستعان»(٢).

✍ **وقال ابن القيم** رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «فاحرص أن يكون همك واحدًا وأن يكون هو الله وحده فهذا غاية سعادة العبد وصاحب هذه الحال في جنة معجلة قبل جنة الآخرة وفي نعيم عاجل»(٣).

---

(١) الداء والدواء (٢٨١/ ١).

(٢) زاد المعاد (٢٥/ ٢).

(٣) رسالة ابن القيم إلىٰ بعض إخوانه (٣٠/ ١).

فصل في

صفات السعداء والموفقين

(١) السعيد الموفق صاحب تقوى ومتصف بصفات المتقين

۞ قال تعالىٰ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَلۡتَنظُرۡ نَفۡسٞ مَّا قَدَّمَتۡ لِغَدٖۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۚ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرُۢ بِمَا تَعۡمَلُونَ ١٨ وَلَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ نَسُواْ ٱللَّهَ فَأَنسَىٰهُمۡ أَنفُسَهُمۡۚ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡفَٰسِقُونَ ١٩﴾ [الحشر:١٨-١٩].

✍ **قال ابن القيم** رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «فتأمل هذه الآية تجد تحتها معنىٰ شريفا عظيما وهو أن من نسىٰ ربه أنساه ذاته ونفسه فلم يعرف حقيقته ولا مصالحه بل نسىٰ ما به صلاحه وفلاحه في معاشه ومعاده فصار معطلًا مهملًا بمنزلة الأنعام السائبة بل ربما كانت الأنعام أخبر بمصالحها منه لبقائها هداها الذي اعطاها إياه خالقها وأما هذا فخرج عن فطرته التي خلق عليها فنسىٰ ربه فأنساه نفسه وصفاتها وما تكمل به وتزكو به وتسعد به في معاشها ومعادها»(١).

✍ **وقال ابن القيم** رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «فأمر بتقواه ونهىٰ أن يتشبه عباده المؤمنون بمن نسيه بترك تقواه وأخبر أنه عاقب من ترك التقوي بأن أنساه نفسه أي

---

(١) مفتاح دار السعادة (٨٦/ ١).

أنساه مصالحها وما ينجيها من عذابه وما يوجب له الحياة الأبدية وكمال لذتها وسرورها ونعيمها فأنساه الله ذلك كله جزاء لما نسيه من عظمته وخوفه والقيام بأمره فترىٰ العاصي مهملًا لمصالح نفسه مضيعًا لها قد أغفل الله قلبه عن ذكره واتبع هواه وكان أمره فرطًا قد انفرطت عليه مصالح دنياه وآخرته وقد فرط في سعادته الأبدية»(١).

❁ قال تعالىٰ: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوا۟ وَّٱلَّذِينَ هُم مُّحْسِنُونَ ﴿١٢٨﴾ ﴾ [النحل:١٢٨].

✍ **وقال العلامة الشنقيطي** رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «وهذه المعية بعباده المؤمنين، وهي بالإعانة والنصر والتوفيق. وكرر هذا المعنىٰ في مواضع أخر؛ كقوله: إنني معكما أسمع وأرىٰ، وقوله: إذ يوحي ربك إلىٰ الملائكة أني معكم، وقوله: لا تحزن إن الله معنا، وقوله: قال كلا إن معي ربي سيهدين، إلىٰ غير ذلك من الآيات»(٢).

✍ **قال الشيخ حافظ حكمي** رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «وأما معيته الخاصة لأحبابه وأوليائه فتلك غير المعية العامة، فهو معهم بالإعانة والرعاية والكفاية والنصر والتأييد والهداية والتوفيق والتسديد وغير ذلك مما تجفو عبارة المخلوق عنه»(٣).

---

(١) الجواب الكافي (٤٧/ ١).

(٢) أضواء البيان (٤٦٩/ ٢).

(٣) معارج القبول (٢٠٦/ ١).

✍ **قال الحافظ ابن كثير** رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «ومن اتقىٰ الله وفق لمعرفة الحق»(١).

✍ **قال العلامة الصنعاني** رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

«أوصي سعيدا بالتقىٰ ∴ إن التقي هو السعيد
واحذر من الدنيا فما ∴ يغتر بالدنيا رشيد
دار تدور بأهلها ∴ يلهو بها الرجل البليد
وتراه يجمعها حلالًا ∴ أو حراما يستزيد»(٢)

✍ **قال العلامة ابن الوردي** رَحِمَهُ ٱللَّهُ **لاميته المشهورة:**

واتق الله فتقوىٰ الله ما ∴ جاورت قلب امرئ إلا عقل

✍ **وقيل:**

عليك بتقوىٰ الله ولزمها تفز ∴ إن التقي هو السعيد الأهيب
واعمل بطاعته تنل منه الرضا ∴ إن المطيع له لديه مقرب

✍ **قال الحطيئة في ديوانه**(٣):

ولست أرىٰ السعادة جمع مال ∴ ولكن التقي هو السعيد
وتقوىٰ الله خير الزاد ذخرا ∴ وعند الله للأتقىٰ مزيد
وما لا بد أن يأتي قريب ∴ ولكن الذي يمضي بعيد

---

(١) تفسير القرآن العظيم (٣/ ٣٥٢).
(٢) ديوان الصنعاني.
(٣) القصيدة رقم (١٠٩) ديوان الحطيئة (٣٩٣/ ١)، ومذكور في ديوان النابغة الشيباني (٣٥/ ١).

✍ **قال الأعشىٰ:**

إذا أنت لم ترحل بزاد من التقىٰ ∴ ولاقيت بعد الموت من قد تزودا

ندمت علىٰ أن لا تكون كمثله ∴ وأنك لم ترصد لما كان أرصدا(١)

✍ **وعن زيد العمىٰ عن عون بن عبدالله قال:** «كان أهل الخير يكتب بعضهم إلىٰ بعض بهؤلاء الكلمات الثلاث ويلقىٰ بها بعضهم بعضا عمل لآخرته كفاه الله عَزَّوَجَلَّ دنياه ومن أصلح ما بينه وبين الناس أصلح الله ما بينه وبين الناس ومن أصلح سريرته أصلح الله علانيته»(٢).

✍ **وقال العلامة ابن رجب** رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «وقال قتادة: ومن يتق الله يكن معه، ومن يكن الله معه فمعه الفئة التي لا تغلب، والحارس الذي لا ينام، والهادي الذي لا يضل.

كتب بعض السلف إلىٰ أخ له أما بعد؛ فإن كان الله معك فمن تخاف؟ وإن كان عليك فمن ترجو؟ والسلام. وهذه المعية الخاصة بالمتقين، غير المعية العامة المذكورة في قوله تعالىٰ: ﴿وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ ۚ﴾ [الحديد: ٤]»(٣).

✍ **وقال شيخ الإسلام** رَحِمَهُ ٱللَّهُ «وإذا كان القلب معمورا بالتقوىٰ انجلت له الأمور وانكشفت؛ بخلاف القلب الخراب المظلم؛ قال حذيفة بن اليمان:

---

(١) ديوان الأعشىٰ (٤٣/ ١).

(٢) صفة الصفوة (١٠٤/ ٣).

(٣) مجموع رسائل ابن رجب (١١٣/ ٣).

إن في قلب المؤمن سراجا يزهر»(١).

ومن أدلة هذا الفصل كذلك: ﴿وَٱلَّٰٓـِٔي يَئِسۡنَ مِنَ ٱلۡمَحِيضِ مِن نِّسَآئِكُمۡ إِنِ ٱرۡتَبۡتُمۡ فَعِدَّتُهُنَّ ثَلَٰثَةُ أَشۡهُرٖ وَٱلَّٰٓـِٔي لَمۡ يَحِضۡنَۚ وَأُوْلَٰتُ ٱلۡأَحۡمَالِ أَجَلُهُنَّ أَن يَضَعۡنَ حَمۡلَهُنَّۚ وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجۡعَل لَّهُۥ مِنۡ أَمۡرِهِۦ يُسۡرٗا ٤﴾ [الطلاق:٤].

«أي: يسهل عليه أمره. ويتحلل عليه ما تعقد ببركة التقوىٰ وكذلك يعزم علىٰ البر والتقوىٰ يجعل له تعالىٰ من أمره يسرا، يسهل عليه طريق السلوك، ويكفيه كل ما يثقله ويشغله عنه، إما بإزالة ذلك له، أو بغيبته عن شؤونه، ومن يتق الله بالفعل يكفر عنه سيئاته، أي: يغطي عنه أوصافه الذميمة بأوصافه الحميدة، ويعظم له أجرا بأن يفتح له باب مشاهدته»(٢).

✍ وقال **الحافظ ابن كثير** رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «أي يسهل له أمره وييسره عليه ويجعل له فرجًا قريبًا ومخرجًا عاجلًا»(٣).

✍ وقال **المفسر السعدي** رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «أي: من اتقىٰ الله تعالىٰ، يسر له الأمور، وسهل عليه كل عسير»(٤).

✍ **وقَالَ الإِمَامُ ابن القَيِّمِ** رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «فكلما اتقىٰ العبد ربه ارتقىٰ إلىٰ هداية أخرىٰ، فهو في مزيد من هداية مادام في مزيد من التقوىٰ، وكلما فوت

---

(١) مجموع الفتاوىٰ (٤٥/ ٢٠).

(٢) تفسير البحر المديد (٧١/ ٧).

(٣) تفسير القرآن العظيم (٣٩/ ١٤).

(٤) تيسير الكريم الرحمن (٨٧٠/ ١).

حظا من التقوىٰ فاته حظ من الهداية بحسبه، فكلما اتقىٰ زاد هداه وكلما اهتدىٰ زادت تقواه»(١).

✍ وقال العلامة العثيمين رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «ينظر إلي الصور، هل هي جميلة أو ذميمة، كل هذا ليس بشيء عند الله، وكذلك لا ينظر إلي الأنساب؛ هل هي رفيعة أو دنيئة، ولا ينظر إلي الأموال، ولا ينظر إلي شيء من هذا أبدًا، فليس بين الله وبين خلقه صلة إلا بالتقوي، فمن كان لله أتقي كان من الله أقرب، وكان عند الله أكرم؛ إذا لا تفتخر بمالك، ولا بجمالك، ولا ببدنك، ولا بأولادك، ولا بقصورك، ولا سياراتك، ولا بشيء من هذه الدنيا أبدًا إنما إذا وفقك الله للتقوىٰ فهذا من فضل الله عليك فأحمد الله عليه»(٢).

✍ وقال العلامة العثيمين رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «فالمراد بالتقىٰ هنا: تقوىٰ الله عَزَّوَجَلَّ، فسأل النبي ﷺ ربه التقىٰ أي: إن يوفقه إلىٰ تقوي الله؛ لأن الله عَزَّوَجَلَّ هو الذي بيده مقاليد كل شيء، فإذا وكل العبد إلىٰ نفسه ضاع ولم يحصل علي شيء، فإذا وفقه الله عَزَّوَجَلَّ، ورزقه التقىٰ، صار مستقيمًا علىٰ تقوىٰ الله عَزَّوَجَلَّ»(٣).

---

(١) [فوائد الفوائد(١٤٧).

(٢) شرح رياض الصالحين (١/ ٦١).

(٣) شرح رياض الصالحين (١/ ٥٢٩).

فصل في

معاني التقوى وتعريفه عند السلف

✍ **قال شيخ الإسلام** رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «التقوىٰ فعل ما أمر الله به وترك ما نهىٰ الله عنه»(١).

✍ **قال ابن القيم** رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «التقوىٰ: وأما التقوىٰ فحقيقتها العمل بطاعة الله إيمانًا واحتسابًا، أمرًا ونهيًا، فيفعل ما أمر الله به إيمانًا بالأمر وتصديقًا بوعده، ويترك ما نهىٰ الله عنه إيمانًا بالنهي وخوفًا من وعيده، كما قال طلق ابن حبيب: «إذا وقعت الفتنة فأطفئوها بالتقوىٰ» قالوا: وما التقوىٰ؟ قال: «أن تعمل بطاعة الله، علىٰ نور من الله، ترجو ثواب الله، وأن تترك معصية الله، علىٰ نور من الله، تخاف عقاب الله»، وهذا أحسن ما قيل في حد التقوىٰ»(٢).

✍ **قال ابن رجب** رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «أصل التقوىٰ أن يجعل العبد بينه وبين ما يخافه ويحذره وقاية تقيه منه»(٣).

✍ **قال الحافظ ابن كثير** رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «التقوىٰ اسم جامع لفعل الطاعات

---

(١) مجموع الفتاوىٰ (٣/ ١٢٠).

(٢) الرسالة التبوكية (زاد المهاجر) (١٣/ ١).

(٣) جامع العلوم والحكم (١٥/ ١).

وترك المنكرات»(١).

✍ **وقال أيضًا** «وتقوىٰ الله يشمل فعل ما أمر به وترك ما نهي عنه وزجر»(٢).

✍ **قال أبو السعود** رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «والمتقي اسم فاعل من باب الافتعال من الوقاية وهي فرط الصيانة والتقوىٰ في عرف الشرع عبارة عن كمال التوقي عما يضره في الآخرة

❁ قال عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ: «**جماع التقوىٰ في قوله تعالىٰ**: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأۡمُرُ بِٱلۡعَدۡلِ وَٱلۡإِحۡسَٰنِ﴾ [النحل:٩٠]» الآية.

- وعن عمر بن عبد العزيز: ترك ما حرم الله وأداء ما فرض الله.

- وعن شهر بن حوشب: المتقي من يترك ما لا بأس به حذرًا من الوقوع فيما فيه بأس.

- وعن أبي يزيد أن التقوىٰ هو التورع عن كل ما فيه شبهة

- وعن محمد بن حنيف أنه مجانبة كل ما يبعدك عن الله تعالىٰ وعن سهل المتقي من تبرأ عن حوله وقدرته.

- وقيل: التقوىٰ أن لا يراك الله حيث نهاك ولا يفقدك حيث أمرك.

- وعن ميمون بن مهران لا يكون الرجل تقيًّا حتىٰ يكون أشد محاسبة

---

(١) تفسير القرآن العظيم (٢١٢/ ١).

(٢) تفسير القرآن العظيم (٧٧/ ٨).

لنفسه من الشريك الشحيح والسلطان الجائر.

-**فائدة:** وعن أبي تراب بين يدي التقوىٰ خمس عقبات لا يناله من لا يجاوزهن:

«إيثار الشدة علىٰ النعمة، وإيثار الضعف علىٰ القوة، وإيثار الذل علىٰ العزة، وإيثار الجهد علىٰ الراحة وإيثار الموت علىٰ الحياة».

-وعن بعض الحكماء أنه لا يبلغ الرجل سنام التقوىٰ إلا أن يكون بحيث لو جعل ما في قلبه في طبق فطيف به في السوق لم يستحي ممن ينظر إليه

-وقيل: التقوىٰ أن تزين سرك للحق كما تزين علانيتك للخلق

- **والتحقيق أن للتقوىٰ ثلاث مراتب:**

الأولىٰ التوقي عن العذاب المخلد بالتبرؤ عن الكفر وعليه قوله تعالىٰ: ﴿وَأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ ٱلتَّقْوَىٰ﴾ [الفتح:٢٦].

والثانية التجنب عن كل ما يؤثم من فعل أو ترك حتىٰ الصغائر عند قوم وهو المتعارف بالتقوىٰ في الشرع وهو المعني بقوله تعالىٰ: ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ ءَامَنُوا۟ وَٱتَّقَوْا۟﴾ [المائدة:٦٥].

والثالثة أن يتنزه عن كل ما يشغل سره عن الحق عَزَّوَجَلَّ ويتبتل إليه بكليته وهو التقوىٰ الحقيقي المأمور به في قوله تعالىٰ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ

حَقَّ تُقَاتِهِۦ﴾ [آل عمران:١٠٢]»(١).

✍ **قال المباركفوري** رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «المتقي من يترك مالا بأس به خوفا مما به بأس»(٢).

✍ **وعن علي** رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ: «التقوىٰ هي الخوف من الجليل، والعمل بالتنزيل، والرضا بالقليل، والاستعداد ليوم الرحيل»(٣).

✍ **قال الشيخ عبد العزيز الرشيد** رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «والتقوىٰ: هي التحرز بطاعة الله عن معصيته، فهي كلمة جامعة لفعل المأمورات، وترك المنهيات»(٤).

✍ **وقال العلامة القرطبي** رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «قوله تعالىٰ: ﴿لِلْمُتَّقِينَ﴾.

خص الله تعالىٰ المتقين بهدايته وإن كان هدىٰ للخلق أجمعين تشريفا لهم، لأنهم آمنوا وصدقوا بما فيه. وروي عن أبي روق أنه قال: ﴿هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ﴾ أي كرامة لهم، يعني إنما أضاف إليهم إجلالا لهم وكرامة لهم وبيانا لفضلهم، قلت: ومنه الحديث «التقي ملجم والمتقي فوق المؤمن والطائع».

وهو الذي يتقي بصالح عمله وخالص دعائه عذاب الله تعالىٰ، مأخوذ من اتقاء المكروه بما تجعله حاجزًا بينك وبينه.

---

(١) تفسير أبي السعود (١/ ٢٧-٢٨).

(٢) تحفة الأحوذي شرح سنن الترمذي (٦/ ٤٢١).

(٣) سبل الهدىٰ والرشاد للصالحي (١/ ٤٢١)، والأثر لا يصح عنه لكن معناه صحيح.

(٤) التنبيهات السنية (١/ ٤٤).

وأخرج أبو محمد عبد الغني الحافظ من حديث سعيد بن زربي أبي عبيدة عن عاصم بن بهدلة عن زر بن حبيش عن ابن مسعود قال: قال يومًا لابن أخيه: يا ابن أخي ترىٰ الناس ما أكثرهم؟ قال: نعم، قال: لا خير فيهم إلا تائب أو تقي ثم قال: يا ابن أخي ترىٰ الناس ما أكثرهم؟ قلت: بلىٰ، قال: لا خير فيهم إلا عالم أو متعلم.

✍ **وقال أبو يزيد البسطامي**: المتقي من إذا قال: قال لله، ومن إذا عمل عمل لله.

✍ **وقال أبو سليمان الداراني**: المتقون الذين نزع الله عن قلوبهم حب الشهوات.

✍ **وقيل**: المتقي الذي اتقىٰ الشرك وبرئ من النفاق. قال ابن عطية: وهذا فاسد، لأنه قد يكون كذلك وهو فاسق.

✍ وسأل عمر بن الخطاب رضي الله عنه أبيًّا عن التقوىٰ، فقال: هل أخذت طريقًا ذا شوك؟ قال: نعم:

قال فما عملت فيه؟ قال: تشمرت وحذرت، قال: فذاك التقوىٰ.

✍ **وأخذ هذا المعنىٰ ابن المعتز فنظمه:**

خل الذنوب صغيرها ∴ وكبيرها ذاك التقىٰ
واصنع كماش فوق أر ∴ ض الشوك يحذر ما يرىٰ
لا تحقرن صغيرة ∴ إن الجبال من الحصىٰ

✍ **قال**: التقوىٰ فيها جماع الخير كله، وهي وصية الله في الأولين

والآخرين، وهي خير ما يستفيده الإنسان، كما قال أبو الدرداء وقد قيل له: إن أصحابك يقولون الشعر وأنت ما حفظ عنك شيء، فقال:

يريد المرء أن يؤتىٰ مناه ∴ ويأبىٰ الله إلا ما أرادا
يقول المرء فائدتي ومالي ∴ وتقوىٰ الله أفضل ما استفادا

❁ وروىٰ ابن ماجة في سننه عن أبي أمامة عن النبي ﷺ أنه كان يقول: «**ما استفاد المؤمن بعد تقوىٰ الله خير له من زوجة صالحة إن أمرها أطاعته وإن نظر إليها سرته وإن أقسم عليها أبرته وإن غاب عنها نصحته في نفسها وماله**»(١).

✍ **قال ابن مسعود، والربيع، وقتادة، والحسن**: حق تقاته هو أن يطاع فلا يعصىٰ، ويذكر فلا ينسىٰ، ويشكر فلا يكفر. وروي مرفوعًا

✍ **وقال مجاهد**: «هو أن يطاع فلا يعصىٰ، واسمعوا ما توعظون به، وأطيعوا فيما أمرتم به ونهيتم عنه، وأنفقوا فيما وجب عليكم»(٢).

- وأخرج عبد الرزاق، وابن أبي شيبة، وعبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، والطبراني، والحاكم، وصححه، وابن مردويه عن ابن مسعود في قوله: «﴿ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ﴾ [آل عمران:١٠٢] قال: أن يطاع فلا يعصىٰ، ويذكر فلا ينسىٰ، ويشكر فلا يكفر».

- وقد رواه الحاكم، وصححه، وابن مردويه من وجه آخر عنه مرفوعًا

---

(١) تفسير القرطبي (١٦١-١٦٢/ ١).
(٢) البحر المحيط في التفسير (١٩٢/ ١٠) (٢٨٥/ ٣).

بدون قوله: «ويشكر فلا يكفر». وأخرج ابن مردويه عن ابن عباس قال: ﴿ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ﴾: أن يطاع فلا يعصىٰ، فلم يستطيعوا، فأنزل الله بعد ذلك: ﴿فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ مَا ٱسۡتَطَعۡتُمۡ﴾ [التغابن:١٦].

- وأخرج عبد بن حميد عنه نحوه. وأخرج ابن أبي حاتم عن سعيد بن جبير نحوه. وأخرج ابن مردويه عن ابن مسعود نحوه. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عن ابن عباس في قوله: «﴿حَقَّ تُقَاتِهِۦ﴾ قال: لم تنسخ ولكن حق تقاته: أن يجاهدوا في الله حق جهاده، ولا يأخذهم في الله لومة لائم، ويقوموا لله بالقسط ولو علىٰ أنفسهم وآبائهم وأبنائهم»(١).

- وروىٰ الحافظ ابن أبي حاتم بإسناد صحيح عن عبد الله بن مسعود أنه قال في معنىٰ الآية: هو أن يطاع فلا يعصىٰ، وأن يذكر فلا ينسىٰ، وأن يشكر فلا يكفر. ورواه ابن مردويه والحاكم مرفوعًا، وقال: صحيح علىٰ شرط الشيخين ولم يخرجاه.

✍ **قال ابن كثير**: «والأظهر أنه موقوف- والله أعلم»(٢).

- حدثني ابن السماك، قال: «أوصاني أخي داود، بوصية: انظر أن لا يراك الله حيث نهاك، وأن لا يفقدك حيث أمرك، واستح في قربه منك، وقدرته عليك»(٣).

---

(١) فتح القدير الشوكاني (٤٢٢/ ١).
(٢) تفسير القاسمي (٣٦٩/ ٢).
(٣) حلية الأولياء (٣٥٨/ ٧).

✍ **وقال ابن كثير** رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «وخصت الهداية للمتقين. كما قال: ﴿قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ هُدًى وَشِفَآءٌ ۖ وَٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ يُنَادَوْنَ مِن مَّكَانٍۭ بَعِيدٍ ﴿٤٤﴾﴾ [فصلت:٤٤].

﴿وَنُنَزِّلُ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ مَا هُوَ شِفَآءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ۙ وَلَا يَزِيدُ ٱلظَّٰلِمِينَ إِلَّا خَسَارًا ﴿٨٢﴾﴾ [الإسراء:٨٢].

إلىٰ غير ذلك من الآيات الدالة علىٰ اختصاص المؤمنين بالنفع بالقرآن؛ لأنه هو في نفسه هدىٰ، ولكن لا يناله إلا الأبرار، كما قال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَتْكُم مَّوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَشِفَآءٌ لِّمَا فِى ٱلصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴿٥٧﴾﴾ [يونس:٥٧].

✍ **وقد قال السدي** عن أبي مالك، وعن أبي صالح عن ابن عباس، وعن مرة الهمداني، عن ابن مسعود، وعن أناس من أصحاب رسول الله ﷺ: ﴿هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ﴾ يعني: نورًا للمتقين.

✍ **وقال الشعبي**: هدىٰ من الضلالة.

✍ **وقال سعيد بن جبير**: تبيان للمتقين. وكل ذلك صحيح.

✍ **وقال السدي**: عن أبي مالك، وعن أبي صالح، عن ابن عباس، وعن مرة الهمداني، عن ابن مسعود، وعن ناس من أصحاب رسول الله ﷺ: ﴿هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ﴾ قال: هم المؤمنون

✍ **وقال محمد بن إسحاق**، عن محمد بن أبي محمد مولىٰ زيد بن

ثابت، عن عكرمة أو سعيد بن جبير، عن ابن عباس: ﴿لِّلْمُتَّقِينَ﴾ أي: الذين يحذرون من الله عقوبته في ترك ما يعرفون من الهدىٰ ويرجون رحمته في التصديق بما جاء به.

✍ **وقال أبو روق**، عن الضحاك، عن ابن عباس: ﴿لِّلْمُتَّقِينَ﴾ قال: المؤمنين الذين يتقون الشرك بي، ويعملون بطاعتي.

✍ **وقال سفيان الثوري**، عن رجل، عن الحسن البصري، قوله: ﴿لِّلْمُتَّقِينَ﴾ قال: اتقوا ما حرم الله عليهم، وأدوا ما افترض عليهم.

✍ **وقال أبو بكر بن عياش**: سألني الأعمش عن المتقين، قال: فأجبته. فقال لي: سل عنها الكلبي، فسألته فقال: الذين يجتنبون كبائر الإثم. قال: فرجعت إلىٰ الأعمش، فقال: نرىٰ أنه كذلك. ولم ينكره.

✍ **واختار ابن جرير**: أن الآية تعم ذلك كله، وهو كما قال»[(١)].

❁ وقد روىٰ الترمذي وابن ماجه، من رواية أبي عقيل عبد الله بن عقيل، عن عبد الله بن يزيد، عن ربيعة بن يزيد، وعطية بن قيس، عن عطية السعدي، قال: قال رسول الله ﷺ: «**لا يبلغ العبد أن يكون من المتقين حتىٰ يدع ما لا بأس به حذرا مما به بأس ثم قال الترمذي: حسن غريب**»[(٢)].

---

(١) تفسير القرآن العظيم (١٦٣/ ١).

(٢) سنن الترمذي برقم (٢٤٥١)، وسنن ابن ماجه برقم (٤٢١٥)، قال الشيخ الالباني: حسن انظر: مشكاة المصابيح، رقم الحديث:[٢٧٧٥].

فصل في

أنواع التقوى وأعمال المتقين

✍ **قال ابن القيم** رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «ومعنىٰ البر والتقوىٰ وقد جمع الله خصال البر في قوله تعالىٰ: ﴿۞ لَّيْسَ ٱلْبِرَّ أَن تُوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ قِبَلَ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلْكِتَٰبِ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ وَءَاتَى ٱلْمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ ذَوِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ وَٱلسَّآئِلِينَ وَفِى ٱلرِّقَابِ وَأَقَامَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَى ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَٰهَدُوا۟ ۖ وَٱلصَّٰبِرِينَ فِى ٱلْبَأْسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَحِينَ ٱلْبَأْسِ ۗ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُوا۟ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُتَّقُونَ ﴿١٧٧﴾﴾ [البقرة:١٧٧]، فأخبر سبحانه أن البر هو الإيمان بالله وبملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر، وهذه هي أصول الإيمان الخمس التي لا قوام للإيمان إلا بها، وأنها الشرائع الظاهرة من إقامة الصلاة، وإيتاء الزكاة، والنفقات الواجبة، وأنها الأعمال القلبية التي هي حقائقه من الصبر والوفاء بالعهد فتناولت هده الخصال جميع أقسام الدين حقائقه وشرائعه والأعمال المتعلقة بالجوارح والقلب وأصول الإيمان الخمس. ثم أخبر سبحانه عن هذا أنها هي خصال التقوىٰ بعينها فقال: ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُوا۟ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُتَّقُونَ﴾ [البقرة:١٧٧]»(١).

---

(١) الرسالة التبوكية (١٢-١٣/ ١).

أولاً: الإقبال على الله تعالى بطاعته

❁ عن البراء بن عازب قال: «إن العبد المؤمن إذا كان في انقطاع من الدنيا وإقبال من الآخرة نزل إليه من السماء ملائكة بيض الوجوه كأن وجوههم الشمس معهم كفن من أكفان الجنة وحنوط من حنوط الجنة حتىٰ يجلسوا منه مد البصر ثم يجيء ملك الموت حتىٰ يجلس عند رأسه فيقول: أيتها النفس الطيبة اخرجي إلىٰ مغفرة من الله ورضوان» قال: «فتخرج تسيل كما تسيل القطرة من في السقاء فيأخذها فإذا أخذها لم يدعوها في يده طرفة عين حتىٰ يأخذوها فيجعلوها في ذلك الكفن وفي ذلك الحنوط ويخرج منها كأطيب نفحة مسك وجدت علىٰ وجه الأرض» قال: «فيصعدون بها فلا يمرون - يعني بها - علىٰ ملأ من الملائكة إلا قالوا: ما هذه الروح الطيب فيقولون: فلان بن فلان بأحسن أسمائه التي كانوا يسمونه بها في الدنيا حتىٰ ينتهوا بها إلىٰ سماء الدنيا فيستفتحون له فيفتح له فيشيعه من كل سماء مقربوها إلىٰ السماء التي تليها حتىٰ ينتهىٰ بها إلىٰ السماء السابعة - فيقول الله عَزَّوَجَلَّ: اكتبوا كتاب عبدي في عليين وأعيدوه إلىٰ الأرض فإني منها خلقتهم وفيها أعيدهم ومنها أخرجهم تارة أخرىٰ قال: «فتعاد روحه فيأتيه ملكان فيجلسانه فيقولون له: من ربك؟ فيقول: ربي الله فيقولون له: ما دينك؟ فيقول: ديني الإسلام فيقولان له: ما هذا الرجل الذي بعث فيكم؟ فيقول: هو رسول الله ﷺ فيقولان له: وما علمك؟ فيقول: قرأت كتاب الله فآمنت به وصدقت فينادي مناد من السماء أن قد صدق فأفرشوه من الجنة وألبسوه من الجنة وافتحوا له بابًا إلىٰ الجنة» قال: «فيأتيه من روحها وطيبها ويفسح له في قبره مد بصره» قال: «ويأتيه رجل حسن الوجه حسن الثياب طيب الريح

فيقول: أبشر بالذي يسرك هذا يومك الذي كنت توعد فيقول له: من أنت؟ فوجهك الوجه يجيء بالخير فيقول: أنا عملك الصالح فيقول: رب أقم الساعة رب أقم الساعة حتىٰ أرجع إلىٰ أهلي ومالي»(١).

✍ **قال ابن حزم** رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «السعيد من أنست نفسه بالفضائل والطاعات ونفرت من الرذائل والمعاصي»(٢).

✍ **قال شيخ الإسلام** رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «لكن النفس من لوازمها الإرادة والحركة فإنها حية حياة طبيعية، لكن سعادتها أن تحيا الحياة النافعة فتعبد الله، ومتىٰ لم تحيا هذه الحياة كانت ميتة، وكان ما لها من الحياة الطبيعية موجبًا لعذابها، فلا هي حية متنعمة بالحياة، ولا ميتة مستريحة من العذاب.

❁ قال تعالىٰ: ﴿ثُمَّ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَىٰ ﴿١٣﴾﴾ [الأعلى:١٣] فالجزاء من جنس العمل لما كان في الدنيا ليس بحيٍّ الحياة النافعة ولا ميتًا عديم الإحساس، كان في الآخرة كذلك»(٣).

✍ **قال ابن القيم** رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «فالسعيد كل السعيد والموفق كل الموفق من لم يلتفت عن ربه تبارك وتعالىٰ يمينًا ولا شمالًا ولا اتخذ سواه ربًّا ولا وكيلًا ولا حبيبًا ولا مدبرًا ولا حكمًا ولا ناصرًا ولا رازقًا»(٤).

---

(١) ما أخرجه أحمد في (المسند ٤/ ٢٨٧) بإسناد صحيح.

(٢) رسائل ابن حزم (١/ ٣٣٩).

(٣) مجموع الفتاوىٰ (٨/ ٢٠٦).

(٤) مدارج السالكين (٣/ ٣٨٢).

✍ **وقال** رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «والمراتب السامية التي لا تنال إلا بطاعة الله، فإن الله عَزَّوَجَلَّ قضىٰ أن لا ينال ما عنده إلا بطاعته. ومن كان لله كما يريد كان الله له فوق ما يريد، فمن أقبل إليه تلقاه من بعيد، ومن تصرف بحوله وقوته ألان له الحديد، ومن ترك لأجله أعطاه فوق المزيد، ومن أراد مراده الديني أراد ما يريده»(١).

✍ **وقال** رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «فيا معرضا عن حياته الدائمة ونعيمه المقيم، ويا بائعًا سعادته العظمىٰ بالعذاب الأليم. ويا مسخطًا من حياته وراحته وفوزه في رضاه، وطالبا رضىٰ من سعادته في إرضاء سواه. إنما هي لذة فانية، وشهوة منقضية، تذهب لذاتها، وتبقىٰ تبعاتها. فرح ساعة لا شهر، وغم سنة بل دهر.

طعام لذيذ مسموم، أوله لذة واخره هلاك. فالعامل عليها والساعي في تحصيلها كدودة القز، يسد علىٰ نفسه لمذاهب، بما نسح عليها من المعاطب. فيندم حين لا تنفع الندامة، ويستقيل حين لا تقبل الاستقالة.

فطوبىٰ لمن أقبل علىٰ الله بكليته، وعكف عليه بإرادته ومحبته، فإن الله يقبل عليه بتوليه ومحبته وعطفه ورحمته. وأن الله سبحانه إذا أقبل علىٰ عبدٍ استنارت جهاته، وأشرقت ساحتها، وتنورت ظلماتها وظهرت عليه آثار إقباله من بهجة الجلال واثار الجمال، وتوجه إليه أهل الملأ الأعلىٰ بالمحبة والموالاة تبع لمولاهم. فإذا أحب عبدًا أحبوه، وإذا والىٰ وليًّا والوه»(٢).

---

(١) طريق الهجرتين (٤٩/ ١).

(٢) طريق الهجرتين (٣٩٥/ ١).

✍ **وقال ابن القيم** رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «فمن أعرض عن الله بالكلية أعرض الله عنه بالكلية.

ومن أعرض الله عنه لزمه الشقاء والبؤس والبخس في أحواله وعماله، وقارنه سوء الحال وفساده في دينه ومآله. فإن الرب تعالىٰ إذا أعرض عن جهة دارت بها النحوس، وظلمت أرجاؤها، وانكسفت أنوارها، وظهر عليها وحشة الاعراض، وصارت مأوىٰ للشياطين، وهدفا للشرور، ومصائد للبلاء فالمحروم كل المحروم من عرف طريقا إليه، ثم أعرض عنها؟ أ ووجد بارقة من حبه ثم سلبها، لم ينفذ إلىٰ ربه منها، خصوصًا إذا مال بتلك الارادة إلىٰ شيء من اللذات، أو انصرف بجملته إلىٰ تحصيل الأعراض والشهوات، عاكفًا علىٰ ذلك ليله ونهاره وغدوه ورواحه، هابطًا من الأوج الأعلىٰ إلىٰ الحضيض الأدنىٰ»(١).

✍ **وقال ابن القيم** رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «وعليك بالمطالب العالية والمراتب السامية التي لا تنال إلا بطاعة الله فإن الله سبحانه قضىٰ أن لا ينال ما عنده إلا بطاعته ومن كان لله كما يريد كان الله له فوق ما يريد فمن أقبل إليه تلقاه من بعيد ومن تصرف بحوله وقوته ألان له الحديد ومن ترك لأجله أعطاه فوق المزيد»(٢).

✍ **وقال ابن تيمية** رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «من أعرض عن هدىٰ الله علما وعملا فإنه

---

(١) طريق الهجرتين (٣٩٣/ ١).

(٢) طريق الهجرتين (٤٩/ ١).

لا يحصل له مطلوب ولا ينجو من مرهوب بل يلحقه من المرهوب أعظم مما فر منه ويفوته من المطلوب أعظم مما رغب فيه وأما المتبعون لهداه فإنهم علىٰ هدىٰ من ربهم وهم المفلحون الذين أدركوا المطلوب ونجوا من المرهوب»(١).

✍ **وقال ابن القيم** رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «يتضمن بيان أن العبد لا سبيل له إلىٰ سعادته إلا باستقامته علىٰ الصراط المستقيم وأنه لا سبيل له إلىٰ الاستقامة إلا بهداية ربه له كما لا سبيل له إلىٰ عبادته بمعونته فلا سبيل له إلىٰ الاستقامة علىٰ الصراط إلا بهدايته»(٢).

✍ **وقال بعض العلماء**: فكرت فيما يسعىٰ فيه العقلاء، فرأيت سعيهم كله في مطلوب واحد، وإن اختلفت طرقهم في تحصيله، رأيتهم جميعهم إنما يسعون في دفع الهم والغم عن نفوسهم. فهذا بالأكل والشرب وهذا بالتجارة والكسب، وهذا بالنكاح، وهذا بسماع الغناء والأصوات المطربة، وهذا باللهو واللعب. فقلت: هذا المطلوب مطلوب العقلاء، ولكن الطرق كلها غير موصلة إليه، بل لعل أكثرها إنما يوصل إلىٰ ضده. ولم أر في جميع هذه الطرق طريقا موصلة إلا الإقبال علىٰ الله ومعاملته وحده، وإيثار مرضاته علىٰ كل شيء.

فإن سالك هذه الطريق إن فاته حظه من الدنيا فقد ظفر بالحظ العالي الذي لا فوت معه، وإن حصل للعبد حصل له كل شيء، وإن فاته فاته كل

---

(١) بيان تلبيس إبليس (١/ ٤٥٦).

(٢) الفوائد (١٩/ ١).

شيء. وإن ظفر بحظه من الدنيا ناله علىٰ أهنأ الوجوه. فليس للعبد أنفع من هذه الطريق ولا أوصل منها إلىٰ لذته وبهجته وسعادته. وبالله التوفيق(١).

✍ **وقال ابن القيم** رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «ومفتاح كل خير الرغبة في الله والدار الآخرة ومفتاح كل شر حب الدنيا وطول الأمل».

وهذا باب عظيم من أنفع أبواب العلم وهو معرفة مفاتيح الخير والشر لا يوفق لمعرفته ومراعاته إلا من عظم حظه وتوفيقه فإن الله سبحانه وتعالىٰ جعل لكل خير وشر مفتاحا وبابا يدخل منه إليه»(٢).

✍ **وقَالَ الإِمَامُ ابن القَيِّم** رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «ولَا شَيْءَ عَلَىٰ الإِطْلَاقِ أنفعُ لِلعَبدِ مِن إِقْبالِه عَلَىٰ الله واشْتغَالِه بذِكْره وتنعُّمِه بحُبه وإِيثَاره لِمَرضَاته بل لَا حَيَاةَ لَه ولَا نعِيمَ ولَا سُرور ولَا بهجَةَ إِلَّا بذَلِكَ»(٣).

✍ **وقال العلامة ابن القيم** رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «إن أعظم النعم الإقبال علىٰ الله والتعبد له والانقطاع إليه والتبتل إليه»(٤).

✍ **وقال أيضًا** رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «الغموم والهموم والاحزان والضيق عقوبات عاجلة ونار دنيوية وجهنم حاضرة والاقبال علىٰ الله تعالىٰ والانابة إليه والرضاء به وعنه وامتلاء القلب من محبته واللهج بذكره والفرح والسرور

---

(١) الكافي (٤٥٠-٤٥١/ ١).
(٢) حادي الأرواح (٦٩/ ١).
(٣) الدَّاءُ والدَّواء (٢٣٥).
(٤) بدائع الفوائد (٩/ ٣).

بمعرفته ثواب عاجل وجنة وعيش لا نسبة لعيش الملوك إليه البته»(١).

✍ **وقال ابن القيم** رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «فإن القلب لا يزال مشتتًا مضيعًا حتىٰ يرحل من الدنيا وينزل في الآخرة، فإذا نزل فيها أقبلت إليه وفود التوفيق والعناية من كل جهة، واجتمع علىٰ جمع أطرافه وقضاء جهازه وتعبئة زاده ليوم معاده، وما لم يترحل إلىٰ الآخرة ويحضرها فالتعب والعناء والتشتت والكسل والبطالة لازمة له لا محالة»(٢).

ثانيًا: ترك الذنوب

عن عائشة قالت: «من سره أن يسبق الدائب المجتهد فليكف نفسه عن الذنوب فإنكم لن تلقوا الله بشيء خير لكم من قلة الذنوب»(٣).

❁ وقال تعالىٰ: ﴿وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ ٱلشَّيۡطَٰنِ نَزۡغٞ فَٱسۡتَعِذۡ بِٱللَّهِۚ إِنَّهُۥ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٠٠﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوۡاْ إِذَا مَسَّهُمۡ طَٰٓئِفٞ مِّنَ ٱلشَّيۡطَٰنِ تَذَكَّرُواْ فَإِذَا هُم مُّبۡصِرُونَ ﴿٢٠١﴾﴾ [الأعراف:٢٠٠-٢٠١].

✍ **قال المفسر السعدي** رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «أي: أي وقت، وفي أي حال ﴿يَنزَغَنَّكَ مِنَ ٱلشَّيۡطَٰنِ نَزۡغٞ﴾ أي: تحس منه بوسوسة، وتثبيط عن الخير، أو حث علىٰ الشر، وإيعاز إليه. ﴿فَٱسۡتَعِذۡ بِٱللَّهِ﴾ أي: التجئ واعتصم بالله، واحتم بحماه

---

(١) الوابل الصيب (٦٩/ ١).

(٢) طريق الهجرتين (٢٧٣/ ١).

(٣) الزهد لابن المبارك (٢٢) باب ما جاء في تخويف عواقب الذنوب.

فإنه ﴿سَمِيعٌ﴾ لما تقول. ﴿عَلِيمٌ﴾ بنيتك وضعفك، وقوة التجائك له، فسيحميك من فتنته، ويقيك من وسوسته، كما قال تعالىٰ: ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلنَّاسِ ۝١﴾ [الناس:١] إلىٰ آخر السورة.

ولما كان العبد لا بد أن يغفل وينال منه الشيطان، الذي لا يزال مرابطًا ينتظر غرته وغفلته، ذكر تعالىٰ علامة المتقين من الغاوين، وأن المتقي إذا أحس بذنب، ومسه طائف من الشيطان، فأذنب بفعل محرم أو ترك واجب - تذكر من أي باب أتي، ومن أي مدخل دخل الشيطان عليه، وتذكر ما أوجب الله عليه، وما عليه من لوازم الإيمان، فأبصر واستغفر الله تعالىٰ، واستدرك ما فرط منه بالتوبة النصوح والحسنات الكثيرة، فرد شيطانه خاسئًا حسيرًا، قد أفسد عليه كل ما أدركه منه»(١).

✍ **قال ابن القيم** رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «التقوىٰ ثلاث مراتب:

- **إحداها:** حمية القلب والجوارح عن الآثام والمحرمات.
- **الثانية:** حميتها عن المكروهات.
- **الثالثة:** الحمية عن الفضول وما لا يعني.

فالأولىٰ تعطي العبد حياته، والثانية تفيد صحته وقوته، والثالثة تكسبه سروره وفرحه وبهجته»(٢).

---

(١) تيسير الكريم الرحمن (٦١٠/ ١).
(٢) الفوائد (٣٤/ ١).

✍ **قال ابن القيم** رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «فإنه سبحانه رتب المعيشة الضنك علىٰ الإعراض عن ذكره، فالمعرض عنه له من ضنك المعيشة بحسب إعراضه، وإن تنعم في الدنيا بأصناف النعيم، ففي قلبه من الوحشة والذل والحسرات التي تقطع القلوب»(١).

ثالثًا: المراقبة لله تعالى في فعل طاعته واجتناب معصيته

❁ عمر بن الخطاب - قال: بينما نحن عند رسول الله ﷺ ذات يوم إذ طلع علينا رجل شديد بياض الثياب، شديد سواد الشعر، لا يرىٰ عليه أثر السفر، ولا يعرفه منا أحد، حتىٰ جلس إلىٰ النبي ﷺ، فأسند ركبتيه إلىٰ ركبتيه، ووضع كفيه علىٰ فخذيه، وقال: يا محمد، أخبرني عن الإسلام. فقال.....

حتىٰ قال: فأخبرني عن الإحسان؟ قال: «**أن تعبد الله كأنك تراه، فإن لم تكن تراه، فإنه يراك**»(٢).

قال: «وفسره في الحديث بما معناه الإخلاص ومراقبة الله في السر والإعلان»(٣).

✍ **قال العلامة المباركفوري** رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «والأول هو المراد لأن المقصود إتقان العبادة وقد يلحظ الثاني بأن المخلص مثلًا محسن بإخلاصه إلىٰ نفسه

---

(١) الداء والدواء (٢٧٩/ ١).

(٢) أخرجه مسلم رقم (٩).

(٣) إكمال فوائد المعلم شرح «صحيح مسلم» (٢٠٤/ ١).

وإحسان العبادة الإخلاص فيها والخشوع وفراغ البال حال التلبس بها ومراقبة المعبود. وأشار في الجواب إلىٰ حالتين أرفعهما أي يغلب عليه مشاهدة الحق حتىٰ كأنه يراه بعينه وهو قوله كأنك تراه أي وهو يراك والثانية أن يستحضر أن الحق مطلع عليه يرىٰ كل ما يعمل وهو قوله فإنه يراك، وهاتان الحالتان يثمرهما معرفة الله وخشيته(١).

✍ **وقال النووي**: هذا من جوامع الكلم التي أوتيها ﷺ لأن لو قدرنا أن أحدنا قام في عبادة وهو يعاين ربه سبحانه وتعالىٰ لم يترك شيئًا مما يقدر عليه من الخضوع والخشوع وحسن السمت واجتماعه بظاهره وباطنه علىٰ الاعتناء بتتميمها علىٰ أحسن وجوهها إلا أتىٰ به، فقال ﷺ: اعبد الله في جميع أحوالك كعبادتك في حال العيان فإن التتميم المذكور في حال العيان إنما كان لعلم العبد باطلاع الله سبحانه وتعالىٰ عليه فلا يقدم العبد علىٰ تقصير في هذا الحال للاطلاع عليه، وهذا المعنىٰ موجود مع عدم رؤية العبد، فينبغي أن يعمل بمقتضاه، فمقصود الكلام الحث علىٰ الإخلاص في العبادة ومراقبة العبد ربه تبارك تعالىٰ في إتمامه الخشوع والخضوع وغير ذلك»(٢).

✍ **قال العلامة العثيمين** رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «فإن لم تكن تراه فإنه يراك أي: اعبده علىٰ وجه الخوف ولا تخالفه، لأنك إن خالفته فإنه يراك فتعبده عبادة خائف منه، هارب من عذابه وعقابه، وهذه الدرجة عند أهل العبادة أدنىٰ من الدرجة الأولىٰ. فصار للإحسان مرتبتان: مرتبة الطلب، ومرتبة الهرب.

---

(١) تحفة الأحوذي (٧/ ٣٤٧).

(٢) شرح مسلم (١/ ١٥٨).

مرتبة الطلب: أن تعبد الله كأنك تراه.

ومرتبة الهرب: أن تعبد الله وهو يراك عَزَّوَجَلَّ فاحذره، كما قال عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَيُحَذِّرُكُمُ ٱللَّهُ نَفۡسَهُۥۗ﴾ [آل عمران:٣٠]، وبهذا نعرف أن الجملتين متباينتان والأكمل الأول، ولهذا جعل النبي ﷺ الثاني في مرتبة ثانية متأخرة»(١).

❁ وقال تعالىٰ: ﴿وَتَوَكَّلۡ عَلَى ٱلۡعَزِيزِ ٱلرَّحِيمِ ٢١٧ ٱلَّذِي يَرَىٰكَ حِينَ تَقُومُ ٢١٨ وَتَقَلُّبَكَ فِي ٱلسَّٰجِدِينَ ٢١٩ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡعَلِيمُ ٢٢٠﴾ [الشعراء:٢١٧-٢٢٠].

✍ **قال العلامة القرطبي** رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «وأرباب القلوب في هذه المراقبة علىٰ حالين: أحدهما غالب عليه مشاهدة الحق فكأنه يراه. ولعل النبي ﷺ أشار إلىٰ هذه الحالة بقوله: «وجعلت قرة عيني في الصلاة». وثانيهما: لا تنتهي إلىٰ هذا، لكن يغلب عليه أن الحق سبحانه مطلع عليه ومشاهد له، وإليه الإشارة بقوله تعالىٰ: ﴿ٱلَّذِي يَرَىٰكَ حِينَ تَقُومُ ٢١٨ وَتَقَلُّبَكَ فِي ٱلسَّٰجِدِينَ ٢١٩﴾ [الشعراء:٢١٨-٢١٩]»(٢).

❁ وقال تعالىٰ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَخۡشَوۡنَ رَبَّهُم بِٱلۡغَيۡبِ لَهُم مَّغۡفِرَةٞ وَأَجۡرٞ كَبِيرٞ ١٢﴾ [الملك:١٢].

✍ **قال العلامة السعدي** رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «ذكر حالة الأشقياء الفجار، ذكر حالة السعداء الأبرار فقال: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَخۡشَوۡنَ رَبَّهُم بِٱلۡغَيۡبِ﴾ أي: في جميع

---

(١) شرح الأربعين النووية (٥٣/ ١).

(٢) تفسير القرطبي (١٦٧/ ١٠).

أحوالهم، حتىٰ في الحالة التي لا يطلع عليهم فيها إلا الله، فلا يقدمون علىٰ معاصيه، ولا يقصرون فيما أمر به ﴿لَهُم مَّغْفِرَةٌ﴾ لذنوبهم، وإذا غفر الله ذنوبهم؛ وقاهم شرها، ووقاهم عذاب الجحيم، ولهم أجر كبير وهو ما أعده لهم في الجنة، من النعيم المقيم، والملك الكبير، واللذات المتواصلات، والمشتهيات، والقصور والمنازل العاليات، والحور الحسان، والخدم والولدان.

وأعظم من ذلك وأكبر، رضا الرحمن، الذي يحله الله علىٰ أهل الجنان»(١).

✍ **قال ابن القيم** رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «الأسباب المؤدية إلىٰ السكينة قلت سببها استيلاء مراقبة العبد لربه جل جلاله حتىٰ كأنه يراه وكلما اشتدت هذه المراقبة اوجبت له من الحياء والسكينة والمحبة والخضوع والخشوع والخوف والرجاء ما لا يحصل بدونها فالمراقبة اساس الأعمال القلبية كلها وعمودها الذي قيامها به ولقد جمع النبي ص - اصول أعمال القلب وفروعها كلها في كلمة واحدة وفي قوله في الإحسان أن تعبد الله كأنك تراه فتأمل كل مقام من مقامات الدين وكل عمل من أعمال القلوب كيف تجد هذا اصله ومنبعه»(٢).

✍ **قال ابن القيم** رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «مشهد الإحسان وهو مشهد المراقبة وهو أن

---

(١) تيسير الكريم الرحمن (٨٦٧/ ١).

(٢) إعلام الموقعين (٢٠٣/ ٤).

يعبد الله كأنه يراه وهذا المشهد إنما ينشأ من كمال الإيمان بالله وأسمائه وصفاته حتىٰ كأنه يرىٰ الله سبحانه فوق سماواته مستويًا علىٰ عرشه يتكلم بأمره ونهيه ويدبر أمر الخليقة فينزل الأمر من عنده ويصعد إليه وتعرض أعمال العباد وأرواحهم عند الموافاة عليه فيشهد ذلك كله بقلبه ويشهد أسماءه وصفاته ويشهد قيومًا حيًّا سميعًا بصيرًا عزيزًا حكيمًا آمرًا ناهيًا يحب ويبغض ويرضىٰ ويغضب ويفعل ما يشاء ويحكم ما يريد وهو فوق عرشه لا يخفىٰ عليه شيء من أعمال العباد ولا أقوالهم ولا بواطنهم بل يعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور.

ومشهد الإحسان أصل أعمال القلوب كلها فإنه يوجب الحياء والإجلال والتعظيم والخشية والمحبة والإنابة والتوكل والخضوع لله سبحانه والذل له فحظ العبد من القرب من الله علىٰ قدر حظه من مقام الإحسان وبحسبه تتفاوت الصلاة حتىٰ يكون بين صلاة الرجلين من الفضل كما بين السماء والأرض وقيامهما وركوعهما وسجودهما واحد»(١).

رابعًا: محاسبة النفس

❁ **ودليلها** قال تعالىٰ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَلۡتَنظُرۡ نَفۡسٞ مَّا قَدَّمَتۡ لِغَدٖۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۚ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرُۢ بِمَا تَعۡمَلُونَ ١٨﴾ [الحشر:١٨].

✍ **قال العلامة السعدي** رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «وهذه الآية الكريمة أصل في محاسبة العبد نفسه، وأنه ينبغي له أن يتفقدها، فإن رأىٰ زللا تداركه بالإقلاع عنه،

(١) رسالة ابن القيم إلىٰ أحد إخوانه (٣٩/ ١).

والتوبة النصوح، والإعراض عن الأسباب الموصلة إليه، وإن رأىٰ نفسه مقصرا في أمر من أوامر الله، بذل جهده واستعان بربه في تكميله وتتميمه، وإتقانه، ويقايس بين منن الله عليه وإحسانه وبين تقصيره، فإن ذلك يوجب له الحياء بلا محالة.

والحرمان كل الحرمان، أن يغفل العبد عن هذا الأمر، ويشابه قوما نسوا الله وغفلوا عن ذكره والقيام بحقه، وأقبلوا علىٰ حظوظ أنفسهم وشهواتها، فلم ينجحوا، ولم يحصلوا علىٰ طائل، بل أنساهم الله مصالح أنفسهم، وأغفلهم عن منافعها وفوائدها، فصار أمرهم فرطًا، فرجعوا بخسارة الدارين، وغبنوا غبنا، لا يمكنهم تداركه، ولا يجبر كسره، لأنهم هم الفاسقون، الذين خرجوا عن طاعة ربهم وأوضعوا في معاصيه، فهل يستوي من حافظ علىٰ تقوىٰ الله ونظر لما قدم لغده، فاستحق جنات النعيم، والعيش السليم - مع الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين - ومن غفل عن ذكر الله، ونسي حقوقه، فشقي في الدنيا، واستحق العذاب في الآخرة، فالأولون هم الفائزون، والآخرون هم الخاسرون»(١).

✍ **وقال ابن القيم** رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «يقول تعالىٰ: لينظر أحدكم ما قدم ليوم القيامة من الأعمال: من الصالحات التي تنجيه، أم من السيئات التي توبقه؟

✍ **قال قتادة**: «ما زال ربكم يقرب الساعة حتىٰ جعلها كغد».

والمقصود أن صلاح القلب بمحاسبة النفس، وفساده بإهمالها

---

(١) تيسير الكريم الرحمن (٩٤٤/ ١).

والاسترسال معها»[١].

✍ **وقال ابن المبارك** رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «من أعظم المصائب للرجل أن يعلم من نفسه تقصيرا ثم لا يبالي ولا يحزن عليه»[٢].

✍ **وقال بعضهم**: «آفة العبد رضاه عن نفسه ومن نظر إلىٰ نفسه باستحسان شيء منها فقد أهلكها ومن لم يتهم نفسه علىٰ دوام الأوقات فهو مغرور»[٣].

كل من أيقن بموقف الحساب بين يدي الله عَزَّوَجَلَّ، وعلم أنه مسؤول عن الصغير والكبير، والجليل والحقير من أعماله، اجتهد في محاسبة نفسه في الحياة قبل الممات، وهذا شأن العاقل الحصيف.

✍ **ويقول ابن المقفع**: «وعلىٰ العاقل مخاصمة نفسه ومحاسبتها، والقضاء عليها، والإثابة، والتنكيل بها»[٤].

فمتىٰ حاسب العاقل نفسه في الدنيا، شعر براحة النفس، وطرق أبواب السعادة، الجالبة لمحبة الله جل وعلا ورضوانه.

✍ **قال أمير المؤمنين عمر بن الخطاب** رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ: «حاسبوا أنفسكم قبل أن تحاسبوا، وزنوا أعمالكم قبل أن توزنوا، فإنه أهون عليكم في الحساب غدًا

---

(١) إغاثة اللهفان (١٤٣/ ١).

(٢) شعب الإيمان للبيهقي (٥١٥/ ١).

(٣) مدارج السالكين (٩٤/ ٢).

(٤) ابن المقفع: الأدب الصغير والأدب الكبير، دار صادر -: ص (١٨)..

أن تحاسبوا أنفسكم اليوم، وتزينوا للعرض الأكبر: ﴿يَوْمَئِذٍ تُعْرَضُونَ لَا تَخْفَىٰ مِنكُمْ خَافِيَةٌ ﴿١٨﴾﴾ [الحاقة:١٨]»(١).

✍ **وقال الحسن**: «المؤمن قوام علىٰ نفسه يحاسب نفسه لله عَزَّوَجَلَّ، وإنما خف الحساب يوم القيامة، علىٰ قوم حاسبوا أنفسهم في الدنيا، وإنما شق الحساب يوم القيامة، علىٰ قوم أخذوا هذا الأمر من غير محاسبة»(٢).

✍ **وقد أجمع العلماء علىٰ وجوب محاسبة النفس، يقول الإمام العز بن عبد السلام**: «أجمع العلماء علىٰ وجوب محاسبة النفوس، فيما سلف في الأعمال وفيما يستقبل منها»(٣).

✍ **وذكر أيضًا عن الحسن قال**: «لا يلفىٰ المؤمن إلا يحاسب نفسه: ما أردت بكلمتي؟ وماذا أردت بأكلتي؟ وماذا أردت بشربتي؟ والفاجر يمضي قدما، لا يحاسب نفسه»(٤).

✍ **وقال ابن القيم** رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «وأضر ما عليه: أي العبد المسلم: الإهمال، وترك المحاسبة، والاسترسال، وتسهيل الأمور، وتمشيتها؛ فإن هذا يؤول به إلي الهلاك، وهذه حال أهل الغرور: يغمض عينيه عن العواقب، ويمشي

---

(١) أخرجه الترمذي في جامعه، أبواب صفة القيامة، باب ح (٢٤٥٩)..

(٢) ابن أبي الدنيا: محاسبة النفس، دار الكتب العلمية - بيروت، ط ١ ١٤٠٦ هـ، ص (٦٠).

(٣) العز بن عبد السلام: مقاصد الرعاية، دار الفكر - دمشق، ط ١ ١٤١٦ هـ، ص (١٨)..

(٤) إغاثة اللهفان (١٣٢/ ١).

الحال، ويتكل علىٰ العفو؛ فيهمل محاسبة نفسه والنظر في العاقبة، وإذا فعل ذلك سهل عليه مواقعة الذنوب، وأنس بها، وعسر عليه فطامها، ولو حضره رشده لعلم أن الحمية أسهل من الفطام وترك المألوف والمعتاد»(١).

✍ **وقال ابن القيم** رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «فحق علىٰ الحازم المؤمن بالله واليوم الآخر: أن لا يغفل عن محاسبة نفسه، والتضييق عليها في حركاتها، وسكناتها، وخطراتها، وخطواتها، فكل نفس من أنفاس العمر جوهرة نفيسة لا خطر لها، يمكن أن يشترىٰ به كنز من الكنوز لا يتناهىٰ نعيمه أبد الآباد، فإضاعة هذه الأنفاس، أو اشتراء صاحبها بها ما يجلب هلاكه: خسران عظيم، لا يسمح بمثله إلا أجهل الناس وأحمقهم وأقلهم عقلا، وإنما يظهر له حقيقة هذا الخسران يوم التغابن: ﴿يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُّحْضَرًا وَمَا عَمِلَتْ مِن سُوٓءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُۥٓ أَمَدًۢا بَعِيدًا ۗ﴾ [آل عمران:٣٠]»(٢).

✍ **وقال ميمون بن مهران:** «لا يكون العبد تقيًّا حتىٰ يكون لنفسه أشد محاسبة من الشريك لشريكه»(٣)، ولهذا قيل: النفس كالشريك الخوان، إن لم تحاسبه ذهب بمالك.

---

(١) إغاثة اللهفان (١٤٠/ ١).

(٢) إغاثة اللهفان (١٣٧/ ١).

(٣) رواه وكيع في الزهد (٢٣٩)، وابن أبي شيبة (٧/ ١٩٥، ٢٣٥)، وهناد في الزهد (١٢٢٨)، وابن أبي الدنيا في محاسبة النفس (ص٧) عن جعفر بن برقان عن ميمون، ورواه ابن الجوزي في ذم الهوىٰ (ص ٤٣) من طريق وكيع ومن طريق ابن أبي الدنيا.

✍ **وقال ميمون بن مهران أيضًا**: «إن المتقي أشد محاسبة لنفسه من سلطان عاص، ومن شريك شحيح»(١).

✍ **وقال الإمام الغزالي** رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «عرف أصحاب البصائر من جملة العباد أن الله لهم بالمرصاد وأنهم سيناقشون الحساب ويطالبون بمثاقيل الذر من الخطرات واللحظات وتحققوا أنهم لن ينجيهم من هذه الأخطار إلا لزوم محاسبة النفس وصدق المراقبة ومطالبة النفس في الأنفاس والحركات ومحاسبتها في الخطرات واللحظات فمن حاسب نفسه قبل أن يحاسب خف عليه الحساب يوم القيامة وحضر عند السؤال جوابه وحسن منقلبه ومآله ومآبه ومن لم يحاسب نفسه دامت حسراته وطالت في عرسات القيامة وقفاته وقادته إلىٰ الخزي والمقت سيئاته»(٢).

✍ **وقال أبو حفص الوراق**: «من لم يتهم نفسه علىٰ دوام الأوقات، ولم يخالفها في جميع الأحوال، ولم يجرها إلىٰ مكروهها في سائر أوقاته، كان مغرورا، ومن نظر إليها باستحسان شيء منها فقد أهلكها»(٣).

✍ **وقال السري السقطي** رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «من حاسب نفسه استحيا الله من حسابه»(٤).

---

(١) رواه ابن أبي الدنيا في محاسبة النفس (ص٩) عن أبي موسىٰ العبدي عن أبي المليح عن ميمون.

(٢) إحياء علوم الدين (٤/ ٤١٨).

(٣) إغاثة اللهفان (١٤٧/ ١)، والرسالة القشيرية (ص ١٨٩).

(٤) صفة الصفوة ٢/ ٦٣٠.

✍ **وعن الحسن البصري** رَحِمَهُ ٱللَّهُ قال: «إن المؤمن قوام علىٰ نفسه يحاسب نفسه لله عَزَّوَجَلَّ وإنما خف الحساب يوم القيامة علىٰ قوم حاسبوا أنفسهم في الدنيا، وإنما شق الحساب يوم القيامة علىٰ قوم أخذوا هذا الأمر من غير محاسبة، إن المؤمن يفجأه الشيء يعجبه فيقول: والله إني لأشتهيك وإنك لمن حاجتي، ولكن والله ما من صلة إليك، هيهات هيهات، حيل بيني وبينك. ويفرط منه الشيء، فيرجع إلىٰ نفسه، فيقول: ما أردت إلىٰ هذا. مالي ولهذا؟ والله لا أعود لهذا أبدًا إن شاء الله، إن المؤمنين قوم أوثقهم القرآن، وحال بينهم وبين هلكتهم. إن المؤمن أسير في الدنيا يسعىٰ في فكاك رقبته لا يأمن شيئًا حتىٰ يلقىٰ الله عَزَّوَجَلَّ يعلم أنه مأخوذ عليه في سمعه وبصره ولسانه وجوارحه»(١).

✍ **وقال الربيع بن خثيم** رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «إذا تكلمت فاذكر سمع الله إليك، وإذا هممت فاذكر علمه بك، وإذا نظرت فاذكر نظره إليك، وإذا تفكرت فاذكر اطلاعه عليك، فإنه يقول تعالىٰ: ﴿إِنَّ ٱلسَّمْعَ وَٱلْبَصَرَ وَٱلْفُؤَادَ كُلُّ أُوْلَٰٓئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْـُٔولًا ﴿٣٦﴾﴾ [الإسراء:٣٦]»(٢).

✍ **وعن سفيان بن عيينة** رَحِمَهُ ٱللَّهُ، **قال**: «كان رجل يقول: علمي بصالح نفسي علمي بفسادها، وبحسب امرئ من الشر أن يرىٰ من نفسه فسادًا لا يصلحها»(٣).

---

(١) صفة الصفوة ٣/ ١٦٥، ١٦٦.

(٢) صفة الصفوة ٣/ ٤٦.

(٣) [الحلية (تهذيبه) ٢/ ٤٢٥].

✍ **وقال الإمام الماوردي** رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «علىٰ العبد أن يتصفح في ليله ما صدر من أفعال نهاره فإن الليل أخطر للخاطر وأجمع للفكر فإن كان محمودًا أمضاه واتبعه بما شاكله وضاهاه إن كان مذموما استدركه إن أمكن وانتهىٰ عن مثله في المستقبل فإنه إذا فعل ذلك وجد أفعاله لا تنفك من أربعة أحوال: إما أن يكون قد أصاب فيها الغرض المقصود بها أو يكون قد أخطأ فيها فوضعها في غير موضعها أو يكون قصر فيها فنقصت عن حدودها أو يكون قد زاد فيها حتىٰ تجاوزت محدودها وهذا التصفح إنما هو استظهار بعد تقديم الفكر قبل الفعل ليعلم به مواقع الإصابة وينتهز به استدراك الخطأ وقد قيل من كثر اعتباره قل عثاره.

وكما يتصفح أحوال نفسه فكذا يجب أن يتصفح أحوال غيره فربما كان استدراكه الصواب منها أسهل بسلامة النفس من شبهة الهوىٰ وخلو الخاطر من حسن الظن فإن ظفر بصواب وجده من غيره أو أعجبه جميل من فعله زين نفسه بالعمل به فإن السعيد من تصفح أفعال غيره فاقتدىٰ بأحسنها وانتهىٰ عن سيئها»(١).

✍ **قال القائل:**

حاسبت نفسي لم أجد لي صالحًا ∴ إلا رجاءي رحمة الرحمن
ووزنت أعمالي التي أعمل فلم ∴ أجد في الأمر إلا خفة الميزان

✍ **قال ابن القيم** رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «فأي عقوبة أعظم من عقوبة من أهمل نفسه،

---

(١) أدب الدنيا والدين (٣٦٣/ ١).

وضيعها، ونسي مصالحها، وداءها ودواءها، وأسباب سعادتها وفلاحها وصلاحها وحياتها الأبدية في النعيم المقيم؟»(١).

✍ **وقال ابن الجوزي** رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «انظر إلىٰ حالك الذي انت عليه، إن كان يصلح للموت والقبر، فاستمر عليه، وإن كان لا يصلح لهذين، فتب إلىٰ الله منها، وارجع إلىٰ ما يصلح»(٢).

✍ **وقال ابن الجوزي** رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «تفكرت في نفسي يومًا تفكر محقق، فحاسبتها قبل أن تحاسب، ووزنتها قبل أن توزن، فرأيت اللطف الرباني: فمنذ الطفولة وإلىٰ الآن أرىٰ لطفًا بعد لطف، وسترًا علىٰ قبيح، وعفوًا عما يوجب عقوبة، وما أرىٰ لذلك شكرًا إلا باللسان! ولقد تفكرت في خطايا، لو عوقبت ببعضها؛ لهلكت سريعًا، ولو كشف للناس بعضها، لاستحييت.

ولا يعتقد معتقد عند سماع هذا أنها من كبائر الذنوب، حتىٰ يظن في ما يظن في الفساق؛ بل هي ذنوب قبيحة في حق مثلي، وقعت بتأويلات فاسدة فصرت إذا دعوت، أقول: اللهم! بحمدك وسترك علي اغفر لي!

ثم طالبت نفسي بالشكر علىٰ ذلك؛ فما وجدته كما ينبغي. ثم أنا أتقاضىٰ القدر مراداتي، ولا أتقاضىٰ نفسي بصبر علىٰ مكروه، ولا بشكر علىٰ نعمة.

فأخذت أنوح علىٰ تقصيري في شكر المنعم، وكوني أتلذذ بإيراد العلم

---

(١) الداء والدواء (٢٤٥/ ١).

(٢) [بستان الواعظين ورياض السامعين «١/ ١٩٢، ١٩٣»].

من غير تحقيق عمل به.

وقد كنت أرجو مقامات الكبار، فذهب العمر، وما حصل المقصود!!

فوجدت أبا الوفاء ابن عقيل قد ناح نحو ما نحت، فأعجبتني نياحته، فكتبتها ها هنا، قال لنفسه:

يا رعناء! تقومين الألفاظ ليقال: مناظر وثمرة هذا أن يقال: يا مناظر! كما يقال للمصارع: الفاره

ضيعت أعز الأشياء وأنفسها عند العقلاء -وهي أيام العمر- حتىٰ شاع لك بين من يموت غدًا اسم مناظر، ثم ينسىٰ الذاكر والمذكور إذ درست القلوب! هذا إن تأخر الأمر إلىٰ موتك؛ بل ربما نشأ شاب أفره منك، فموهوا له، وصار الاسم له. والعقلاء عن الله تشاغلوا بما إذا انطووا نشرهم، وهو العمل بالعلم، والنظر الخالص لنفوسهم.

أفٍّ لنفسي وقد سطرت عدة مجلدات في فنون العلوم وما عبق بها فضيلة، إن نوطرت، شمخت، وإن نوصحت؛ تعجرفت، وإن لاحت الدنيا؛ طارت إليها طيران الرخم، وسقطت عليها سقوط الغراب علىٰ الجيف، فليتها أخذت أخذ المضطر من الميتىٰ توقر في المخالطة عيوبًا تبلي، ولا تحتشم نظر الحق إليها، وإن انكسر لها غرض؛ تضجرت، إن أمدت بالنعم؛ اشتغلت عن المنعم!!

أفٍّ والله مني، اليوم علىٰ وجه الأرض، وغدا تحتها! والله، إن نتن جسدي بعد ثلاث تحت التراب أقل من نتن خلائقي وأنا بين الأصحاب!

والله، إنني قد بهرني حلم هذا الكريم عني، كيف يسترني وأنا أتهتك، ويجمعني وأنا أتشتت؟! وغدا يقال: مات الحبر العالم الصالح، ولو عرفوني حق معرفتي بنفسي، ما دفنوني.

والله، لأنادين علىٰ نفسي نداء المكشفي معايب الأعداء، ولأنوحن نوح الشاكلين للأبناء، إذ لا نائح لي ينوح علي لهذه المصائب المكتومة، والخلال المغطاة، التي قد سترها من خبرها، وغطاها من علمها.

والله، ما أجد لنفسي خلة أستحسن أن أقول متوسلا بها: اللهم! اغفر لي كذا بكذا.

والله، ما التفت قط إلا وجدت منه سبحانه برا يكفيني، ووقاية تحميني من تسلط الأعداء، ولا عرضت حاجة فمددت يدي إلا قضاها. هذا فعله معي، وهو رب غني عني، وهذا فعلي، وأنا عبد فقير إليه!! ولا عذري لي فأقول: ما دريت، أو: سهوت.

والله، لقد خلقني خلقا صحيحا سليما، ونور قلبي بالفطنة، حتىٰ إن الغائبات والمكنونات تنكشف لفهمي، فواحسرتاه علىٰ عمر انقضىٰ فيما لا يطابق الرضا! واحرماني لمقامات الرجال والفطناء! يا حسرتا علىٰ ما فرطت في جنب الله، وشماتة العدو بي! واخيبة من أحسن الظن بي إذا شهدت الجوارح علي! واخذلاني عند إقامة الحجة! سخر -والله- مني الشيطان، وأنا الفطن!!

اللهم، توبة خالصة من هذه الأقذار، ونهضة صادقة لتصفية ما بقي من الأكدار، وقد جئتك بعد الخمسين، وأنا من خلق المتاع، وأبىٰ العلم إلا أن

يأخذ بيدي إلىٰ معدن الكرم، وليس لي وسيلة إلا التأسف والندم؛ فوالله ما عصيتك جاهلًا بمقدار نعمك، ولا ناسيا لما أسلفت من كرمك، فاغفر لي سالف فعلي[(١)]»[(٢)].

خامسًا: من ترك الحرام أو ما فيه شبهة لأجل فالله يعوضه الله خيرًا منه

❁ جاء عن عبد الله بن عمر، أن النبي ﷺ قال: «**ما ترك عبد لله أمرًا لا يتركه إلا له، إلا عوضه الله ما هو خير له في دينه ودنياه**»[(٣)].

❁ وعن أبي قتادة، وأبي الدهماء قالا: كانا يكثران السفر نحو هذا البيت، قالا: أتينا علىٰ رجل من أهل البادية فقال البدوي: أخذ بيدي رسول الله ﷺ فجعل يعلمني مما علمه الله تبارك وتعالىٰ، وقال: «**إنك لن تدع شيئًا**

---

(١) صيد الخاطر (٤٧٤/ ١).

(٢) انظر في محاسبة النفس [إغاثة اللهفان - أدب الدنيا والدين - حياة السلف بين القول والعمل].

(٣) أخرجه أبو نعيم في حلية الأولياء: ٢/ ١٩٦، من عبد الله بن سعد القاضي الرقي به، بدون أبيات. وقال: غريب من حديث الزهري، لم نكتبه إلا من هذا الوجه.
وقال الألباني: إن إسناده موضوع، فإن من دون الزهري لا ذكر لهم في شيء من كتب الحديث، غير عبد الله بن سعد الرقي، فإنه معروف، ولكن بالكذب، الضعيفة ١/ ٦١ رقم (٥).
نعم صح الحديث بدون قوله في آخره «في دينه ودنياه». أخرجه وكيع في «الزهد» (٢/ ٦٨/ ٢)، وعنه أحمد (٥/ ٣٦٣)، والقضاعي في «مسند الشهاب» (رقم ١١٣٥) بلفظ: «إنك لن تدع شيئًا لله عَزَّوَجَلَّ إلا بدلك الله به ما هو خير لك منه». وسنده صحيح علىٰ شرط مسلم. وأخرجه الأصبهاني أيضًا في «الترغيب» (٧٣/ ١) ثم روىٰ له شاهدًا من حديث أبي بن كعب بسند لا بأس به في الشواهد.

اتقاء الله جل وعز إلا أعطاك خيرًا منه»(١).

❁ وقال رسول الله ﷺ: «**فإن من ترك شيئًا لله عوضه الله خيرًا منه**»(٢).

❁ وعن عبد الله عن ابن عمر رضي الله أن رسول الله ﷺ قال: «**ما ترك عبد شيئًا لله لا يتركه إلا لله إلا عوضه منه ما هو خير له في دينه ودنياه**»(٣).

✍ **قال عمر بن عبد العزيز** رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «ما تركت من الدنيا شيئًا إلا أعقبني

---

(١) وأخرجه وكيع في الزهد: ٢/ ٦٣٥، وأحمد في مسنده: ٥/ ٧٨ و٧٩ و٣٦٢، والمروزي في زياداته علىٰ الزهد لابن المبارك: ٠/ ٤١٢، والقضاعي في مسند الشهاب: ٢/ ١٧٨ رقم (١١٣٥)، و(١١٣٦)، والبيهقي في شعب الإيمان: ٥/ ٥٣ رقم (٥٧٤٨)، كلهم من طريق سليمان بن المغيرة، عن حميد بن هلال، وهذا لفظ أحمد، وإسناد صحيح رجاله ثقات، والرجل الذي رويا عنه له صحبة كما هو مذكور في ترجمتهما في التهذيب، وقال محمد بن ناصر الدين الألباني: أخرجه أحمد بسند صحيح.
وقد رواه مرسلًا ابن أبي الدنيا في الورع: ١/ ٤٥ رقم (٤١) أخرجه أبو نعيم في الحلية الأولياء: ٤/ ٣١٢ أخرجه ابن أبي الدنيا في الورع: ٠/ ٥٥ رقم (٤٢). وإسناده حسن، فمسلم بن شداد وثقه العجلي وابن حبان. وبقية رجاله ثقات.

(٢) قال الشيخ الألباني: رواه أحمد بسند صحيح. انظر حجاب المرأة المسلمة (١/ ٤٧).

(٣) قال الألباني في سلسلة الأحاديث الضعيفة (١/ ٦١): «موضوع بهذا اللفظ. وقد سمعته في كلمة ألقاها بعض الأفاضل من إذاعة دمشق في هذا الشهر المبارك شهر رمضان! أخرجه أبو نعيم في «حلية الأولياء» (٢/ ١٩٦)، وعنه الديلمي (٤/ ٢٧ ـ الغرائب الملتقطة)، والسلفي في «الطيوريات» (٢/ ٢٠٠)، وابن عساكر (٣/ ٢٠٨/ ٢ و١٥/ ٧٠/ ١).

الله عَزَّوَجَلَّ في قلبي ما هو أفضل منه»(١).

✍ **وقال شريح** رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «فوالله لا تجد فقد شيء تركته لله»(٢).

✍ **وقال ابن القيم** رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «ومن ترك اللذة المحرمة لله استوفاها يوم القيامة أكمل ما تكون»(٣).

✍ **وقال العلامة ابن رجب** رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «قال بعض السلف: «طوبىٰ لمن ترك شهوة حاضرة لموعد غيب لم يره»(٤).

✍ **وقال ابن القيم** رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «منزلة من سلمت نفسه من إرادة الشهوات فلم تخطر بقلبه ولم تدعه إليها نفسه، بخلاف الفرقة الأولىٰ، فإنهم يعرفونها وتميل اليها نفوسهم ويجاهدونها علىٰ تركها لله.

وقد كتبوا إلىٰ عمر بن الخطاب يسألونه عن هذه المسألة أيهما أفضل: رجل لم تخطر له الشهوات ولم تمر بباله، أو رجل نازعته إليها نفسه فتركها لله؟ فكتب عمر: إن الذي تشتهي نفسه المعاصي ويتركها لله عَزَّوَجَلَّ من: ﴿ٱلَّذِينَ ٱمۡتَحَنَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمۡ لِلتَّقۡوَىٰۚ لَهُم مَّغۡفِرَةٞ وَأَجۡرٌ عَظِيمٌ﴾ [الحجرات:٣]»(٥).

---

(١) الورع لابن أبي الدنيا (٥٥).

(٢) طبقات ابن سعد (٦/ ١٦٣).

(٣) حادي الأرواح (١/ ٥٢٦).

(٤) لطائف المعارف (١/ ٣٦٠).

(٥) ذكره ابن كثير في التفسير(٤/ ٢٠٧)، وعزاه للإمام أحمد في كتاب الزهد واسناده منقطع؛ لأن مجاهد بن جبر لم يسمعه عن عمر بن الخطاب.

✍ **وقال شيخ الإسلام** رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «فكل ما وقع في قلب المؤمن من خواطر الكفر والنفاق فكرهه وألقاه ازداد إيمانًا ويقينًا كما أن كل من حدثته نفسه بذنب فكرهه ونفاه عن نفسه وتركه لله ازداد صلاحًا وبرًّا وتقوىٰ»(١).

✍ **قال ابن عبد الهادي في كتابه «إرشاد الحائر إلىٰ علم الكبائر»**(٢): «فصل» فصل: وهذه المحرمات لو تركها: عوض خيرًا منها، فمن لا يصلي تراه بالقلة والذلة، وتراه لو عمل ما عمل: لم تر معه بركة، وكذا من لم يصم ولم يزك، ومن أخذ الربا، فلو ترك هذا الربا: لعوض بدله حلالًا، ولو ترك الزنا: لعوض بدله حلالًا، ولو ترك السرقة: لعوض بدله حلالًا، ولو ترك المعاصي جميعها: عوض بدلها حلالًا.

وما ترك أحد شيئًا لله: إلا عوضه الله خيرًا منه، ولو لم يكن في الدنيا: ففي الآخرة، ولهذا الدعاء: تارة يعجله الله لطالبه في الدنيا، وتارة يعوضه خيرًا منه، وتارة يخليه له إلىٰ الآخرة.

ومن هذا حكاية المازني: (أن ذميًّا أعطاه مائة دينار علىٰ أن يقرأه كتاب سيبويه، فقال: هذا كتاب يحتوي علىٰ ثلاثمائة آية وشيء من كتاب الله، وأنا لا أستحل أمكِّن منها ذميًّا.

فجرىٰ أن غنَّت جارية قدام الواثق:

أظلوم إن مصابكم رجلًا ∴ أهدىٰ السلام تحية ظلم

---

(١) مجموع الفتاوىٰ (٧٦٧/ ١٠).

(٢) إرشاد الحائر إلىٰ علم الكبائر (٦٠/ ١).

فاختلف أهل المجلس في إعراب (رجل)؟ فقال بعضهم: بالرفع، وبعضهم: بالنصب. وأصرت الجارية علىٰ النصب، وقالت: قاله المازني. فأتي به، فقال له الخليفة: ما الإعراب؟ فقال: النصب. وأوصىٰ له فأعطاه ألف دينار).

فلما ترك المائة دينار لله: عوضه الله ألف دينار.

- وحكي أن بعضهم لقي ألف دينار وهو فقير، فعرَّفها، فلقيه رجل فقال: هي لي؛ ووصفها، فقال له: كم تعطي واجدها؟ فلم يعطه شيئًا، فقال: أعطه عشر دنانير، فلم يعطه شيئًا، فقال: أعطه خمسة، فلم يعطه شيئًا، فقال: أعطه دينارين، فلم يعطه شيئًا، فقال: أعطه ديناراً، فلم يعطه شيئًا، فدفعها إليه، فلما دفعها إليه قال له: والدي مات وخلف مالًا كثيرًا، وأوصىٰ أن يتصدق ببعضه، ولا يتصدق حتىٰ يُحط في كيس ويُرمىٰ، فمن وجده ورده: يُدفع إليه، فدُفع إليه مالًا.

وهذه قاعدة مطردة: (أن من ترك لله شيئًا: عوَّضه الله خيرًا منه).

وقد ذكر في كتاب: (روضة المحبين) في هذا الباب شيئًا كثيرًا، وقد رأيت حكايات في هذا الباب لا تحصر، وقل أن يحيط بها بشر». انتهىٰ.

✍ **قال الشاعر يحيىٰ الضامري:**

ودع عنك الذنوب تكن سعيدا ∴ وأحسن للعباد تعش طويلا
وإن تترك لأجل الله ذنبا ∴ تنل عوضا من المولىٰ جميلا

✍ **وقيل:**

مـــآل العبـــد في الطاعـــات عـــز ∴ وشـــؤم الـــذنب صـــيره ذلـــيلا
ومـــن يـــترك لأجـــل الله شـــيئًا ∴ يجـد عوضـا مـن المـولىٰ بـديلا
فيورثـــه القناعـــة مـــن ذنـــوب ∴ وشـــهوات تألفهـــا طـــويلا

✍ **وقال العلامة ابن القيم** رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «الفصل السابع والعشرون:

«فيمن ترك محبوبه حرامًا، فبدل له حلالًا أو أعاضه الله خيرًا منه».

عنوان هذا الباب، وقاعدته: أن من ترك لله شيئًا؛ عوضه الله خيرًا منه.

كما ترك يوسف الصديق عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ امرأة العزيز لله، واختار السجن علىٰ الفاحشة، فعوضه الله أن مكَّنه في الأرض يتبوأ منها حيث يشاء، وأتته المرأة صاغرة، سائلة، راغبة في الوصل الحلال، فتزوجها، فلما دخل بها قال: هذا خير مما كنت تريدين. وتأمل كيف جزاه الله - سبحانه - علىٰ ضيق السجن: أن مكنه في الارض ينزل منها حيث يشاء، وذل له العزيز، وامرأته، وأقرت المرأة والنسوة ببراءته، وهذه سنته تعالىٰ في عباده قديما وحديثا إلىٰ يوم القيامة.

ولما عقر سليمان بن داود - عليهما الصلاة والسلام - الخيل التي شغلته عن صلاة العصر حتىٰ غابت الشمس غضبًا لله، أعاضه الله عنها الريح يركب هو وعسكره علىٰ متنها حيث أراد.

ولما ترك المهاجرون ديارهم لله، وأوطانهم التي هي أحب شيء إليهم اعاضهم الله أن فتح عليهم الدنيا، وملكهم شرق الارض وغربها.

ولو اتقىٰ الله السارق، وترك سرقة المال المعصوم لله؛ لآتاه الله مثله

حلالًا. قال تعالىٰ: ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجۡعَل لَّهُۥ مَخۡرَجٗا ۝٢ وَيَرۡزُقۡهُ مِنۡ حَيۡثُ لَا يَحۡتَسِبُۚ وَمَن يَتَوَكَّلۡ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسۡبُهُۥٓۚ إِنَّ ٱللَّهَ بَٰلِغُ أَمۡرِهِۦۚ قَدۡ جَعَلَ ٱللَّهُ لِكُلِّ شَيۡءٖ قَدۡرٗا ۝٣﴾ [الطلاق:٢-٣].

فأخبر - سبحانه وتعالىٰ -: انه إذا اتقاه بترك ما لا يحل له؛ رزقه من حيث لا يحتسب، وكذلك الزاني لو ترك ركوب ذلك الفرج حراما لله؛ لأثابه الله بركوبه، أو ركوب ما هو خير منه حلالًا.

❁ قال الإمام أحمد(١): حدثنا هشيم، حدثنا عبد الرحمن بن إسحاق عن محارب بن دثار، عن صلة، عن حذيفة بن اليمان رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: «**النظر إلىٰ المرأة سهم من سهام ابليس مسموم، من تركه خوف الله؛ أثابه الله ايمانا يجد حلاوته في قلبه**».

❁ وقال عمر بن شبة(٢): حدثنا أحمد بن عبد الله بن يونس، حدثنا عنبسة بن عبد الرحمن، حدثنا أبو الحسن المزني، عن علي رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ «**نظر الرجل في محاسن المرأة سهم من سهام إبليس مسموم، فمن أعرض عن ذلك السهم أعقبه الله عبادة تسره**»(٣).

---

(١) قال الألباني في «السلسلة الضعيفة والموضوعة» (٣/ ١٧٧): «ضعيف جدًّا». رواه القضاعي في «مسند الشهاب» (٢١/ ١) ضعيف جدًّا، واتفقوا علىٰ تضعيفه كما قال النووي وغيره.

(٢) المجلد: السلسلة الضعيفة - مختصرة رقم الحديث: (٥٩٧٠): (موضوع).

(٣) روضة المحبين (٦٠٠/ ١).

سادسًا: من معاني التقوى ترك المألوف لأجل الله حتى يعوضه الله خيرًا منه

❁ ومن أدلة هذا المعنىٰ العظيم من كتاب الله قوله تعالىٰ: ﴿وَوَهَبْنَا لِدَاوُۥدَ سُلَيْمَٰنَ ۚ نِعْمَ ٱلْعَبْدُ ۖ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ ﴿٣٠﴾ إِذْ عُرِضَ عَلَيْهِ بِٱلْعَشِىِّ ٱلصَّٰفِنَٰتُ ٱلْجِيَادُ ﴿٣١﴾ فَقَالَ إِنِّىٓ أَحْبَبْتُ حُبَّ ٱلْخَيْرِ عَن ذِكْرِ رَبِّى حَتَّىٰ تَوَارَتْ بِٱلْحِجَابِ ﴿٣٢﴾ رُدُّوهَا عَلَىَّ ۖ فَطَفِقَ مَسْحًۢا بِٱلسُّوقِ وَٱلْأَعْنَاقِ ﴿٣٣﴾﴾ [ص:٣٠-٣٣].

✍ **قال صاحب تفسير «البحر المديد»**: «لما عقرها أبدل الله تعالىٰ له خيرًا منها، وهي الريح تجري بأمره، فقال إني أحببت حب الخير عن ذكر ربي، قاله عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ عند غروب الشمس، اعترافا بما صدر عنه من الاشتغال بها عن الصلاة أو الذكر، وغايته حينئذ: أن الأولىٰ استغراق الأوقات في ذكر الله من الاشتغال بالدنيا، فترك الأولىٰ، وتحسر لذلك، وأمر بالقطع.

وأما حمله علىٰ الصلاة والاشتغال بها حتىٰ يفوت الوقت، فذنب عظيم، تأباه العصمة. قاله شيخ شيوخنا الفاسي»(١).

✍ **وقال صاحب تفسير الجلالين** «أي: ذبحها وقطع أرجلها تقربا إلىٰ الله تعالىٰ حيث اشتغل بها عن الصلاة وتصدق بلحمها فعوضه الله خيرًا منها وأسرع وهي الريح تجري بأمره كيف شاء»(٢).

✍ **وقال العلامة السعدي** رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «أن كل ما أشغل العبد عن الله، فإنه مشئوم مذموم، فليفارقه وليقبل علىٰ ما هو أنفع له.

---

(١) البحر المديد في تفسير القرآن المجيد (٢٦/ ٥).

(٢) تفسير الجلالين (٦٠٢/ ١).

ومنها: القاعدة المشهورة «من ترك شيئًا لله عوضه الله خيرًا منه» فسليمان عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ عقر الجياد الصافنات المحبوبة للنفوس، تقديما لمحبة الله، فعوضه الله خيرًا من ذلك، بأن سخر له الريح الرخاء اللينة، التي تجري بأمره إلىٰ حيث أراد وقصد، غدوها شهر، ورواحها شهر، وسخر له الشياطين، أهل الاقتدار علىٰ الأعمال التي لا يقدر عليها الآدميون»(١).

✍ **وقال** رَحِمَهُ ٱللَّهُ أيضًا «والله تعالىٰ شكور يقبل من عباده اليسير من العمل، ويجازيهم عليه الكثير من الأجر، ويشكر تعالىٰ لمن تحمل من أجله المشاق والأثقال، وناء بالتكاليف الثقال، ومن ترك شيئًا لله، عوضه الله خيرًا منه»(٢).

✍ **وقال صاحب كتاب «تحريم المتعة»**: «وإن من حكمة الله في شرعه وخلقه أنه لا يسد عن النفوس باب ممنوعها إلا ويفتح لها باب مشروعها؛ لأن من ترك شيئًا لله عوضه الله ما هو خير منه ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجۡعَل لَّهُۥ مَخۡرَجٗا ۝٢ وَيَرۡزُقۡهُ مِنۡ حَيۡثُ لَا يَحۡتَسِبُۚ﴾ [الطلاق:٢-٣]، ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجۡعَل لَّهُۥ مِنۡ أَمۡرِهِۦ يُسۡرٗا ۝٤﴾ [الطلاق:٤]، وقال تعالىٰ: عن الخليل إبراهيم ﴿وَأَعۡتَزِلُكُمۡ وَمَا تَدۡعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَأَدۡعُواْ رَبِّي عَسَىٰٓ أَلَّآ أَكُونَ بِدُعَآءِ رَبِّي شَقِيّٗا ۝٤٨﴾ [مريم:٤٨]»(٣).

---

(١) تيسير الكريم الرحمن (٧١٢/ ١).

(٢) تيسير الكريم الرحمن (٨٦٨/ ١).

(٣) بطلان نكاح المتعة بمقتضىٰ الدلائل من الكتاب والسنة عبد الله بن زيد آل محمود (مجلة البحوث العلمية (١٩٧/ ٦).

✍ **قال العلامة السعدي** رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «أي: عسىٰ الله أن يسعدني بإجابة دعائي، وقبول أعمالي،. وهذه وظيفة من أيس ممن دعاهم، فاتبعوا أهواءهم، فلم تنجع فيهم المواعظ، فأصروا في طغيانهم يعمهون، أن يشتغل بإصلاح نفسه، ويرجو القبول من ربه، ويعتزل الشر وأهله.

ولما كان مفارقة الإنسان لوطنه ومألفه وأهله وقومه، من أشق شيء علىٰ النفس، لأمور كثيرة معروفة، ومنها انفراده عمن يتعزز بهم ويتكثر، وكان من ترك شيئًا لله عوضه الله خيرًا منه، واعتزل إبراهيم قومه، قال الله في حقه: ﴿ فَلَمَّا ٱعۡتَزَلَهُمۡ وَمَا يَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَهَبۡنَا لَهُۥٓ إِسۡحَٰقَ وَيَعۡقُوبَۖ ﴾ [مريم:٤٩] من إسحاق ويعقوب ﴿جَعَلۡنَا نَبِيّٗا ﴿٤٩﴾ ﴾ فحصل له هبة هؤلاء الصالحين المرسلين إلىٰ الناس، الذين خصهم الله بوحيه، واختارهم لرسالته، واصطفاهم من العالمين»(١).

❁ وقال تعالىٰ: ﴿وَإِذِ ٱعۡتَزَلۡتُمُوهُمۡ وَمَا يَعۡبُدُونَ إِلَّا ٱللَّهَ فَأۡوُۥٓاْ إِلَى ٱلۡكَهۡفِ يَنشُرۡ لَكُمۡ رَبُّكُم مِّن رَّحۡمَتِهِۦ وَيُهَيِّئۡ لَكُم مِّنۡ أَمۡرِكُم مِّرۡفَقٗا ﴿١٦﴾ ﴾ [الكهف:١٦].

✍ **قال العلامة العثيمين** رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «يعني أنكم إذا فعلتم ذلك فإن الله سييسر لكم الأمر؛ لأن من ترك شيئًا لله عوضه الله خيرًا منه»(٢).

✍ **وقال العلامة ابن القيم** رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «لا مشقة في ترك المألوف إرضاء لله تعالىٰ إنما يجد المشقة في ترك المألوفات والعوائد من تركها لغير الله. أما من

---

(١) تيسير الكريم الرحمن (٤٩٤/ ١).

(٢) تفسير العلامة العثيمين سورة الكهف (٣١/ ١).

تركها صادقًا مخلصًا في قلبه لله فإنه لا يجد في تركها مشقة إلا في أول وهلة ليمتحن أصادق هو في تركها أم كاذب، فإن صبر علىٰ تلك المشقة قليلًا استحالت لذة.

✍ **قال ابن سيرين**: سمعت شريحًا يحلف بالله ما ترك عبدالله شيئًا فوجده فقده.

وقولهم: «من ترك لله شيئًا عوضه الله خيرًا منه» حق، والعوض أنواع مختلفة، وأجل ما يعوض به الأنس بالله ومحبته، وطمأنينة القلب به، وقوته ونشاطه وفرحه ورضاه عن ربه تعالىٰ»(١).

✍ **وقال ابن القيم** رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «فما ابتلىٰ الله سبحانه عبده المؤمن بمحبة الشهوات والمعاصي وميل نفسه إليها إلا ليسوقه بها إلىٰ محبة ما هو أفضل منها، وخير له وأنفع وأدوم، وليجاهد نفسه علىٰ تركها له سبحانه، فتورثه تلك المجاهدة الوصول إلىٰ المحبوب الأعلىٰ.

فكلما نازعته نفسه إلىٰ تلك الشهوات واشتدت إرادته لها وشوقه اليها: صرف ذلك الشوق والمحبة والإرادة إلىٰ النوع العالي الدائم، فكان طلبه له أشد وحرصه عليه أتم، بخلاف النفس الباردة الخالية من ذلك، فإنها وإن كانت طالبة للأعلىٰ لكن بين الطلبين فرق عظيم. ألا ترىٰ أن من مشىٰ إلىٰ محبوبه علىٰ الجمر والشوك أعظم ممن مشىٰ إليه راكبًا علىٰ النجائب! فليس من آثر محبوبه علىٰ منازعه مع نفسه كمن آثره مع عدم منازعتها إلىٰ غيره،

---

(١) الفوائد (١١٣/ ١).

فهو سبحانه يبتلي عبده بالشهوات، إما حجابًا له عنه، أو حاجبًا له يوصله إلىٰ رضاه وقربه وكرامته»(١).

✍ **قال شيخ الإسلام** «فإنه من كان في الله تلفه كان علىٰ الله خلفه»(٢).

✍ **وقال العلامة ابن القيم** رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «وأما العلائق فهي كل ما تعلق به القلب دون الله ورسوله من ملاذ الدنيا وشهواتها ورئاستها وصحبة الناس والتعلق بهم، ولا سبيل له إلىٰ قطع هذه الأمور الثلاثة ورفضها إلا بقوة التعلق بالمطلب الأعلىٰ، والا فقطعها عليه بدون تعلقه بمطلوبه ممتنع. فإن النفس لا تترك مألوفها ومحبوبها إلا لمحبوب هو أحب اليها منه آثر عندها منه. وكلما قوي تعلقه بمطلوبه ضعف تعلقه بغيره. وكذا بالعكس والتعلق بالمطلوب هو شدة الرغبة فيه. وذلك علىٰ قدر معرفته به وشرفه وفضله علىٰ ما سواه»(٣).

✍ **وقال العلامة ابن القيم** رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «الوصول إلىٰ المطلوب موقوف علىٰ هجر العوائد وقطع العوائق. فالعوائد السكون إلىٰ الدعة والراحة وما ألفه الناس واعتادوه من الرسوم والأوضاع التي جعلوها بمنزلة الشرع المتبع، بل هي عندهم أعظم من الشرع. فإنهم ينكرون علىٰ من خرج عنها وخالفها ما لا ينكرون علىٰ من خالف صريح الشرع. وربما كفروه أو بدعوه وضللوه، أو هجروه وعاقبوه لمخالفة تلك الرسوم، وأماتوا لها السنن،

---

(١) الفوائد (١/ ١١٦).

(٢) قاعدة في الصبر (١/ ٩٩).

(٣) الفوائد (١/ ١٦٦).

ونصبوها أندادا للرسول ﷺ يوالون عليها ويعادون. فالمعروف عندهم ما وافقها والمنكر ما خالفها.

وهذه الأوضاع والرسوم قد استولت عليها طوائف من بني آدم من الملوك والولاة والفقهاء والصوفية والفقراء، والمطوعين والعامة. فربي فيها الصغير ونشأ عليها الكبير واتخذت سننا بل هي أعظم عند أصحابها من السنن. والواقف معها محبوس والمتقيد بها منقطع. عم بها المصاب، وهجر لأجلها السنة والكتاب. من استنصر بها فهو عند الله مخذول، ومن اقتدىٰ بها دون كتاب الله وسنة رسول الله فهو عند الله غير مقبول. وهذا أعظم الحجب والموانع بين العبد وبين النفوذ إلىٰ الله ورسوله ﷺ»(١).

✍ **وقال ابن القيم** رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «كل تائب لا بد له في أول توبته من عصرة وضغطة في قلبه من هم أو غم أو ضيق أو حزن ولو لم يكن إلا تألمه بفراق محبوبه فينضغط لذلك وينعصر قلبه ويضيق صدره فأكثر الخلق رجعوا من التوبة ونكسوا علىٰ رؤوسهم لأجل هذه المحبة والعارف الموفق يعلم أن الفرحة والسرور واللذة والحاصلة عقيب التوبة تكون علىٰ قدر هذه العصرة فكلما كانت أقوىٰ وأشد كانت الفرحة واللذة أكمل وأتم ولذلك اسباب عديدة منها أن هذه العصرة والقبض دليل علىٰ حياة قلبه وقوة استعداده ولو كان قلبه ميتا واستعداده ضعيفا لم يحصل له ذلك»(٢).

---

(١) الفوائد (١٦٥/ ١٦٦).

(٢) طريق الهجرتين (٣٦٩/ ١).

✍ **وقال أبو حازم** رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «إذا عزم العبد علىٰ ترك الآثام أتته الفتوح»(١).

✍ **وقال أبو الحواري**: قال أبو سليمان الداراني رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «من صدق في ترك شهوة أذهب الله بها من قلبه والله أكرم من أن يعذب قلبا بشهوة تركت له»(٢).

✍ **وقال العلامة ابن القيم** رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «فعامة مصالح النفوس في مكروهاتها، كما أن عامة مضارها وأسباب هلكتها في محبوباتها ومن أراد صفاء قلبه فليؤثر الله علىٰ شهوته. والقلوب المتعلقة بالشهوات محجوبة عن الله بقدر تعلقها بها»(٣).

✍ **وقال ابن القيم** رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «إنما يجد المشقة في ترك المألوفات والعوائد من تركها لغير الله فأما من تركها صادقًا مخلصًا من قلبه لله فإنه لا يجد في تركها مشقة إلا في أول وهلة ليمتحن أصادق هو في تركها أم كاذب فإن صبر علىٰ تلك المشقة قليلا استحالت لذة قال ابن سيرين سمعت شريحا يحلف بالله ما ترك عبد لله شيئًا فوجد فقده وقولهم من ترك لله شيئًا عوَّضه الله خيرًا منه حق والعوض أنواع مختلفة وأجل ما يعوض به الأنس بالله ومحبته وطمأنينة القلب به وقوته ونشاطه وفرحه ورضاه عن ربه

---

(١) الإخلاص لابن أبي الدنيا (١٤/ ١).

(٢) الزهد الكبير للبيهقي (٢٨٢/ ١).

(٣) الفوائد (٩٥- ١٠٢/ ١).

تعالىٰ»(١).

✍ **وقال ابن أبي الدنيا** رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «نعلمه جميعًا أن من ترك شيئًا لله عوضه الله خيرًا منه فمن تورع عن بعض ما لا يليق رجاء ما عند الله أو خوفًا منه جل جلاله فإن الله عَزَّوَجَلَّ يعوضه ويفيض عليه من ألوان النعم والأرزاق والبركات ما لا يقادر قدره وقد قال بعض أهل العلم: «لن يعدم المتورع عن الحرام فتوحًا من الحلال» فإذا تركت الشيء لله فإن الله عَزَّوَجَلَّ يعوضك وإبراهيم ﷺ لما ترك الأهل والوطن والعشيرة واعتزل قومه وهجرهم في الله ولله قال الله عَزَّوَجَلَّ: (فلما اعتزلهم وما يعبدون من دون الله وهبنا له إسحاق ويعقوب) فعوضه الله عَزَّوَجَلَّ بالذرية الطيبة الصالحة الذين ينسونه الوطن والأهل والعشيرة الذين لم يكونوا علىٰ دينه.

والخامس مما يورثه الورع أنه يكون حاجزًا وحائلًا دون الوقوع في الحرام فهو يعصم صاحبه بإذن الله عَزَّوَجَلَّ عن الاستدراج لذلك نجد أن من تعاطىٰ ما نهي عنه فإنه يكون مظلم القلب لفقدان نور الورع فيقع في الحرام ولو لم يقصد الوقوع فيه ابتداء»(٢).

بعض الذنوب التي أمر الله بتركها وجعل لتاركها لله عوضًا:

✍ **قال قتادة السدوسي** رَحِمَهُ ٱللَّهُ: ذكر لنا أن نبي الله كان يقول: «**لا يقدر رجل علىٰ حرام؛ ثم يدعه، ليس به إلا مخافة الله** عَزَّوَجَلَّ **إلا أبدله الله في عاجل**

---

(١) الفوائد (١٠٨/ ١).

(٢) الورع لابن أبي الدنيا (٤٢/ ١).

الدنيا قبل الآخرة ما هو خير له من ذلك»(١).

✍ **وقال عبيد بن عمير**: «صدق الإيمان وبره أن يخلو الرجل بالمرأة الحسناء، فيدعها، لا يدعها إلا لله عَزَّوَجَلَّ»(٢).

✍ **قال العلامة السعدي** رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «وكما أن المتعجل للمحظور يعاقب بالحرمان، فمن ترك شيئًا لله تهواه نفسه عوضه الله خيرًا منه في الدنيا والآخرة، فمن ترك معاصي الله ونفسه تشتهيها عوضه الله إيمانًا في قلبه، وسعة، وانشراحا، وبركة في رزقه، وصحة في بدنه مع ماله من ثواب الله الذي لا يقدر علىٰ وصفه، والله المستعان»(٣).

✍ **وقال ابن القيم** رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «فما حرم الله علىٰ عباده شيئًا إلا عوضهم خيرًا منه كما حرم عليهم الاستقسام بالأزلام وعوضهم منه دعاء الاستخارة وحرم عليهم الربا وعوضهم منه التجارة الرابحة وحرم عليهم القمار وأعاضهم منه أكل المال بالمسابقة النافعة في الدين بالخيل والإبل والسهام وحرم عليهم الحرير وأعاضهم منه أنواع الملابس الفاخرة من الصوف والكتان والقطن وحرم عليهم الزنا واللواط وأعاضهم منهما بالنكاح

---

(١) علقه كل من ابن جرير «جامع البيان عن تأويل القرآن» (٩/ ٨٥) ، وابن أبي حاتم «تفسير القرآن العظيم» (٧/ ٢٣٣٠). عن ابن عباس رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا، وعزاه السيوطي «الدر المنثور في التفسير بالمأثور» (٤/ ١٨٢) إلىٰ عبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم، ولم أقف علىٰ من وصله، وذكره ابن الجوزي في «ذم الهوىٰ» (ص ٢٤٥).

(٢) أخرج عنه ابن الجوزي (ص ٢٤٥).

(٣) منظومة القواعد الفقهية وتعليقات العلامة السعدي عليها (١٦/ ١).

والتسري بصنوف النساء الحسان وحرم عليهم شرب المسكر وأعاضهم عنه بالأشربة اللذيذة النافعة للروح والبدن وحرم عليهم سماع آلات اللهو من المعازف والمثاني وأعاضهم عنها بسماع القرآن والسبع المثاني وحرم عليهم الخبائث من المطعومات وأعاضهم عنها بالمطاعم الطيبات ومن تلمح هذا وتأمله هان عليه ترك الهوىٰ المردي واعتاض عنه بالنافع المجدي وعرف حكمة الله ورحمته وتمام نعمته علىٰ عباده فيما أمرهم به ونهاهم عنه وفيما أباحه لهم وأنه لم يأمرهم بما أمرهم به حاجة منه إليهم ولا نهاهم عنه بخلًا منه تعالىٰ عليهم بل أمرهم بما أمرهم إحسانًا منه ورحمة ونهاهم عما نهاهم عنه صيانة لهم وحمية»(١).

أولًا: غض البصر عما حرم الله

✍ **وقال ابن القيم** رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «والله سبحانه يجزي العبد علىٰ عمله بما هو من جنس عمله، ومن ترك لله شيئًا عوضه الله خيرًا منه، فإذا غض بصره عن محارم الله عوضه الله بأن يطلق نور بصيرته عوضا عن حبسه بصره لله، ويفتح عليه باب العلم والإيمان والمعرفة والفراسة الصادقة المصيبة التي إنما تنال ببصيرة القلب»(٢).

✍ **وقال شيخ الإسلام** رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «سمعت أبا الحسين الوراق يقول: من غض بصره عن محرم أورثه الله بذلك حكمة علىٰ لسانه يهتدىٰ بها، ويهدىٰ

---

(١) روضة المحبين (٩/ ١).

(٢) الداء والدواء (٤١٧/ ١).

بها إلىٰ طريق مرضاته؛ وهذا لأن الجزاء من جنس العمل؛ فإذا كان النظر إلىٰ محبوب فتركه لله عوضه الله ما هو أحب إليه منه، وإذا كان النظر بنور العين مكروها أو إلىٰ مكروه فتركه لله، أعطاه الله نورًا في قلبه وبصرًا يبصر به الحق»(١).

✍ **وقال ابن تيمية** رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «وفي الحديث الذي في المسند وغيره: «**النظر سهم مسموم من سهام إبليس**» وفيه: «**من نظر إلىٰ محاسن امرأة ثم غض بصره عنها أورث الله قلبه حلاوة عبادة يجدها إلىٰ يوم القيامة**»(٢). أو كما قال.

ولهذا يقال: إن غض البصر عن الصورة التي ينهىٰ عن النظر إليها: كالمرأة والأمرد الحسن يورث ذلك ثلاث فوائد جليلة القدر:

«أحدها» حلاوة الإيمان ولذته التي هي أحلىٰ وأطيب مما تركه لله فإن من ترك شيئًا لله عوضه الله خيرًا منه والنفس تحب النظر إلىٰ هذه الصور»(٣).

✍ **وقال ابن القيم** رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «من فوائد وثمار غض البصر: حلاوة الإيمان ولذته، التي هي أحلىٰ وأطيب وألذ مما صرف بصره عنه وتركه لله؛ فإن من ترك لله شيئًا عوضه الله خيرًا منه، والنفس مولعة بحب النظر إلىٰ

---

(١) مجموع الفتاوىٰ (٣٩٦/ ١٥).

(٢) قال الشيخ الألباني رَحِمَهُ ٱللَّهُ (ضعيف جدًّا). انظر: [ضعيف الترغيب والترهيب ١١٩٥].

(٣) مجموع الفتاوىٰ (٤٢٠/ ١٥).

الصور الجميلة، والعين رائد القلب، فيبعث رائده لينظر ما هناك، فإذا أخبره بحسن المنظور إليه وجماله؛ تحرك اشتياقا إليه، وكثيرا ما يتعب ويتعب رسوله ورائده»(١).

ثانيًا: سماع الغناء وسماع ما فيه لغو أو لهو

❁ قال تعالىٰ: ﴿وَٱلَّذِينَ لَا يَشۡهَدُونَ ٱلزُّورَ وَإِذَا مَرُّواْ بِٱللَّغۡوِ مَرُّواْ كِرَامٗا ٧٢﴾ [الفرقان:٧٢].

✍ **قال العلامة السعدي** رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «وهو الكلام الذي لا خير فيه ولا فيه فائدة دينية ولا دنيوية ككلام السفهاء ونحوهم.

﴿مَرُّواْ كِرَامٗا﴾ أي: نزهوا أنفسهم وأكرموها عن الخوض فيه ورأوا أن الخوض فيه وإن كان لا إثم فيه فإنه سفه ونقص للإنسانية والمروءة فربأوا بأنفسهم عنه.

وفي قوله: ﴿وَإِذَا مَرُّواْ بِٱللَّغۡوِ﴾ إشارة إلىٰ أنهم لا يقصدون حضوره ولا سماعه»(٢).

✍ **وقال العلامة القرطبي** رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «قال مجاهد: الغناء. ومن الغناء ما ينتهي سماعه إلىٰ التحريم، وذلك كالأشعار التي توصف فيها الصور المستحسنات والخمر وغير ذلك مما يحرك الطباع ومخرجها عن الاعتدال،

---

(١) إغاثة اللهفان (٧٥/ ١).

(٢) تيسير الكريم الرحمن (٥٨٧/ ١).

أو يثير كامنا من حب اللهو واللغو، وهو كل سقط من قول أو فعل؛ فيدخل فيه الغناء واللهو وغير ذلك مما قاربه، وتدخل فيه سفه المشركين وأذاهم المؤمنين وذكر النساء وغير ذلك من المنكر. وقال مجاهد: إذا أوذوا صفحوا. وروي عنه: إذا ذكر النكاح كفوا عنه. وقال الحسن: اللغو المعاصي كلها. وهذا جامع.

و ﴿كِرَامًا﴾ معناه معرضين منكرين لا يرضونه، ولا يمالئون عليه، ولا يجالسون أهله»(١).

فيعوِّض الله عباده هؤلاء الذين تركوا غناء الدنيا الذي فيه المجنون والذنوب وسبب لقسوة القلب بغناء حور العين الطاهرات في جنات النعيم

❁ جاء عن ابن عمر رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: «**إن أزواج أهل الجنة ليغنين أزواجهن بأحسن أصوات سمعها أحد قط إن مما يغنين به نحن الخيرات الحسان أزواج قوم كرام ينظرون بقرة أعيان وإن مما يغنين به: نحن الخالدات فلا نمتنه، نحن الآمنات فلا نخفنه، نحن المقيمات فلا نظعنه**»(٢).

---

(١) الجامع لأحكام القران (٧٩/ ١٣).

(٢) رواه الطبراني في الصغير والأوسط ورواتهما رواة الصحيح. [انظر: صحيح الترغيب والترهيب (٣٧٤٩) قال الشيخ الألباني: (صحيح) انظر حديث رقم: ١٥٦١ في صحيح الجامع].

ثالثًا: ترك شرب الخمر والمسكرات وتحريم لباس الحرير والشرب والأكل في آنية الذهب والفضة

❁ عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «**من لبس الحرير في الدنيا لم يلبسه في الآخرة ومن شرب الخمر في الدنيا لم يشربه في الآخرة ومن شرب في آنية الذهب والفضة في الدنيا لم يشرب بها في الآخرة ثم قال: لباس أهل الجنة وشراب أهل الجنة وآنية أهل الجنة**»(١).

❁ عن ابن عمر رضي الله عنهما أنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**من شرب الخمر في الدنيا ولم يتب لم يشربها في الآخرة وإن أدخل الجنة**»(٢).

✍ **قال العلامة الألباني** رحمه الله: «واعلم أن الأحاديث في تحريم لبس الحرير، وشرب الخمر، والشرب في أواني الذهب والفضة، هي أكثر من أن تحصر، وإنما أحببت أن أخص هذا بالذكر لأنه جمع الكلام علىٰ هذه الأمور الثلاثة، وساقها مساقا واحدا، ثم ختمها بقوله «لباس أهل الجنة...»، الذي

---

(١) قال الألباني في «السلسلة الصحيحة» ١/ ٦٦٦: أخرجه الحاكم (٤/ ١٤١)، وابن عساكر في «تاريخ دمشق» (١٥/ ٢٠٢/ ٢).

(٢) قال الألباني في «السلسلة الصحيحة» ٦/ ٢٨١: أخرجه البيهقي في «شعب الإيمان» (٢/ ١٤٨/ ١) قال الشيخ الألباني: وهذا إسناد صحيح، رجاله ثقات رجال البخاري، وحفص بن عبد الله هو السلمي النيسابوري. وقد أخرجه الشيخان وغيرهما من طرق عن نافع به دون قوله: «وإن أدخل الجنة». لكنها زيادة جيدة، لها شواهد ذكرتها في «الروض النضير» (٥٦١)، وقد أورده المنذري في «الترغيب» (٣/ ١٨٢) بهذه الزيادة ساكتا عليها.

يظهر أنه خرج مخرج التعليل، يعني أن الله تعالىٰ حرم لباس الحرير (علىٰ الرجال خاصة) لأنه لباسهم في الجنة كما قال تعالىٰ: ﴿وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ ﴿٣٣﴾﴾ [فاطر:٣٣]، وحرم الخمر علىٰ الرجال والنساء لأنه شرابهم في الجنة ﴿مَّثَلُ ٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى وُعِدَ ٱلْمُتَّقُونَ ۖ فِيهَآ أَنْهَٰرٌ مِّن مَّآءٍ غَيْرِ ءَاسِنٍ وَأَنْهَٰرٌ مِّن لَّبَنٍ لَّمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُۥ وَأَنْهَٰرٌ مِّنْ خَمْرٍ لَّذَّةٍ لِّلشَّٰرِبِينَ﴾ [محمد:١٥]، وحرم الشرب في آنية الذهب والفضة علىٰ الرجال والنساء أيضًا لأنها آنيتهم ﴿ٱدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ أَنتُمْ وَأَزْوَٰجُكُمْ تُحْبَرُونَ ﴿٧٠﴾ يُطَافُ عَلَيْهِم بِصِحَافٍ مِّن ذَهَبٍ وَأَكْوَابٍ ۖ﴾ [الزخرف:٧٠-٧١]. فمن استعجل التمتع بذلك غير مبال ولا تائب عوقب بحرمانها منها في الآخرة جزاء وفاقا»(١).

✍ **عن صفوان بن عبد الله بن صفوان قال:** «استأذن سعد علىٰ ابن عامر، وتحته مرافق من حرير، فأمر بها فرفعت، فدخل عليه، وعليه مطرف خز، فقال له: استأذنت علي وتحتي مرافق من حرير، فأمرت بها فرفعت، فقال له: نعم الرجل أنت يا ابن عامر إن لم تكن ممن قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَٰتِكُمْ فِى حَيَاتِكُمُ ٱلدُّنْيَا﴾ [الأحقاف:٢٠]، والله لأن اضطجع علىٰ جمر الغضا أحب إلي من أن أضطجع عليها»(٢).

---

(١) السلسلة الصحيحة(١/ ٦٦٦).

(٢) روىٰ الحاكم (٢/ ٤٥٥)، وقال الحاكم: «صحيح علىٰ شرط الشيخين». ووافقه الذهبي. وأقره المنذري!! وأقول: إنما هو علىٰ شرط مسلم وحده.

رابعًا: ترك لباس الفخر والمخيلة تواضعا

❁ عن أنس الجهني عن أبيه قال: قال رسول الله ﷺ: «**من ترك اللباس تواضعا لله، وهو يقدر عليه، دعاه الله يوم القيامة علىٰ رءوس الخلائق حتىٰ يخير من أي حلل الإيمان شاء يلبسها**»(١).

✍ **قال العلامة الصنعاني** رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «(من ترك اللباس) أي لبس الثياب الحسنة المرتفعة القيمة (تواضعًا لله) أي لا ليقال انه متواضع أو زاهد ونحوه والناقد بصير (وهو يقدر عليه دعاه الله يوم القيامة علىٰ رؤوس الخلائق) أي يشهره بين الناس ويناديه (حتىٰ يخيره من أي حلل الايمان شاء يلبسها)، ثم هذا إشارة إلىٰ أن الجزاء من جنس العمل وأن التواضع الفعلي مطلوب كالقولي وهذا من أعظم أنواع التواضع لأنه مقصور علىٰ نفس الفاعل فمقاساته أشق بخلاف التواضع المتعدي فإنه خفض الجناح وحسن التخلق ومزاولته أخف علىٰ النفس»(٢).

خامسًا: كتم الغيظ والعفو مع القدرة

❁ عن معاذ بن أنس رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ قال رسول الله ﷺ «**من كتم غيظًا وهو قادر علىٰ أن ينفذه دعاه الله علىٰ رءوس الخلائق حتىٰ يخيره من الحور العين**

---

(١) قال الألباني في «السلسلة الصحيحة» ٢/ ٣٤٦: أخرجه الترمذي (٢/ ٧٩)، والحاكم (٤/ ١٨٣)، وأحمد (٣/ ٤٣٩)، وأبو نعيم في «الحلية» (٨/ ٤٨)، وبالجملة فالحديث صحيح بهذه المتابعات.

(٢) فيض القدير (١٣٢/ ٦).

يزوجه منها ما شاء»(١).

❁ وعن ابن عمر رضي الله عنهما قال النبي ﷺ «ما من جرعة أعظم أجرًا عند الله من جرعة غيظ كظمها عبد ابتغاء وجه الله»(٢).

سادسًا: من ترك المراء والجدل والمزاح بالكذب

❁ عن أبي أمامة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ «أنا زعيم ببيت في ربض الجنة لمن ترك المراء وإن كان محقًّا وببيت في وسط الجنة لمن ترك الكذب وإن كان مازحًا وببيت في أعلىٰ الجنة لمن حسن خلقه»(٣).

سابعًا: الزهد في الدنيا والتفرغ للآخرة

❁ عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: تلا رسول الله ﷺ ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ ٱلْآخِرَةِ﴾ [الشورى:٢٠] الآية قال: يقول الله ابن آدم تفرغ لعبادتي أملأ صدرك غنىٰ، وأسد فقرك، وإلا تفعل ملأت صدرك شغلًا، ولم أسد فقرك»(٤).

---

(١) قال الشيخ الألباني: (حسن). انظر حديث رقم: ٦٥١٨ في صحيح الجامع.

(٢) أخرجه أحمد (٢/ ١٢٨) بإسنادين عنه، أحدهما صحيح؛ صحيح ابن ماجة (٣٣٧٧). (صحيح لغيره) صحيح الترغيب والترهيب (رقم الحديث: ٢٧٥٢).

(٣) رواه أبو داود واللفظ له وابن ماجه والترمذي، وقال الشيخ الألباني: صحيح الترغيب والترهيب رقم الحديث: ٢٦٤٨: (حسن).

(٤) قال الألباني في «السلسلة الصحيحة» ٣/ ٣٤٦: أخرجه الترمذي (٣/ ٣٠٨)، وابن ماجه (٢/ ٥٢٥)، وابن حبان (٢٤٧٧)، وأحمد (٢/ ٣٥٨) صحيح الترغيب والترهيب ٣١٦٦ (صحيح).

❁ عن معقل بن يسار رضي الله عنه قال رسول الله ﷺ: «**يقول ربكم يا ابن آدم تفرغ لعبادتي أملأ قلبك غنىٰ، وأملأ يدك رزقًا، يا ابن آدم لا تباعد مني أملأ قلبك فقرًا، وأملأ يدك شغلًا**»(١).

✍ **قال يحيي بن معاذ** رحمه الله: «في الكف عن المحارم يكون رضا الرب ومن ترك شهوة الدنيا عوضه الله تعالىٰ شهوة ذكره»(٢).

✍ **وقال عبد الله بن عمر الكوفي**: «كان عندنا بالكوفة رجل قد خرج عن دنيا واسعة وتعبد، قال: وكان الفضيل بن عياض بالكوفة في أيامه. قال: فقدم ابن المبارك، فقال له الفضيل: إن ها هنا رجلًا من المتعبدين قد خرج عن دنيا فامض بنا إليه ننظر عقله.

قال: فجاؤوا إليه وهو عليل، وعليه عباءة، وتحت رأسه قطعة لبنة، قال: فسلم ابن المارك عليه، ثم قال: يا أخي بلغنا أنه ما ترك عبد شيئًا لله، إلا عوضه الله ما هو أكثر منه، فما عوضك؟ قال: الرضا بما أنا فيه. فقال ابن المبارك: حسبك، وقاما علىٰ ذلك»(٣).

ثامنًا: قيام الليل وترك النوم

✍ **قال ابن رجب** رحمه الله: «ومما يجزىٰ به المتهجد في الليل: كثرة

---

(١) أخرجه الحاكم (٤/ ٣٢٦)، وأخرجه ابن عدي (١/ ١٦٣) صحيح الترغيب (٣١٦٥) (صحيح).

(٢) تنبيه المغترين (١/ ٢٠٤).

(٣) [صفة الصفوة ٣/ ١٢٩].

الأزواج من الحور العين في الجنة، فإن المتهجد قد ترك لذة النوم بالليل، ولذة التمتع بأزواجه طلبا لما عند الله عَزَّوَجَلَّ، فعوضه الله تعالىٰ خيرًا مما تركه، وهو الحور العين في الجنة»(١).

✍ **وقَالَ الإِمَامُ ابن قُدَامَة المَقْدِسِيّ** رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «وقَالَ الحَسَن البصْريُّ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «لَمْ أجِدْ مِن العِبادَةِ شَيْئًا أشَدَّ مِن الصَّلَاةِ في جَوف اللَّيْلِ فقِيلَ لَه: مَا بالُ المُتهجِّدِين أحْسَن الناسِ وجُوها فقَالَ: لِأنهمْ خَلَوا بالرحْمَن فألْبسَهم مِن نوره»(٢).

✍ **وعن أبي الدرداء** رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ عن النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «**ثلاثة يحبهم الله ويضحك إليهم ويستبشر بهم الذي إذا انكشفت فئة قاتل وراءها بنفسه لله** عَزَّوَجَلَّ **فإما أن يقتل وإما أن ينصره الله** عَزَّوَجَلَّ **ويكفيه فيقول انظروا إلىٰ عبدي هذا كيف صبر لي بنفسه؟ والذي له امرأة حسنة وفراش لين حسن فيقوم من الليل فيقول يذر شهوته ويذكرني ولو شاء رقد والذي إذا كان في سفر وكان معه ركب فسهروا ثم هجعوا فقام من السحر في ضراء وسراء**»(٣).

تاسعا: ترك الذنوب

✍ **قال ابن الجوزي** رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

«فصل: حسن جزاء من خاف مقام ربه

---

(١) (لجامع المنتخب/ ٦٩).

(٢) مُخْتصَر مِنهاجُ القَاصِدِين (٦١).

(٣) رواه الطبراني في الكبير بإسناد حسن(صحيح الترغيب والترهيب (٦٢٩).

قدرت في بعض الأيام علىٰ شهوة للنفس هي عندما أحلىٰ من الماء الزلال في فم الصادي، وقال التأويل: ما هاهنا مانع ولا معوق إلا نوع ورع! وكان ظاهر الأمر امتناع الجواز، فترددت بين الأمرين، فمنعت النفس عن ذلك، فبقيت حيرتي لمنع ما هو الغاية في غرضها من غير صاد عنه بحال، إلا حذر المنع الشرعي، فقلت لها: يا نفس! والله، ما من سبيل إلىٰ ما تودين ولا ما دونه! فتقلقلت، فصحت بها: كم وافقتك في مراد ذهبت لذته، وبقي التأسف علىٰ فعله! فقدري بلوغ الغرض من هذا المراد، أليس الندم يبقىٰ في مجال اللذة أضعاف زمانها؟! فقالت: كيف أصنع؟ فقلت:

صـــبرت ولا والله مـــا بـــي جـــلادة ∴ علىٰ الحب، لكني صبرت علىٰ الرغم

وها أنا ذا أنتظر من الله عَزَّوَجَلَّ حسن الجزاء علىٰ هذا الفعل.

وقد تركت باقي هذه الوجهة البيضاء، أرجو أن أرىٰ حسن الجزاء علىٰ الصبر، فأسطره فيه إن شاء الله تعالىٰ؛ فإنه قد يعجل جزاء الصبر، وقد يؤخره: فإن عجل، سطرته، وإن أخر، فما أشك في حسن الجزاء لمن خاف مقام ربه؛ فإنه من ترك شيئًا لله، عوضه الله خيرًا منه.

والله، إني ما تركته إلا لله تعالىٰ، ويكفيني تركه ذخيرة، حتىٰ لو قيل لي: أتذكر يومًا آثرت الله علىٰ هواك؟ قلت: يوم كذا وكذا.

فافتخري أيتها النفس بتوفيقك، واحمدي من وفقك، فكم قد خذل سواك! واحذري أن تخذلي في مثلها! ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم.

وكان هذا في سنة إحدىٰ وستين وخمس مائة، فلما دخلت سنة خمس

وستين، عوضت خيرًا من ذلك بما لا يقارب مما لا يمنع منه ورع ولا غيره؛ فقلت: هذا جزاء الترك لأجل الله سبحانه في الدنيا: ﴿وَلَأَجْرُ ٱلْأَخِرَةِ خَيْرٌ﴾ [يوسف:٥٧]»(١).

❁ وعن أبي هريرة أيضًا رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «**سبعة يظلهم الله في ظله يوم لا ظل إلا ظله: الإمام العادل، وشاب نشأ في عبادة الله، ورجل قلبه معلق في المساجد، ورجلان تحابا في الله اجتمعا عليه وتفرقا عليه، ورجل دعته امرأة ذات منصب وجمال فقال إني أخاف الله، ورجل تصدق بصدقة فأخفاها حتىٰ لا تعلم شماله ما تنفق يمينه، ورجل ذكر الله خاليًا ففاضت عيناه**»(٢).

عاشرًا: الصبر على العمى وفقد البصر

❁ عن أنس قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**قال الله سبحانه وتعالىٰ: إذا ابتليت عبدي بحبيبتيه ثم صبر عوضته منهما الجنة**» يريد عينيه(٣).

✍ **قال ابن بطال** رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «هذا الحديث أيضًا حجة في أن الصبر علىٰ البلاء ثوابه الجنة، ونعمة البصر علىٰ العبد وإن كانت من أجل الله تعالىٰ فعوض الله عليها الجنة أفضل من نعمتها في الدنيا لنفاذ مدة الالتذاذ بالبصر في الدنيا وبقاء مدة الالتذاذ به في الجنة»(٤).

---

(١) المدهش (١/ ٢١١).

(٢) رواه البخاري ومسلم وغيرهما.

(٣) رواه البخاري في «صحيحه» رقم (٥٦٥٣).

(٤) شرح البخاري لابن بطال (١٧/ ٤٧١).

✍ **قال ابن حجر** رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «أعظم العوض لأن الالتذاذ بالبصر يفنىٰ بفناء الدنيا والالتذاذ بالجنة باق ببقائها»(١).

✍ **قال العلامة المناوي** رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «وفي رواية حبيبتيه سماهما بذلك لما فيهما من جلب المنافع ودفع المضار وتوقي الأخطار وقيل سماهما كريمتين لكثرة منافعهما دينا ودنيا ولأنهما أحب أعضاء الإنسان إليه لما يحصل له بفقدهما من الأسف علىٰ فوت رؤية ما يريد رؤيته من خير فيسر به أو شر فيجتنبه وإذا كان ثوابه الجنة فمن له عمل صالح آخر يزداد له في الدرجات.

✍ **قال داود** عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ: يا رب ما جزاء الحزين يصبر علىٰ المصائب ابتغاء مرضاتك.

قال: جزاؤه أن أُلبسه لباس الإيمان فلا أنزعه عنه أبدًا. وقال حجة الإسلام في كشف علم الآخرة:

في الحديث الصحيح «إن أول من يعطيهم الله أجورهم الذين ذهبت أبصارهم ينادي يوم القيامة بالمكفوفين فيقال لهم أنتم أحرىٰ أي أحق من ينظر إلينا ثم يستحي الله تعالىٰ منهم ويقولون لهم اذهبوا إلىٰ ذات اليمين ويعقد لهم راية تجعل بيد شعيب عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ فيصير إمامهم ومعهم من ملائكة النور ما لا يحصي عددهم إلا الله يزفونهم كما تزف العروس فيمر بهم علىٰ الصراط كالبرق الخاطف، هذا فيمين صفته الصبر والحلم كابن عباس ومن

---

(١) فتح الباري (١١٦/ ١٠).

ضاهاه من الأمة»(١).

✍ **قال الماوردي** رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «اعلم أن من حسن التوفيق وأمارات السعادة الصبر علىٰ الملمات والرفق عند النوازل، وبه نزل الكتاب وجاءت السنة. قال الله تعالىٰ: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱصۡبِرُواْ وَصَابِرُواْ وَرَابِطُواْ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ ﴿٢٠٠﴾ ﴾ [آل عمران:٢٠٠]»(٢).

وقال أيضًا: «ولو صدق الحريص نفسه، واستنصح عقله، لعلم أن من تمام السعادة وحسن التوفيق: الرضاء بالقضاء، والقناعة بالقسم»(٣).

(٢) السعيد الموفق لا تعيقه الشدائد عن الثبات وفعل الطاعة وترك المعصية

فالسعيد الصالح والمؤمن الموفق للخير والراغب في ما عند الله سبحانه وتعالىٰ تجده دائم الصلة كثير الإقبال علىٰ عبادة ربه مواضب ومديم مواصل للعمل الصالح مع ما يعرض له من العوارض الشيطانية والموانع النفسية والصوارف الدنيوية ومشاغل الحياة وتقلباتها بالأمراض والأسفار والشدة والفقر والحاجة والضعف مع ما يتعاهده من الفتور ما يجعله يضعف عن قوة العمل حتىٰ ينزله إلىٰ درجة المحافظة علىٰ أصله كما قال: قال النبي ﷺ «**لكل عمل شرة ولكل شرة فترة فطوبىٰ لمن كانت فترته إلىٰ سنتي**» فهو مع هذا الفتور الذي يصاحبه والكسل والملل وقلة الرغبة في العمل لكنه يبقىٰ

---

(١) فيض القدير (٤/ ٦٤٠).

(٢) أدب الدنيا والدين (١/ ٢٨٦).

(٣) أدب الدنيا والدين (١/ ٢٢٥).

محافظا علىٰ الأصل الذي هو الفريضة وما يكملها من النافلة الراتبة فيترك ما زاد علىٰ ذلك من الإكثار من نوافل العبادات وصالح الأعمال والقربات، فإذا هجمت الشدة وحلت المحنة بما يسلط علىٰ العبد من أقدار وأضرار وأشرار التي هي في الغالب داعية لترك العمل ولحصول الخلل بسبب ما يدخل عليه من هم أو ضيق أو شدة أو غير ذلك ويثبت هذا الموفق الذي يجاهد نفسه علىٰ الانسياب والتموضع والمسايرة لهذا الطارئ لئلا يصرفه عما عهده وألفه من الخير واعتاده فليس له إلا الصبر دواء والرضا بذلك علاجا فيحاول جاهدا السير علىٰ جدوله اليومي وبرنامجه العملي من الأوراد الشرعية والعبادة بما يناسب ذلك الظرف بقدر ما يستطيع فيملئ وقته عبادة وخيرا أحسن وأفضل عنده من أن يجلس يفكر محتارا منتظرا يقطع وقت الشدة بما يزيده شدة علىٰ تلك الشدة وهما علىٰ همه وحزنا إلىٰ حزنه بسبب تأخر الفرج والإجابة وزوال الضر وحصول المطلوب وزوال المرهوب فما أصعب تلك الأوقات علىٰ النفس حين لا يوجد العقل الصحيح السليم في الرجل الحكيم الذي به ينظر العواقب وحين يضعف الإيمان والصبر واليقين الذي به يتسلىٰ في تلك الحالة فلكم ضعف كثير من الناس أمام هذه المواقف فتعبوا وأتعبوا وحمل نفسه وغيره مالا يطيق من تبعات تلك الشدة التي حرم علاجها ودواؤها وهو الرضا بقضاء الله فالله الموفق وهو المستعان.

❁ وعن صهيب الرومي رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**عجبا لأمر المؤمن إن أمره له كله خير وليس ذلك لأحد إلا للمؤمن إن أصابته سراء**

شكر فكان خيرًا له وإن أصابته ضراء صبر فكان خيرًا له»(١).

❁ أنس بن مالك قال: قال رسول الله ﷺ «**عجبًا للمؤمن لا يقضي الله له شيئًا إلا كان خيرًا له**»(٢).

❁ عن صهيب الرومي رضي الله عنه قال: بينا رسول الله ﷺ قاعد مع أصحابه إذ ضحك، فقال: «**ألا تسألوني مم أضحك؟**» قالوا: يا رسول الله! ومم تضحك؟ قال: «**عجبت لأمر المؤمن، إن أمره كله خير، إن أصابه ما يحب حمد الله وكان له خير، وإن أصابه ما يكره فصبر كان له خير، وليس كل أحد أمره كله خير إلا المؤمن**»(٣).

---

(١) رواه مسلم وأخرجه أحمد في مسنده قال الشيخ الألباني: (صحيح) انظر حديث رقم: ٣٩٨٠ في صحيح الجامع.

(٢) قال الألباني في «السلسلة الصحيحة» ١/ ٢٢٨: رواه عبد الله بن أحمد في مسند أبيه (٥/ ٢٤)، وأبو الفضل التميمي في «نسخة أبي مسهر...» (٦١/ ١)، وأبو يعلىٰ (٢٠٠/ ٢) عن «... فذكره.

قلت: سنده صحيح وله طريق أخرىٰ عند أبي يعلىٰ (٢٠٥/ ٢)، والضياء في «المختارة» (١/ ٥١٨).

(٣) قال الألباني في «السلسلة الصحيحة» ١/ ٢٢٨: أخرجه الدارمي (٢/ ٣١٨)، وأحمد (٦/ ١٦).

قلت: وهذا سند صحيح علىٰ شرط مسلم، وقد أخرج في «صحيحه» (٨/ ٢٢٧) من طريق سليمان بن المغيرة حدثنا ثابت به المرفوع فقط نحوه. وهو رواية لأحمد (٤/ ٣٣٢، ٣٣٣، ٦/ ١٥). وله شاهد من حديث سعد بن أبي وقاص مرفوعًا نحوه. أخرجه الطيالسي (٢١١).

✍ **قال القائل:**

يأتي البلاء وفيه الخير نافلة ∴ لمؤمن واثق بالله لا لاهي
إن مسه فرح أو نابه ترح ∴ في الحالتين يقول الحمد لله

✍ **قال عمر بن عبد العزيز** رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «أصبحت والسراء والضراء مطيتان علىٰ بابي لا أبالي علىٰ أيهما ركبت»(١).

✍ **قَالَ الإِمَامُ المَاوردِيّ** رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «وقَالَ عَبدُ الحَمِيدِ: «لَمْ أَسْمَعْ أَعْجَب مِن قَولِ عُمَر بن الخَطَّاب رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ: لَو أن الصَّبر والشُّكْر بعِيران مَا بالَيْت أَيُّهمَا ركِبت»(٢).

من أهم الشدائد التي تستغل ونماذج من أحوال الموفقين لاستغلالها:

(١) السفر أو التهجير من الوطن والغربة

✍ **قال الشيخ بكر أبو زيد** رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «يذكر ابن القيم أن السفر والبعد عن الأولاد والوطن لم يشغله شيء من ذلك عن التأليف والنظر فابن القيم وإن سافر لا يحمل إلا زادا ومزادة فمكتبته في صدره»(٣).

✍ **وقال أيضًا في زاد المعاد لابن القيم** رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «ومن المدهش أن هذا الكتاب أملاه مؤلفه رَحِمَهُ ٱللَّهُ وهو في حال سفره وغيبته عن داره ومكتبته وقد تحدث عن ذلك ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ في مقدمة كتبه (ص١٢)، والمرغوب إلىٰ

---

(١) الجامع لسيرة عمر بن عبدالعزيز (٢/ ٤٣٦).
(٢) آدَاب الدِّين والدُّنيَا (٥٣٥).
(٣) ابن القيم وموارده لبكر أبو زيد (٦٠).

من يقف علىٰ هذا الكتاب أن يعذر صاحبه فإن عقله في حال بعده عن وطنه وغيبته عن كتبه»(١).

في ترجمة عراك بن مالك أحد أجلة التابعين وعلمائهم سمع من أبي هريرة ومن عائشة ومن ابن عمر ومن زينب بنت أم سلمة كان مجالسة لعمر بن عبدالعزيز وكان عابد فقيها قال عنه عمر بن عبد العزيز رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

«ما رأيت أحسن صلاة من عراك بن مالك» وكان مجالسا له بحثه علىٰ الخير وبحثه علىٰ أخذ المظالم من أيدي بني أمية التي أخذها من الناس قبله، فلما تولىٰ يزيد بن عبدالملك غضب علىٰ عراك بن مالك بسبب مجالسته لعمر بن عبدالعزيز ولأنه كان يأمره أن يأخذ المظالم ويردها إلىٰ أصحابها فنفاه إلىٰ جزيرة دهلك المعروفة في ساحل البحر الأحمر ففرح به الناس لتعليم عراك بن مالك الناس العلم والخير فكان الناس يقولون «جزىٰ الله أمير المؤمنين خيرًا لقد بعث إلينا من يعلمنا العلم والخير»

✍ **قال محمد بن واصل البيكندي**: من الله علينا بخروج أبي عبد الله ومقامه عندنا حتىٰ سمعنا منه هذه الكتب، وإلا من كان يصل إليه؟ وبمقامه في فربر وبيكند بقيت هذه الآثار وتخرج الناس به(٢).

(٢) السجن:

✍ قال ابن عبدالهادي رَحِمَهُ ٱللَّهُ في ترجمة لشيخه شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

---

(١) ابن القيم آثاره وموارده بكر أبو زيد (٦١).

(٢) تاريخ الإسلام (٦/١٤٠).

«وفي يوم الخميس ثاني عشر احبس بسجن الحاكم بحارة الديلم في ليلة الجمعة تاسع عشر شوال.

قال: ولما دخل الحبس وجد المحابيس مشتغلين بأنواع من اللعب يلتهون بها عما هم فيه كالشطرنج والنرد ونحو ذلك من تضييع الصلوات.

فأنكر الشيخ عليهم ذلك أشد الإنكار وأمرهم بملازمة الصلاة والتوجه إلىٰ الله بالأعمال الصالحة والتسبيح والاستغفار والدعاء وعلمهم من السنة ما يحتاجون إليه ورغبهم في أعمال الخير وحضهم علىٰ ذلك حتىٰ صار الحبس بما فيه من الاشتغال بالعلم والدين خيرًا من الزوايا والربط والخوانق والمدارس وصار خلق من المحابيس إذا أطلقوا يختارون الإقامة عنده وكثر المترددون إليه حتىٰ كان السجن يمتلئ منهم فلما كثر اجتماع الناس به وترددهم إليه ساء ذلك أعداءه وحصرت صدورهم فسألوا نقله إلىٰ الإسكندرية»(١).

✍ **قال العلامة ابن القيم** رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «وسمعت شيخ الإسلام ابن تيمية قدس الله روحه يقول: إن في الدنيا جنة من لم يدخلها لا يدخل جنة الآخرة، وقال لي مرة: ما يصنع أعدائي بي أنا جنتي وبستاني في صدري أَنَّىٰ رحت فهي معي لا تفارقني، إن حَبْسِي خلوة، وقتلي شهادة، وإخراجي من بلدي سياحة، وكان يقول في محبسه في القلعة لو بذلت ملء هذه القلعة ذهبًا ما عدل عندي شكر هده النعمة أو قال ما جزيتهم علىٰ ما تسببوا لي فيه من

---

(١) العقود الدرية من مناقب شيخ الإسلام ابن تيمية (٢٨٥/ ١).

الخير ونحو هذا وكان يقول في سجوده وهو محبوس اللهم أعني علىٰ ذكرك وشكرك وحسن عبادتك ما شاء الله وقال لي مرة المحبوس من حبس قلبه عن ربه تعالىٰ والمأسور من أسره هواه ولما دخل إلىٰ القلعة وصار داخل سورها نظر إليه وقال) فضرب بينهم بسور له باب باطنه فيه الرحمة وظاهره من قبله العذاب (وعلم الله ما رأيت أحدًا أطيب عيشًا منه قط مع كل ما كان فيه من ضيق العيش وخلاف الرفاهية والنعيم بل ضدها ومع ما كان فيه من الحبس والتهديد والإرهاق وهو مع ذلك من أطيب الناس عيشًا وأشرحهم صدرًا وأقواهم قلبًا وأسرهم نفسًا تلوح نضرة النعيم علىٰ وجهه وكنا إذا اشتد بنا الخوف وساءت منا الظنون وضاقت بنا الأرض أتيناه فما هو إلا أن نراه ونسمع كلامه فيذهب ذلك كله وينقلب انشراحها وقوة ويقينًا وطمأنينة فسبحان من أشهد عباده جنته قبل لقائه وفتح لهم أبوابها في دار العمل فاتاهم من روحها ونسيمها وطيبها ما استفرغ قواهم لطلبها والمسابقة إليها»(١).

✍ **قال أبو بكر بن الخلال**: سمعت أحمد بن حنبل، يقول: كنت أحفظ القرآن، فلما طلبت الحديث اشتغلت- فقلت: متىٰ- فسألت الله عَزَّوَجَلَّ أن يمن علي بحفظه ولم أقل: في عافية، فما حفظته إلا في السجن والقيود، فإذا سألت الله حاجة فتقول: في عافية(٢).

✍ **قال ابن عبدالهادي** رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «وختم القرآن مدة إقامته بالقلعة ثمانين أو إحدىٰ وثمانين ختمة انتهىٰ في آخر ختمة إلىٰ آخر اقتربت الساعة ﴿إِنَّ

---

(١) الوابل الصيب (٧٠/ ١).

(٢) مناقب الإمام أحمد لابن الجوزي (٣٩/ ١).

ٱلْمُتَّقِينَ فِي جَنَّٰتٍ وَنَهَرٍ ﴿٥٤﴾ فِي مَقْعَدِ صِدْقٍ عِندَ مَلِيكٍ مُّقْتَدِرٍ ﴿٥٥﴾ ﴾ [القمر:٥٤-٥٥]»(١).

✍ **قال العلامة ابن عبدالهادي** رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «وللشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ من المصنفات والفتاوىٰ والقواعد والأجوبة والرسائل وغير ذلك من الفوائد مالا ينضبط ولا أعلم أحدا من متقدمي الأمة ولا متأخريها جمع مثل ما جمع ولا صنف نحو ما صنف ولا قريبا من ذلك مع أن أكثر تصانيفه إنما أملاها من حفظه وكثير منها صنفه في الحبس وليس عنده ما يحتاج إليه من الكتب»(٢).

الإمام السرخسي الفقيه الحنفي صاحب المبسوط سجن سنة ٤٦٦ للهجرة بفتوىٰ عارض فيها الخاقان فحرم عليه زواج عتقيته قبل انتهاء عدتها فسجن ظلما ١٥ عشر سنة

✍ **نقل اللنكوي** رَحِمَهُ ٱللَّهُ: أنه أملىٰ كتابه المبسوط نحو خمس عشرة مجلدًا وهو في السجن بأوزجند (كان محبوسًا في الجب بسبب كلمة نصح بها الخاقان)، وكان يملي من خاطره من غير مطالعة كتاب وهو في الجب وأصحابه في أعلىٰ الجب.

✍ **قال في «المبسوط» عند فراغه من شرح العبادات**: «هذا آخر شرح العبادات بأوضح المعاني، وأوجز العبارات، إملاء المحبوس عن الجمعة والجماعات»

---

(١) العقود الدرية من مناقب شيخ الإسلام ابن تيمية (٣٨٤/ ١).

(٢) العقود الدرية من مناقب شيخ الإسلام ابن تيمية (٤٢/ ١).

وقال في آخر كتاب الطلاق: «هذا آخر كتاب الطلاق المؤثر من المعاني الدقاق، أملاه المحبوس عن الانطلاق المبتلىٰ بوحشة الفراق، مصليا علىٰ صاحب البراق، صلىٰ الله عليه وآله وصحبه أهل الخير والساق، صلاة تتضاعف وتدوم إلىٰ يوم التلاق، كتبه العبد الربي علي السقاق.

وقال في آخر كتاب العتاق: «انتهىٰ شرح العتاق من مسائل الخلاف والوفاق، أملأه المستقبل للمحن بالاعتناق المحصور في طرق من الآفاق حامدا للمهيمن الرزاق، ومصليا علىٰ حبيب الخلاق، ومرتجىٰ إلىٰ لقائه بالأشواق وعلىٰ آله وصحبه خير الصحب والرفاق

وقال في آخر شرح الإقرار: «انتهىٰ شرح كتاب الإقرار المشتمل من المعاني ما هو سر الأسرار، واملأ المحبوس في موضع الأشرار مصليا علىٰ النبي المختار»

قال في آخر كتاب المكاتب «قال شمس الأئمة الزاهد انتهىٰ شرح كتاب المكاتب بإملاء المحصور المعاتب والمحبوس المعاقب وهو منذ حولين علىٰ الصبر مواظب وللنجاة بلطيف صنع الله مراقب والحمد لله وحده وصلىٰ الله علىٰ سيدنا محمد وعلىٰ آله وصحبه وسلم»(١).

✍ **قال الشيخ الألباني** رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «وكان قد تبين لي بعد الفراغ منه أن الحافظ المنذري رَحِمَهُ ٱللَّهُ لم يقتصر في اختصاره إياه علىٰ حذف أسانيده والمكرر من متونه فقط، بل حذف منه بعض المتون أيضًا، فلما بدا لي ذلك

---

(١) المبسوط للسرخسي (١٧٤/ ٥٣/ ١٥٥- ١).

تمنيت أن لو تتاح لي فرصة، لأتولىٰ أنا بنفسي اختصاره بطريقتي الخاصة، وشاء الله تبارك وتعالىٰ ذلك، حيث قدر علي أن أسجن في عام ١٣٨٩هـ الموافق لسنة ١٩٦٩ م مع عدد من العلماء من غير جريرة اقترفناها سوىٰ الدعوة إلىٰ الإسلام وتعليمه للناس، فأساق إلىٰ سجن القلعة وغيره في دمشق، ثم يفرج عني بعد مدة لأساق مرة ثانية وأنفىٰ إلىٰ الجزيرة، لأقضي في سجنها بضعة أشهر، أحتسبها في سبيل الله عَزَّوَجَلَّ.

وقد قدر الله ألا يكون معي فيه إلا كتابي المحبب «صحيح الإمام مسلم» وقلم رصاص وممحاة، وهناك عكفت علىٰ تحقيق أمنيتي، في اختصاره وتهذيبه، وفرغت من ذلك في نحو ثلاثة أشهر، كنت أعمل فيه ليل نهار، ودون كلل ولا ملل، وبذلك انقلب ما أراده أعداء الأمة انتقاما منا إلىٰ نعمة لنا، يتفيأ ظلالها طلاب العلم من المسلمين في كل مكان، فالحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات.

كما يسر الله تعالىٰ لي التفرغ لعدد كبير من الأعمال العلمية ما كان يتاح لي أن أعطيها الوقت اللازم لو بقيت حياتي تسير علىٰ النهج المعتاد، فقد قامت بعض الحكومات المتعاقبة بمنعي من الخروج إلىٰ المدن السورية في الزيارات الشهرية التي كنت أقوم بها في الدعوة إلىٰ الكتاب والسنة. وهو نوع مما يسمىٰ في العرف الشائع بـ«الإقامة الجبرية»، كما أنني قد منعت خلال فترات متلاحقة من إلقاء دروسي العلمية الكثيرة التي كان التحضير لها يأخذ جزءا كبيرا من وقتي، وهذا كله قد صرف عني الكثير من الأعمال، حال بيني وبين لقاء عدد كبير من الناس الذين كانوا يأخذون من وقتي الشيء

الكثير»[(١)].

محمود بن إسرائيل بن عبد العزيز المشهور بن قاضي سماونة، وهو من فقهاء الحنفية كان أبوه قاضيا في قلعة سماونة بتركيا حاليًا، حبس في وشاية من المغرضين فمكث في السجن مدة فألف كتابه «التسهيل شرح لطائف الإشارات» وهو لا زال في سجن أزنيق.

(٤) العاهات

✍ **قال الشيخ محمد باموسىٰ -حفظه الله-**: «لا تمثل الإعاقة الجسدية لدىٰ كثير من أصحابها سوىٰ دافع للإبداع والإنجاز وتحقيق الذات إذا استغلوا الفرص فابن عباس رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ ترجمان القرآن وحبر الأمة كان فاقًدا للبصر، والعلامة ابن باز رَحِمَهُ ٱللَّهُ كان شيخ عصره ووحيد دهره كان فاقًدا لبصره كذلك، وغيرهما كثير وكثير جدًّا والشاهد من ذلك أن هذه الإعاقة لم تمنعهم من تحقيق ذواتهم وتسجيل بصماتهم في سجل الإبداع والإنجاز والنجاح والتفوق، فقد استغلوا أعمارهم، ليلهم ونهارهم، لم يتركوا فرصة من فرص الليل والنهار إلا استغلوها لتحقيق النجاح، والازدهار، فأصبح الأعمىٰ، والأعرج، والأشل، والأصم، والأعور، والأبرص، والأسود، والأفطس، وأصبحوا قادة، وسادة وقضاة، وعلماء، وحكماء، وعظماء، و...، لأنهم استغلوا فرص الحياة، والحياة فرص»[(٢)].

---

(١) [مختصر البخاري ١/ ٨].

(٢) انظر كتاب المؤلف [الحياة فرص(ص ١٤٣)] وقد ذكر نماذج كثيرة من هذا الأمر فإني أحيلك أيها القارئ علىٰ مليء «ومن أحيل علىٰ مليء فليتبع».

من أمثلة هؤلاء: قال حدثني المنحني حدثني المزكوم يومئذ حدثني الزمن حدثني المفلوج ثنا الأثرم ثنا الأحدب ثنا الأصم ثنا الضرير عن الأعمش عن الأعور عن الأعرج عن الأعمىٰ أن النبي ﷺ توضأ مرة مرة[(١)].

وهؤلاء أحد عشر نفسًا كلهم صاحب عاهة أو مرض وهم:

(١) **المنحني**: أبو علي بن أبي الحسين الأصبهاني.

(٢) **والمزكوم**: أبو علي الصولي.

(٣) **والزمن**: أحمد بن محمد بن سليمان.

(٤) **والمفلوج**: محمد بن محمد بن سليمان الطوسي

(٥) **والأثرم**: الحسن بن مهران.

(٦) **والأحدب**: عبد الله بن الحسين قاضي المصيصة

(٧) **والأصم**: عبد الله بن نصر الأنطاكي.

(٨) **والضرير**: أبو معاوية.

(٩) **الأعمش**: سليمان بن مهران.

(١٠) **والأعور**: إبراهيم النخعي.

---

(١) وهذا من لطائف الأسانيد وهو حديث صحيح أخرجه البخاري (٩/ ٧٠) من طريق عطاء بن يسار عن ابن عباس به.

(١١) **والأعرج**: الحكم بن مهران.

(١٠) **والأعمىٰ**: عبد الله بن عباس رضي الله عنهما[١].

✍ **قال القائل:**

ليســت العاهــات تعنــي مانعًــا ∴ عـن طِـلاب العلـمِ ليسـت حـاجِزة
إنمــا العاهــات عاهــات القلــوب ∴ والنفــوسُ التــي تبقــىٰ عــاجِزة
رب أعمــىٰ لــيسَ أعمــىٰ قلبــه ∴ يبصــر العلــمَ بعــين باصِــرة
رب أعــرجٍ قــد مشــىٰ قلبــه ∴ لمســافات العلــمِ بخطــىٰ ثابتــة
قــد رقــىٰ للعلــمِ خلــقٌ فــيهم ∴ مــن ذوي العاهــات ههــمٌ شــاهقة
كــم صــحيحٍ أو بصــيرٍ همــه ∴ فرجــه يبغــي وبطــن فــاغِرة

(٣) السعيد الموفق من رزق معرفة الله والأنس به لأن معرفة الله أجل المقاصد وأعظم أسباب السعادة في الدنيا والآخرة

ومن أدلة هذا العمل الجليل الذي ينتج ثمرته استقامة القلب علىٰ طاعة الله ومرضاته وترك الذنوب بأنواعها:

❁ جاء عن أبي هريرة رضي الله عنه قال النبي ﷺ «**تعرف إلىٰ الله في الرخاء يعرفك في الشدة**»[٢].

---

(١) انظر: التدوين أخبار قزوين (٦٣-٦٤).

(٢) أخرجه أبو القاسم بن بشران في أماليه قال الشيخ الألباني: (صحيح) انظر حديث رقم: ٢٩٦١ في صحيح الجامع، ورواه أحمد في مسنده.

✍ **قال العلامة ابن القيم** رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «فإنه لا نعيم له ولا لذة، ولا ابتهاج، ولا كمال، إلا بمعرفة الله ومحبته، والطمأنينة بذكره، والفرح والابتهاج بقربه، والشوق إلىٰ لقائه، فهذه جنته العاجلة، كما أنه لا نعيم له في الآخرة، ولا فوز إلا بجواره في دار النعيم في الجنة الآجلة، فله جنتان لا يدخل الثانية منهما إن لم يدخل الأولىٰ»(١).

✍ **قال العلامة العثيمين** رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «تعرف علىٰ الله في الرخاء يعرفك في الشدة» يعني قم بحق الله عَزَّوَجَلَّ في حال الرخاء، وفي حال الصحة، وفي حال الغنىٰ «يعرفك في الشدة» إذا زالت عنك الصحة وزال عنك الغنىٰ واحتجت إلىٰ الله عرفك بما سبق لك، أو بما سبق من فعل الخير الذي تعرفت به إلىٰ الله عَزَّوَجَلَّ»(٢).

✍ **وقال العلامة الصنعاني** رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «أي تحبب وتقرب إليه بالطاعة (في الرخاء يعرفك في الشدة) بتفريجها عنك وجعله لك من كل ضيق مخرجا ومن كل هم فرجا فإذا تعرفت إليه في الاختيار جازاك به عند الاضطرار بمدد توفيقه وخفىٰ لطفه»(٣).

✍ **وقال العلامة ابن رجب** رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «تعرف إلىٰ الله في الرخاء يعرفك في الشدة يعني أن العبد إذا اتقىٰ الله وحفظ حدوده وراعىٰ حقوقه في حال رخائه فقد تعرف بذلك إلىٰ الله وصار بينه وبين ربه معرفة خاصة فعرفه ربه في الشدة

---

(١) «مدارج السالكين» ٤٥٢ / ١().

(٢) شرح الأربعين النووية للعلامة العثيمين (٣٠/ ١).

(٣) التيسير شرح الجامع الصغير (٤٥١/ ١).

روعي له تعرفه إليه في الرخاء فنجاه من الشدائد بهذه المعرفة وهذه معرفة خاصة تقتضي قرب العبد من ربه ومحبته له وإجابته لدعائه.

فمعرفة العبد لربه نوعان:

أحدهما: المعرفة العامة وهي معرفة الإقرار به والتصديق والإيمان وهو عامة للمؤمنين والثاني معرفة خاصة تقتضي ميل القلب إلىٰ الله بالكلية والانقطاع إليه والأنس به والطمأنينة بذكره والحياء منه والهيبة له وهذه المعرفة الخاصة هي التي يدور حولها العارفون كما قال بعضهم مساكين أهل الدنيا خرجوا منها وما ذاقوا أطيب ما فيها قيل له وما هو قال معرفة الله عَزَّوَجَلَّ وقال أحمد بن عاصم الأنطاكي أحب أن لا أموت حتىٰ أعرف مولاي وليس معرفته الإقرار به ولكن المعرفة إذا عرفته استحييت منه ومعرفة الله أيضًا لعبده نوعان معرفة عامة وهي علمه تعالىٰ بعباده واطلاعه علىٰ ما أسروه وما أعلنوه كما قال ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِۦ نَفْسُهُۥ﴾ [ق:١٦]، قال: ﴿هُوَ أَعْلَمُ بِكُمْ إِذْ أَنشَأَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ وَإِذْ أَنتُمْ أَجِنَّةٌ فِى بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ﴾ [النجم:٣٢].

والثاني: معرفة خاصة وهي تقتضي محبته لعبده وتقريبه إليه وإجابة دعائه وإنجائه من الشدائد وهي المشار إليها بقوله ﷺ فيما يحكي عن ربه ولا يزال عبدي يتقرب إلىٰ بالنوافل حتىٰ أحبه فإذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به وبصره الذي يبصر به ويده التي يبطش بها ورجله التي يمشي بها ولئن سألني لأعطينه ولئن استعاذني لأعيذنه وفي رواية ولئن دعاني لأجيبنه ولما هرب الحسن من الحجاج دخل إلىٰ بيت حبيب بن محمد فقال له

حبيب يا أبا سعيد أليس بينك وبين ربك ما تدعوه به فيسترك من هؤلاء ادخل البيت فدخل ودخل الشرط علىٰ أثره فلم يروه فذكر ذلك للحجاج فقال بل كان في البيت إلا أن الله طمس أعينهم فلم يروه واجتمع الفضيل بن عياض بشعوانه العابدة فسألها الدعاء فقالت يا فضيل وما بينك وبينه ما إن دعوته أجابك فغشي علىٰ الفضيل وقيل لمعروف وما الذي كانت بينك وبينه معرفة كفاك جميع هذا وفي الجملة فمن عامل الله بالتقوىٰ والطاعة في حال رخائه عامله الله باللطف والإعانة في حال شدته»(١).

✍ **وقال شيخ الإسلام** رَحِمَهُ ٱللَّهُ «فإن اللذة والفرحة والسرور وطيب الوقت والنعيم الذي لا يمكن التعبير عنه إنما هو في معرفة الله سبحانه وتعالىٰ وتوحيده والإيمان به: وانفتاح الحقائق الإيمانية والمعارف القرآنية كما قال بعض الشيوخ: لقد كنت في حال أقول فيها: إن كان أهل الجنة في هذه الحال إنهم لفي عيش طيب. وقال آخر: لتمر علىٰ القلب أوقات يرقص فيها طربا وليس في الدنيا نعيم يشبه نعيم الآخرة إلا نعيم الإيمان والمعرفة»(٢).

✍ **وقال ابن القيم** رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «من عرف الله اتسع عليه كل ضيق»(٣).

✍ **وقال مالك بن دينار** رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «من لم يأنس بحديث الله عن حديث

---

(١) جامع العلوم والحكم (١٨٩/ ١).

(٢) مجموع الفتاوىٰ (٣١/ ٢٨).

(٣) مدارج السالكين (٣١٧/ ٣).

المخلوقين فقد قل علمه وعمي قلبه وضيع عمره»(١).

✍ **وقال العلامة ابن القيم** رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «فالسعيد كل السعيد والموفق كل الموفق من لم يلتفت عن ربه تبارك وتعالىٰ يمينًا ولا شمالًا ولا اتخذ سواه ربًّا ولا وكيلًا ولا حبيبًا ولا مدبرًا ولا حكمًا ولا ناصرًا ولا رازقًا»(٢).

✍ **وقال شيخ الإسلام** رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «فأطيب ما في الدنيا معرفة الله»(٣).

✍ **وقال بعض العلماء**: «إذا رأيت الله عَزَّوَجَلَّ يوحشك من خلقه فاعلم أنه يريد يؤنسك به»(٤).

✍ **وقال ابن الجوزي** رَحِمَهُ ٱللَّهُ: فقال بعض السلف «لقيت غلاما في طريق مكة فقلت له أما تستوحش فقال إن الأنس بالله قطع عني كل وحشة وزنه»(٥).

✍ **وقال ابن القيم** رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «أشرف ما في الاخرة وأجل المقاصد معرفة الله ومحبته والأنس بقربه والشوق إلىٰ لقائه والتنعم بذكره وهذا أجل سعادة الدنيا والآخرة وهذا هو الغاية التي تطلب لذاتها وانما يشعر العبد تمام الشعور بأن ذلك عين السعادة إذا انكشف له الغطاء وفارق الدنيا ودخل

---

(١) روضة العقلاء (١/ ٨٥).

(٢) مدارج السالكين(٣٨٢/ ٣).

(٣) مجموع الفتاوىٰ (١٤/ ١٦٣).

(٤) العزلة لابن أبي الدنيا(٤٥/ ١).

(٥) المدهش لابن الجوزي (٥٠٠/ ١).

الآخرة والا فهو في الدنيا وإن شعر بذلك بعض الشعور فليس شعوره به كاملا للمعارضات التي عليه والمحن التي امتحن بها والا فليست السعادة في الحقيقة سوىٰ ذلك وكل العلوم والمعارف تبع لهذه المعرفة مرادة لأجلها»(١).

✍ **وقال ابن القيم** رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «فصل معرفة الله سبحانه نوعان:

الأول: معرفة إقرار، وهي التي اشترك فيها الناس البر والفاجر والمطيع والعاصي.

والثاني: معرفة توجب الحياء منه والمحبة له وتعلق القلب به والشوق إلىٰ لقائه وخشيته والإنابة إليه والأنس به والفرار من الخلق إليه وهذه هي المعرفة الخالصة الجارية علىٰ لسن القوم وتفاوتهم فيهالا يحصيه إلا الذي عرفهم بنفسه وكشف لقلوبهم من معرفته ما أخفاه عن سواهم وكل أشار إلىٰ هذه المعرفة بحسب مقامه وما كشف له منها وقد قال أعرف الخلق به لا أحصي ثناء عليك أنت كما أثنيت علىٰ نفسك وأخبر أنه سبحانه يفتح عليه يوم القيامة من محامده بما لا يحسنه الآن»(٢).

ثم قال: «**ولهذه المعرفة بابان واسعان**

الباب الأول: باب التفكر والتأمل في آيات القرآن كلها والفهم الخاص عن الله ورسوله

---

(١) عدة الصابرين (٩٣/ ١).

(٢) الفوائد (١٧٠/ ١).

والباب الثاني: التفكر في آياته المشهودة وتأمل حكمته فيها وقدرته ولطفه وإحسانه وعدله وقيامه بالقسط علىٰ خلقه وجماع ذلك الفقه في معاني أسمائه الحسنىٰ وجلالها وكمالها وتفرده بذلك وتعلقها بالخلق والأمر فيكون فقيها في أوامره ونواهيه فقيها في قضائه وقدره فقيها في أسمائه وصفاته فقيها في الحكم الديني الشرعي والحكم الكوني القدري وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء والله ذو الفضل العظيم»(١).

✍ **وقال ابن القيم** رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «مراتب المعرفة:

فائدة: من الناس من يعرف الله بالجود والإفضال والإحسان ومنهم من يعرفه بالعفو والحلم والتجاوز ومنهم من يعرفه بالبطش والانتقام ومنهم من يعرفه بالعلم والحكمة ومنه من يعرفه بالعزة والكبرياء ومنهم من يعرفه بالرحمة والبر واللطف ومنهم من يعرفه بالقهر والملك ومنهم من يعرفه بإجابة دعوته وإغاثة لهفته وقضاء حاجته وأعم هؤلاء معرفة من عرفه من كلامه فإنه يعرف ربا قد اجتمعت له صفات الكمال ونعوت الجلال منزه عن المثال برئ من النقائص والعيوب له كل اسم حسن وكل وصف كمال فعال لما يريد فوق كل شيء ومع كل شيء وقادر علىٰ كل شيء ومقيم لكل شيء آمرناه متكلم بكلماته الدينية والكونية أكبر من كل شيء وأجمل من كل شيء أرحم الراحمين وأقدر القادرين وأحكم الحاكمين فالقرآن أنزل لتعريف عباده به وبصراطه الموصل إليه وبحال السالكين بعد الوصول إليه»(٢).

---

(١) الفوائد (١/ ١٧٠).

(٢) الفوائد (١/ ١٨٠).

[ثمرة المعرفة بالله]

وقال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «وقوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «معرفة الله جلا نورها كل ظلمة، وكشف سرورها كل غمة)» كلام في غاية الحسن. فإن من عرف الله أحبه ولا بد، ومن أحبه انقشعت عنه سحائب الظلمات، وانكشفت عن قلبه الهموم والغموم والأحزان، وعمر قلبه بالسرور والأفراح، وقبلت إليه وفود التهاني والبشائر من كل جانب، فإنه لا حزن مع الله أبدًا. ولهذا قال تعالىٰ عن نبيه: ﴿يَقُولُ لِصَاحِبِهِۦ لَا تَحۡزَنۡ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَاۖ﴾ [التوبة:٤٠]».

فدل علىٰ أنه لا حزن مع الله، وأن من كان الله معه فما له وللحزن؟ وأن الحزن كل الحزن لمن فاته الله، فمن حصل الله له، فعلىٰ أي شيء يحزن؟ ومن فاته الله، فباي شيء يفرح؟ قال تعالىٰ: ﴿قُلۡ بِفَضۡلِ ٱللَّهِ وَبِرَحۡمَتِهِۦ فَبِذَٰلِكَ فَلۡيَفۡرَحُواْ﴾ [يونس:٥٨]، فالفرح بفضله وبرحمته تبع للفرح به سبحانه، فالمؤمن يفرح بربه أعظم من فرح كل احد بما يفرح به، من حبيب أو جاه أو مال أو نعمة أو ملك؛ ففرح المؤمن برئه أعظم من هذا كله. ولا ينال القلب حقيقة الحياة حتىٰ يجد طعم هذه الفرحة والبهجة، فيظهر سرورها في قلبه ونضرتها في وجهه، فيصير له حال من حال أهل الجنة حيث لقاهم الله نضرة وسرورا. فلمثل هذا فليعمل العاملون، وفي ذلك فليتنافس المتنافسون! فهذا هو العلم الذي شمر إليه أولو الهمم والعزائم، واستبق إليه أصحاب الخصائص والمكارم. تلك المكارم»(١).

---

(١) طريق الهجرتين (١/٦١٠).

✍ **وقال ابن القيم** رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «إذا عرف العبد هذا فالفقر فقران: فقر اضطراري، وهو فقر عام لا خروج لبر ولا فاجر عنه، وهذا لا يقتضىٰ مدحًا ولا ذما ولا ثوابًا ولا عقابًا، بل هو بمنزلة كون المخلوق مخلوقا ومصنوعًا.

والفقر الثاني فقر اختياري هو نتيجة علمين شريفين:

أحدهما: معرفة العبد بربه.

والثاني: معرفته بنفسه.

فمتىٰ حصلت له هاتان المعرفتان أنتجتا له فقرًا هو عين غناه وعنوان فلاحه وسعادته، وتفاوت الناس في هذا الفقر بحسب تفاوتهم في هاتين المعرفتين فمن عرف ربه بالغنىٰ المطلق عرف نفسه بالفقر المطلق، ومن عرف ربه بالقدرة التامة عرف نفسه بالعجز التام، ومن عرف ربه بالعز التام عرف نفسه بالمسكنة التامة، ومن عرف ربه بالعلم التام والحكمة عرف نفسه بالجهل»(١).

✍ **قال ابن القيم** رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «وقال آخر من عرف الله تعالىٰ صفا له العيش فطابت له الحياة وهابه كل شيء وذهب عنه خوف المخلوقين وأنس بالله.

وقال غيره: من عرف الله قرت عينه بالله وقرت عينه بالموت وقرت به كل عين ومن لم يعرف الله تقطع قلبه علىٰ الدنيا حسرات ومن عرف الله لم يبق له رغبة فيما سواه ومن ادعىٰ معرفة الله وهو راغب في غيره كذبت رغبته معرفته ومن عرف الله أحبه علىٰ قدر معرفته به وخافه ورجاه وتوكل عليه

---

(١) طريق الهجرتين (٩/ ١).

وأناب إليه ولهج بذكره واشتاق إلىٰ لقائه واستحيا منه وأجله وعظمه علىٰ قدر معرفته به»(١).

✍ وقال الحافظ ابن رجب رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «وقال ذو النون: تناول المعرفة بثلاث: «بالنظر في الأمور كيف دبرها، وفي المقادير كيف قدرها، وفي الخلائق كيف خلقها».

«وسُئل أبو سليمان الداراني: بأي شيء تنال معرفة الله؟ قال: بطاعته.

قيل: فبأي شيء تنال طاعته؟ قال: به».

فكلما قويت معرفة العبد بالله قويت محبته له ومحبته لطاعته، وحصلت له لذة العبادة من الذكر وغيره علىٰ قدر ذلك»(٢).

علامة العارف بالله:

✍ قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «وعلامة العارف أن يكون قلبه مرآة إذا نظر فيها الغيب الذي دعي إلىٰ الإيمان به فعلىٰ قدر جلاء تلك المرآة يتراءىٰ له فيها الله سبحانه والدار الآخرة والجنة والنار والملائكة والرسل صلوات الله وسلامه عليهم

ومن علامات المعرفة أن يبدو لك الشاهد وتفنىٰ الشواهد وتنحل العلائق وتنقطع العوائق وتجلس بين يدي الرب تعالىٰ وتقوم وتضطجع علىٰ التأهب للقائه كما يجلس الذي شد أحماله وأزمة السفر علىٰ التأهب له

---

(١) مدارج السالكين (٣٤٤- ٣٤٥/ ١).

(٢) مجموع رسائل ابن رجب (٣١٦/ ٣).

ويقوم علىٰ ذلك ويضطجع عليه كما ينزل المسافر في المنزل فهو قائم وجالس ومضطجع علىٰ التأهب»(١).

✍ **وقال** رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «ومن علامات العارف أن يعتزل الخلق بينه وبين الله حتىٰ كأنهم أموات لا يملكون له ضرًّا ولا نفعًا ولا موتًا ولا حياةً ولا نشورًا ويعتزل نفسه بينه وبين الخلق حتىٰ يكون بينهم بلا نفس وهذا معنىٰ قول من قال العارف يقطع الطريق بخطوتين خطوة عن نفسه وخطوة عن الخلق.

وقيل: العارف ابن وقته وهذا من أحسن الكلام وأخصره فهو مشغول بوظيفة وقته عما مضىٰ وصار في العدم وعما لم يدخل بعد في الوجود فهمه عمارة وقته الذي هو مادة حياته الباقية

ومن علاماته أنه مستأنس بربه مستوحش ممن يقطعه عنه ولهذا قيل العارف من أنس بالله فأوحشه من الخلق وافتقر إلىٰ الله فأغناه عنهم وذل لله فأعزه فيهم وتواضع لله فرفعه بينهم واستغنىٰ بالله فأحوجهم إليه

وقيل: العارف فوق ما يقول والعالم دون ما يقول يعني أن العالم علمه أوسع من حاله وصفته والعارف حاله وصفته فوق كلامه وخبره

✍ **وقال أبو سليمان الداراني**: إن الله تعالىٰ يفتح للعارف علىٰ فراشه مالم يفتح له وهو قائم يصلي وقال غيره العارف تنطق المعرفة علىٰ قلبه وحاله وهو ساكت.

✍ **وقال ذو النون**: لكل شيء عقوبة وعقوبة العارف انقطاعه عن ذكر الله.

---

(١) مدارج السالكين (٣/ ٣١٨).

فالعارف لا يرائي المخلوق طلبا للمنزلة في قلبه وإنما يكون رؤياه نصيحة وإرشادا وتعليما ليقتدىٰ به فهو يدعو إلىٰ الله بعمله كما يدعو إليه بقوله فهو ينتفع بعلمه وينفع به غيره وإخلاص المريد مقصور علىٰ نفسه فالعارف جمع بين الإخلاص والدعوة إلىٰ الله فإخلاصه في قلبه وهو يظهر عمله وحاله ليقتدىٰ به والعارف ينفع بسكوته والعالم إنما ينفع بكلامه ولو سكتوا أثنت عليك الحقائق.

✍ **وقال ذو النون**: علامة العارف ثلاثة: لا يطفئ نور معرفته نور ورعه، ولا يعتقد باطنًا من العلم ينقضه عليه ظاهر من الحكم، ولا تحمله كثرة نعم الله علىٰ هتك أستار محارم الله.

وهذا من أحسن الكلام الذي قيل في المعرفة وهو محتاج إلىٰ شرح فإن كثيرًا من الناس يرىٰ أن التورع عن الأشياء من قلة المعرفة فإن المعرفة متسعة الأكناف واسعة الأرجاء فالعارف واسع موسع والسعة.

تطفئ نور الورع فالعارف لا تنقص معرفته ورعه ولا يخالف ورعه معرفته كما قال بعضهم العارف لا ينكر منكرًا لاستبصاره بسر الله في القدر فعنده أن مشاهدة القدر والحقيقة الكونية هو غاية المعرفة وإذا شاهد الحقيقة عذر الخليقة لأنهم مأسورون في قبضة القدر فمن يعذر أصحاب الكبائر والجرائم بل أرباب الكفر فهو أبعد خلق الله عن الورع بل ظلام معرفته قد أطفأ نور إيمانه.

قوله باطن العلم الذي ينقضه ظاهر الحكم فإنه يشير به إلىٰ ما عليه المنحرفون ممن ينسب إلىٰ السلوك فإنهم يقع لهم أذواق ومواجيد وواردت

تخالف الحكم الشرعي وتكون تلك معلومة لهم لا يمكنهم جحدها فيعتقدونها ويتركون بها ظاهر الحكم وهذا كثير جدا وهو الذي انتقد أئمة الطريق علىٰ هؤلاء وصاحوا بهم من كل ناحية وبدعوهم وضللوهم به.

قوله ولا تحمله كثرة نعم الله علىٰ هتك أستار محارم الله كثرة النعم تطغي العبد وتجمله علىٰ أن يصرفها في وجوهها وغير وجوهها وهي تدعو إلىٰ أن يتناول العبد وتحمله بها ما حل وما لا يحل وأكثر المنعم عليهم لا يقتصرون في صرف النعمة علىٰ القدر الحلال بل يتعداه إلىٰ غيره وتسول له نفسه أن معرفته بالله ترد عليه ما انتهبته منهم أيدي الشهوات والمخالفات ويقول العارف لا تضره الذنوب»(١).

✍ **وقال ابن القيم** رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «ومن علامات المعرفة الهيبة فكلما ازدادت معرفة العبد بربه ازدادت هيبته له وخشيته إياه كما قال الله تعالىٰ: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُاْ﴾ [فاطر:٢٨] أي العلماء به وقال النبي ﷺ: «**أنا أعرفكم بالله وأشدكم له خشية**» ومن عرف الله صفا له العيش وطابت له الحياة وهابه كل شيء وذهب عنه خوف المخلوقين وأنس بالله واستوحش من الناس وأورثته المعرفة الحياء من الله والتعظيم له والإجلال والمراقبة والمحبة والتوكل عليه والإنابة إليه والرضا به والتسليم لأمره وقال يحيىٰ بن معاذ: يخرج العارف من الدنيا ولا يقضي وطره من شيئين بكاؤه علىٰ نفسه وشوقه إلىٰ ربه وقال بعضهم لا يكون العارف عارفًا حتىٰ لو أعطي ملك سليمان لم

---

(١) مدارج السالكين (٣٤٤- ٣٤٥/ ١).

يشغله عن الله طرفة عين وقيل العارف أنس بالله فاستوحش من غيره وافتقر إلىٰ الله فأغناه عن خلقه وذل لله فأعزه في خلقه»(١).

أنواع المعرفة بالله وكيف يتعرف العبد على الله:

قال العز بن عبدالسلام رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «جعل الله عَزَّوَجَلَّ لكل معرفة حالا ينشأ عنها فمن عرف نعمة الله تعالىٰ كان حاله الخوف.

- ومن عرف سعة رحمة الله كان حاله الرجاء.

- ومن عرف توحيد الرب وبالنفع والضر والرفع والخفض لم يتوكل في جلب النفع ودفع الضر والإعطاء والحرمان إلا عليه ولم يفوض أمره إلا إليه.

- ومن عرف عظمته وجلاله كانت حاله الإجلال والمهابة.

- ومن عرف اطلاعه علىٰ أحواله استحيىٰ منه أن يخالفه.

- ومن عرف سماعه لأقواله استحيىٰ أن يقول ما لا يرضيه.

- ومن عرف إحسانه إليه وإفضاله عليه كانت حاله المحبة.

- ومن عرف جماله وجلاله كانت حاله المحبة وكانت محبته أفضل من محبة من عرف إحسانه وإفضاله.

وأكثر ما يحضر المعارف بالاستحضار والأفكار أو بالسماع من الأبرار والأخيار استحضر صفة من تلك الصفات أثمرت له حالا يناسبها ويوافقها وينشأ عن تلك الحال من الأقوال والأعمال ما يطابقها ويوافقها.

---

(١) روضة المحبين (١/ ٤٠٦-٤٠٧).

- فمن لاحظ شدة النقمة حصل له الخوف وما ينبني عليه من الحزن والبكاء والانقباض وتخويف العباد.

- ومن لاحظ سعة الرحمة حصل له من الانبساط ويرجيه اليأس ما يناسب ما حصل له من الرجاء.

- ومن لاحظ صفة الجمال حصل له من الحب وما ينبني عليه من الشوق وخوف الفراق وإنس التلاق والسرور والفرح.

- ومن لاحظ سماعه لأقواله ورؤيته لأعماله كانت حاله الحياء المانع من مخالفته في الأقوال والأعمال وسائر الأحوال.

وقد يصيح بعضهم لغلبة الحال إليه وإلجائها إياه إلىٰ الصياح ومن صاح لغير ذلك فمتصنع ليس من القوم في شيء.

وكذلك من أظهر شيئًا من الأحوال رياء وتسميعا فإنه ملحق بالفجار لا بالأبرار»[(١)].

(٤) السعيد الموفق من جعل الله له واعظا في قلبه

❁ عن النواس بن سمعان رضي الله عنه قال النبي ﷺ «**ضرب الله تعالىٰ مثلا صراطا مستقيما وعلىٰ جنبتي الصراط سوران فيهما أبواب مفتحة وعلىٰ الأبواب ستور مرخاة وعلىٰ باب الصراط داع يقول: يا أيها الناس! ادخلوا الصراط جميعا ولا تتعوجوا وداع يدعو من فوق الصراط فإذا أراد الإنسان أن**

---

(١) الفوائد في اختصار المقاصد المسمىٰ القواعد الصغرىٰ (١٤٦/ ١).

يفتح شيئًا من تلك الأبواب قال: ويحك لا تفتحه فإنك إن تفتحه تلجه فالصراط الإسلام والسوران حدود الله تعالىٰ والأبواب المفتحة محارم الله تعالىٰ وذلك الداعي علىٰ رأس الصراط كتاب الله والداعي من فوق واعظ الله في قلب كل مسلم»(١).

❁ عن عمر رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**ومن سرته حسنته وساءته سيئته فهو مؤمن**»(٢).

✍ **قال العلامة الطيبي** رحمه الله: «و(واعظ الله) هو لمة الملك في قلب المؤمن، واللمة الأخرىٰ هي لمة الشيطان، وإنما جعل لمة الملك التي هي واعظ الله فوق داعي القرآن لأنه إنما ينتفع به إذا كان المحل قابلًا»(٣).

✍ **وقال العلامة الصنعاني** رحمه الله: «وواعظ الله في قلب المؤمن هو الواعظ الذي فوق القرآن، وإنما جعله فوقه لأن القرآن تفهم وتدبر ونفعه به، وقد جعل الله القلوب علىٰ فطرة صحيحة سليمة يدرك بها الحق حقًّا والباطل

---

(١) أخرجه الحاكم وأحمد والبزار ورزين قال الشيخ الألباني: (صحيح) انظر حديث رقم: ٣٨٨٧ في صحيح الجامع انظر (صحيح الترغيب والترهيب (حديث: ٢٣٤٨) قال العلامة الألباني رحمه الله عن ابن مسعود رضي الله عنه ذكره رزين ولم أره في أصوله إنما رواه أحمد والبزار مختصرًا بغير هذا اللفظ بإسناد حسن.

(٢) جامع الترمذي (الحديث: ٢١٦٤)، وأخرجه الطبراني عن أبي موسىٰ. قال الشيخ الألباني: (صحيح) انظر حديث رقم: ٦٢٩٤ في صحيح الجامع. (انظر حديث (٢٥٤٦) صحيح الجامع.

(٣) شرح مشكاة المصابيح (٦٥٤/ ٢).

باطلا، ولذا وردت الأحاديث الآتية بلفظ: «استفت قلبك، وإن أفتاك المفتون»(١).

✍ **وقال شيخ الإسلام** رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «فقد بين أن في قلب كل مؤمن واعظ والواعظ الأمر والنهي بترغيب وترهيب؛ فهذا الأمر والنهي الذي يقع في قلب المؤمن مطابق لأمر القرآن ونهيه ولهذا يقوىٰ أحدهما بالآخر. كما قال تعالىٰ: ﴿نُّورٌ عَلَىٰ نُورٍ﴾ [النور:٣٥].

✍ **قال بعض السلف في الآية**: هو المؤمن ينطق بالحكمة وإن لم يسمع فيها بأثر فإذا سمع بالأثر كان نورًا علىٰ نور. نور الإيمان الذي في قلبه يطابق نور القرآن كما أن الميزان العقلي يطابق الكتاب المنزل؛ فإن الله أنزل الكتاب والميزان ليقوم الناس بالقسط. وقد يؤتىٰ العبد أحدهما ولا يؤتىٰ الآخر»(٢).

❁ وجاء عن وابصة بن معبد رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ قال: رأيت رسول الله ﷺ وأنا أريد أن لا أدع شيئًا من البر والإثم إلا سألت عنه فقال لي: «**ادن يا وابصة**» فدنوت منه حتىٰ مست ركبتي ركبته فقال لي: «**يا وابصة أخبرك عما جئت تسأل عنه** قلت يا رسول الله أخبرني قال: «**جئت تسأل عن البر والإثم**» قلت نعم فجمع أصابعه الثلاث فجعل ينكت بها في صدري ويقول: «**يا وابصة استفت قلبك والبر ما اطمأنت إليه النفس واطمأن إليه القلب والإثم ما حاك في القلب وتردد**

---

(١) التحبير لإيضاح معاني الجامع الصغير (٢٣١/ ١).

(٢) مجموع الفتاوىٰ (٤٧٥/ ١٠).

في الصدر وإن أفتاك الناس وأفتوك»[١].

✍ **وقال ابن القيم** رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «وإذا كان الإثم والبر في صدور الخلق له تردد وجولان؛ فكيف حال من الله سمعه وبصره وهو في قلبه. وقد قال ابن مسعود: «الإثم حواز القلوب»[٢].

وقد قدمنا «أن الكذب ريبة والصدق طمأنينة»[٣]، فالحديث الصدق تطمئن إليه النفس ويطمئن إليه القلب»[٤].

✍ **قال شيخ الإسلام** رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «ومن كان توفيق الله له كذلك فكيف لا

---

(١) أخرجه أحمد (٤/ ٢٢٨)، وأبو يعلىٰ رقم (١٥٨٦، ١٥٨٧)، والطبراني في «المعجم الكبير» (ج ٢٢ رقم ٤٠٣)، والدارمي (٢/ ٢٤٥ - ٢٤٦)، والبخاري في «التاريخ الكبير» (١/ ١٤٤ - ١٤٥).
وللحديث شواهد: منها: في الصحيح، لذا حسن الإمام النووي، والألباني في «صحيح الجامع» (١/ ٢٢٤ رقم ٩٩٨) الحديث. وانظر «جامع العلوم والحكم» (٢/ ٩٣ - ٩٦).
وخلاصة القول: أن الحديث حسن، والله أعلم.

(٢) المعجم الكبير للطبراني (٨٦٦١ -٨٦٦٣)، والإتحاف ١/ ١٥٩ و٦/ ٦٠ و٨١ و٧/ ٢٩٨ والترغيب ٣/ ٣٦ ومجمع ١/ ١٧٦، والشعب (٥٤٣٤و ٧٢٧٧) صحيح موقوف.

(٣) عن أبي الحوراء السعدىٰ قال قلت للحسن بن علىٰ ما حفظت من رسول الله ﷺ قال حفظت من رسول الله ﷺ «**دع ما يريبك إلىٰ ما لا يريبك فإن الصدق طمأنينة وإن الكذب ريبة**». سنن الترمذي (٢٧٠٨)، وقال: وهذا حديث حسن صحيح. وهو كما قال.

(٤) الفرقان بين أولياء الرحمن وأولياء الشيطان (٤٨/ ١).

يكون ذا بصيرة نافذة ونفس فعالة؟

وإن ساعده التوفيق؛ واستغنىٰ بواعظ القلب عن علوم كثيرة -و أن في قلب كل مؤمن واعظا، والوعظ هو الأمر والنهي؛ والترغيب والترهيب»(١).

✍ **وقال الحسن البصري** رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «من كان له واعظ من نفسه كان له من الله حافظ فرحم الله من وعظ نفسه وأهله»(٢).

✍ **قال القائل:**

ما أصلح المرء الكريم كنفسه ∴ والمرء يصلحه الجليس الصالح

✍ **وقال القائل:**

إذا لم يسقها سائق من ضميرها ∴ وإلا فأعيت سائقا بعد سائق

✍ **وقال الحسن:** «إن العبد لا يزال بخير ما كان له واعظ من نفسه، وكانت المحاسبة من همته»(٣).

✍ **وقال ابن القيم** رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «والمؤمن لا تتم له لذة بمعصية أبدًا ولا يكمل بها فرحه بل لا يباشرها إلا والحزن مخالط لقلبه ولكن سكر الشهوة يحجبه عن الشعور به ومتىٰ خلي قلبه من هذا الحزن واشتدت غبطته وسروره فليتهم إيمانه وليبك علىٰ موت قلبه فإنه لو كان حيا لأحزنه ارتكابه للذنب وغاظه وصعب عليه ولا يحس القلب بذلك فحيث لم يحس به فما

---

(١) الفرقان بين أولياء الرحمن وأولياء الشيطان (٤٨/ ١).

(٢) النفقة علىٰ العيال لابن أبي الدنيا (٣٢٢/ ٤).

(٣) إغاثة اللهفان (٧٨/ ١).

لجرح بميت إيلام»(١).

✍ **وقال ابن سيرين** رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «إذا أراد الله بعبده خيرًا جعل له واعظًا من قلبه يأمره وينهاه»(٢).

✍ **وقال ابن القيم** رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «واعظ الله في قلب عبده المؤمن الذي يأمره وينهاه ولكن ذلك في قلب كل مؤمن جعله الله واعظا له يأمره وينهاه ويناديه ويحذره ويبشره وينذره وهو الداعي الذي يدعو فوق الصراط والداعي علىٰ رأس الصراط كتاب الله فما ثم خطاب قط إلا من جهة من هاتين إما خطاب القرآن وإما خطاب هذا الواعظ.

ولكن لما كانت الروح قد تتجرد ويقوىٰ تعلقها بالحق تعالىٰ بل قد تتلاشىٰ بما سواه وقد يقترن بذلك نوع غيبة من حسه ويقوىٰ داعي هذا الواعظ ويستولي علىٰ قلبه وروحه بحيث يمتلئ به فتؤديه الروح إلىٰ الأذن فيخرج عن الأذن إليها إذ هي مبدؤه وإليها يعود فيظنه خطابًا خارجًا وينضاف إلىٰ ذلك نوع من ضعف العلم ومعرفة المراتب فينشأ الغلط والوهم»(٣).

✍ **وقال أحد العلماء** «من لم يكن له من نفسه واعظ لم تنفعه المواعظ»(٤).

---

(١) مدارج السالكين (١/ ١٨٠).

(٢) الزهد للإمام أحمد (١٧٦٩).

(٣) مدارج السالكين (١/ ٧٣).

(٤) خواطر وحكم منتقاة للدكتور أحمد المرزعوي.

✍ **قال ابن القيم** رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «ومن علامات صحة القلب أنه لا يزال يضرب علىٰ صاحبه حتىٰ ينيب إلىٰ الله ويخبت إليه»(١).

✍ **قال العلامة السعدي** رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «بل نفس المؤمن تلوم صاحبها في الدنيا علىٰ ما حصل منه، من تفريط أو تقصير في حق من الحقوق، أو غفلة»(٢).

❁ وروىٰ الديلمي - قال الحافظ زين الدين العراقي، وإسناده جيد - عن أم سلمة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهَا قالت: قال رسول الله ﷺ: «**إذا أراد الله بعبده خيرًا جعل له واعظا من قلبه يأمره وينهاه**»(٣).

✍ وروىٰ ابن أبي شيبة عن ابن سيرين رَحِمَهُ ٱللَّهُ قال: «كنا نتحدث أن العبد إذا أراد الله به خيرًا جعل له زاجرًا من نفسه يأمره بالخير وينهاه عن المنكر»(٤).

✍ **وقال بعض العارفين**: «من لم يكن له من نفسه واعظ لم تنفعه المواعظ.

✍ **وقال أبو مدين** رَحِمَهُ ٱللَّهُ: كل قلب ليس له واعظ من نفسه فهو خراب.

---

(١) إغاثة اللهفان (١٧/ ١).

(٢) تيسر الكريم المنان (١/ ٨٩٨).

(٣) قال العراقي في «تخريج أحاديث الإحياء» (٢/ ٧١١): رواه الدارمي عن أم سلمة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهَا، وسنده جيد.

(٤) رواه ابن أبي شيبة في «المصنف» (٣٥٣٢٤).

❁ وروىٰ الحكيم الترمذي عن أبي هريرة رضي الله عنه، عن النبي ﷺ قال: «**أربع من كن فيه حرمه الله علىٰ النار، وعصمه من الشيطان: من ملك نفسه حين يرغب، ويرهب، وحين يشتهي، وحين يغضب**»(١).

✍ **قال الإمام الخرائطي «باب من جعل الله له من قلبه واعظًا»:**

- عَن الْحَسَن قَالَ: «كَانوا يَقُولُون: إِن لِسَان الْحَكِيم مِن وراءِ قَلْبه، فإِذَا أرادَ أن يَقُولَ شَيْئًا رجَعَ إِلَىٰ قَلْبه، فإِن كَان لَه قَالَ وإِن كَان عَلَيْه أمْسَكَ، وإِن الْجَاهلَ قَلْبه في طَرف لِسَانه، لَا يَرجِعُ إِلَىٰ قَلْبه، مَا أتىٰ عَلَىٰ لِسَانه مِن شَيْءٍ تكَلَّمَ به».

❁ عَن عَائِشَةَ رضي الله عنها قَالَت: قَالَ رسُولُ الله ﷺ: «**لِكُلِّ قَلْب وسْواسٌ، فإِذَا فتقَ الْوسْواسُ حِجَاب الْقَلْب نطَقَ به اللِّسَان، وأخَذَ به الْعَبدُ، وإِذَا لَمْ يُفتقِ الْقَلْب ولَمْ يَنطِقْ به اللِّسَان فلَا حَرجَ**».

- عَن زِيَادَ بن عُثْمَان قَالَ: «مَن كَان لَه واعِظٌ مِن قَلْبه زَادَه الله عِزًّا، والذُلُ في طَاعَةِ الله عَزَّوَجَلَّ أقْرب مِن التعَزُزِ في مَعْصِيَةِ الله».

- حدثنا علي بن الأعرابي قال: قال أبو العتاهية: «لقيت أبا نواس في المسجد الجامع، فعذلته وقلت له: أما آن لك أن ترعوي، أما آن لك أن تزدجر، فرفع رأسه إلي وهو يقول:

أتـــــراني يـــــا عتـــــاهي ∴ تاركـــــا تلـــــك الملاهـــــي
أتـــــراني مفســـــدا بالنســـــك ∴ عنـــــد القـــــوم جـــــاهي

---

(١) رواه الحكيم الترمذي في «نوادر الأصول» (٤/ ٥٠).

قال: فلما ألححت عليه في العذل أنشد يقول:

لن ترجع الأنفس من غيها ∴ ما لم يكن منا لها زاجر

فوددت أني قلت هذا البيت بكل شيء قلته»

✍ **قال عمر بن الخطاب** رضي الله عنه: «من ينصف الناس من نفسه يعطىٰ الظفر في أمره، والذل في طاعة أقرب إلىٰ البر من التعزز في المعصية»(١).

✍ **وقال مالك بن دينار** قال: أبكاني الحجاج في مسجد كم هذا وهو يخطب فسمعته يقول: امرؤ زود نفسه، امرؤ وعظ نفسه، امرؤ لم يأتمن نفسه علىٰ نفسه، امرؤ أخذ من نفسه لنفسه، امرؤ كان للسانه وقلبه زاجر من الله تعالىٰ، فأبكاني(٢).

❁ **وقد أشار الله إلىٰ هذه الخصلة** في قوله تعالىٰ: ﴿وَلَآ أُقۡسِمُ بِٱلنَّفۡسِ ٱللَّوَّامَةِ ٢﴾ [القيامة:٢].

✍ **وقال العلامة القرطبي** رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «أي بنفس المؤمن الذي لا تراه إلا يلوم نفسه، يقول: ما أردت بكذا؟ فلا تراه إلا وهو يعاتب نفسه؛ قال ابن عباس ومجاهد والحسن وغيرهم. قال الحسن: هي والله نفس المؤمن، ما يرىٰ المؤمن إلا يلوم نفسه: ما أردت بكلامي؟ ما أردت بأكلي؟ ما أردت بحديث نفسي؟ والفاجر لا يحاسب نفسه. وقال مجاهد: هي التي تلوم علىٰ ما فات وتندم، فتلوم نفسها علىٰ الشر لم فعلته، وعلىٰ الخير لم لا تستكثر

---

(١) اعتلال القلوب (١/ ٣١-٣٢).

(٢) مصنف أبن أبي شيبة (٨/ ٣١٩).

منه. وقيل: إنها ذات اللوم.

وقيل: إنها تلوم نفسها بما تلوم عليه غيرها؛ فعلىٰ هذه الوجوه تكون اللوامة بمعنىٰ اللائمة، وهو صفة مدح؛ وعلىٰ هذا يجيء القسم بها سائغا حسنا»(١).

✍ **قال أحمد بن عيسىٰ الخراز:** «إذا صدق المريد في بدايته أيده الله بالتوفيق وجعل له واعظا من نفسه»(٢).

(٥) السعيد الموفق ينظر للعواقب ومآلات الأمور

النظر للعواقب ومآلات الأمور مقصود شرعًا وقد اهتم الشرع غاية الاهتمام بهذا الأمر بما يترتب علىٰ ذلك من المفاسد أو حصول المصالح وسعىٰ لسد الذرائع التي تأتي عواقبها بالمحرمات حتىٰ وإن كانت مباحة ومأذون بها شرعا فحرمت منها ما حرم وكرهت منها ما كره حفاظا علىٰ الشريعة وعلىٰ العبد المكلف وقد نص العلماء علىٰ هذه بقواعد أصولية وفقهية واعتبروها ضوابط وقواعد تدخل تحتها من أمهات المسائل العقدية والعبادات والمعاملات والعقود وغيرها.

فمثلًا «الأمور لها أحكام المقاصد» دفع المفاسد مقدم علىٰ جلب المصالح «والوسائل لها أحكام المقاصد» وليس المقام مقام فقهي ولكن يستفيد العبد المؤمن منها ما يتوخىٰ به الأضرار ويتقىٰ الأشرار ويتجنب

---

(١) تفسير القرطبي (٩١-٩٢/ ٩١).

(٢) تاريخ مدينة دمشق (ج٥/ ص١٣٥).

الأخطار وتستجلب المصالح الدينية والدنيوية وتدفع المفاسد الدينية والدنيوية

✍ **قال الإمام الشاطبي** رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «النظر في مآلات الأفعال معتبر مقصود شرعا كانت الأفعال موافقة أو مخالفة وذلك أن المجتهد لا يحكم علىٰ فعل من الأفعال الصادرة عن المكلفين بالإقدام أو بالإحجام إلا بعد نظره إلىٰ ما يؤول إليه ذلك الفعل مشروعا لمصلحة فيه تستجلب أو لمفسدة تدرأ ولكن له مآل علىٰ خلاف ما قصد فيه وقد يكون غير مشروع لمفسدة تنشأ عنه أو مصلحة تندفع به ولكن له مآل علىٰ خلاف ذلك فإذا أطلق القول في الأول بالمشروعية فربما أدىٰ استجلاب المصلحة فيه إلىٰ المفسدة تساوىٰ المصلحة أو تزيد عليها فيكون هذا مانعا من إطلاق القول بالمشروعية وكذلك إذا أطلق القول في الثاني بعدم مشروعية ربما أدىٰ استدفاع المفسدة إلىٰ مفسدة تساوي أو تزيد فلا يصح إطلاق القول بعدم المشروعية وهو مجال للمجتهد صعب المورد إلا أنه عذب المذاق محمود الغب جار علىٰ مقاصد الشريعة»(١).

✍ **قال ابن القيم** رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «في قوله تعالىٰ: ﴿وَعَسَىٰٓ أَن تَكۡرَهُواْ شَيۡـٔٗا وَهُوَ خَيۡرٞ لَّكُمۡۖ وَعَسَىٰٓ أَن تُحِبُّواْ شَيۡـٔٗا وَهُوَ شَرّٞ لَّكُمۡۗ وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ وَأَنتُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ ٢١٦﴾ [البقرة:٢١٦] في هذه الآية عدة حكم وأسرار ومصالح للعبد، فإن العبد إذا علم أن المكروه قد يأتي بالمحبوب، والمحبوب قد يأتي بالمكروه، لم يأمن

---

(١) الموافقات (١٩٥/ ٤).

أن توافيه المضرة من جانب المسرة، ولم ييأس أن تأتيه المسرة من جانب المضرة لعدم علمه بالعواقب، فإن الله يعلم منها مالا يعلمه العبد أوجب له ذلك أمورا: منها: أنه لا أنفع له من امتثال الأمر وإن شق عليه في الابتداء، لأم عواقبه كلها خيرات ومسرات ولذات وأفراح وإن كرهته نفسه فهو خير لها وأنفع. وكذلك لا شيء أضر عليه من ارتكاب النهي وإن هويته نفسه ومالت إليه، فإن عواقبه كلها آلام وأحزان وشرور ومصائب، وخاصية العقل تحمل الألم اليسير لما يعقبه من اللذة العظيمة والخير الكثير، واجتناب اللذة اليسيرة لما يعقبها من الألم العظيم والشر الطويل. فنظر الجاهل لا يجاوز المبادئ إلىٰ غاياتها، والعاقل الكيس دائمًا ينظر إلىٰ الغايات من وراء تلك الستور من الغايات المحمودة والمذمومة. فيرىٰ المناهي كطعام لذيذ قد خلط به سم قاتل، فكلما دعته لذته إلىٰ تناوله نهاه ما فيه من السم. ويرىٰ الأوامر كدواء كريه المذاق مفضىٰ إلىٰ العافية والشفاء، وكلما نهاه كراهة مذاقه عن تناوله أمره نفعه بالتناول. ولكن هذا يحتاج إلىٰ فضل علم تدرك به الغايات من مبادئها، وقوة صبر يوطن به نفسه علىٰ تحما مشقة الطريق لما يؤمل عند الغاية، فإذا فقد اليقين والصبر تعذر عليه ذلك، واذا قوي يقينه وصبره هان عليه كل مشقة يتحملها في طلب الخير الدائم واللذة الدائمة»[(١)].

الدائمة»[(١)].

---

(١) الفوائد (١٤٧/ ١).

ميز الله بني آدم بالعقل ونفع الموفقين منهم بهذه النعمة:

قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «وهذا ثمرة العقل الذي به عرف الله سبحانه وتعالىٰ وأسماؤه وصفات كماله ونعوت جلاله وبه آمن المؤمنون بكتبه ورسله ولقائه وملائكته وبه عرفت آيات ربوبيته وأدلة وحدانيته ومعجزات رسله وبه امتثلت أوامره واجتنبت نواهيه وهو الذي تلمح العواقب فراقبها وعمل بمقتضىٰ مصالحها وقاوم الهوىٰ فرد جيشه مفلولًا وساعد الصبر حتىٰ ظفر به بعد أن كان بسهامه مقتولا وحث علىٰ الفضائل ونهىٰ عن الرذائل وفتق المعاني وأدرك الغوامض وشد أزر العزم فاستوىٰ علىٰ سوقه وقوىٰ أزر الحزم حتىٰ حظىٰ من الله بتوفيقه فاستجلب ما يزين ونفىٰ ما يشين فإذا نزل وسلطانه أسر جنود الهوىٰ فحصرها في حبس من ترك لله شيئًا عوضه الله خيرًا منه ونهض بصاحبه إلىٰ منازل الملوك إذا صير الهوىٰ الملك بمنزلة العبد المملوك فهي شجرة مما يمرنه ويعده للظفر»(١).

وقال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «فإن خاصة العقل ملاحظة العواقب ومرسل النظر لو علم ما تجني عواقب نظره عليه لما أطلق بصره قال الشاعر:

وأعقل الناس من لم يرتكب سببا ∴ حتىٰ يفكر ما تجني عواقبه»(٢)

ولقد أنشدني ابن زنجي البغدادي:

وما الأمر إلا بالعواقب إنها ∴ سيبدو عليها كل سر وذائع(٣)

---

(١) روضة المحبين (٧/ ١).

(٢) روضة المحبين (١٠٤/ ١).

(٣) مجمع الحكم والأمثال (١١/ ١).

✍ **وقال** رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «خرج الزهري يومًا من عند هشام بن عبد الملك فقال ما رأيت كاليوم ولا سمعت به كأربع كلمات تكلم بهن رجل آنفًا عند هشام بن عبد الملك فقيل له وما هن قال: قال له رجل يا أمير المؤمنين احفظ عني أربع كلمات فيهن صلاح ملكك واستقامة رعيتك قال هاتهن قال لا تعدن عدة لا تثق من نفسك بإنجازها ولا يغرنك المرتقىٰ وإن كان سهلًا إذا كان المنحدر وعرًا واعلم أن للأعمال جزاءً فاتق العواقب وأن للأمور بغتات فكن علىٰ حذر»(١).

✍ **قيل:**

«إذا هم ألقىٰ بين عينيه عزمه ∴ ونكب عن ذكر العواقب جانبا
ولم يستشر في أمره غير نفسه ∴ ولم يرض إلا قائم السيف صاحبا»(٢)

✍ **وقيل:**

قد يدرك المتأني بعض حاجته ∴ وقد يكون مع المستعجل الزلل

✍ **قال أبو العتاهية**

وكل أمر له لا بد عاقبةٌ ∴ وخير أمرك ما أحمدت عقباه

✍ **وقال ابن جرير الطبري** رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «علىٰ المرء توقي المكاره قبل وقوعها، وتجنب الأشياء المخوفة قبل هجومها»(٣).

---

(١) التذكرة الحمدونية (٢٦٢/ ١)، وروضة العقلاء (٢٧٣/ ١).
(٢) البيتان لسعد بن ناشب المازني. انظر: شرح الحماسة للتبريزي (١/ ٣٥)
(٣) تهذيب الآثار (٨٤/ ١).

✍ **وقال علي**: «لا تكونوا عجلًا مذاييع بذرًا، فإن من ورائكم بلاء مبرحًا مملحًا، وأمورًا متماحلة ردحًا»(١).

مذاييع: الاستعجال في نشر الأخبار المكذوبة خاصة أيام الفتن. **بذرا**: بذر الشر ونشر الكلام. **مبرحًا**: شديدًا متعبًا. **مملحًا**: مذيبة مهلكة. **متماحلة**: مختلطه ومتشابهة. **ردحًا**: باقية بثقل بلاءها لا ترفع

✍ **قال ابن الجوزي** رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «فصل: من عاين الأمور بعين بصيرته:

«من عاين بعين بصيرته تناهي الأمور في بداياتها نال خيرها، ونجا من شرها، ومن لم ير العواقب، غلب عليه الحس، فعاد عليه بالأسلم ما طلب منه السلامة، وبالنصب ما رجا منه الراحة».

«وأزيدك في هذا بيانا: مثل ساعة الموت، وانظر إلىٰ مرارة الحسرات علىٰ التفريط، ولا أقول: كيف تغلب حلاوة اللذات؟! لأن حلاوة اللذات استحالت حنظلا؛ فبقيت مرارة الأسىٰ بلا مقاوم، أتراك ما علمت أن الأمر بعواقبه؟! فراقب العواقب تسلم، ولا تمل مع هوىٰ الحس فتندم».

«فالحذر الحذر من رؤية المشتهىٰ بعين الحسن، كما يرىٰ اللص لذة أخذ المال من الحرز، ولا يرىٰ بعين فكره القطع وليفتح عين البصيرة، لتأمل العواقب، واستحالة اللذة نغصة، وانقلابها عن كونها لذة، إما لملل، أو لغيرة من الآفات، أو لانقطاعها بامتناع الحبيب، فتكون المعصية الأولىٰ كلقمة تناولها جائع فما ردت كلب الجوع، بل شهت الطعام».

---

(١) الأدب المفرد (١٢٠/ ١) صحيح.

«وليتذكر الإنسان لذة قهر الهوىٰ مع تأمل فوائد الصبر عنه، فمن وفق لذلك، كانت سلامته قريبة منه،

وعلىٰ قدر النظر في العواقب يخف العشق عن قلب العاشق، وعلىٰ قدر جمود الذهن يقوىٰ القلق.

✍ **قال المتنبي:**

لـــو فكـــر العاشـــق في منتهـــىٰ ∴ حســـن الـــذي يســـبيه لـــم يســـبه»

«فالله الله! اسمعوا ممن قد جرب! كونوا علىٰ مراقبة! وانظروا في العواقب! واعرفوا عظمة الناهي! واحذروا من نفخة تحتقر، وشررة تستصغر، فربما أحرقت بلدًا! وهذا الذي أشرت إليه، يسير يدل علىٰ كثير، وأنموذج يعرف باقي المحقرات من الذنوب.

والعلم والمراقبة يعرفانك ما أخللت بذكره، ويعلمانك إن تلمحت بعين البصيرة أثر شؤم فعله، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم».

«والعاقل من تلمح العواقب. وصابروا رحمكم الله تعالىٰ هجير البلاء، فما أسرع زواله! والله الموفق، إذ لا حول إلا به، ولا قوة إلا بفضله».

«**فصل مفيد**: العاقل ينظر في العواقب، والغافل لا يرىٰ إلا الحاضر

تدبرت أحوال الأخبار والأشرار، فرأيت سبب صلاح الأخيار النظر، وسبب فساد الأشرار إهمال النظر. وذاك أن العاقل ينظر، فيعلم أنه لا بد للمصنوع من صانع، وأن طاعته لازمة»

«**وأما الغافل**؛ فإنه لا يرىٰ إلا الشيء الحاضر، فمنهم من لم يتأمل في

معنىٰ المصنوع وإثبات الصانع، فجحدوا، وتركوا النظر، وجحدوا الرسل، وما جاءوا به، ونظروا إلىٰ العاجل، ولم يتفكروا في مبدئه ومنتهاه فليس عندهم من عرفان المطعم إلا الأكل، ولو تأملوا كيف أنشئ؟ ولماذا جعل حافظا للأبدان؟ لعرفوا حقائق الأمور! وكذلك كل شهوة تعرض لهم، لا ينظرون في عاقبتها، بل في عاجل لذتها. وكم قد جنت عليهم، من وقوع حد، وقطع يد، وفضيحة! فتعجيل اللذة يفوت الفضائل، ويحصل الرذائل، وسببه عدم النظر في العواقب، وهذا شغل الغفل، وذاك المذموم شغل الهوىٰ. نسأل الله عَزَّوَجَلَّ يقظة ترينا العواقب، وتكشف لنا الفضائل والمعايب، إنه قادر علىٰ ذلك»

«**ينبغي أن يكون شغل العاقل النظر في العواقب**، والتحرز، مما يمكن أن يكون.

ومن الغلط النظر في الحالة الحاضرة، الموافقة لمعاشه، ولصحة بدنه، وربما لا يجري له مصحوبه، فينبغي أن يعمل علىٰ انقطاع ذلك، فيكون مستعدا لتغير الأحوال.

وكذلك النظر في لذة تفنىٰ، وتبقىٰ تبعتها وعارها، وإيثار الكسل والدعة، لما يجيء بعدهما من بقاء الجهل وكذلك تحصيل المرادات التي لا تحصل إلا بالتلطف في الاحتيال، خصوصا إذا أريد من ذكي، فإنه يفطن بأقل تلويح. فمن أراد غلبة الذكي، دقق النظر، وتلطف في الاحتيال».

«وكفىٰ بالذهن الناظر إلىٰ العواقب والتأمل لكل ممكن مؤدبا».

«**فصل**: كامل العقل من يتلمح العواقب.

كل من لا يتلمح العواقب، ولا يستعد لما يجوز وقوعه؛ فليس بكامل العقل!

واعتبر هذا في جميع الأحوال! مثل أن يغتر بشبابه، ويدوم علىٰ المعاصي، ويسوف بالتوبة، فربما أخذ بغتة، ولم يبلغ بعض ما أمل. وكذلك إذا سوف بالعمل، أو بحفظ العلم، فإن الزمان ينقضي بالتسويف، ويفوت المقصود. وربما عزم علىٰ فعل خير، أو وقف شيء من ماله، فسوف، فبغت.

فالعاقل من أخذ بالحزم في تصوير ما يجوز وقوعه، وعمل بمقتضىٰ ذلك؛ فإن امتد الأجل، لم يضره، وإن وقع المخوف، كان محترزًا».

«فكل الآفات والمخافات في نهار الأجل، وقد اصفرت شمس العمر، فالبدار البدار قبل الغروب! ولا معين يرافق علىٰ تلك الطريق إلا الفكر إذا جلس مع العقل، فتذاكرا العواقب؛ فإذا فرغ ذلك المجلس، فالنظر في سير المجدين، فإنه يعود مستجلبًا للفكر منها شتىٰ الفضائل، والتوفيق من وراء ذلك، ومتىٰ أرادك لشيء هيأك له».

«فأما الوحدة، فإنها سبب رجوع القلب، وجمع الهم، والنظر في العواقب، والتهيؤ للرحيل، وتحصيل الزاد، فإذا انضمت إليها القناعة، جلبت الأحوال المستحسنة».

«واعتبر هذا بحال الخضر وموسىٰ عَلَيْهِمَا ٱلسَّلَامُ، لما فعل الخضر أشياء تخرج عن العادات أنكر موسىٰ، ونسي إعلامه له بأني أنظر فيما لا تعلمه من العواقب؛ فإذا خفيت مصلحة العواقب علىٰ موسىٰ عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ مع مخلوق، فأولىٰ أن يخفىٰ علينا كثير من حكمة الحكيم»

«لأن العقل كلما تلمح العواقب، أعرض عن الدنيا، والتفت إلىٰ ما تلمح، ولا لذة عنده بشيء من العاجل، وإنما يلتذ أهل الغفلة عن الآخرة، ولا غفلة لكامل العقل، ولهذا لا يقدر علىٰ مخالطة الخلق؛ لأنهم كأنهم من غير جنسه».

«**فصل**: النظر في العواقب شأن العقلاء ينبغي الاحتراز من كل ما يجوز أن يكون، ولا ينبغي أن يقال: الغالب السلامة، وفي الجملة؛ فالنظر في العواقب، وفيما يجوز أن يقع: شأن العقلاء فأما النظر في الحالة الراهنة فحسب، فحالة الجهلة الحمقىٰ، مثل أن يرىٰ نفسه معافىٰ، وينسىٰ المرض، أو غنيا، وينسىٰ الفقر، أو يرىٰ لذة عاجلة، وينسىٰ ما تجني عواقبها، وليس للعقل شغل إلا النظر في العواقب، وهو يشير بالصواب من أين يقبل».

«وما هلك الهالكون إلا لقلة الصبر عن المشتهىٰ، وربما كان فيهم من لا يؤمن بالبعث والعقاب. وليس العجب من ذاك؛ إنما العجب من مؤمن يوقن، ولا ينفعه يقينه! ويعقل العواقب، ولا ينفعه عقله!».

«**فصل**: إنما فضل العقل بتأمل العواقب. إنما فضل العقل بتأمل العواقب؛ فأما القليل العقل؛ فإنه يرىٰ الحال الحاضرة، ولا ينظر إلىٰ عاقبتها، فإن اللص يرىٰ أخذ المال، وينسىٰ قطع اليد! والبطال يرىٰ لذة الراحة، وينسىٰ ما تجني من فوات العلم وكسب المال، فإذا كبر فسئل عن علم؛ لم يدر، وإذا احتاج، سأل؛ فذل، فقد أربىٰ ما حصل له من التأسف علىٰ لذة البطالة، ثم يفوته ثواب الآخرة بترك العمل في الدنيا. وكذلك شارب الخمر، يلتذ تلك الساعة، وينسىٰ ما يجني من الآفات في الدنيا والآخرة! وكذلك

الزنا؛ فإن الإنسان يرىٰ قضاء الشهوة، وينسىٰ ما يجني من فضيحة الدنيا والحد»(١).

✍ **قال ابن الجوزي** رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «ومن تفكر في العواقب فقد استعمل غاية الدواء، وأقرب الأشياء إلىٰ السلامة مفارقة من ضل وغوىٰ».

✍ **وقال** رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «ينبغي لكل ذي لب وفطنة أن يحذر عواقب المعاصي، فإنه ليس بين آدمي وبين الله تعالىٰ قرابة ولا رحم، وإنما هو قائم بالقسط، حاكم بالعدل. وإن كان حلمه يسع الذنوب، إلا أنه إذا شاء، عفا، فعفىٰ كل كثيف من الذنوب، وإذا شاء أخذ باليسير. فالحذر الحذر!»(٢).

✍ **قال الحسن**: «ما ضربت ببصري، ولا نطقت بلساني، ولا بطشت بيدي، ولا نهضت علىٰ قدمي حتىٰ أنظر علىٰ طاعة أو علىٰ معصية؟ فإن كانت طاعته تقدمت، وإن كانت معصية تأخرت وقال محمد بن الفضل البلخي: ما خطوت منذ أربعين سنة خطوة لغير الله عَزَّوَجَلَّ. وقيل لداود الطائي: لو تنحيت من الظل إلىٰ الشمس، فقال: هذه خطىٰ لا أدري كيف تكتب. فهؤلاء القوم لما صلحت قلوبهم، فلم يبق فيها إرادة لغير الله عَزَّوَجَلَّ، صلحت جوارحهم، فلم تتحرك إلا لله عَزَّوَجَلَّ، وبما فيه رضاه، والله تعالىٰ أعلم»(٣).

---

(١) صيد الخاطر (٢٥/ ١٠٢/ ١٢٢/ ١٤٩/ ١٩٥/ ٢٦٢/ ٢٦٣/ ٢٧١/ ٢٧٣/ ٢٩٨/ ٤٤١/ ٣٥٤/ ٦٣٠/ ٣٧٨/ ٧١٧/ ٤٦٩/ ٧٩٨/ ١٤٨/ الجزء الأول).

(٢) حفظ العمر (٦٦/ ١).

(٣) جامع العلوم والحكم (٢١٤/ ١).

✍ **قال ابن الجوزي**: «كل من لا يتلمح العواقب، ولا يستعد لما يجوز وقوعه؛ فليس بكامل العقل!

واعتبر هذا في جميع الأحوال! مثل أن يغتر بشبابه، ويدوم علىٰ المعاصي، ويسوف بالتوبة، فربما أخذ بغتة، ولم يبلغ بعض ما أمل. وكذلك إذا سوف بالعمل، أو بحفظ العلم، فإن الزمان ينقضي بالتسويف، ويفوت المقصود. وربما عزم علىٰ فعل خير، أو وقف شيء من ماله، فسوف، فبغت، فالعاقل من أخذ بالحزم في تصوير ما يجوز وقوعه، وعمل بمقتضىٰ ذلك؛ فإن امتد الأجل، لم يضره، وإن وقع المخوف، كان محترزًا.

ومما يتعلق بالدنيا: أن يميل مع السلطان، ويسيء إلىٰ بعض حواشيه، ثقة بقربه منه، فربما تغير ذلك السلطان، فارتفع عدوه، فانتقم منه. وقد يعادي بعض الأصدقاء، ولا يبالي به؛ لأنه دونه في الحالة الحاضرة، فربما صعدت مرتبة ذلك، فاستوفىٰ ما أسلفه إليه من القبيح وزاد.

فالعاقل من نظر فيما يجوز وقوعه، ولم يعاد أحدًا: فإن كان بينهما ما يوجب المعاداة، كتم ذلك، فإن صح له أن يثب علىٰ عدوه، فينتقم منه انتقاما يبيحه الشرع؛ جاز؛ علىٰ أن العفو أصلح في باب العيش.

ولهذا ينبغي أن يخدم البطال، فإنه ربما عمل، فعرف ذلك لمن خدم، وقس علىٰ أنموذج ما ذكرته من جميع الأحوال»(١).

✍ **قال ابن القيم** رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «وإنما خاصة العقل: تلمح العواقب ومطالعة

---

(١) صيد الخاطر (٢٩٨/ ١).

الغايات»(١).

✍ **قال ابن القيم** رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «الحيوان البهيم يتأمل العواقب، وأنت لا ترىٰ إلا الحاضر. ما تكاد تهتم بمؤونة الشتاء حتىٰ يقوىٰ البرد، ولا بمؤونة الصيف حتىٰ يقوىٰ الحر، والذر يدخر الزاد من الصيف لأيام الشتاء. وهذا الطائر إذا علم أن الأنثىٰ قد حملت أخذ ينقل العيدان لبناء العش قبل الوضع، أفتراك ما علمت قرب رحيلك إلىٰ القبر، فلا بعثت فراش: ﴿وَمَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا فَلِأَنفُسِهِمْ يَمْهَدُونَ ﴿٤٤﴾﴾ [الروم:٤٤]. وهذا اليربوع لا يتخذ بيتًا إلا في موضع صلب، ليسلم من الحافر، ويكون مرتفعًا ليسلم من السيل، ويكون: عند أكمة أو صخرة لئلا يضل عنه، ثم يجعل له أبوابا، ويرقق بعضها فلا ينفذه، فإذا أتىٰ من باب مفتوح دفع برأسه ما رق من التراب وخرج منه، وأنت قد ضيقت علىٰ نفسك الخناق، فما أبقيت للنجاة موضعًا»(٢).

✍ **وقال ابن القيم** رَحِمَهُ ٱللَّهُ «الغاية أول في التقدير، آخر في الوجود، مبدأ في نظر العقل، منتهىٰ في منازل الوصول»(٣).

✍ **وقال ابن القيم** رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «والعقل آلة للتفكر والتدبر لعواقب الأمور الدينية والدنيوية وايثار ما ينبغي ايثاره واهمال ما ينبغي اهماله»(٤).

---

(١) مدارج السالكين (١٦٦/ ٢).
(٢) بدائع الفوائد (١٢٠٢/ ٣).
(٣) الفوائد (٤٧/ ١).
(٤) الفوائد (٥٧/ ١).

✍ **وقال ابن مفلح** رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «فلا ينبغي للعاقل أن يعمل بمقتضىٰ الحال الحاضرة، بل يصور كل ما يجوز وقوعه وأكثر الناس لا ينظرون في العواقب، فكم من مخاصم سب وشتم وطلق، فلما أفاق ندم»(١).

✍ **وقال ابن مفلح** «واعلم أن مرارة الدنيا حلاوة الآخرة والعكس بالعكس، ولهذا قال عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ : «**الدنيا سجن المؤمن وجنة الكافر**» وقال: «**حفت الجنة بالمكاره وحفت النار بالشهوات**» ومعلوم أن العاقل من احتمل مرارة ساعة لحلاوة الأبد.

وذل ساعة لعز الأبد، هذا من لطف الله به حتىٰ نظر في العواقب والغايات، والناس إلا من عصم الله آثروا العاجل لمشاهدته وضعف الإيمان»(٢).

✍ **قال ابن الجوزي** رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «وكذا ينبغي أن تكتم بعض حبك للولد؛ لأنه يتسلط عليك، ويضيع مالك، ويبالغ في الإدلال، ويمتنع عن التعلم والتأدب.

١١٧٦- وكذلك إذا اصطفيت صديقًا وخبرته، فلا تخبره بكل ما عندك، بل تعاهده بالإحسان، كما تتعاهد الشجرة، فإنها إذا كانت جيدة الأصل، حسنت ثمرتها بالتعاهد، ثم كن منه علىٰ حذر، فقد تتغير الأحوال، وقد قيل:

احـــــذر عـــــدوك مـــــرة ∴ واحـــذر صـــديقك ألـــف مـــره

---

(١) الآداب الشرعية (٢١٩/ ١).

(٢) الآداب الشرعية (١٩٢/ ٢).

فلربمـــــا انقلـــــب الصديـــــق فكـــان أدرىٰ بالمضـــره»[١]

✍ **قال ابن مفلح** رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «[فصل في البصيرة والنظر في العواقب]

«إنما فضل العقل علىٰ الحس بالنظر في العواقب، فإن الحس لا يرىٰ الحاضر، والعقل يلاحظ الآخرة ويعمل علىٰ ما يتصور أن يقع، فلا ينبغي للعاقل أن يغفل عن تلمح العواقب فمن ذلك أن التكاسل في طلب العلم وإيثار عاجل الراحة يوجب حسرات دائمة لا تفي لذة البطالة بمعشار تلك الحسرة، ولقد كان يجلس إلي أخي وهو عامي فقير، فأقول في نفسي قد تساوينا في هذه اللحظة فأين تعبي في طلب العلم؟ وأين لذة بطالته؟

ومن ذلك أن الإنسان قد يجهل بعض العلم فيستحي من السؤال والطلب لكبر سنه ولئلا يرىٰ بعين الجهل فيلقىٰ من الفضيحة إن سئل عن ذلك أضعاف ما آثر من الحياء.

ومن ذلك الطبع يطالب بالعمل بمقتضىٰ الحالة الحاضرة مثل جواب جاهل وقت الغضب، ثم يقع الندم في ثاني الحال علىٰ أن لذة الحلم أوفىٰ من الانتقام، وربما أثر ذلك الحقد من الجاهل فتمكن فبالغ في الأذىٰ له.

ومن ذلك أن يعادي الناس وما يأمن أن يرتفع المعادىٰ فيؤذيه. وإنما ينبغي أن يضمر عداوة العدو.

ومن ذلك أن يحب شخصًا فيفشي إليه أسراره ثم تقع بينهما عداوة فيظهر ذلك عليه.

---

(١) صيد الخاطر (٣٥٧/ ١).

ومن ذلك أن يرىٰ المال الكثير فينفق ناسيًا أن ذلك يفنىٰ فيقع له في ثاني الحال حوائج فيلقىٰ من الندم أضعاف ما التذ به في النفقة، فينبغي لمن رزق مالًا أن يصور السن والعجز عن الكسب، ويمثل ذهاب الجاه في الطلب من الناس، ليحفظ ما معه. ومن ذلك أن ينبسط ذو دولة في دولته فإذا عزل ندم علىٰ ما فعل وإنما ينبغي أن يصور العزل ويعمل بمقتضاه.

ومن ذلك أن يؤثر لذة مطعم فيشبع فيفوته قيام الليل، أو يؤثر لذة النوم فيفوته التهجد، أو يأكل أو يجامع بشره فيمرض، أو يشتهي جماع سوداء وينسىٰ أنها ربما حملت فجاءت ببنت سوداء، فكم من حسرة تقع له علىٰ مدىٰ الزمان كلما رأىٰ تلك البنت، وقد كان في زماننا من جامع سوداء فجاءت له بولد فافتضح به منهم صاحب المخزن، وقاضي القضاة الدامغاني وكان تاجرا قد ولد له ابن أسود فلما رآه قال لعن الله شهوتي. ومن ذلك اقتناع العالم بطرف من العلم، فأين مزاحمة الكاملين والنظر في عواقب أحوالهم؟ وقد يؤثر الأسهل كإيثار علم الحديث علىٰ الفقه ومعاناة الدرج تسهل عند العلو.

ومن ذلك الإكثار من الجماع ناسيا مغبته وأنه يضعف البدن ويؤذي فالطبع يرىٰ اللذة الحاضرة والعقل يتأمل، وشرح هذا يطول لكن قد نبهت علىٰ أصوله، لقد جئت يومًا من حر شديد فتعجلت راحة البرودة فنزعت ثوبي فأصابني زكام أشرفت منه علىٰ الموت، ولو صبرت ساعة ربحت ما لقيت، فقس كل لذة عاجلة ودع العقل يتلمح عواقبها والله أعلم.

✍ **وقال أيضًا**: تأملت اللذات فرأيتها بين حسي ومعنوي فأما الحسيات

فليست بشيء عند النفوس الشريفة، إنما تراد لغيرها كالنكاح للولد ولزوال الفضول المؤذية، والطعام للتغذي والتداوي، والمال للإعداد وللحوائج والاستغناء عن الخلق، وإنما جعلت اللذات في تحصيل هذه الأشياء كالبرطيل حتىٰ يحصلها وإن طلب منها شيء لنفس الالتذاذ فإن للطبع حظا، إلا أن كل لذة حسية تلازمها آفات لا تكاد تفي باللذة فإن النكاح لذة ساعة فيلازمه عاجلا ذهاب القوة وتكلف الغسل ومداراة المرأة والنفقة عليها وعلىٰ الأولاد.

فاللذة خطفت خطف برق وما لازمها صواعق وما يلازم المطعم معلوم من الطهارة وغير ذلك.

ومعلوم ما يلازم حب المال من معاناة الكسب والخوض في الشبهات وصرف القلب عن الفكر في الآخرة شغلًا بالاكتساب وعلىٰ هذا جميع اللذات الحسية فينبغي أن يتناول منها الضروري فتقع معاناة ضرورية فتحصل قناعة بمقدار الكفاية والعفة عن فضول الشهوات.

وإنما اللذة الكاملة الأمور المعنوية وهي العلم والإدراك لحقائق الأمور والارتفاع بالكمال علىٰ الناقصين، والانتقال من الأعداء، إلا أنه قد تكون لذة العفو أطيب؛ لأنها لا تقع إلا في حق ذليل قد قهر، والصبر علىٰ نيل كل فضيلة وعن كل رذيلة، والملاحظة لعواقب الأمور، وعلو الهمة فلا تقصر عن بلوغ غاية تراد به فضيلة، ومن علم أن الدنيا تزول، وأن مراتب الناس في الجنة علىٰ قدر أعمالهم في الدنيا، نافس أولئك قبل أن يصل إلىٰ هناك ليقدم

علىٰ مفضولين له»(١).

✍ **وقال ابن الجوزي** رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «فالعاقل من تأمل العواقب ورعاها، وصور كل ما يجوز أن يقع، فعمل بمقتضىٰ الحزم»(٢).

❁ **وقال ابن القيم**: «الحازم من جمع عليه همه وإرادته وعقله ووزنه الأمور بعضها ببعض وأعد لكل منها عدة ولفظ الحزم يدل علىٰ القوة والاجتماع ومنه حزمة الحطب فالحازم الذي اجتمعت له شئون رأيه وعرف منها خير الخيرين وشر الشرين فأحجم في موضع الإحجام وأقدم في موضع الإقدام وعقلا لا جبنًا ولا ضعفًا:

العاجز الرأي مضياع لفرصته ∴ حتىٰ إذا فات أمر عاتب القدر»(٣)

✍ **وقال ابن القيم** رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «ولما كانت الشجاعة خلقًا كريمًا من أخلاق النفس ترتب عليها أربعة أمور وهي مظهرها وثمرتها الإقدام في موضع الإقدام والإحجام في موضع الإحجام والثبات في موضع الثبات والزوال في موضع الزوال وضد ذلك مخل بالشجاعة وهو إما جبن وإما تهور وإما خفة وطيش وإذا اجتمع في الرجل الرأي والشجاعة فهو الذي يصلح لتدبير الجيوش وسياسة أمر الحرب.

والناس ثلاثة رجل ونصف رجل ولا شيء فالرجل من اجتمع له إصالة

---

(١) الآداب الشرعية (٢/ ٢٣٠).

(٢) صيد الخاطر (١/ ٤٦٧).

(٣) الروح (١/ ٣٢٦).

الرأي والشجاعة فهذا الرجل الكامل كما قال أحمد بن الحسين [المتنبي]:

فإذا هما اجتمعا لنفس مرة ∴ بلغت من العلياء كل مكان

ونصف الرجل وهو من انفرد بأحد الوصفين دون الآخر والذي هو لا شيء من عري من الوصفين جميعًا»(١).

✍ **وقال محمد بن الحسين النيسابوري** رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «قلت لإبراهيم بن ثابت وقت مفارقته أوصني قال: «دع ما تندم عليه»(٢).

✍ **وقال ابن جرير الطبري** رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «علىٰ المرء توقي المكاره قبل وقوعها، وتجنب الأشياء المخوفة قبل هجومها. وأن عليه الصبر بعد نزولها، وترك الجزع بعد وقوعها»(٣).

✍ **وقال ابن الجوزي** رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «تأملوا عواقب الذنوب تفنىٰ اللذة وتبقىٰ العيوب»(٤).

✍ **قال القائل:**

وانظر لعاقبة الذنوب فإنها ∴ شؤم لها ريح قبيح منتن

كن للعواقب ناظرا متأنيا ∴ واختر مآلات الأمور الأحسن

وانظر بعين بصيرة مستبصرا ∴ واذكر مغبة فعل ما لا يحسن

---

(١) الفروسية (١/ ٥٠٤).

(٢) تاريخ بغداد (٦/ ٤٩).

(٣) تهذيب الآثار (١/ ٨٤).

(٤) التبصرة (١/ ٢٣٣).

✍ **قال الحسن**: «ما نظرت ببصري، ولا نطقت بلساني، ولا بطشت بيدي، ولا نهضت علىٰ قدمي حتىٰ أنظر علىٰ طاعة أو علىٰ معصية، فإن كانت طاعة تقدمت، وإن كانت معصية تأخرت»(١).

✍ **قال ابن القيم** رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «وهذا كالدواء المتناهي في الكراهة إذا علم متناوله أن فيه شفاءه وكقطع العضو المتآكل إذا علم أن في قطعه بقاء جسده وكقطع المسافة الشاقة جدا إذا علم أنها توصله إلىٰ مراده ومحبوبه بل العاقل يكتفي في إيثار هذا المكروه وإرادته بالظن الغالب وإن خفيت عنه عاقبته وطويت عنه مغبته فكيف بمن لا تخفىٰ عليه العواقب فهو سبحانه وتعالىٰ يكره الشيء ويبغضه في ذاته ولا ينافي ذلك إرادته لغيره وكونه سببا إلىٰ ما هو أحب إليه من فوته»(٢).

✍ **قال أبو إسحاق القيرواني** رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «قال بعض الحكماء: إياك والعجلة فإن العرب كانت تكنيها ام الندامة؛ لأن صاحبها يقول قبل أن يعلم، ويجيب قبل أن يفهم، ويعزم قبل أن يفكر، ويقطع قبل أن يقدر، ويحمد قبل أن يجرب، ويذم قبل أن يخبر، ولن يصحب هذه الصفة أحد إلا صحب الندامة، واعتزل السلامة»(٣).

✍ **وقال ابن مفلح** رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «إنما فضل العقل علىٰ الحس بالنظر في العواقب، فإن الحس لا يرىٰ الحاضر، والعقل يلاحظ الآخرة ويعمل علىٰ ما

---

(١) جامع العلوم والحكم (٢٢٣/ ١).
(٢) مدارج السالكين (١٩٤/ ٢).
(٣) زهر الآداب وثمر الالباب (٩٤٢/ ٤).

يتصور أن يقع، فلا ينبغي للعاقل أن يغفل عن تلمح العواقب»[(١)].

✍ **وقال** رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «فتلمح يا أخي عواقب الأحوال، واقمع الكسل المثبط عن الفضائل»[(٢)].

---

(١) الآداب الشرعية (٢/ ٢٣٠).

(٢) الآداب الشرعية (١/ ٢١٨).

فهرس الموضوعات

المُقَدِّمَةُ ٧

الجزء الأول: أسباب التوفيق ٩

تمهيد ١٣

فصل: التوفيق والخذلان عند أهل اللغة ١٦

فصل: معاني التوفيق وأدلته من القرآن والسنة ٢٠

[١] من معاني التوفيق الهداية ٢١

[٢] ومن معاني التوفيق السداد ٢٩

[٣] من معاني التوفيق الرحمة وهذا قليل جدًّا في الأدلة وهو يدخل تحت المعنىٰ العام ٣٣

[٤] من معاني التوفيق الخير ٣٥

[٥] من معاني التوفيق الاصطفاء والاختيار ٣٦

[٦] من معاني التوفيق التيسير ٣٧

[٧] ومن مما يأتي من معاني التوفيق معنىٰ النور: ٤٢

فصل في: هدي العلماء في بدء مؤلفاتهم بسؤال التوفيق والاستعاذة من الخذلان ٤٧

فصل في: التوفيق نعمة من الله وهبة من مواهبه وأهميته للعبد المؤمن ٥٢

فصل في: مراتب الهداية ٦٦

فصل في: أضرب الهداية وأنواعها ٦٨

فصل في: أنواع الهداية ٧٣
فصل في: كيف يسأل العبد الهداية وهو متصف بها؟ ٧٨
فصل في: مشهد التوفيق والخذلان ٨٩
فصل في: مشهد المنة والاعتراف بالعجز والضعف والحاجة إلىٰ توفيق الله ٩٢
فصل في: التوفيق والخذلان عند أهل السنة وأهل البدعة ٩٦
فصل في ١٠٤
لا حول للعبد علىٰ طاعة الله ولا تحول عن معصية الله إلا بقوة الله ١٠٤
أولًا: فضلها: ١٠٤
ثانيًا: المواضع التي يستحب قول «لا حول ولا قوة إلا بالله» فيها: ١١١
[١] عند الشدة والقتال ١١١
[٢] عند حصول الهم والشدة والفقر ١١٢
[٣] عند الخروج من المنزل: ١١٣
[٤] من أدعية الاستغفار ١١٣
[٥] عند المرض المخوف ١١٤
فصل: من أسباب التوفيق ترك العوائق وقطع العلائق والخلاص من القواطع وهي سبب للخذلان ١١٥
[١] من أسباب التوفيق صلاحية المحل وأهلية العبد وقبول المحل للتوفيق ١٢٧
[٢] من أسباب التوفيق الإيمان والتوحيد لله تعالىٰ ١٣٣
[٣] من أسباب التوفيق الإخلاص لله في فعل الطاعة واجتناب المعصية ١٣٨

[٤] من أسباب التوفيق إتباع السنة والعمل بالدليل لا بالهوىٰ والرأي ..١٤٢
[٥] من أسباب التوفيق النية الصالحة الباعثة علىٰ الطاعة ومن أجلها يترك المعصية ١٤٧
[٦] طلب العلم سبب لتوفيق العبد للطاعة وإبعاده عن المعصية ١٥٢
[٧] من أسباب التوفيق الاستعانة بالله علىٰ فعل الطاعة وترك المعصية .١٦٠
[٨] من أسباب التوفيق الدعاء لتيسر الطاعة وتكريه المعصية.....١٧٢
[٩] من أسباب التوفيق مجاهدة النفس علىٰ الطاعة وترك المعصية.....١٧٨
من نماذج السلف الموفقين في مجاهدة النفس وحث الشرع علىٰ مجاهدة النفس: ١٨٤
[١٠] من أسباب التوفيق عناية الله ومعيته الخاصة بهم وتربيته الخاصة بهم ١٨٦
من أنواع المعية والرعاية والعناية الربانية للعبد المؤمن.....١٩٤
(١) حفظ الله لعبده المؤمن من الدنيا ١٩٤
(٢) تسخير الملائكة للعبد المؤمن تحثه علىٰ الطاعة وتصرفه عن المعصية: ١٩٦
[١١] الصدق مع الله في حصول الطاعة ورجاء الله والدار الآخرة من أسباب التوفيق ٢٠٣
وقد خص الله بوصف بعض الأنبياء في القرآن بالصديقية: ٢٠٧
(١) إبراهيم عليه الصلاة والسلام: ٢٠٧
(٢) إدريس عليه الصلاة والسلام ٢٠٧
(٣) عيسىٰ ابن مريم وأمه عليهما الصلاة والسلام ٢٠٨

[١٢] ترك الذنوب من أسباب التوفيق ٢١٨
[١٣] شرح الصدر للطاعة وضيقه من المعصية من أسباب التوفيق ٢٢٤
ومن أدلة السنة الواردة في شرح الصدر: ٢٢٧
[١٤] الجليس الصالح يعينك علىٰ الطاعة ويصرفك عن المعصية من أسباب التوفيق: ٢٣١
[١٥] الحذر من خطوات ومكائد الشيطان من أسباب التوفيق..... ٢٣٩
مداخل الشيطان ووسائله في إغواء بني آدم: ٢٤٥
(١) العين والفم: ٢٤٥
(٢) حالة العبد وغرائزه ٢٤٦
(٣) خطوات الشيطان ليدخل علىٰ العبد منها ٢٤٦
أنواع التخذيل عن الطاعات وحرمان المؤمن الحسنات ٢٥١
[١٦] تزكية الله لنفس عبده المؤمن وتسهيل التزكية عليه من أسباب التوفيق ٢٥٣
[١٧] الانتفاع بالمواعظ والاتعاظ بالقرآن والسنة من أسباب التوفيق... ٢٦٠
وصف الله الموفقين المنتفعين بالمواعظ والذكرىٰ بأوصاف منها: ٢٦٥
(١) وصفهم بالإيمان ٢٦٥
(٢) وصفهم الله بالخشية ٢٦٧
(٣) وصفهم الله بحياة القلوب ٢٦٧
(٤) وصفهم الله بالإيمان بالغيب وإقام الصلاة ٢٦٨
(٥) وصفهم بالإيمان بالآخرة ٢٦٩
(٦) وصفهم الله برقة القلوب ٢٦٩

[١٨] من أسباب التوفيق الصلاة ٢٧٢
(١٦) من أسباب التوفيق أن يحبب الله الطاعة إلىٰ العبد المؤمن ويبغض إليه المعصية ٢٧٧

الجزء الثاني: الموفقون هم السعداء في الدنيا والآخرة ٢٨٣

فصل في: السعادة نعمة علىٰ الموفق محروم منها المخذول..... ٢٨٥
فصل: حقيقة السعادة ٢٨٨
فصل في: أنواع السعادات ٢٩٥
فصل في: أصول السعادة ٢٩٨
فصل في: أركان السعادة ٣٠٥
مدار السعادات: ٣٠٥
فصل في: مراتب السعادة ٣٠٨
فصل في: عناوين السعادة ٣١٠
فصل في: علامات السعادة ٣١٩
فصل في: أسباب السعادة ٣٢٤
فصل في: موانع السعادة ٣٢٨
فصل في: انقسام الناس إلىٰ شقي وسعيد ٣٣١
يوم صوره في رحم أمه: ٣٣٢
فصل في: أسباب سعادة الدنيا جزء من سعادة الآخرة ومعينة للظفر بها.. ٣٣٧
أولاً: السعادة بالزوجة الصالحة ٣٣٩
صفات الزوجة السعيدة للعبد السعيد الموفق: ٣٤١
ثانيًا: السعادة بالبيت الواسع ٣٤٣

ثالثًا: الجار الصالح المعين علىٰ الطاعة ونوائب الدهر ٣٤٥
-الجار الصالح يشترىٰ بأغلىٰ الأثمان ٣٤٦
-الجار السُّوء يُباع بأبخس الأثمان. ٣٤٧
من السعادة أن يرزق مقومات الحياة السعيدة في الدنيا ٣٤٧
فصل: السعيد الموفق جنته في صدره ٣٥٠
فصل في: صفات السعداء والموفقين ٣٥٨
(١) السعيد الموفق صاحب تقوىٰ ومتصف بصفات المتقين ٣٥٨
فصل في: معاني التقوىٰ وتعريفه عند السلف ٣٦٤
فصل في: أنواع التقوىٰ وأعمال المتقين ٣٧٣
أولاً: الإقبال علىٰ الله تعالىٰ بطاعته.....٣٧٤
ثانيًا: ترك الذنوب.....٣٨٠
ثالثًا: المراقبة لله تعالىٰ في فعل طاعته واجتناب معصيته.....٣٨٢
رابعًا: محاسبة النفس ٣٨٦
خامسًا: من ترك الحرام أو ما فيه شبهة لأجل فالله يعوضه الله خيرًا منه ..٣٩٧
سادسًا: من معاني التقوىٰ ترك المألوف لأجل الله حتىٰ يعوضه الله خيرًا منه ٤٠٤
بعض الذنوب التي أمر الله بتركها وجعل لتاركها لله عوضًا:.....٤١١
أولًا: غض البصر عما حرم الله ٤١٣
ثانيًا: سماع الغناء وسماع ما فيه لغو أو لهو ٤١٥
ثالثًا: ترك شرب الخمر والمسكرات وتحريم لباس الحرير والشرب والأكل في آنية الذهب والفضة ٤١٧

رابعًا: ترك لباس الفخر والمخيلة تواضعا ٤١٩
خامسًا: كتم الغيظ والعفو مع القدرة ٤١٩
سادسًا: من ترك المراء والجدل والمزاح بالكذب ٤٢٠
سابعًا: الزهد في الدنيا والتفرغ للآخرة ٤٢٠
ثامنًا: قيام الليل وترك النوم ٤٢١
تاسعا: ترك الذنوب ٤٢٢
عاشرًا: الصبر علىٰ العمىٰ وفقد البصر ٤٢٤
(٢) السعيد الموفق لا تعيقه الشدائد عن الثبات وفعل الطاعة وترك المعصية ٤٢٦
من أهم الشدائد التي تستغل ونماذج من أحوال الموفقين لاستغلالها: .٤٢٩
(١) السفر أو التهجير من الوطن والغربة ٤٢٩
(٢) السجن: ٤٣٠
(٤) العاهات ٤٣٦
(٣) السعيد الموفق من رزق معرفة الله والأنس به لأن معرفة الله أجل المقاصد وأعظم أسباب السعادة في الدنيا والآخرة ٤٣٨
فائدة: ٤٤٤
[ثمرة المعرفة بالله] ٤٤٥
علامة العارف بالله: ٤٤٧
أنواع المعرفة بالله وكيف يتعرف العبد علىٰ الله: ٤٥١
(٤) السعيد الموفق من جعل الله له واعظا في قلبه ٤٥٢
(٥) السعيد الموفق ينظر للعواقب ومآلات الأمور ٤٦١

ميز الله بني آدم بالعقل ونفع الموفقين منهم بهذه النعمة: ٤٦٤
فهرس الموضوعات ٤٨٢